سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٥٣)

شرح

رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح

رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين

٢٨ ـ باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها لغير ضرورة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها.

العورة هنا هي العورة المعنوية؛ لأن العورة نوعان: عورة حسية، وعورة معنوية.

فالعورة الحسية هي ما يحرم النظر إليه؛ كالقبل والدبر وما أشبه ذلك مما هو معروف في الفقه.

والعورة المعنوية وهي العيب والسوء الخلقي أو العملي.

ولا شك أن الإنسان كما وصفه الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فالإنسان موصوف بهذين الوصفين: الظلم، والجهل؛ فإما أن يرتكب الخطأ عن عمدٍ؛ فيكون ظالمًا، وإما أن يرتكب الخطأ عن جهل؛ فيكون جهولاً، هذه حال الإنسان إلا من عصم الله عزَّ وجلَّ ووفقه للعلم والعدل، فإنه يمشي بالحق ويهدي إلى الحق.

وإذا كان الإنسان من طبيعته التقصير والنقص والعيب؛ فإن الواجب على المسلم نحو أخيه أن يستر عورته ولا يُشيعها إلا من ضرورة. فإذا دعت الضرورة إلى ذلك فلابد منه، لكن بدون ضرورة فالأولى والأفضل أن يستر عورة أخيه؛ لأن الإنسان بشر ربما يخطىء عن شهوة - يعني عن إرادة سيئة - أو عن شبهة، حيث يشتبه عليه الحق فيقول بالباطل أو يعمل به، والمؤمن مأمور بأن يستر عورة أخيه.

هب أنك رأيت رجلاً على كذب وغش في البيع والشراء؛ فلا تفشِ ذلك بين الناس؛ بل انصحه واستر عليه، فإن توفّق واهتدى وترك ما هو عليه؛ كان ذلك هو المراد، وإلا وجب عليك أن تبين أمره للناس؛ لئلا يغتروا به.

وهب أنك وجدت إنسانًا مُبتلًى بالنظر إلى النساء، ولا يغض بصره، فاستر عليه، وانصحه وبين له أن هذا سهم من سهام إبليس؛ لأن النظر - والعياذ بالله - سهم من سهام إبليس يصيب به قلب العبد، فإن كان عنده مناعة؛ اعتصم بالله من هذا السهم الذي ألقاه الشيطان في قلبه، وإن لم يكن عنده مناعة؛ أصابه السهم، وتدرّج به إلى أن يصل إلى الفحشاء والمنكر والعياذ بالله يكون أشد عذابًا.

فما دام الستر ممكنًا، ولم يكن في الكشف عن عورة أخيك مصلحة راجحة أو ضرورة ملحة، فاستر عليه ولا تفضحه.

ثم استدل المؤلف - رحمه الله - بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾

ولمحبة شيوع الفاحشة في الذين آمنوا معنيان:

المعنى الأول: أن يحب شيوع الفاحشة في المجتمع المسلم، ومن ذلك من يبثون الأفلام الخليعة، والصحف الخبيثة الداعرة، فإن هؤلاء ـ لا شك ـ يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، ويريدون أن يفتتن المسلم في دينه بسبب ما يشاع من هذه المجلات، والأفلام الخليعة الفاسدة، أو ما أشبه ذلك.

وكذلك تمكين هؤلاء مع القدرة على منعهم، داخل في محبة ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النور: ١٩]، فالذي يقدر على منع هذه المجلات وهذه الأفلام الخليعة، ويمكِّن من شيوعها في المجتمع المسلم، فهو ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي عذاب مؤلم في الدنيا والآخرة.

ونقول: إنه يجب على كل إنسان مسلم أن يحذر من هذه الصحف وأن يتجنبها، وألا يدخلها في البيت، لما فيها من الفساد: فساد الخلق ويتبعه فساد الدين؛ لأن الأخلاق إذا فسدت؛ فسدت الأديان، نسأل الله العافية.

المعنى الثاني: أن يحب أن تشيع الفاحشة في شخص معين، وليس في المجتمع الإسلامي كله، فهذا أيضًا له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، مثل أن يحب أن تشيع الفاحشة في زيدٍ من الناس لسبب ما، فهذا أيضًا له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، لا سيما فيمن نزلت الآية في سياق الدفع عنه، وهي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ لأن هذه الآية في سياق آيات

الإفك، والإفك هو الكذب الذي افتراه من يكرهون النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ومن يحبون أن يتدنّس فراشه، ومن يحبون أن يُعيَّر بأهله من المنافقين وأمثالهم.

وقصية الإفك مشهورة[1]، وهي أن النبي ﷺ كان إذا أراد سفرًا؛ أقرع بين نسائه، وذلك من عدله عليه الصلاة والسلام، فأيتهن خرج سهمها خرج بها. فأقرع بين نسائه ذات سفرة؛ فخرج السهم لعائشة فخرج بها.

وفي أثناء رجوعهم عرَّسوا في أرضٍ، يعني ناموا في آخر الليل، فلما ناموا احتاجت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن تبرز لتقضي حاجتها، فأمر النبي ﷺ بالرحيل في آخر الليل، فجاء القوم فحملوا هودجها ولم يشعروا أنها ليست فيه؛ لأنها كانت صغيرة لم يأخذها اللحم، فقد تزوجها النبي ﷺ ولها ست سنين، ودخل عليها ولها تسع سنين، ومات عنها ولها ثماني عشرة سنة، فحملوا الهودج وظنوا أنها فيه ثم ساروا.

ولما رجعت؛ لم تجد القوم في مكانهم، ولكن من عقلها وذكائها لم تذهب يمينًا وشمالاً تطلبهم؛ بل بقيت في مكانها وقالت: سيفقدونني ويرجعون إلى مكاني.

ولما طلعت الشمس إذا برجل يُقال له صفوان بن المعطّل، وكان من قوم إذا ناموا لم يستيقظوا، كما هو حال بعض الناس الذين إذا ناموا لا

---

(١) حادثة الإفك أخرجها البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم(٤١٤١)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة التائب، رقم(٢٧٧٠).

يستيقظون، حتى ولو علت الأصوات من حوله. فكان صفوان من جملة هؤلاء القوم، فكان إذا نام؛ تعمق في النوم فلا يمكن أن يستيقظ إلا إذا أيقظه الله عزَّ وجلَّ كأنه ميت.

فلما استيقظ وجاء وإذا أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وحدها في مكان في البر ـ وكان يعرفها قبل أن ينزلِ الحجاب ـ فما كان منه إلا أن أناخ بعيره ولم يكلمها بكلمة، لم يقل لها: ما الذي أقعدك؟ أو لماذا؟

والسبب في أنه لم يتكلم هو احترامه لفراش رسول الله ﷺ، لا يريد أن يتكلم مع أهله بغيبته رضي الله عنه، فأناخ البعير ووضع يده على ركبة البعير ولم يقل اركبي ولا تكلم بشيء، فركبت ثم ذهب بالبعير يقودها، ولم يكن يسوقها حتى لا ينظر إليها ـ رضي الله عنه ـ.

ولما أقبل على القوم ضحًى وقد ارتفع النهار؛ فرح المنافقون أعظم فرح أن يجدوا مدخلاً للطعن في رسول الله ﷺ، فاتهموا الرجل بالعفاف الرزان الطاهرة النقية فراش رسول الله ﷺ، اتهموه بها وصاروا يشيعون الفاحشة بأن هذا الرجل فعل ما فعل، وسقط في ذلك أيضًا ثلاثة من الصحابة الخُلَّص وقعوا فيما وقع فيه المنافقون، وهم: مسطح بن أثاثة بن خالة أبي بكر، وحسان بن ثابت رضي الله عنهما، وحمنة بنت جحش.

فصارت ضجة، وصار الناس يتكلمون: ما هذا؟ وكيف يكون؟ من مشتبهٍ عليه الأمر، ومن منكرٍ غاية الإنكار. وقالوا: لا يمكن أن يتدنّس فراش رسول الله ﷺ؛ لأنه أطهر الفراش على وجه الأرض.

وأراد الله بعزته وقدرته وحكمته لما وصل النبي ﷺ المدينة أن تمرض

عائشة ـ رضي الله عنها ـ وبقيت حبيسة البيت لا تخرج، وكان النبي ﷺ من عادته إذا عادها في مرضها سأل وتكلّم وتحفّى. أما في ذلك الوقت فكان عليه الصلاة والسلام لا يتكلم، يأتي ويدخل ويقول: «كيف تيكم؟» أي كيف هذه، ثم ينصرف، وقد استنكرت ذلك منه رضي الله عنها، ولكنها ما كان يخطر ببالها أن أحدًا يتكلم في عرضها بما فيه دنس فراش رسول الله ﷺ.

فقد أشاع المنافقون هذه الفرية على الصدّيقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها فراش رسول الله ﷺ لا كراهة لذاتها؛ ولكن كراهة لرسول الله ﷺ، وبغضًا له، ومحبة في إيذائه وأن يدنس فراشه قاتلهم الله أنى يؤفكون.

ولكن الله تعالى أنزل في هذه القصة عشر آياتٍ من القرآن ابتدأها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]، والذي تولّى كبره هو رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ المنافق، فإنه هو الذي كان يشيع الخبر.

لكنه خبيث لا يشيعه بلفظ صريح فيقول مثلاً إن فلانًا زنىٰ بفلانة، لكنه يشيع ذلك بالتعريض والتلميح؛ كأن يقول: يذكر، يقال، يقولون: وماأشبه ذلك لأن المنافقين جبناء يتسترون ولا يصرحون بما في نفوسهم، فيقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١١ـ١٢].

وفي هذا توبيخ من الله عزَّ وجلَّ للذين تكلموا في هذا الأمر، يقول: هلاَّ إذا سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، وذلك أن أم

المؤمنين أمهم فكيف يظنون ما لا يليق بها رضي الله عنها، وكان الواجب عليهم لما سمعوا هذا الخبر؛ أن ظنوا بأنفسهم خيرًا وتبرؤوا منه وممن قاله.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، يعني هلا جاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون على هذا الأمر.

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ ولو صدقوا، ولهذا لو أن شخصًا شاهد إنسانًا يزني، وجاء إلى القاضي وقال أنا أشهد أن فلانًا يزني، قلنا: هات أربعة شهداء، فإذا لم يأت بأربعة شهداء؛ جلدناه ثمانين جلدة، فإن جاء برجل ثانٍ معه؛ جلدناهم كل واحد ثمانين جلدة، وثالثٍ أيضًا نجلد كل واحد ثمانين جلدة.

فمثلاً لو جاءنا ثلاثة يشهدون بأنهم رأوا فلانًا يزني بفلانة، ولم يثبت ذلك، فإننا نجلد كل واحد ثمانين جلدة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٣-١٤].

لولا الفضل والرحمة من الله؛ لأصابكم فيما أفضتم فيه العقاب المذكور، وفي قوله: ﴿أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ دليلٌ على أن الحديث انتشر وفاض واستفاض واشتهر؛ لأنه أمر جلل عظيم خطير، وقد جرت العادة بأن الأمور الكبيرة تنتشر بسرعة وتملأ البيوت، وتملأ الأفواه والآذان ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ

تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤، ١٥].

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ من غير رويّة، ومن غير بينة، ومن غير يقين، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ؛ لأنه قذف لأطهر امرأة على وجه الأرض، هي وصاحباتها زوجات رسول الله ﷺ، فالأمر صعب وعظيم.

وفي ذلك أيضًا تدنيس لرسول الله ﷺ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ [النور: ٢٦].

فإذا كانت عائشة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ يحصل منها هذا الأمر ـ وحاشاها منه ـ فإن ذلك يدل على خبث زوجها والعياذ بالله؛ لأن الخبيثات للخبيثين، ولكنها رضي الله عنها طيبة وزوجها طيب، فزوجها محمد رسول الله ﷺ، وهي الصدّيقة بنت الصدّيق رضي الله عنها وعن أبيها.

ولهذا يقول تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ يعني: هلا إذ سمعتموه ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، وهذا هو الواجب عليك؛ أن تنزه الله أن يقع مثل هذا من زوج النبي ﷺ، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

وتأمل كيف جاءت هذه الكلمة التي تتضمن تنزيه الله عزَّ وجلَّ، إذ أنه لا يليق بحكمة الله ورحمته وفضله وإحسانه أن يقع مثل هذا من زوج رسول

الله ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ١٧]، يعني لا تعودوا لمثل هذا أبدًا إن كنتم مؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ١٨].

والحمد لله على بيانه، ولهذا أجمع العلماء على أن من رمى أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ بما جاء في حديث الإفك؛ فإنه كافر مرتد، كافر كالذي يسجد للصنم، فإن تاب وأكذب نفسه؛ وإلا قتل كافرًا؛ لأنه كذب القرآن مع أن الصحيح أن من رمى زوجة من زوجات الرسول ﷺ بمثل هذا فإنه كافر؛ لأنه منتقص لرسول الله ﷺ، كل من رمى زوجة من زوجات الرسول بما برّأ الله منه عائشة؛ فإنه يكون كافرًا مرتدًا، يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل بالسيف، وألقيت جيفته في حفرة من الأرض، بدون تغسيل، ولا تكفين، ولا صلاة؛ لأن الأمر خطير.

ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ١٩، ٢٠].

وسبق أن أشرنا إلى أن ثلاثة من الصحابة الخلّص تورطوا في هذه القضية، وهم: حسان بن ثابت رضي الله عنه، ومسطح بن أثاثة، وهو ابن خالة أبي بكر، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، وزينب بنت جحش زوج الرسول ﷺ وضرة عائشة، ومع ذلك حماها الله، لكن أختها تورطت، ولما أنزل الله براءتها؛ أمر النبي ﷺ أن يحدّ هؤلاء الثلاثة حدّ القذف، فجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة.

أما المنافقون فلم يقم النبي ﷺ عليهم الحد، واختلف العلماء في ذلك:

فقيل: لأن المنافقين لا يصرحون وإنما يقولون: يُقال، أو يذكر، أو سمعنا، أو ما أشبه ذلك.

وقيل: لأن المنافق ليس أهلاً للتطهير، فالحدّ طهرة للمحدود، وهؤلاء المنافقون ليسوا بأهل للتطهير، ولهذا لم يجلدهم الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه لو جلدهم؛ لطهرهم من موبق هذا الشي، لكنهم ليسوا أهلاً للتطهير، فهم في الدرك الأسفل من النار، فتركهم وذنوبهم، فليس فيهم خير، وقيل غير ذلك.

وعلى كل حال فإن هذه القصة قصة عظيمة، فيها عبر كثيرة، والله الموفق.

* * *

١ / ٢٤٠ ـ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إلاَّ سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه مسلم[(١)].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله تعالى يوم القيامة».

الستر يعني الإخفاء، وقد سبق لنا أن الستر ليس محمودًا على كل حال، وليس مذمومًا على كل حال، فهو نوعان:

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب بشارة من ستر الله تعالى عيبه في الدنيا، رقم(٢٥٩٠).

النوع الأول: ستر الإنسان الستير، الذي لم تجرِ منه فاحشة، ولا ينبغي منه عدوان إلا نادرًا، فهذا ينبغي أن يستر وينصح ويبين له أنه على خطأ، وهذا الستر محمود.

والنوع الثاني: ستر شخص مستهتر متهاون في الأمور معتدٍ على عباد الله شرير، فهذا لا يستر؛ بل المشروع أن يبين أمره لولاة الأمر حتى يردعوه عما هو عليه، وحتى يكون نكالاً لغيره.

فالستر يتبع المصالح؛ فإذا كانت المصلحة في الستر؛ فهو أولى، وإن كانت المصلحة في الكشف فهو أولى، وإن تردد الإنسان بين هذا وهذا؛ فالستر أولى، والله الموفق.

* * *

٢/٢٤١ ـ وَعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلاَّ الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ: يَا فُلانُ؛ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ» متفق عليه[1].

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين». يعني بـ «كل الأمة»

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم(٦٠٦٩)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، رقم(٢٩٩٠).

أمة الإجابة الذين استجابوا للرسول ﷺ.

معافى: يعني قد عافاهم الله عزَّ وجلَّ.

إلا المجاهرين: والمجاهرون هم الذين يجاهرون بمعصية الله عزَّ وجلَّ، وهم ينقسمون إلى قسمين:

الأول: أن يعمل المعصية وهو مجاهر بها، فيعملها أمام الناس، وهم ينظرون إليه، هذا لا شك أنه ليس بعافية؛ لأنه جر على نفسه الويل، وجره على غيره أيضًا.

أما جره على نفسه: فلأنه ظلم نفسه حيث عصى الله ورسوله، وكل إنسان يعصي الله ورسوله؛ فإنه ظالم لنفسه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، والنفس أمانة عندك يجب عليك أن ترعاها حق رعايتها، وكما أنه لو كان لك ماشية فإنك تتخير لها المراعي الطيبة، وتبعدها عن المراعي الخبيثة الضارة، فكذلك نفسك، يجب عليك أن تتحرى لها المراتع الطيبة، وهي الأعمال الصالحة، وأن تبعدها عن المراتع الخبيثة، وهي الأعمال السيئة.

وأما جره على غيره: فلأن الناس إذا رأوه قد عمل المعصية؛ هانت في نفوسهم، وفعلوا مثله، وصار ـ والعياذ بالله ـ من الأئمة الذين يدعون إلى النار، كما قال الله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «من سن في الإسلام سنة سيئة؛

فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[١].

فهذا نوع من المجاهرة، ولم يذكره النبي ﷺ؛ لأنه واضح، لكنه ذكر أمرًا آخر قد يخفى على بعض الناس فقال: ومن المجاهرة أن يعمل الإنسان العمل السيىء في الليل فيستره الله عليه، وكذلك في بيته فيستره الله عليه ولا يُطْلِع عليه أحدًا، ولو تاب فيما بينه وبين ربه؛ لكان خيرًا له، ولكنه إذا قام في الصباح واختلط بالناس قال: عملت البارحة كذا، وعملت كذا، وعملت كذا، فهذا ليس معافى، هذا والعياذ بالله قد ستر الله عليه فأصبح يفضح نفسه.

وهذا الذي يفعله بعض الناس أيضًا يكون له سببان:

السبب الأول: أن يكون الإنسان غافلاً سليمًا لا يهتم بشيء، فتجده يعمل السيئة ثم يتحدث بها عن طهارة قلب.

والسبب الثاني: أن يتحدث بالمعاصي تبجّحًا واستهتارًا بعظمة الخالق، - والعياذ بالله - فيصبحون يتحدثون بالمعاصي متبجحين بها كأنما نالوا غنيمة، فهؤلاء والعياذ بالله شر الأقسام.

ويوجد من الناس من يفعل هذا مع أصحابه، يعني أنه يتحدث به مع أصحابه فيحدثهم بأمر خفي لا ينبغي أن يذكر لأحد، لكنه لا يهتم بهذا الأمر فهذا ليس من المعافين؛ لأنه من المجاهرين.

والحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يتستر بستر الله عزَّ وجلَّ، وأن يحمد

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة، رقم(١٠١٧).

الله على العافية، وأن يتوب فيما بينه وبين ربه من المعاصي التي قام بها، وإذا تاب إلى الله وأناب إلى الله؛ ستره الله في الدنيا والآخرة، والله الموفق.

* * *

٣/٢٤٢ ـ وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا زَنَتِ الأَمَةُ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّانِيَةَ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلاَ يُثَرِّبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّالِثَةَ فَلْيَبِعْهَا وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعرٍ» متفق عليه[(١)].

التَّثْرِيبُ: التَّوْبِيخُ.

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب».

والأمة: هي المملوكة التي تباع وتشترى، فإذا زنت يقول عليه الصلاة والسلام: فليجلدها الحدَّ، وحدُّ الأمة نصف حدِّ الحرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[النساء: ٢٥].

والحرة إذا كانت بكرًا وزنت تجلد مائة جلدة وتغرب سنة، والأمة نصف ذلك يعني خمسين جلدة، وأما تغريبها؛ ففي ذلك قولان للعلماء:

منهم من: قال تغرب نصف سنة.

ومنهم من قال: إنها لا تغرب؛ لأنه قد تعلق بها حقُّ السيد.

---

(١) رواه البخاري، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي، رقم(٢٥٥٥)، ومسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، رقم(١٧٠٣).

ثم إن زنت المرة الثانية؛ فليجلدها الحد ولا يثرب، ثم إن زنت يعني في الثالثة أو الرابعة؛ فليبعها ولو بحبل من شعر، يعني ولا يبقيها؛ لأنه لا خير فيها.

ففي هذا دليلٌ على أن السيد يقيم الحد على مملوكه، وأما غير السيد؛ فلا يقيم الحد.

وإنما يتولى إقامة الحد الإمام، أو نائب الإمام حتى الأب لا يملك إقامة الحد على ابنه؛ لأن هذا موكول للإمام أو نائبه، وفي قوله: «فليبعها ولو بحبل من شعر» وإذا قال قائل: وإذا باعها فما الفائدة إذا كانت قد ألفت الزنا والعياذ بالله؟ نقول: لأنه إذا تغيرت بها الأحوال؛ فربما تتغير حالها، وأيضا إذا باعها؛ فسوف يخبر المشتري بأنها أمة تزني. وسوف يكون المشتري شديدًا عليها حتى يمنعها من ذلك.

* * *

٤/٢٤٣ ـ وَعَنْهُ قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ خَمْرًا قَالَ: «اضْرِبُوهُ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللهُ، قَالَ: «لاَ تَقُولُوا هَكَذَا لاَ تُعِينُوا عَلَيْه الشَّيْطَانَ» رواه البخاري(١).

الشرح

نقل المؤلف ـ رحمه الله ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «أتي النبيُّ ﷺ برجل قد شرب خمرًا».

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر...، رقم(٦٧٨١).

والخمر: كل ما أسكر، ومعنى الإسكار أن يغيب العقل من شدة اللذة؛ لأن غيبوبة العقل أحيانًا تكون بدواء كالبنج، فهذا ليس بسكر، وأحيانًا تكون بإغماء، وأحيانًا تكون بسكر، وهو تغطية العقل بلذة وطرب، ولهذا تجد السكران - والعيا ذبالله - يتخيل نفسه وكأنه ملك من الملوك، كما قال الشاعر:

ونشر بها فتتركنا ملوكا

وكما قال حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ حين جاءه النبي ﷺ وقد سمل من السكر قبل أن تحرم الخمر فعلمه في ذلك، فقال له حمزة: هل أنتم إلا عبيد أبي، يقول للرسول عليه الصلاة والسلام وهو رضي الله عنه من أشد الناس تعظيمًا للرسول، لكنه سكران.

والحاصل أن السكر تغطية للعقل على وجه اللذة والطرب.

ولذلك فلما جاء إلى النبي ﷺ هذا الشارب للخمر قال: «اضربوه».

فقال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، ومنا الضارب بسوطه، ومنا الضارب بنعله، ولم يحدد لهم النبي ﷺ عددًا معينًا، فلما انصرف بعضهم قال له رجل: أخزاك الله، فقال النبي ﷺ: «لا تعينوا عليه الشيطان»؛ لأن الخزي معناه العار والذلّ، فأنت إذا قلت لرجل: أخزاك الله؛ فإنك قد دعوت الله عليه بما يذله ويفضحه، فتعين عليه الشيطان.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أن عقوبة الخمر ليس لها حدٌّ معين، ولهذا لم يحدّ لهم النبي ﷺ حدًّا، ولم يعدها عدًّا، كلٌّ يضرب بما تيسر، من يضرب بيده، ومن يضرب بطرف ثوبه، ومن يضرب بعصاه، ومن

يضرب بنعله، لم يحدّ فيها حدًّا، وبقي الأمر كذلك.

وفي عهد أبي بكر صارت تقدّر بنحو أربعين، وفي عهد عمر كثر الناس الذين دخلوا في الإسلام، ومنهم من دخل عن غير رغبة، فكثر شرب الخمر في عهد عمر رضي الله عنه، فلما رأى الناس قد أكثروا منها استشار الصحابة فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: أخف الحدود ثمانون وهو حدُّ القذف، فرفع عمر رضي الله عنه عقوبة شارب الخمر إلى ثمانين جلدة.

ففي هذا دليلٌ على أن الإنسان إذا فعل ذنبًا وعوقب عليه في الدنيا؛ فإنه لا ينبغي لنا أن ندعو عليه بالخزي والعار؛ بل نسأل الله له الهداية، ونسأل الله له المغفرة، والله الموفق.

* * *

٢٩ـ باب قضاء حوائج المُسلمين

قال الله تعالى : ﴿ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ [الحج : ٧٧].

١ / ٢٤٤ ـ وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ. مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ؛ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً؛ فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متفق عليه[١].

٢ / ٢٤٥ ـ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ الله عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» رواه مسلم[٢].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم..، رقم(٢٤٤٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم(٢٥٨٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم(٢٦٩٩).

الشــرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب قضاء حوائج المسلمين.

الحوائج: ما يحتاجه الإنسان ليكمل به أموره، وأما الضروريات؛ فهي ما يضطر إليه الإنسان ليدفع به ضرره، ودفع الضرورات واجب؛ فإنه يجب على الإنسان إذا رأى أخاه في ضرورة أن يدفع ضرورته؛ فإذا رآه في ضرورة إلى الطعام أو إلى الشراب أو إلى التدفئة، أو إلى التبردة؛ وجب عليه أن يقضي حاجته، ووجب عليه أن يزيل ضرورته ويرفعها.

حتى إن أهل العلم يقولون: لو اضطر الإنسان إلى طعام في يد شخص أو إلى شرابه، والشخص الذي بيده الطعام أو الشراب لم يضطر إليه ومنعه بعد طلبه، ومات، فإنه يضمنه؛ لأنه فرط في إنقاذ أخيه من هلكة.

أما إذا كان الأمر حاجيًّا وليس ضروريًّا، فإن الأفضل أن تعين أخاك على حاجته، وأن تيسرها له ما لم تكن الحاجة في مضرته، فإن كانت الحاجة في مضرته فلا تعنه؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

فلو فرض أن شخصًا احتاج إلى شرب دخان، وطلب منك أن تعينه بدفع القيمة له أو شرائه له أو ما أشبه ذلك؛ فإنه لا يحل لك أن تعينه ولو كان محتاجًا، حتى لو رأيته ضائقًا يريد أن يشرب الدخان فلا تعنه؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ حتى لو كان أباك؛ فإنك لا تعنه على هذا، حتى لو غضب عليك إذا لم تأت به فليغضب؛ لأنه غضب في

غير موضع الغضب؛ بل إنك إذا امتنعت من أن تأتي لأبيك بما يضره؛ فإنك تكون بارًّا به، ولا تكون عاقًّا له؛ لأن هذا هو الإحسان؛ فأعظم الإحسان أن تمنع أباك مما يضره، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» قالوا: يا رسول الله: كيف ننصره الظالم؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذلك نصرك إياه»[1].

وعلى هذا فقول المؤلف في باب قضاء حوائج المسلمين يريد بذلك الحوائج المباحة، فإنه ينبغي لك أن تعين أخاك عليها، فإن الله في عونك ما كنت في عون أخيك.

ثم ذكر المؤلف أحاديث مر الكلام عليها فلا حاجة إلى إعادتها، إلا أن فيها بعض الجمل تحتاج إلى كلام؛ منها قوله: «من يسَّر على معسر؛ يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة» فإذا رأيت معسرًا، ويسرت عليه الأمر يسر الله عليك في الدنيا والآخرة، مثل أن ترى شخصًا ليس بيده ما يشتري لأهله من طعام وشراب، لكن ليس عنده ضرورة، فأنت إذا يسرت عليه؛ يسر الله عليك في الدنيا والآخرة.

ومن ذلك أيضًا إذا كنت تطلب شخصًا معسرًا؛ فإنه يجب عليك أن تيسر عليه وجوبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، وقد قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: من كان له غريم معسر؛ فإنه يحرم عليه أن يطلب منه الدَّيْن، أو أن يطالبه به، أو أن يرفع أمره إلى

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، رقم(٢٤٤٤).

الحاكم؛ بل يجب عليه إنظاره.

ويوجد بعض الناس والعياذ بالله ممن لا يخافون الله، ولا يرحمون عباد الله، مَنْ يطالبون المعسرين، ويضيقون عليهم، ويرفعونهم إلى الجهة المسؤولة فيحبسون ويؤذون ويمنعون من أهلهم ومن ديارهم، كلُّ هذا بسبب الظلم، وإن كان الواجب على القاضي إذا ثبت عنده إعسار الشخص، فواجب عليه أن يرفع الظلم عنه، وأن يقول لغرمائه: ليس لكم شيء.

ثم إن بعض الناس والعياذ بالله إذا كان لهم غريم معسر يحتال عليه بأن يداينه مرة أخرى بربًا، فيقول مثلاً: اشتر مني السلعة الفلانية بزيادة على ثمنها وأوفني، أو يتفق مع شخص ثالث يقول: اذهب تَدَيّن من فلان وأوفني، وهكذا حتى يصبح هذا المسكين بين يدي هذين الظالمين كالكرة بين يدي الصبي يلعب بها والعياذ بالله.

والحاصل إذا رأيتم شخصًا يطلب معسرًا أن تبينوا له أنه آثم، وأن ذلك حرام عليه؛ وأنه يجب عليه إنظاره؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، وأنه إذا ضيق على أخيه المسلم، فإنه يوشك أن يضيق الله عليه في الدنيا أو في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة معًا، ويوشك أن يعجل له بالعقوبة، ومن العقوبة أن يستمر في مطالبة هذا المعسر وهو معسر؛ لأنه كلما طالبه ازداد إثمًا.

وعلى العكس من ذلك؛ فإنه يوجد بعض الناس والعياذ بالله يماطلون بالحقوق التي عليهم، مع قدرتهم على وفائهم، فتجده يأتيه صاحب الحق

فيقول: غدًا، وإذا أتاه في غد قال: بعد غدٍ؛ وهكذا، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَطْل الغنيِّ ظلم»(١).

وإذا كان ظلمًا؛ فإن أي ساعة أو لحظة تمضي وهو قادر على وفاء دينه؛ فإنه لا يزداد بها إلا إثمًا، نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية.

* * *

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستقراض، باب مطل الغني ظلم، رقم(٢٤٠٠)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني، رقم(١٥٦٤).

٣٠- بابُ الشفاعة

قال الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

١/٢٤٦ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ طَالِبُ حَاجَةٍ أَقْبَلَ عَلَى جُلَسَائِهِ فقال: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ» متفقٌ عليه[1].

وفي رواية: «مَا شَاءَ».

٢/٢٤٧ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي قِصَّةِ بَرِيرَةَ وَزَوْجِهَا. قَالَ: قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ؟» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَأمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَشْفَعُ» قَالَتْ: لا حَاجَةَ لي فِيهِ» رواه البخاري[2].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب الشفاعة.

والشفاعة: هي التوسط للغير؛ لجلب منفعة أو دفع مضرة.

مثال الأول: أن تتوسط لشخص عند آخر في أن يساعده في أمر من الأمور.

ومثال الثاني: أن تشفع لشخص عند آخر في أن يسامحه ويعفو عن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة..، رقم(١٤٣٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام، رقم(٢٦٢٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ في زوج، رقم(٥٢٨٣).

مظلمته، حتى يندفع عنه الضرر.

ومثال ذلك في أيام الآخرة؛ أن النبي ﷺ يشفع في أهل الموقف ليُقضى بينهم، حين يصيبهم من الكرب والغم ما لا يطيقون، فهذه شفاعة في دفع مضرة.

ومثالها في جلب منفعة؛ أن النبي ﷺ يشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة.

والمراد بالشفاعة في كلام المؤلف: الشفاعة في الدنيا؛ وهي أن يشفع الإنسان لشخص عند آخر؛ يتوسط له بجلب المنفعة له أو دفع المضرة عنه.

والشفاعة أقسام:

القسم الأول: شفاعة محرمة لا تجوز، وهي أن يشفع لشخص وجب عليه الحدُّ بعد أن يصل إلى الإمام، فإن هذه شفاعة محرمة لا تجوز؛ مثال ذلك: رجل وجب عليه حدٌّ في قطع يده في السرقة، فلما وصلت إلى الإمام أو نائب الإمام؛ أراد إنسان أن يشفع لهذا السارق ألاّ تقطع يده، فهذا حرام أنكره النبي عليه الصلاة والسلام إنكارًا عظيمًا.

وذلك حينما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تقطع يد المرأة المخزومية، امرأة من بني مخزوم من أشراف قبائل العرب، كانت تستعير الشيء ثم تجحده، أي تستعيره لتنتفع به ثم تنكر بعد ذلك أنها استعارت شيئًا، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها؛ فاهتمت لذلك قريش، قالوا: امرأة من بني مخزوم وتقطع يدها؟ هذا عارٌ كبير، من يشفع لنا إلى رسول الله ﷺ، فرأوا أن أقرب الناس لذلك أسامة بن زيد بن حارثة.

وأسامة بن زيد مولى رسول الله ﷺ؛ لأن زيد بن حارثة عبدٌ أهدته إلى رسول الله ﷺ خديجة، ثم أعتقه وكان يحبه عليه الصلاة والسلام، ويحب ابنه أسامة، فذهب أسامة إلى النبي ﷺ يشفع لهذه المرأة ألا تقطع يدها، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أتشفع في حد من حدود الله؟» قال ذلك إنكارًا عليه، ثم قام فخطب الناس وقال: «أيها الناس؛ إنما أهلك من كان قبلكم؛ أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله - يعني أقسم بالله - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعتُ يدها»(١).

وهذه المرأة المخزومية دون فاطمة شرفًا ونسبًا، ومع ذلك فإنه ﷺ قال: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعتُ يدها» لسدّ باب الشفاعة والوساطة في الحدود إذا بلغت الإمام.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله؛ فقد ضادَّ الله في أمره»(٢).

وقال ﷺ: «إذا بلغت الحدود السلطان؛ فلعن الله الشافع والمشفع»(٣).

ولما سرق رداء صفوان بن أمية وكان قد توسده في المسجد، فجاء

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب ذكر أسامة بن زيد، رقم(٣٧٣٣)، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره..، رقم(١٦٨٨).

(٢) رواه أبوداود، كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها، رقم(٣٥٩٧).

(٣) رواه ابن مالك في الموطأ (٢/ ٨٣٥).

رجل فسرقه، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يد السارق ـ انظر ماذا سرق؟ سرق رداء، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يده ـ فقال: يا رسول الله؛ أنا لا أريد ردائي، يعني أنه رحم هذا السارق وشفع فيه ألاّ تقطع يده، فقال النبي ﷺ: «هلاّ كان ذلك قبل أن تأتيني به»(١).

يعني لو عفوت عنه قبل أن تأتيني به؛ لكان ذلك لك، لكن إذا بلغت الحدود السلطان؛ فلابد من تنفيذها، وتحرم فيها الشفاعة.

القسم الثاني: أن يشفع في شيء محرم، مثل أن يشفع لإنسان معتدٍ على أخيه، أعرفُ مثلاً أن هذا الرجل يريد أن يخطب امرأة مخطوبة من قبل، والمرأة المخطوبة لا يحل لأحد خطبتها، فذهب رجل ثان إلى شخص وقال: يا فلان أحب أن تشفع لي عند والد هذه المرأة يزوجنيها، وهو يعلم أنها مخطوبة، فهنا لا يحل له أن يشفع؛ لأن هذه شفاعة في محرم.

والشفاعة في المحرم تعاون على الإثم والعدوان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ومن ذلك أيضًا أن يأتي رجل لشخص فيقول: يا فلان؛ أنا أريد أن أشتري دخانًا من فلان وقد سُمتُه بكذا وكذا، وأبى عليّ إلا بكذا وكذا أكثر مما سمتُه به، فأرجوك أن تشفع لي عنده ليبيعه عليّ بهذا السعر الرخيص،

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الحدود، باب من سرق من حرز، رقم(٤٣٩٤)، والنسائي، كتاب قطع السارق، باب ما يكون حرزًا وما لا يكون، وابن ماجه، كتاب الحدود، باب من سرق من حرز، رقم(٢٥٩٥).

فهنا لا تجوز الشفاعة؛ لأن هذه إعانة على الإثم والعدوان.

القسم الثالث: الشفاعة في شيء مباح فهذه لا بأس بها، ويكون للإنسان فيها أجرٌ، مثل أن يأتي شخص لآخر فيسومُ منه بيتًا ويقول له: هذا الثمن قليل، فيذهب السائم إلى شخص ثالث، ويقول: يا فلان اشفع لي عند صاحب البيت لعله يبيعه عليّ، فيذهب ويشفع له، فهذا جائز؛ بل هو مأجور على ذلك، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أتاه صاحب حاجة يلتفت إلى أصحابه ويقول: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء»(١) أو «ما أحب». فهنا يأمر عليه الصلاة والسلام أصحابه بأن يشفعوا لصاحب الحاجة.

ومثل ذلك أيضًا لو وجب لك حق على شخص، ورأيت أنك إذا تنازلت عنه هكذا ربما استخفّ بك في المستقبل وانتهك حرمتك، فهنا لا حرج أن تقول مثلاً لبعض الناس: اشفعوا له عندي؛ حتى تظهر أنت بمظهر القوي ولا تجبن أمامه ويحصل المقصود.

فالحاصل أن الشفاعة في غير أمر محرم من الإحسان إلى الغير كما قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].



(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، رقم(١٤٣٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام، رقم(٢٦٢٧).

٣١ـ باب الإصلاح بَيْن النَّاس

قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ ﴾ [الأنفال: ١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٠].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب الإصلاح بين الناس.

الإصلاح بين الناس: هو أن يكون بين شخصين معاداة وبغضاء، فيأتي رجل موفق فيصلح بينهما، ويزيل ما بينهما من العداوة والبغضاء، وكلما كان الرجلان أقرب صلة بعضهما من بعض؛ فإن الصلح بينهما أوكد، يعني أن الصلح بين الأب وابنه أفضل من الصلح بين الرجل وصاحبه، والصلح بين الأخ وأخيه أفضل من الصلح بين العم وابن أخيه، وهكذا كلما كانت القطيعة أعظم؛ كان الصلح بين المتابغضين وبين المتقاطعين أكمل وأفضل وأوكد.

واعلم أن الصلح بين الناس من أفضل الأعمال الصالحة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ أي إلا نجوى من أمر بصدقة.

والنجوى: الكلام الخفي بين الرجل وصاحبه، فأكثر المناجاة بين

الناس لا خير فيها إلا من أمر بصدقة أو معروف.

والمعروف: كل ما أمر به الشرع، يعني: أمر بخير.

أو إصلاح بين الناس: بين الرجل وصاحبه مفسدة، فيأتي شخص موفّق فيصلح بينهما، ويزيل ما بين الرجل وصاحبه من العداوة والبغضاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، فبين سبحانه في هذه الآية أن الخير حاصل فيمن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، فهذا خير حاصل لا شك فيه، أما الثواب فقال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾.

فأنت يا أخي المسلم إذا رأيت بين شخصين عداوة وبغضاء وكراهة، فاحرص على أن تسعى بينهما بالصلح حتى لو خسرت شيئًا من مالك فإنه مخلوف عليك.

ثم اعلم أن الصلح يجوز فيه التورية أي: أن تقول لشخص: إن فلانًا لم يتكلم فيك بشيء، إن فلانًا يحبُّ أهل الخير وما أشبه ذلك، أو تقول: فلان يحبك إن كنت من أهل الخير، وتضمر في نفسك جملة «إن كنت من أهل الخير» لأجل أن تخرج من الكذب.

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، هذه جملة عامة «الصلح خير» في جميع الأمور.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء: ١٢٨]، إشارة إلى أن

الإنسان ينبغي له عند الإصلاح أن يتنازل عما في نفسه، وأن لا يتبع نفسه؛ لأنه إذا اتبع نفسه فإن النفس شحيحة، ربما يريد الإنسان أن يأخذ بحقه كاملاً، وإذا أراد الإنسان أن يأخذ بحقه كاملاً؛ فإن الصلح يتعذر؛ لأنك إذا أردت أن تأخذ بحقك كاملاً وأراد صاحبك أن يأخذ بحقه كاملاً؛ لم يكن إصلاحًا.

لكن إذا تنازل كل واحد منكما عما يريد وغلب شحّ نفسه؛ فإنه يحصل الخير ويحصل الصلح، وهذا هو الفائدة من قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ بعد قوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، فأمر الله عزَّ وجلَّ بالإصلاح بين المتقاتلين من المؤمنين.

والحاصل أن الإصلاح كله خير، فعليك يا أخي المسلم إذا رأيت شخصين متنازعين متباغضين متعاديين؛ أن تصلح بينهما؛ لتنال الخير الكثير، وابتغِ في ذلك وجه الله وإصلاح عباد الله، حتى يحصل لك الخير الكثير، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

أسأل الله أن يجعلني وإياكم من الصالحين المصلحين.

* * *

١/٢٤٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ في دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إلَى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الأذَى

عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» متفقٌ عليه[١].

ومعنى «تَعْدِلُ بَيْنَهُمَا»: تُصْلَحُ بَيْنَهُمَا بالْعَدْلِ.

الشرح

سبق لنا ما ذكره المؤلف من الآية الكريمة الدالة على فضيلة الإصلاح بين الناس، ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يصبح على كل سلامى من الناس صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس»، والسُّلامى هي العظام والمفاصل؛ يعني كل يوم تطلع الشمس؛ فعلى كل مفصل من مفاصلك صدقة.

قال العلماء من أهل الفقه والحديث: وعدد السلامى في كل إنسان ثلاثمائة وستون عضوًا أو مفصلاً، فعلى كل واحد من الناس أن يتصدق كل يوم تطلع فيه الشمس بثلاثمائة وستين صدقة، ولكن الصدقة لا تختص بالمال؛ بل كل ما يقرب إلى الله فهو صدقة بالمعنى العام؛ لأن فعله يدل على صدق صاحبه في طلب رضوان الله عزَّ وجلَّ.

ثم بيَّن ﷺ هذه الصدقة فقال: «تعدل بين اثنين صدقة» يعني رجلان يتخاصمان إليك فتعدل بينهما؛ تحكم بينهما بالعدل، وكل ما وافق الشرع فهو عدل، وكل ما خالف الشرع فهو ظلم وجور.

وعلى هذا فنقول: هذه القوانين التي يحكم بها بعض الناس وهي مخالفة لشريعة الله ليست عدلاً؛ بل هي جور وظلم وباطل، ومن حكم بها

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم(٢٩٨٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من، رقم(١٠٠٩).

معتقدًا أنها مثل حكم الله أو أحسن منه؛ فإنه كافر مرتد عن دين الله؛ لأنه كذب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، يعني لا أحد أحسن من الله حكمًا، لكن لا يفهم هذا إلا من يوقن، أما الذي أعمى الله بصيرته، فإنه لا يدري بل قد يزيّن له سوء عمله فيراه حسنًا والعياذ بالله.

ومن العدل بين اثنين: العدل بينهما بالصلح؛ لأن الحاكم بين الاثنين سواءٌ أكان منصوبًا من قبل ولي الأمر، أو غير منصوب قد لا يتبين له وجه الصواب مع أحد الطرفين، فإذا لم يتبين له؛ فلا سبيل له إلا الإصلاح، فيصلح بينهما بقدر ما يستطيع.

وقد سبق لنا أنه لا صلح مع المشاحة، يعني أن الإنسان إذا أراد أن يعامل أخاه بالمشاحة، فإنه لا يمكن الصلح، كما قال تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، يشير إلى أن الصلح ينبغي للإنسان أن يبعد فيه عن الشحّ، وأن لا يطالب بكامل حقه؛ لأنه إن طالب بكامل حقه، طالب الآخر بكامل حقه ولم يحصل بينهما صلح؛ بل لابد أن يتنازل كل واحد منهم عن بعض حقه.

فإذا لم يكن الحكم بين الناس بالحق، بل اشتبه على الإنسان إما من حيث الدليل، أو من حيث حال المتخاصمين، فليس هناك إلا السعي بينهما بالصلح.

قال عليه الصلاة والسلام: «تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعًا صدقة».

هذا أيضًا من الصدقات ؛ أن تعين الرجل في دابته فتحمله عليها إذا كان لا يستطيع أن لا يركبها بنفسه ، أو تحمل له عليها متاعه ، تساعده على حمل المتاع على الدابة فهذا صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة ؛ يعني إذا رأيت ما يؤلم المشاة فأمطته أي : أزلته فهذه صدقة ، سواء كان حجرًا ، أم زجاجًا ، أم قشر بطيخ ، أم ثيابًا يلتوي بعضها على بعض ، أو ما أشبه ذلك .

والحاصل أن كل ما يؤذي أزله عن الطريق ، فإنك بذلك تكون متصدقًا ، وإذا كان إماطة الأذى عن الطريق صدقة ؛ فإن إلقاء الأذى في الطريق سيئة .

ومن ذلك من يلقون قمامتهم في وسط الشارع ، أو يتركون المياه تجري في الأسواق فتؤذي الناس ، مع أن في ترك المياه مفسدة أخرى ، وهي استنفاد الماء ؛ لأن الماء مخزون في الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر : ٢٢]، والمخزون ينفد .

ولهذا نرى أن الذي يترك المياه ويسرف في صرفها ولا يبالي في ضياعها مسيء إلى كل الأمة ؛ لأن الماء مشترك ، فإذا أسأت في تصريفه وأنفقته ولم تبال به كنت مسرفًا ، والله لا يحب المسرفين ، وكنت مسيئًا لتهديد الأمة في نقص مائها أو زواله ، وهذا ضرر عام .

والحاصل أن الذين يلقون في الأسواق ومسار الناس ما يؤذيهم هم مسيئون ، والذين يزيلون ذلك هم متصدقون .

«وتميط الأذى عن الطريق صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة» ، وهذه ـ ولله الحمد ـ من أعم ما يكون . الكلمة الطيبة تنقسم إلى قسمين : طيبة بذاتها ، طيبة بغاياتها .

أما الطيبة بذاتها فالذكر: لا إله إلا الله، الله أكبر، الحمد لله، لا حول ولا قوة إلا بالله، وأفضل الذكر قراءة القرآن.

وأما الكلمة الطيبة في غايتها فهي الكلمة المباحة كالتحدث مع الناس، إذا قصدت بهذا إيناسهم وإدخال السرور عليهم، فإن هذا الكلام وإن لم يكن طيبًا بذاته لكنه طيبٌ في غاياته، في إدخال السرور على إخوانك، وإدخالُ السرور على إخوانك مما يقربك إلى الله عزَّ وجلَّ، فالكلمة الطيبة صدقة وهذا من أعم ما يكون.

ثم قال: «وفي كل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة».

كل خطوة: خَطْوة ـ بالفتح ـ يعني خطوة واحدة تخطوها إلى الصلاة ففيها صدقة. عدّ الخطى من بيتك إلى المسجد تجدها كثيرة، ومع ذلك كل خطوة فهي صدقة لك، إذا خرجت من بيتك مسبغًا الوضوء، لا يخرجك من بيتك إلى المسجد إلا الصلاة، فإن كل خطوة صدقة، وكل خطوة تخطوها يرفع الله لك بها درجة، ويحطّ عنك بها خطيئة. وهذا فضل عظيم.

أسبغ الوضوء في بيتك، واخرج إلى المسجد، لا يخرجك إلا الصلاة، وأبشر بثلاث فوائد:

الأولى: صدقة، والثانية: رفع درجة، والثالثة: حطّ خطيئة.

كل هذا من نعم الله عزَّ وجلَّ، والله الموفق.

* * *

٢/٢٤٩ ـ وَعَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيطٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَينمِي خَيْرًا،

أَوْ يَقُولُ خَيْرًا» متفق عليه(١).

وفي رواية مسلمٍ زيادة، قالت: «ولَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّص في شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إلاَّ فِي ثَلاَثٍ؛ تَعْنِي: الْحَرْبَ، وَالإِصْلاَحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثَ المَرْأَةِ زَوْجَهَا».

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرًا أو يقول خيرًا» فالإنسان إذا قصد الإصلاح بين الناس وقال للشخص: إن فلانًا يثني عليك ويمدحك ويدعو لك وما أشبه ذلك من الكلمات، فإن ذلك لا بأس به.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة، هل المراد أن يكذب الإنسان كذبًا صريحًا، أو أن المراد أن يورّي، بمعنى أن يظهر للمخاطب غير الواقع، لكنه له وجه صحيح، كأن يعني بقوله مثلاً: فلان يثني عليك أي: على جنسك وأمثالك من المسلمين، فإن كل إنسان يثني على المسلمين من غير تخصيص.

أو يريد بقوله: إنه يدعو لك؛ أنه من عباد الله، والإنسان يدعو لكل عبد صالح في كل صلاة، كما قال النبي ﷺ: «إنكم إذا قلتم ذلك» ـ يعني قلتم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ـ «فقد سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض»(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، رقم(٢٦٩٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان الهباج منه، رقم(٢٦٠٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب من سمى قومًا أو سلم في الصلاة على غيره، =

وقال بعضهم: إن التورية تعد كذبًا؛ لأنها خلاف الواقع، وإن كان المتكلم قد نوى بها معنى صحيحًا، واستدلوا على ذلك بقول النبي ﷺ: «إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعتذر عن الشفاعة بأنه كذب ثلاث كذبات في ذات الله»(١) وهو لم يكذب عليه الصلاة والسلام، ولكنه ورّى.

وعلى كل حال فالإنسان المصلح ينبغي له أن يتحرز من الكذب، وإذا كان ولابد فليتأول؛ ليكون بذلك مورّيًا، والإنسان إذا كان مورّيًا فلا إثم عليه فيما بينه وبين الله، والتورية جائزة عند المصلحة.

أما اللفظ الثاني ففيه زيادة عن الإصلاح بين الناس، وهو الكذب في الحرب.

والكذب في الحرب هو أيضًا نوع من التورية مثل أن يقول للعدو: إن ورائي جنودًا عظيمة وما أشبه ذلك من الأشياء التي يرهب بها الأعداء.

وتنقسم التورية في الحرب إلى قسمين:

قسم في اللفظ، وقسم في الفعل. مثل ما فعل القعقاع بن عمرو رضي الله عنه في إحدى الغزوات؛ فإنه أراد أن يرهب العدو فصار يأتي بالجيش في الصباح، ثم يغادر المكان، ثم يأتي به في صباح يوم آخر وكأنه مدد جديد جاء ليساعد المحاربين المجاهدين، فيتوهم العدو أن هذا مدد

= رقم(١٢٠٢)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم(٤٠٢).

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم(٣٣٥٧)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، رقم(٢٣٧١).

جديد جاء ليساعد المحاربين المجاهدين، فيتوهم العدو أن هذا مدد جديد فيرهب ويخاف، وهذا جائز للمصلحة.

أما المسألة الثالثة فهي أن يحدث الرجل زوجته وتحدث المرأة زوجها، وهذا أيضًا من باب التورية، مثل أن يقول لها: إنك من أحبّ الناس إليَّ، وإني أرغب في مثلك، وما أشبه ذلك من الكلمات التي توجب الألفة والمحبة بينهما.

ولكن مع هذا لا ينبغي فيما بين الزوجين أن يكثر الإنسان من هذا الأمر؛ لأن المرأة إذا عثرت على شيء يخالف ما حدثها به، فإنه ربما تنعكس الحال وتكرهه أكثر مما كان يتوقع، وكذلك المرأة مع الرجل.

* * *

٣/ ٢٥٠ ـ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُمَا، وإذا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الآخَرَ وَيَسْتَرفِقُهُ في شَيْءٍ. وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لاَ أَفْعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَيْنَ المُتَأَلِّي عَلَى اللهِ لا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟» فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَلَهُ أَيُّ ذلِكَ أَحَبَّ، متفقٌ عليه[1].

معنى «يَسْتَوْضِعُهُ»: يَسْأَلُهُ أَنْ يَضَعَ عَنْهُ بَعْضَ دَيْنِهِ. «وَيَسْتَرْفِقُه»: يَسْأَلُه الرِّفْقَ. «والْمُتَأَلِّي»: الحَالِفُ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب هل يشير الإمام بالصلح، رقم(٢٧٠٥)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين. . ، رقم(١٥٥٧).

الشرح

هذا الحديث ذكره المؤلف رحمه الله في بيان الصلح بين اثنين متنازعين فإذا رأى شخص رجلين يتنازعان في شيء وأصلح بينهما، فله أسوة برسول الله ﷺ، وقد فعل خيرًا كثيرًا، كما سبق الكلام فيه على قول الله تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

فالنبي ﷺ لما سمع نزاع رجلين وقد علت أصواتهما، خرج إليهما ﷺ لينظر ماذا عندهما، وفيه دليلٌ على أنه لا حرج على الإنسان أن يتدخل في النزاع بين اثنين، إذا لم يكن ذلك سرًّا بينهما؛ لأن هذين الرجلين قد أعلنا ذلك، وكانا يتكلمان بصوت مرتفع، أما لو كان الأمر بين اثنين على وجه السر والإخفاء؛ فلا يجوز للإنسان أن يتدخل بينهما؛ لأن في ذلك إحراجًا لهما، فإن إخفاءهما للشيء يدل على أنهما لا يحبان أن يطلع عليه أحدٌ من الناس، فإذا أقحمت نفسك في الدخول بينهما؛ أحرجتهما وضيقت عليهما، وربما تأخذهما العزة بالإثم فلا يصطلحان.

والمهم أنه ينبغي للإنسان أن يكون أداة خير، وأن يحرص على الإصلاح بين الناس وإزالة العداوة والضغائن حتى ينال خيرًا كثيرًا، والله الموفق.

* * *

٣٢- بابُ فضل ضعفة المُسلمين والفقراء والخاملين

قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

الشرح

قال رحمه الله تعالى: باب فضل ضعفاء المسلمين وفقرائهم والخاملين منهم.

المراد بهذا الباب: تسلية من قدَّر الله عليه أن يكون ضعيفًا في بدنه، أو ضعيفًا في عقله، أو ضعيفًا في ماله، أو ضعيفًا في جاهه أو غير ذلك مما يعدّه الناس ضعفًا؛ فإن الله سبحانه وتعالى قد يجعل الإنسان ضعيفًا من وجه لكنه قويّ عند الله عزَّ وجلَّ، يحبه الله ويكرمه، وينزله المنازل العالية، وهذا هو المهم.

المهم أن تكون قويًّا عند الله عزَّ وجلَّ، وجيهًا عنده، ذا شرفٍ يكرمك الله به.

ثم ذكر قول الله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]. اصبر نفسك أي: احبسها مع هؤلاء القوم الذين يدعون الله بالغداة: أول النهار، والعشي: آخر النهار، والمراد بالدعاء هنا: دعاء المسألة ودعاء العبادة.

فإن دعاء المسألة يعتبر دعاء؛ كقوله تعالى في الحديث القدسي: «من يدعوني فأستجيب له»[١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ودعاء عبادة، وهو أن يتعبد الإنسان لربه بما شرعه؛ لأن العابد يدعو بلسان الحال، ولسان المقال.

فالصلاة مثلاً عبادة تشتمل على قراءة القرآن، وذكر الله، وتسبيحه، ودعائه أيضًا، والصوم عبادة وإن كان في جوهره ليس فيه دعاء، لكن الإنسان لم يصم إلا رجاء ثواب الله، وخوف عقاب الله، فهو دعاء بلسان الحال.

وقد تكون العبادة دعاءً محضًا يدعو الإنسان ربه بدعاء فيكون عابدًا له، وإن كان مجرد دعاء؛ لأن الدعاء يعني افتقار الإنسان إلى الله، وإحسان ظنه به، ورجاءه، والخوف من عقابه.

فقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، يدعون ربهم: أي يسألونه حاجاتهم، ويعبدونه؛ لأن العابد داعٍ بلسان الحال، بالغداة: أول النهار، والعشي: آخر النهار، ولعل المراد بذلك: يدعون ربهم دائمًا، لكنهم يخصّون الغداة والعشي بدعائه الخاص، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ يعني لا يريدون عرضًا من الدنيا، إنما يريدون وجه الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم(١١٤٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر...، رقم ٧٥٨.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ يعني لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم؛ بل كن دائمًا ناظرًا إليهم، وكن معهم في دعائهم وعبادتهم وغير ذلك، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ يعني: اجعل عينيك دائمًا فيهم.

وهنا قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا تنظر إلى أهل الدنيا وما مُتعوا به من النعيم، ومن المراكب، والملابس، والمساكن، وغير ذلك.

فكلّ هذا زهرة الدنيا، والزهرة آخر مآلها الذبول واليبس والزوال، وهي أسرع أوراق الشجرة ذبولاً وزوالاً، ولهذا قال: زهرة، وهي زهرة حسنة في رونقها وجمالها وريحها ـ إن كانت ذات ريح ـ لكنها سريعة الذبول، وهكذا الدنيا، زهرة تذبل سريعًا، نسأل الله أن يجعل لنا حظًّا ونصيبًا في الآخرة.

يقول: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، أي: رزق الله بالطاعة، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وكان النبي ﷺ إذا رأى شيئًا يعجبه من الدنيا قال: «اللهم إن العيش عيش الآخرة»(١) كلمتان عظيمتان، فالإنسان إذا نظر إلى الدنيا ربما تعجبه

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على القتال، رقم(٢٨٣٤)، =

فيلهو عن طاعة الله، فينبغي أن يذكر نعيم الآخرة عند ذلك، ويقارن بينه وبين هذا النعيم الدنيوي الزائل، ثم يوطن نفسه ويرغبها في هذا النعيم الأخروي الذي لا ينقطع، ويقول: «اللهم إن العيش عيش الآخرة».

وصدق الرسول ﷺ فعيش الدنيا مهما كان زائل، ومهما كان فمحفوف بالحزن، ومحفوف بالآفات، ومحفوف بالنقص، وكما يقول الشاعر في شعره الحكيم:

لا طيبَ للعيش ما دامت منغصةً
لذاته بادكارِ الموت والهرم

والعيش مآله أحد أمرين:

إما الهرم حتى يعود الإنسان إلى سن الطفولة، والضعف البدني مع الضعف العقلي، ويكون عالة حتى على أهله.

وإما الموت، فكيف يطيب العيش للإنسان العاقل؟ ولولا أنه يؤمل ما في الآخرة؛ وما يرجوه من ثواب الآخرة، لكانت حياته عبثاً.

ومهما يكن من أمر فقد أمر الله نبيَّه ﷺ أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين يدعون الله بالغداة والعشي يريدون وجهه، والآية ليس فيها أمر بالضعفاء خاصة، وإن كان سبب النزول هكذا، لكن العبرة بالعموم. الذين يدعون الله ويعبدونه سواء أكانوا ضعفاء أم أقوياء، فقراء أم أغنياء كن معهم دائمًا.

لكن الغالب أن الملأ والأشراف يكونون أبعد عن الدين من الضعفاء

= ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم(١٨٠٤، ١٨٠٥).

والمستضعفين، ولهذا فالذين يكذبون الرسل هم الملأ، قال الملأ من قوم صالح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٧٥]، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم مع أهل الحق ودعاة الحق وأنصاره إنه جواد كريم.

* * *

١/٢٥٢ - عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ. أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ» متفق عليه[١].

«الْعُتُلُّ»: الْغَلِيظُ الجَافي: «والجَوَّاظُ» بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاءِ المعجمة: هُوَ الجَمُوعُ المَنُوعُ، وَقيلَ: الضَّخْمُ المُخْتَالُ في مِشْيَتِهِ، وَقيلَ: الْقَصِيرُ الْبَطِينُ.

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن حارثة بن وهب رضي الله عنه في باب ضعفاء المسلمين وأذلائهم أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كلّ ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبـرّه» يعني هذه من علامات أهل الجنة؛ أن الإنسان يكون ضعيفًا متضعفًا، أي: لا يهتم بمنصبه أو جاهه، أو يسعى إلى علوّ المنازل في الدنيا، ولكنه ضعيفٌ في

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب عتل بعد ذلك زنيم، رقم(٤٩١٨)، ومسلم، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون. . .، رقم(٢٨٥٣).

نفسه متضعف، يميل إلى الخمول وإلى عدم الظهور؛ لأنه يرى أن المهم أن يكون له جاه عند الله عزَّ وجلَّ، لا أن يكون شريفًا في قومه أو ذا عظمةٍ فيهم، ولكن يرى أن الأهم كلّه أن يكون عند الله سبحانه وتعالى ذا منزلةٍ كبيرة عاليةٍ.

ولذلك تجد أهل الآخرة لا يهتمون بما يفوتهم من الدنيا؛ إن جاءهم من الدنيا شيء قبلوه، وإن فاتهم شيء لم يهتموا به؛ لأنهم يرون أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن الأمور بيد الله، وأن تغيير الحال من المحال، وأنه لا يمكن رفع ما وقع ولا دفع ما قدر إلا بالأسباب الشرعية التي جعلها الله تعالى سببًا.

وقوله: «لو أقسم على الله لأبره» يعني لو حلف على شيء ليَسَّر الله له أمره، حتى يحقق له ما حلف عليه، وهذا كثيرًا ما يقع؛ أن يحلف الإنسان على شيء ثقة بالله عزَّ وجلَّ، ورجاء لثوابه فيبرّ الله قسمه، وأما الحالف على الله تعاليًا وتحجرًا لرحمته، فإن هذا يُخْذلُ، والعياذ بالله.

وهاهنا مَثَلان:

المَثَل الأول: أن الربيعَ بنت النضر رضي الله عنها وهي من الأنصار، كسرت ثنية جارية من الأنصار، فرفعوا الأمر إلى رسول الله ﷺ فأمر النبي ﷺ أن تُكسر ثنية الربيع، لقول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ [المائدة: ٤٥]، فقال أخوها أنس بن النصر: والله يا رسول الله لا تكسر ثنية الربيع، فقال: «يا أنس كتاب الله القصاص» فقال: والله لا تكسر ثنية الربيع.

أقسم بهذا ليس ذلك ردًّا لحكم الله ورسوله، ولكنه يحاول بقدر ما

يستطيع أن يتكلم مع أهلها حتى يعفوا ويأخذوا الدية، أو يعفوا مجانًا، كأنه واثق من موافقتهم، لا ردًّا لحكم الله ورسوله، فيسَّر الله سبحانه وتعالى؛ فعفى أهل الجارية عن القصاص، فقال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»(١).

وهنا لا شك أن الحامل لأنس بن النضر هو قوة رجائه بالله عزَّ وجلَّ، وأن الله سييسر من الأسباب ما يمنع كسر ثنية أخته الربيع.

أما المَثل الثاني: الذي أقسم على الله تأليًا وتعارضًا وترفعًا فإن الله يخيب آماله، ومثال ذلك الرجل الذي كان مطيعًا لله عزَّ وجلَّ عابدًا، يمر على رجل عاصٍ، كلما مرَّ عليه وجده على المعصية، فقال: والله لا يغفر الله لفلان، حمله على ذلك الإعجاب بنفسه، والتحجر بفضل الله ورحمته، واستبعاد رحمة الله عزَّ وجلَّ من عباده.

فقال الله تعالى: «من ذا الذي يتألى علي - أي يحلف عليَّ - ألاّ أغفر لفلان. قد غفرت له، وأحبطت عملك»(٢)، فانظر الفرق بين هذا وهذا.

فقول الرسول ﷺ: «إن من عباد الله» «من» هنا للتبعيض، «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» وذلك فيمن أقسم على الله ثقة به، ورجاء لما عند الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب الصلح في الدية، رقم(٢٧٠٣)، ومسلم، كتاب القسامة، باب إثبات القصاص في الأسنان...، رقم(١٦٧٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، رقم(٢٦٢١).

ثم قال ﷺ: «ألا أخبركم بأهل النار، كل عتل جواظ مستكبر»؛ هذه علامات أهل النار.

«عتل»: يعني أنه غليظ جاف، قلبه حجر والعياذ بالله؛ كالحجارة أو أشد قسوة. «جواظ مستكبر» الجواظ فيه تفاسير متعددة، قيل إنه الجموع المنوع، يعني الذي يجمع المال ويمنع ما يجب فيه.

والظاهر أن الجواظ هو الرجل الذي لا يصبر، فجواظ يعني أنه جزوع لا يصبر على شيء، ويرى أنه في قمة أعلى من أن يمسه شيء.

ومن ذلك قصة الرجل الذي كان مع الرسول ﷺ في غزوة، وكان شجاعًا لا يدع شاذة ولا فاذة للعدو إلا قضى عليها، فقال النبي ﷺ: «إن هذا من أهل النار»، فعظم ذلك على الصحابة، وقالوا: كيف يكون هذا من أهل النار وهو بهذه المثابة؟ ثم قال رجل: والله لألزمنه يعني لألازمه حتى أنظر ماذا يكون حاله، فلزمه فأصاب هذا الرجل الشجاع سهم من العدو، فعجز عن الصبر وجزع ثم أخذ بذبابة سيفه فوضعه في صدره ثم اتكأ عليه حتى خرج السيف من ظهره والعياذ بالله، فقتل نفسه.

فجاء الرجل للرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله أشهد أنك لرسول الله، قال: «وبم؟» قال: لأن الرجل الذي قلت إنه من أهل النار، فعل كذا وكذا، فقال النبي ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار»[1]. فانظر إلى هذا الرجل جزع وعجز أن يتحمل فقتل

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، رقم(٢٨٩٨)، =

نفسه.

فالجواظ هو الجزوع الذي لا يصبر، دائمًا في أنين وحزن وهمّ وغمّ، معترضًا على القضاء والقدر، لا يخضع له، ولا يرضى بالله ربًّا.

وأما المستكبر فهو الذي جمع بين وصفين: غمط الناس، وبطر الحق؛ لأن النبي ﷺ قال: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»[١] وبطر الحق: يعني رده، وغمط الناس: يعني احتقارهم، فهو في نفسه عال على الحق، وعال على الخلق، لا يلين للحق ولا يرحم الخلق والعياذ بالله.

فهذه علامات أهل النار. نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من النار، وأن يدخلنا وإياكم الجنة. إنه جواد كريم.

* * *

٢ / ٢٥٣ ـ وَعَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأيُكَ فِي هَذَا؟» فقال: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هذَا واللهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ. فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَه رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا رَأْيُكَ فِي هذَا؟» فَقَالَ: يَا رَسُولُ اللهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ هذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ، وإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا خَيرٌ مِنْ ملْءِ الأَرْضِ مِثْلِ هَذَا» متفقٌ عليه[٢].

= ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه...، رقم(١١٢).

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم(٩١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب فضل الفقر، رقم(٦٤٤٧)، ولم نجده عند مسلم.

قوله: «حريٌّ»: هو بفتح الحاءِ وكسر الراءِ وتشديد الياءِ: أيْ حَقيقٌ.
وقوله: «شَفَعَ» بفتح الفاء.

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: مرَّ رجل عند رسول الله ﷺ، فقال لرجل: «**ما تقول في هذا؟**» قال: رجلٌ من أشراف الناس، حريٌّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، ثم مرَّ رجل آخر، فسأل عنه فقال: هذا رجلٌ من ضعفاء المسلمين، حريٌّ إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يسمع لقوله.

فهذان رجلان أحدهما من أشراف القوم، وممن له كلمة فيهم، وممن يجاب إذا خطب، ويُسمع إذا قال، والثاني بالعكس، رجلٌ من ضعفاء الناس ليس له قيمة، إن خطب فلا يجاب، وإن شفع فلا يشفع، وإن قال فلا يسمع.

فقال النبي ﷺ: «**هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا**»، أي: خير عند الله عزَّ وجلَّ من ملء الأرض من مثل هذا الرجل الذي له شرف وجاه في قومه؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس ينظر إلى الشرف، والجاه، والنسب، والمال، والصورة، واللباس، والمركوب، والمسكون، وإنما ينظر إلى القلب والعمل، فإذا صلح القلب فيما بينه وبين الله عزَّ وجلَّ، وأناب إلى الله، وصار ذاكرًا لله تعالى خائفًا منه، مخبتًا إليه، عاملاً بما يرضي الله عزَّ وجلَّ، فهذا هو الكريم عند الله، وهذا هو الوجيه عنده، وهذا هو الذي لو

أقسم على الله لأبره.

فيؤخذ من هذا فائدة عظيمة وهي أن الرجل قد يكون ذا منزلة عالية في الدنيا، ولكنه ليس له قدر عند الله، وقد يكون في الدنيا ذا مرتبة منحطة، وليس له قيمة عند الناس، وهو عند الله خيرٌ من كثير ممن سواه ـ نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من الوجهاء عنده، وأن يجعل لنا ولكم عنده منزلة عالية، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

* * *

٣/٢٥٤ ـ وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ والْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ، فَقَضَى اللهُ بَيْنَهُمَا: إنَّكِ الْجَنَّةُ رَحْمَتِي أرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذَابِي أُعَذِّب بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكِلَيْكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا» رواه مسلم[(١)].

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**احتجت الجنة والنار**» يعني: تحاجا فيما بينهما، كل واحدة تدلي بحجتها، وهذا من الأمور الغيبية التي يجب علينا أن نؤمن بها حتى وإن استبعدتها العقول وقال الإنسان: كيف تتحاج الجنة

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها...، رقم(٢٨٤٦).

والنار وهما جمادان؟!

فإننا نقول إن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الأرض يوم القيامة تحدث أخبارها بما أوحى الله إليها به، فإذا أمر الله شيئًا بشيء؛ فإن هذا المأمور سيستجيب على كل حال، الأيدي يوم القيامة والألسن والأرجل والجلود كلها تشهد، مع أنها جماد، وتشهد على صاحبها مع أنها أقرب الناس إليه؛ لأن الله سبحانه وتعالى على كل شيءٍ قدير.

فالجنة احتجت على النار، والنار احتجت على الجنة. النار احتجت بأن فيها الجبارين والمتكبرين.

الجبارون أصحاب الغلظة والقسوة، والمتكبرون أصحاب الترفع والعلو، الذين يغمطون الناس ويردون الحق، كما قال النبي ﷺ في الكبر: «إنه بطر الحق وغمط الناس»(١).

فأهل الجبروت وأهل الكبرياء هم أهل النار والعياذ بالله، وربما يكون صاحب النار لين الجانب للناس، حسن الأخلاق، لكنه جبارٌ بالنسبة للحق، مستكبر عن الحق، فلا ينفعه لينه وعطفه على الناس، بل هو موصوف بالجبروت والكبرياء ولو كان لين الجانب للناس؛ لأنه تجبر واستكبر عن الحق.

أما الجنة فقالت: إن فيها ضعفاء الناس وفقراء الناس. فهم في

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم(٩١).

الغالب الذين يلينون للحق وينقادون له، وأما أهل الكبرياء والجبروت؛ ففي الغالب أنهم لا ينقادون.

فقضى الله عزَّ وجلَّ بينهما فقال: «إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء» وقال للنار: «إنك النار عذابي أعذب بك من أشاء» إنك الجنة رحمتي: يعني أنها الدار التي نشأت من رحمة الله، وليست رحمته التي هي صفته؛ لأن رحمته التي هي صفته وصف قائم به، لكن الرحمة هنا مخلوق، أنت رحمتي يعني خلقتك برحمتي، أرحم بك من أشاء.

وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء كقوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ [العنكبوت: ٢١] فأهل الجنة هم أهل رحمة الله ـ نسأل الله أن يجعلني وإياك منهم ـ وأهل النار هم أهل عذاب الله.

ثم قال عزَّ وجلَّ: «ولكليكما على ملؤها» تكفل عزَّ وجلَّ وأوجب على نفسه أن يملأ الجنة ويملأ النار، وفضل الله سبحانه وتعالى ورحمته أوسع من غضبه، فإنه إذا كان يوم القيامة ألقى من يلقى في النار، وهي تقول هل من مزيد، يعني أعطوني. أعطوني. زيدوا. فيضع الله عليها رجله، وفي لفظ عليها قدمه، فينزوي بعضها على بعض، ينضم بعضها إلى بعض من أثر وضع الرب عزَّ وجلَّ عليها قدمه، وتقول: قط قط، يعني: كفاية كفاية، وهذا ملؤها.

أما الجنة فإن الجنة واسعة، عرضها السموات والأرض يدخلها أهلها ويبقى فيها فضل زائد على أهلها، فينشئ الله تعالى لها أقوامًا فيدخلهم الجنة بفضله ورحمته؛ لأن الله تكفل لها بملئها.

ففي هذا دليلٌ على أن الفقراء والضعفاء هم أهل الجنة؛ لأنهم في الغالب هم الذين ينقادون للحق، وأن الجبارين المتكبرين هم أهل النار والعياذ بالله؛ لأنهم مستكبرون على الحق وجبارون. لا تلين قلوبهم لذكر الله، ولا لعباد الله. نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية.

* * *

٤/٢٥٥ ـ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ الْعَظِيمُ يَومَ الْقِيَامَةِ لا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ» متفقٌ عليه[1].

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**» ذكر المؤلف هذا الحديث في باب المستضعفين والفقراء من المسلمين، وذلك لأن الغالب أن السمنة إنما تأتي من البطنة أي: من كثرة الأكل، وكثرة الأكل تدل على كثرة المال والغنى، والغالب على الأغنياء البطر والأشر وكفر النعمة، حتى إنهم يوم القيامة يكونون بهذه المثابة، يؤتى بالرجل العظيم السمين يعني كثير اللحم والشحم. عظيم كبير الجسم لا يزن عند الله يوم القيامة جناح بعوضة، والبعوضة معروفة من أشد الحيوانات امتهانًا وأهونها وأضعفها، وجناحها كذلك.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ...﴾، رقم(٤٧٢٩)، ومسلم، كتاب صفة المنافقين، بدون ذكر الباب، رقم(٢٧٨٥).

وفي هذا الحديث إثبات الوزن يوم القيامة، وقد دل على ذلك كتاب الله عزَّ وجلَّ، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال جل وعلا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وقال النبي ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»(١).

فالوزن يوم القيامة وزن عدل ليس فيه ظلم، يجازى فيه الإنسان على حسب ما عنده من الحسنات والسيئات. قال أهل العلم: فمن رجحت حسناته على سيئاته فهو من أهل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته استحق أن يعذب في النار، ومن تساوت حسناته وسيئاته كان من أهل الأعراف، الذين يكونون بين الجنة والنار لمدة، على حسب ما يشاء الله عزَّ وجلَّ، وفي النهاية يدخلون الجنة.

ثم إن الوزن وزن حسي بميزان له كفتان، توضع في إحداهما السيئات وفي الأخرى الحسنات، وتثقل الحسنات وتخف السيئات إذا كانت الحسنات أكثر، والعكس بالعكس.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب طيب الكلام، رقم(٦٠٢٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة...، رقم(١٠١٦)[٦٨].

ثم ما الذي يوزن؟ ظاهر هذا الحديث أن الذي يوزن الإنسان، وأنه يخف ويثقل بحسب أعماله.

وقال بعض العلماء: بل الذي يوزن صحائف الأعمال، توضع صحائف السيئات في كفة، وصحائف الحسنات في كفة، وما رجح فالعمل عليه.

وقيل: بل الذي يوزن العمل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، فجعل الوزن للعمل، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال النبي ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»(١)، فقوله ﷺ: كلمتان ثقيلتان في الميزان يدل على أن الذي يوزن هو العمل، وهذا هو ظاهر القرآن الكريم وظاهر السنة، وربما يوزن هذا وهذا، أي توزن الأعمال وتوزن صحائف الأعمال.

وفي هذا الحديث التحذير من كون الإنسان لا يهتم إلا بنفسه أي بتنعيم جسده، والذي ينبغي للعاقل أن يهتم بتنعيم قلبه، ونعيم قلب الإنسان بالفطرة وهي التزام دين الله عزَّ وجلَّ، وإذا نَعم القلب نَعم البدن ولا عكس.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال: «والله لا أتكلم اليوم فصلى»، رقم(٦٦٨٢)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم(٢٦٩٤).

قد ينعم البدن ويؤتى الإنسان من الدنيا ما يؤتى من زهرتها، ولكن قلبه في جحيم والعياذ بالله.

وإذا شئت أن تتبين هذا فاقرأ قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، لم يقل فلننعمن أبدانهم، بل قال: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ وذلك بما يجعل الله في قلوبهم من الأنس، وانشراح الصدر، وطمأنينة القلب وغير ذلك، حتى إن بعض السلف قال: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف: يعني من انشراح الصدر، ونور القلب، والطمأنينة، والسكون.

أسأل الله أن يشرح قلبي وقلوبكم للإسلام، وينورها بالعلم والإيمان إنه جواد كريم.

* * *

٥/٢٥٦ ـ وعنه أنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ ـ أَوْ شَابًّا ـ فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا أَوْ عَنْهُ، فقالوا: مَاتَ. قالَ: «أفَلا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي» فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أمْرَهَا، أوْ أمْرَهُ، فقال: «دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ» فَدَلُّوهُ فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قال: «إنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أهْلِهَا، وَإنَّ اللهَ تَعَالَى يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلاتِي عَلَيْهِمْ» متفقٌ عليه[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر...، رقم(١٣٣٧)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر، رقم(٩٥٦).

قوله: «تَقُمُّ» هو بفتح التَّاءِ وَضَمِّ الْقَافِ: أيْ تَكْنُسُ. «والْقُمَامَةُ» الْكُنَاسَةُ. «وآذَنْتُموني» بِمَدِّ الهَمْزَةِ: أيْ أعْلَمْتُمُوني.

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأة سوداء كان تقم المسجد أو شابًّا، وأكثر الروايات على أنها امرأة سوداء، يعني ليست من نساء العرب كانت تقم المسجد: يعني تنظفه وتزيل القمامة، فماتت في الليل فصغر الصحابة رضي الله عنهم شأنها، وقالوا: لا حاجة إلى أن نخبر النبي ﷺ في هذا الليل، ثم خرجوا بها فدفنوها، ففقدها النبي ﷺ فقالوا: إنها ماتت، فقال: «**أفلا كنتم آذنتموني**» يعني أعلمتموني حين ماتت، ثم قال: «**دلوني على قبرها**» فدلوه، فصلى عليها، ثم قال ﷺ: «**إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله ينورها لهم بصلاتي عليهم**».

ففي هذا الحديث عدة فوائد:

منها أن النبي ﷺ إنما يعظم الناس بحسب أعمالهم، وما قاموا به من طاعة الله وعبادته.

ومن الفوائد جواز تولي المرأة لتنظيف المسجد، وأنه لا يحجر ذلك على الرجال فقط؛ بل كل من احتسب ونظف المسجد فله أجره؛ سواء باشرته المرأة، أو استأجرت من يقم المسجد على حسابها.

ومن فوائد هذا الحديث: مشروعية تنظيف المساجد، وإزالة القمامة عنها، وقد قال النبي ﷺ: «**عرضت عليَّ أجور أمتي حتى القذاة يخرجها**

الرجلِ من المسجد»(١)، القذاة: الشيء الصغير، يخرجه الرجل من المسجد فإنه يؤجر عليه.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ أمر ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب، فالمساجد بيوت الله ينبغي العناية بها وتنظيفها، ولكن لا ينبغي زخرفتها وتنقيشها بما يوجب أن يلهو المصلون بما فيها من الزخرفة، فإن النبي ﷺ قال: «**لتزخرفنها - يعني المساجد - كما زخرفها اليهود والنصارى**»(٢).

ومن فوائد هذا الحديث أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولهذا قال: «دلوني على قبرها» فإذا كان لا يعلم الشيء المحسوس فالغائب من باب أولى، فهو ﷺ لا يعلم الغيب، وقد قال الله له: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال له: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ومن فوائد هذا الحديث مشروعية الصلاة على القبر لمن لم يصلّ عليه قبل الدفن؛ لأن النبي ﷺ خرج فصلى على القبر حيث لم يصلّ عليها قبل الدفن، ولكن هذا مشروع لمن مات في عهدك وفي عصرك، أما من مات

---

(١) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ماله من الأجر، رقم(٢٩١٦)، وأبوداود، كتاب الصلاة، باب في كنس المسجد، رقم(٤٦١).
(٢) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب بنيان المساجد، بدون رقم.

سابقًا فلا يشرع أن تصلي عليه، ولهذا لا يشرع لنا أن نصلي على النبي ﷺ على قبره، أو على قبر أبي بكر، أو عمر، أو عثمان، أو غيرهم من الصحابة، أو غيرهم من العلماء والأئمة.

وإنما تشرع الصلاة لمن مات في عهدك، فمثلاً إذا مات إنسان قبل ثلاثين سنة وعمرك ثلاثون سنة؛ فإنك لا تصلي عليه صلاة الميت؛ لأنه مات قبل أن تخلق وقبل أن تكون من أهل الصلاة، أما من مات وأنت قد كنت من أهل الصلاة، من قريب أو أحد تحب أن تصلي عليه فلا بأس.

فلو فرض أن رجلاً مات قبل سنة أو سنتين، وأحببت أن تصلي على قبره وأنت لم تصلّ عليه من قبل فلا بأس.

ومن فوائد هذا الحديث: حسن رعاية النبي ﷺ لأمته، وأنه كان يتفقدهم ويسأل عنهم، فلا يشتغل بالكبير عن الصغير؛ كل ما يهم المسلمين فإنه يسأل عنه ﷺ.

ومن فوائد هذا الحديث جواز سؤال المرء ما لا تكون به منّة في الغالب؛ لأن الرسول ﷺ قال: «دلوني على قبرها» وهذا سؤال، لكن مثل هذا السؤال ليس فيه منّة، بخلاف سؤال المال فإن سؤال المال محرم، يعني لا يجوز أن تسأل شخصًا مالاً وتقول أعطني عشرة ريالات أو مائة ريال، إلا عند الضرورة.

أما سؤال غير المال مما لا يكون فيه منّة في الغالب؛ فإن هذا لا بأس به، ولعل هذا مخصّص لما كان الرسول ﷺ يبايع أصحابه عليه حيث كان يبايعهم ألا يسألوا الناس شيئًا.

وربما يؤخذ من هذا الحديث جواز إعادة الصلاة على الجنازة، لمن صلى عليها من قبل إذا وجد جماعة؛ لأن الظاهر أن الذين خرجوا مع النبي ﷺ صلّوا معه، وعلى هذا فتشرع إعادة صلاة الجماعة إذا صلى عليها جماعة آخرون مرة ثانية.

وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم، وقالوا: كما أن صلاة الفريضة تعاد إذا صليتها ثم أدركتها مع جماعة أخرى، فكذلك صلاة الجنازة، وبناءً على ذلك لو أن أحدًا صلى على جنازة في المسجد، ثم خرجوا بها للمقبرة، ثم قام أناس يصلون عليها جماعة؛ فإنه لا حرج ولا كراهة في أن تدخل مع الجماعة الآخرين فتعيد الصلاة؛ لأن إعادة الصلاة هنا لها سبب، ليست مجرد تكرار بل لها سبب، وهو وجود الجماعة الأخرى.

فإذا قال قائل: إذا صليت على القبر فأين أقف؟ فالجواب أنك تقف وراءه تجعله بينك وبين القبلة، كما هو الشأن فيما إذا صليت عليه قبل الدفن.

* * *

٦/٢٥٧ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ» رواه مسلم[١].

٧/٢٥٨ ـ وعن أُسَامَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الضعفاء والخاملين، رقم(٢٦٢٢).

أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ. وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا النِّسَاءُ» متفقٌ عليه(١).

«وَالجَدُّ» بفتح الجيم: الحَظُّ وَالغِنى، وقوله: «مَحْبُوسُونَ» أيْ: لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ بَعْدُ فِي دُخُول الجَنَّةِ.

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره». وأشعث من صفات الشعر، وشعره أشعث يعني ليس له ما يدهن به الشعر، ولا ما يرجله، وليس يهتم بمظهره، وأغبر يعني أغبر اللون، أغبر الثياب، وذلك لشدة فقره.

مدفوع بالأبواب: يعني ليس له جاه، إذا جاء إلى الناس يستأذن لا يأذنون له، بل يدفعونه بالباب؛ لأنه ليس له قيمة عند الناس لكن له قيمة عند رب العالمين، لو أقسم على الله لأبره، لو قال: والله لا يكون كذا لم يكن، والله ليكونن كذا لكان. لو أقسم على الله لأبره، لكرمه عند الله عزَّ وجلَّ ومنزلته.

فبأي شيء يحصل هذا؟ فربما يكون رجل أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله ما أبره، ورب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا...، رقم(٥١٩٦)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب أكثر أهل الجنة الفقراء..، رقم(٢٧٣٦).

أقسم على الله لأبره. فما هو الميزان؟

الميزان تقوى الله عزَّ وجلَّ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فمن كان أتقى لله فهو أكرم عند الله، ييسر الله له الأمر، يجيب دعاءه، ويكشف ضره، ويبر قسمه.

وهذا الذي أقسم على الله لن يقسم بظلم لأحد، ولن يجترئ على الله في ملكه، ولكنه يقسم على الله فيما يرضي الله ثقة بالله عزَّ وجلَّ، أو في أمور مباحة ثقة بالله عزَّ وجلَّ.

وقد مر علينا في قصة الربيع بنت النضر وأخيها أنس بن النضر؛ فإن الربيع كسرت ثنية جارية من الأنصار، فاحتكموا إلى الرسول ﷺ، فأمر النبي ﷺ أن تكسر ثنية الربيع؛ لأنها كسرت ثنية الجارية الأنثى، فقال أخوها أنس: يا رسول الله، تكسر ثنية الربيع؟ قال: «نعم، كتاب الله القصاص، السن بالسن» قال: والله لا تكسر ثنية الربيع. قال ذلك ثقة بالله عزَّ وجلَّ، ورجاءً لتيسيره وتسهيله.

فأقسم هذا القسم، ليس ردًّا لحكم الرسول، ولكن ثقة بالله عزَّ وجلَّ، فهدى الله أهل الجارية ورضوا بالدية أو عفوا، فقال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»(١)؛ لأنه يقسم على الله في شيء يرضاه الله عزَّ وجلَّ، إحسانًا في ظنه بالله عزَّ وجلَّ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب الصلح في الدية، رقم(٢٧٠٣)، ومسلم، كتاب القسامة، باب إثبات القصاص، رقم(١٦٧٥).

أما من أقسم على الله تأليًا على الله، واستكبارًا على عباد الله، وإعجابًا بنفسه، فهذا لا يبر الله قسمه؛ لأنه ظالم ومن ذلك قصة الرجل العابد الذي كان يمر برجل مسرف على نفسه، فقال: والله لا يغفر الله لفلان، أقسم أن الله لا يغفر له، لماذا يقسم؟ هل المغفرة بيده؟ هل الرحمة بيده؟ فقال الله جل وعلا: «من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟» استفهام إنكار «فإنِّي قد غفرت له وأحبطت عملك»[1]؛ نتيجة سيئة والعياذ بالله، لم يبر الله بقسمه، بل أحبط عمله؛ لأنه قال ذلك إعجابًا بعمله، وإعجابًا بنفسه، واستكبارًا على عباد الله عزَّ وجلَّ.

أما حديث أسامة بن زيد، فهو أن النبي ﷺ يقول: «قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين»، يعني أكثرهم؛ أكثر ما يدخل الجنة الفقراء؛ لأن الفقراء في الغالب أقرب إلى العبادة والخشية لله من الأغنياء ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، والغني يرى أنه مستغن بماله، فهو أقل تعبدًا من الفقير، وإن كان من الأغنياء من يعبد الله أكثر من الفقراء، لكن الغالب. «وأصحاب الجد محبوسون» يعني أصحاب الحظ والغنى محبوسون لم يدخلوا الجنة بعد؛ الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء، «غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار».

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله، رقم(٢٦٢١).

فقسم الرسول ﷺ الناس إلى أقسام ثلاثة:

أهل النار دخلوا النار ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ، والفقراء دخلوا الجنة، والأغنياء من المؤمنين موقوفون محبوسون، إلى أن يشاء الله.

أما أهل النار فأخبر الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق أن عامة من دخلها النساء؛ أكثر من يدخل النار النساء؛ لأنهن أصحاب فتنة، ولهذا قال لهن الرسول ﷺ يوم عيد من الأعياد: «يا معشر النساء، تصدقن، ولو من حليكن فإنكن أكثر أهل النار» قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: «لأنكن تكثرن اللعن وتكفرن العشير»(١).

«تكثرن اللعن»: أي السب والشتم؛ فلسانهن سليط، وكيدهن عظيم.

«وتكفرن العشير»: أي المعاشر وهو الزوج، لو أحسن إليها الدهر كله، ثم رأت سيئة واحدة قالت: ما رأيت خيرًا قط، تكفر النعمة ولا تقر بها.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أنه يجب على الإنسان أن يحترز من فتنة الغنى، فإن الغنى قد يُطغي، وقد يؤدي بصاحبه إلى الأشر، والبطر، ورد الحق، وغمط الناس، فاحذر نعمتين: الغنى والصحة. والفراغ أيضًا سببٌ للفتنة، فهذه الثلاث: الغنى والصحة والفراغ، مما يغبن فيها كثيرٌ من الناس، «نعمتان مغبون فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ»(٢)،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم(١٤٦٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات. . .، رقم(٧٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم(٦٤١٢).

والفراغ في الغالب يأتي من الغنى؛ لأن الغني منكف عن كل شيء ومتفرغ، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من فتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال.

* * *

٨/ ٢٥٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إلاَّ ثَلاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فقال: يَا رَبِّ أمِّي وَصَلاتِي؛ فَأقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ فَانْصَرَفَتْ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أتَتْهُ وهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فقال: أيْ رَبِّ أمِّي وَصَلاَتِي؛ فَأقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أتَتْهُ وهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فقال: أيْ رَبِّ أمِّي وَصَلاَتِي؛ فَأقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ. فَتَذَاكَرَ بَنُو إسْرَائيل جُرَيجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إنْ شِئْتُمْ لأفْتِنَنَّهُ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إلَيْهَا، فَأتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأوِي إلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا. فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فقال: مَا شَأنُكُمْ؟ قالوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ. قال: أيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاؤُوا بِهِ فقال: دَعُونِي حَتَّى أصَلِّيَ، فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ وقال: يَا غُلامُ مَنْ أبُوكَ؟ قال: فُلانٌ الرَّاعِي، فَأقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قال: لا، أعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا.

وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ،

فقالت أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيهِ فقال: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ. فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى رسول الله ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِأصْبُعِه السَّبَّابَةِ في فِيهِ، فَجَعَلَ يَمُصُّهَا. قال: وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَقْتِ، وَهِي تَقُولُ: حسْبِي اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ: فقالت أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَل ابْنِي مِثْلَها، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فقال: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَهُنَالِكَ تَرَاجَعَا الحَدِيثَ فقالت: مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيئَةِ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَل ابْنِي مِثْلهُ فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الأمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَقْتِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَل ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا؟! قالَ: إنَّ ذلِكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لها زَنَيْتِ، وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقْتِ، وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا» متفقٌ عليه(١).

«وَالمُومِسَاتُ» بضَمِّ الميمِ الأولَى وإسكانَ الواوِ وكسرِ الميم الثانيةِ وبالسين المهملَة، وَهُنَّ الزَّوَانِي. والمُومِسَةُ: الزَّانِيَةُ. وقوله: «دَابَّةٌ فَارِهَةٌ» بِالْفَاءِ: أيْ حَاذِقَةٌ نَفِيسَةٌ. «والشَّارَةُ» بِالشِّينِ المُعْجَمَةِ وَتَخْفِيفِ الرَّاءِ: وَهِيَ الجَمَالُ الظَّاهِرُ في الهَيْئَةِ وَالمَلْبَسِ. وَمَعْنَى «تَرَاجَعَا الحَدِيثَ» أيْ: حَدَّثَتِ الصَّبِيَّ وَحَدَّثَهَا، والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ. . . ﴾، رقم(٣٤٣٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة، رقم(٢٥٥٠).

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن نبينا ﷺ أنه قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة».

أولاً: عيسى بن مريم ﷺ، وعيسى بن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل، بل آخر الأنبياء قبل محمد ﷺ، فإنه لم يكن بينه وبين النبي ﷺ نبي، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فليس بين محمد ﷺ وبين عيسى بن مريم نبي.

وأما ما يذكر عند المؤرخين من وجود أنبياء في العرب كخالد بن سنان وغيره، فهذا كذب ولا صحة له.

وعيسى بن مريم كان آية من آيات الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، كان آية في منشئه، وآية في وضعه.

أما في منشئه فإن أمه مريم رضي الله عنها حملت به من غير أب، حيث أرسل الله عزَّ وجلَّ جبريل إليها فتمثل لها بشرًا سويًّا، ونفخ في فرجها فحملت بعيسى ﷺ. والله على كل شيء قدير، فالقادر على أن يخلق الولد من المني قادر على أن يخلقه من هذه النفخة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

لا يستعصي على قدرة الله شيء، إذا أراد شيئًا قال له: كن فكان، فحملت وولدت، وقيل: إنه لم يبق في بطنها كما تبقى الأجنة، ولكنها

حملته وشب سريعًا، ثم وضعته.

وكان آية في وضعه، فجاءها المخاض إلى جذع النخلة، فقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] هي لم تتمن الموت لكنها تمنت أنه لم يأتها هذا الشيء حتى الموت ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]، أي: عين تمشي تحت النخلة.

ثم قال: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]، تهز الجذع وهي امرأة قد أتاها المخاض، فتتساقط من هزها الرطب، رطبًا جنيًّا لا يفسد إذا وقع على الأرض، وهذا خلاف العادة؛ فالعادة أن المرأة عند النفاس تكون ضعيفة، والعادة عند هز النخلة ألا تهز من أسفل، بل تهز من فوق، لأنها جذع لا تهتز لو هزها الإنسان، والعادة أيضًا أن الرطب إذا سقط؛ فإنه يسقط على الأرض ويتمزق، لكن الله قال: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٥، ٢٦]، الله أكبر! فذلك من آيات الله عزَّ وجلَّ. فالله على كل شيء قدير.

ولما وضعت الولد أتت به قومها تحمله، تحمل طفلاً وهي لم تتزوج، فقالوا لها يعرضونها بالبغاء، قالوا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، يعني كأنهم يقولون: من أين جاءك الزنىٰ ـ نسأل الله العافية ـ وأبوك ليس امرأ سوء وأمك ليست بغية؟ وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان إذا زنى فقد يبتلى نسله بالزنى والعياذ بالله، كما جاء في الحديث في الأثر: «من زنى زنى أهله».

فهؤلاء قالوا: ما كان أبوكِ امرأ سوءٍ وما كانت أمك بغيًّا، فألهمها الله

عزَّ وجلَّ فأشارت إلى الطفل، أشارت إليه فكأنهم سخروا بها، قالوا: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، هذا غير معقول!

ولكنه التفت إليهم وقال هذا الكلام البليغ العجيب. قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣] سبع جمل ـ الله أكبر! ـ من طفل في المهد.

ولكن لا تتعجب فإن قدرة الله فوق كل شيء، أليست جلودنا وأيدينا وأرجلنا وألسنتنا يوم القيامة تشهد علينا بما فعلنا؟ بلى. تشهد.

أليست الأرض تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها؟ بلى. الأرض تشهد بما عملت عليها من قول أو فعل ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤، ٥].

إذًا هذا كلام عيسى بن مريم، تكلم بهذه الكلمات العظيمة، سبع جمل وهو في المهد.

أما الثاني: فهو صاحب جريج، وجريج رجل عابد، انعزل عن الناس، والعزلة خيرٌ إذا كان في الخلطة شر، أما إذا لم يكن في الخلطة شر؛ فالاختلاط بالناس أفضل، قال النبي ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على**

أذاهم»[١].

لكن إذا كانت الخلطة ضررًا عليك في دينك، فانجُ بدينك، كما قال النبي ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنمٌ يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر»[٢] يعني يفر بدينه من الفتن.

فهنا جريج انعزل عن الناس، وبنى صومعة - يعني مكانًا يتعبد فيه لله عزَّ وجلَّ - فجاءته أمه ذات يوم وهو يصلي فنادته، فقال في نفسه: أي ربي أمي وصلاتي هل أجيب أمي وأقطع الصلاة، أو أستمر في صلاتي؟ فمضى في صلاته.

وجاءته مرة ثانية، وقالت له مثل الأولى، فقال مثل ما قال، ثم استمر في صلاته، فجاءته مرة ثالثة فدعته، فقال مثل ما قال ثم استمر في صلاته، فأدركها الغضب، وقالت: «اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات» أي الزواني؛ حتى ينظر في وجوه الزواني والعياذ بالله.

والإنسان إذا نظر في وجوه الزواني افتتن؛ لأن نظر الرجل إلى المرأة فتنة. فكيف إذا كانت والعياذ بالله زانية بغية؟! فأشد فتنة؛ لأنه ينظر إليها على أنها تمكنه من نفسها فيفتتن.

ويُستفاد من هذه الجملة من هذا الحديث أن الوالدين إذا ناداك وأنت تصلي، فإن الواجب إجابتهما، لكن بشرط ألا تكون الصلاة فريضة، فإن

---

(١) رواه الترمذي، كتاب القيامة، بدون ذكر الباب، رقم(٢٥٠٧)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم(٤٠٣٢).
(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن، رقم(١٩).

كانت فريضة فلا يجوز أن تجيبهما، لكن إذا كانت نافلة فأجبهما.

إلا إذا كانا ممن يقدرون الأمور قدرها، وأنهما إذا علما أنك في صلاة عذراك فهنا أَشِر إليهما بأنك في صلاة؛ إما بالنحنحة، أو بقول: سبحان الله، أو برفع صوتك في آية تقرؤها، أو دعاء تدعو به، حتى يشعر المنادي بأنك في صلاة، فإذا علمت أن هذين الأبوين: الأم والأب عندهما مرونة؛ يعذرانك إذا كنت تصلي ألا تجيب؛ فنبههم على أنك تصلي.

فمثلاً إذا جاءك أبوك وأنت تصلي سنة الفجر، قال: يا فلان؛ وأنت تصلي، فإن كان أبوك رجلاً مرنًا يعذرك فتنحنح له، أو قل: سبحان الله، أو ارفع صوتك بالقراءة أو بالدعاء أو بالذكر الذي أنت فيه، حتى يعذرك.

وإن كان من الآخرين الذين لا يعذرون، ويريدون أن يكون قوله هو الأعلى فاقطع صلاتك وكلمهم، وكذلك يُقال في الأم.

أما الفريضة فلا تقطعها لأحد، إلا عند الضرورة، كما لو رأيت شخصًا تخشى أن يقع في هلكة؛ في بئر، أو في بحر، أو في نار، فهنا اقطع صلاتك للضرورة، وأما لغير ذلك فلا يجوز قطع الفريضة.

ويستفاد من هذه القطعة أن دعاء الوالد إذا كان بحق؛ فإنه حريٌّ بالإجابة، فدعاء الوالد على ولده إذا كان بحق؛ فهو حري أن يجيبه الله، ولهذا ينبغي لك أن تحترس غاية الاحتراس من دعاء الوالدين، حتى لا تعرض نفسك لقبول الله دعاءهما فتخسر.

وفي الحديث أيضًا دليلٌ على أن الشفقة التي أودعها الله في الوالدين،

قد يوجد ما يرفع هذه الشفقة؛ لأن هذه الدعوة عظيمة من هذه المرأة ؛ أن تدعو على ولدها أن لا يموت حتى ينظر في وجوه المومسات، لكن شدة الغضب والعياذ بالله أوجب لها أن تدعو بهذا الدعاء.

وفي قصته من الفوائد غير ما سبق أن الإنسان إذا تعرف إلى الله تعالى في الرخاء؛ عرفه في الشدة، فإن هذا الرجل كان عابدًا يتعبد لله عزَّ وجلَّ، فلما وقع في الشدة العظيمة، أنجاه الله منها. لما جاء إليه هؤلاء الذين كادوا له هذا الكيد العظيم، ذهبت هذه المرأة إلى جريج لتفتنه ولكنه لم يلتفت إليها، فإذا راعي غنم يرعاها ثم يأوي إلى صومعة هذا الرجل، فذهبت إلى الراعي فزنى بها والعياذ بالله، فحملت منه.

ثم قالوا: إن هذا الولد ولد زنى من جريج ـ رموه بهذه الفاحشة العظيمة ـ فأقبلوا عليه يضربونه وأخرجوه من صومعته وهدموها، فطلب منهم أن يأتوا بالغلام الذي من الراعي، فلما أتوا به، ضرب في بطنه، وقال: من أبوك؟ ـ وهو في المهد ـ فقال: أبي فلان، يعني ذلك الراعي.

فأقبلوا إلى جريج يقبّلونه ويتمسّحون به، وقالوا له: هل تريد أن نبني لك صومعتك من ذهب؟ لأنهم هدموها ظلمًا، قال: لا، ردوها على ما كانت عليه من الطين، فبنوها له.

ففي هذه القصة أن هذا الصبي تكلم وهو في المهد، وقال: إن أباه فلان الراعي، واستدل بعض العلماء بهذا الحديث على أن ولد الزنى يلحق الزاني؛ لأن جريجًا قال: من أبوك؟ قال: أبي فلان الراعي، وقد قصها

النبي ﷺ علينا للعبرة، فإذا لم ينازع الزاني في الولد واستلحق الولد فإنه يلحقه، وإلى هذا ذهب طائفة يسيرة من أهل العلم.

وأكثر العلماء على أن ولد الزنى لا يلحق الزاني؛ لقول النبي ﷺ: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»(١).

ولكن الذين قالوا بلحوقه قالوا هذا إذا كان له منازع، كصاحب الفراش، فإن الولد لصاحب الفراش، وأما إذا لم يكن له منازع واستلحقه فإنه يلحقه؛ لأنه ولده قدرًا، فإن هذا الولد لا شك أنه خلق من ماء الزاني فهو ولده قدرًا، ولم يكن له أب شرعي ينازعه، وعلى هذا فيلحق به.

قالوا: وهذا أولى من ضياع نسب هذا الولد؛ لأنه إذا لم يكن له أب ضاع نسبه، وصار ينسب إلى أمه.

وفي هذا الحديث دليلٌ على صبر هذا الرجل - جريج - حيث إنه لم ينتقم لنفسه، ولم يكلفهم شططًا فيبنون له صومعته من ذهب، وإنما رضي بما كان رضي به أولاً من القناعة وأن تبنى من الطين.

أما الثالث الذي تكلم في المهد، فهو هذا الصبي الذي مع أمه يرضع، فمر رجل على فرس فارهة وعلى شارة حسنة، وهو من أكابر القوم وأشرافهم، فقالت أم الصبي: اللهم اجعل ابني هذا مثله، فترك الصبي الثدي وأقبل على أمه بعد أن نظر إلى هذا الرجل، فقال: اللهم لا تجعلني

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب شراء المملوك من الحربي...، رقم (٢٢١٨)، ومسلم، كتاب الرضاع، باب الولد للفراش وتوقي الشبهات، رقم (١٤٥٧).

مثله.

وحكى النبي ﷺ ارتضاع هذا الطفل من ثدي أمه بأن وضع إصبعه السبابة في فمه يمص، تحقيقًا للأمر ﷺ.

فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبلوا بجارية؛ امرأة يضربونها ويقولون لها: زنيت، سرقت؛ وهي تقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، فقالت المرأة أم الصبي وهي ترضعه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فأطلق الثدي، ونظر إليها، وقال: اللهم اجعلني مثلها.

فتراجع الحديث مع أمه؛ طفل قام يتكلم معها، قالت: إني مررت أو مرَّ بي هذا الرجل ذو الهيئة الحسنة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت أنت: اللهم لا تجعلني مثله، فقال: نعم؛ هذا رجل كان جبارًا عنيدًا فسألت الله ألا يجعلني مثله.

أما المرأة فإنهم يقولون: زنيت وسرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقلت: اللهم اجعلني مثلها. أي اجعلني طاهرًا من الزنىٰ والسرقة مفوضًا أمري إلى الله، في قولها: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي هذا آية من آيات الله؛ أن يكون هذا الصبي يشعر وينظر ويتأمل ويفكر، وعنده شيء من العلم؛ يقول: هذا كان جبارًا عنيدًا. وهو طفل، وقال لهذه المرأة: اللهم اجعلني مثلها؛ علم أنها مظلومة وأنها بريئة مما اتهمت به، وعلم أنها فوضت أمرها إلى الله عزَّ وجلَّ، فهذا أيضًا من آيات الله أن يكون عند هذا الصبي شيء من العلم.

والحاصل أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير؛ فقد يحصل من

الأمور المخالفة للعادة ما يكون آية من آياته إما تأييدًا لرسوله أو تأييدًا لأحد من أوليائه.

* * *

٣٣ ـ بابُ ملاطفة اليتيم والبنات
وسائر الضَّعفَة والمساكين والمنكسرين، والإحسان إليهم، والشفقة عليهم، والتواضع معهم، وخفض الجناح لهم

قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٢٨].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب ملاطفة اليتامى والضعفة والبنات، ونحوهم ممن هم محل الشفقة والرحمة؛ وذلك أن دين الإسلام دين الرحمة والعطف والإحسان، وقد حث الله عزَّ وجلَّ على الإحسان في عدة آيات من كتابه، وبين سبحانه وتعالى أنه يحب المحسنين، والذين هم في حاجة إلى الإحسان يكون الإحسان إليهم أفضل وأكمل؛ فمنهم اليتامى.

واليتيم هو الصغير الذي مات أبوه قبل بلوغه؛ سواء كان ذكرًا أو أنثى، ولا عبرة بوفاة الأم، يعني أن اليتيم هو الصغير الذي مات أبوه قبل بلوغه وإن كان له أم، وأما من ماتت أمه، وأبوه موجود فليس بيتيم، خلافًا لما يفهمه عوام الناس؛ حيث يظنون أن اليتيم هو الذي ماتت أمه وليس كذلك، بل اليتيم هو الذي مات أبوه.

ويُسمي يتيمًا ليتمه، واليتم هو الانفراد؛ لأن هذا الصغير انفرد عن

كاسب، وهو صغير لا يستطيع الكسب.

وقد أوصى الله سبحانه وتعالى في عدة آيات باليتامى، وجعل لهم حقًّا خاصًّا؛ لأن اليتيم قد انكسر قلبه بموت أبيه، فهو محل للعطف والرحمة قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

وكذلك البنات والنساء محل العطف والشفقة والرحمة؛ لأنهن ضعيفات. ضعيفات في العقل، وفي العزيمة، وفي كل شيء، فالرجال أقوى من النساء في الأبدان والعقول والأفكار والعزيمة وغير ذلك، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤].

وكذلك أيضًا المنكسرون؛ يعني الذين أصابهم شيء فانكسروا من أجله، وليس هو كسر العظم بل كسر القلب، يعني مثلاً أصابته جائحة اجتاحت ماله، أو مات أهله أو مات صديق له فانكسر قلبه، والمهم أن المنكسر ينبغي ملاطفته، ولهذا شرعت تعزية من مات له ميت إذا أصيب بموته؛ يُعزى ويلاطف ويُبين له أن هذا أمر الله، وأن الله سبحانه وتعالى إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون وما أشبه ذلك.

وكذلك ينبغي خفض الجناح لهم ولين الجانب، قال الله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، اخفض جناحك يعني تطامن لهم وتهاون لهم، وقال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ يعني حتى لو شمخت نفسك وارتفعت في الهواء كما يرتفع الطير فاخفض جناحك، ولو كان عندك من

المال ولك من الجاه والرئاسة ما يجعلك تتعالى على الخلق، وتطير كما يطير الطير في الجو فاخفض الجناح، اخفض الجناح حتى يكونوا فوقك، ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا أمر للرسول عليه الصلاة والسلام وهو أمر للأمة كلها.

فيجب على الإنسان أن يكون لين الجانب لإخوانه المؤمنين، ويجب عليه أيضًا أنه كلما رأى إنسانًا أتبع لرسول الله ﷺ فليخفض له جناحه أكثر؛ لأن المتبع للرسول عليه الصلاة والسلام أهل لأن يُتواضع له، وأن يكرم، وأن يعزز، لا لأنه فلان بن فلان لكن لأنه اتبع الرسول عليه الصلاة والسلام، كل من اتبع الرسول عليه الصلاة والسلام فهو حبيبنا؛ وهو أخونا، وهو صديقنا، وهو صاحبنا، وكل من كان أبعد عن اتباع الرسول فإننا نبتعد عنه بقدر ابتعاده عن اتباع الرسول، هكذا المؤمن يجب أن يكون خافضًا جناحه لكل من اتبع الرسول عليه الصلاة والسلام، اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين.

وقال الله تعالى لرسوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ٢٨]، فاصبر نفسك: احبسها مع هؤلاء القوم السادة الكرماء الشرفاء، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي: يعني صباحًا ومساءً، لا رياء ولا سمعة، ولكنهم يريدون وجهه. يريدون وجه الله عزَّ وجلَّ في دعائهم له وعبادتهم له وذكرهم له وتسبيحهم له.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ٢٨]، يعني لا

تبعد عنهم، لا تعد دائمًا عنهم عيناك: أي لا تتجاوز عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا.

فمثلاً إذا كان هناك رجلان؛ أحدهما مقبل على طاعة الله يدعو ربه بالغداة والعشي، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم، ويحسن إلى الناس، وآخر غني كبير عنده أموال وقصور وسيارات وخدم، أيهم أحق أن نصبر أنفسنا معه؟ الأول أحق أن نصبر أنفسنا معه، وأن نجالسه، وأن نخالطه وأن لا نتعداه نريد زينة الحياة الدنيا.

الحياة كلها عرض زائل، وما فيها من النعيم أو من السرور فإنه محفوف بالأحزان والتنكيد، ما من فرح في الدنيا إلا ويتلوه ترح وحزن. قال ـ أظنه ـ ابن مسعود رضي الله عنه ما ملئ بيت فرحًا إلا ملئ حزنًا وترحًا[(١)]، وصدق رضي الله عنه: لو لم يكن من ذلك إلا أنهم سيموتون تباعًا واحدًا بعد الثاني، كلما مات واحد حزنوا عليه، فتتحول هذه الأفراح والمسرات إلى أحزان وأتراح، فالدنيا كلها ليست بشيء.

إذًا لا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، بل كن معهم وكن ناصرًا لهم، ولا يهمنك ما متعنا به أحدًا من الدنيا، وهذا كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢]، أسأل الله أن يحسن لي ولكم العاقبة، وأن يجعل العاقبة لنا ولإخواننا المسلمين حميدة.

---

(١) أخرجه وكيع بن الجراح في الزهد (٣٨٢٠)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٨٧)، وأبونعيم في الحلية (٢/ ٩٧).

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩، ١٠].

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما ساقه من الآيات الكريمة في باب الحنو على الفقراء واليتامى والمساكين وما أشبههم، قال: وقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ٦ ـ ١١]، الخطاب في قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ ﴾ للنبي ﷺ. يقرر الله تعالى في هذه الآيات أن الرسول ﷺ كان يتيمًا، فإنه عليه الصلاة والسلام عاش من غير أم ولا أب، فكفله جده عبد المطلب، ثم مات وهو في السنة الثامنة من عمره ﷺ، ثم كفله عمه أبو طالب.

فكان يتيمًا وكان ﷺ يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، يعني على شيء يسير من الدراهم؛ لأنه ما من نبي بعثه الله إلا ورعى الغنم، فكل الأنبياء الذين أرسلوا أول أمرهم كانوا رعاة غنم، من أجل أن يعرفوا ويتمرنوا على الرعاية وحسن الولاية، واختار الله لهم أن تكون رعيتهم غنمًا؛ لأن راعي الغنم يكون عليه السكينة والرأفة والرحمة؛ لأنه يرعى مواشي ضعيفة بخلاف رعاة الإبل، رعاة الإبل أكثر ما يكون فيهم الجفاء والغلظة؛ لأن الإبل كذلك غليظة قوية جبارة.

فنشأ ﷺ يتيمًا، ثم إن الله سبحانه وتعالى أكرمه فيسر له زوجة صالحة، وهي أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها؛ تزوجها وله خمس وعشرون من العمر ولها أربعون سنة، وكانت حكيمة عاقلة صالحة، رزقه

الله منها أولاده كلهم من بنين وبنات إلا إبراهيم فإنه كان من سريته مارية القبطية، المهم أن الله يسرها له وقامت بشئونه، ولم يتزوج سواها ﷺ حتى ماتت.

أكرمه الله عزَّ وجلَّ بالنبوة فكان أول ما بدئ بالوحي أن يرى الرؤيا في المنام، فإذا رأى الرؤيا في المنام جاءت مثل فلق الصبح في يومها بينة واضحة؛ لأن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، فدعا إلى الله وبشر وأنذر وتبعه الناس، وكان هذا اليتيم الذي يرعى الغنم كان إمامًا لأمة هي أعظم الأمم، وكان راعيًا لهم عليه الصلاة والسلام راعيًا للبشر ولهذه الأمة العظيمة.

قال: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ [الضحى: ٦]، آواك الله بعد يتمك، ويسر لك من يقوم بشئونك حتى ترعرعت، وكبرت، ومنَّ الله عليك بالرسالة العظمى.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧]، وجدك ضالاً: يعني غير عالم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال الله تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢]، ولكن صار بهذا الكتاب العظيم عالمًا كامل الإيمان عليه الصلاة والسلام، وجدك ضالاً أي غير عالم ولكنه هداك. بماذا هداه؟ هداه الله بالقرآن.

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا ﴾ يعني فقيرًا ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ أغناك، وفتح الله عليك الفتوح

حتى كان يقسم ويعطي الناس، وقد أعطى ذات يوم رجلاً غنمًا بين جبلين، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة عليه الصلاة والسلام.

ثم تأملوا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ ما قال فآواك بل قال: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ ولم يقل فهداك ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ ولم يقل فأغناك. لماذا؟ لمناسبتين؛ إحداهما لفظية، والثانية معنوية.

أما اللفظية: فلأجل تناسب رؤوس الآيات كقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ١ - ٥] كل آخر الآيات ألفات، فقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، لو قال فآواك اختلف اللفظ، ووجدك ضالاً فهداك اختلف اللفظ، ووجدك عائلاً فأغناك اختلف اللفظ، لكن جعل الآيات كلها على فواصل حرف واحد.

المناسبة الثانية معنوية: وهي أعظم، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ هل آواه الله وحده أو آواه وآوى أمته؟ والجواب: الثاني، آواه الله وآوى على يديه أممًا لا يحصيهم إلا الله عزَّ وجلَّ، ووجدك ضالاً فهدى. هل هداه وحده؟ لا؛ هدى به أممًا عظيمة إلى يوم القيامة، ووجدك عائلاً فأغنى. هل أغناه الله وحده؟ لا؛ أغناه الله وأغنى به. كم حصل للأمة الإسلامية من الفتوحات العظيمة. ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠]، فأغناهم الله عزَّ وجلَّ بمحمد ﷺ.

إذًا ألم يجدك يتيمًا فآواك وآوى بك، ووجدك ضالاً فهداك وهدى

بك، ووجدك عائلاً فأغناك وأغنى بك، هكذا حال الرسول عليه الصلاة والسلام.

ثم قال: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴾ اذكر نفسك حين كنت يتيمًا، فلا تقهر اليتيم، بل سهل أمره؛ إذا صاح فسكته، وإذا غضب فأرضه، وإذا تعب فخفف عليه، وهكذا.

﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴾ السائل: يظهر من سياق الآيات أنه سائل المال الذي يقول أعطني مالاً، فلا تنهره لأنه قال: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾، فلما أغناك لا تنهر السائل. تذكر حالك حينما كنت فقيرًا، فلا تنهر السائل.

ويحتمل أن يُراد بالسائل سائل المال وسائل العلم، حتى الذي يسأل العلم لا تنهره. بل الذي يسأل العلم القه بانشراح صدر؛ لأنه لولا أنه محتاج ولولا أن عنده خوف الله عزَّ وجلَّ ما جاء يسأل، فلا تنهره اللهم إلا من تعنت فهذا لا حرج أن تنهره.

لو كنت تخبره ثم يقول لكل شيء: لماذا هذا حرام؟ ولماذا هذا حلال؟ لماذا حرم الله الربا وأحل البيع؟ لماذا حرم الله الأم من الرضاع؟ وأشياء كثيرة من قبيل هذا. فهذا الذي يتعنت انهره ولا حرج أن تغضب عليه.

كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام حين تشاجر رجل من الأنصار والزبير بن العوام، في الوادي حيث يأتي السيل، وكان الزبير رضي الله عنه حائطه قبل حائط الأنصاري فتنازعا؛ الأنصاري يقول للزبير: لا تحبس

الماء عني والزبير يقول: أنا أعلى فأنا أحق، فتشاجرا وتخاصما عند الرسول عليه الصلاة والسلام ـ فقال النبي ﷺ: «اسقِ يا زبير ثم أرسله إلى جارك»، وهذا حكم. فقال: أن كان ابن عمتك يا رسول الله! كلمة لكن الغضب حمله عليها والعياذ بالله، والزبير بن العوام بن صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول عليه الصلاة والسلام. قال: أن كان ابن عمتك يا رسول الله، فغضب الرسول ﷺ وقال: «اسق يا زبير حتى يصل إلى الجدر ثم أرسله إلى جارك»(١).

فالحاصل أن السائل للعلم لا تنهره، بل تلقه بصدر رحب وعلِّمه حتى يفهم، خصوصًا في وقتنا الآن، فكثير من الناس الآن يسألك وقلبه ليس معك. تجيبه بالسؤال ثم يفهمه خطأ، ثم يذهب يقول للناس: أفتاني العالم الفلاني بكذا وكذا، ولهذا ينبغي ألا تطلق الإنسان الذي يسألك حتى تعرف أنه عرف.

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ نعمة الله عليك حدث بها، قل الحمد لله؛ رزقني الله علمًا، رزقني الله مالاً، رزقني الله ولدًا وما أشبه ذلك.

والتحديث بنعمة الله نوعان: تحديث باللسان، وتحديث بالأركان.

تحديث باللسان: كأن تقول: أنعم الله عليّ؛ كنت فقيرًا فأغناني الله، كنت جاهلاً فعلمني الله، وما أشبه ذلك.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشرب والمساقاة، باب سكر الأنهار، رقم(٢٣٦٠)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم، رقم(٢٣٥٧).

والتحديث بالأركان: أن تُرى أثر نعمة الله عليك، فإن كنت غنيًّا فلا تلبس ثياب الفقراء بل البس ثيابًا تليق بك، وكذلك في المنزل، وكذلك في المركوب، في كل شيء دع الناس يعرفون نعمة الله عليك، فإن هذا من التحديث بنعمة الله عزَّ وجلَّ، ومن التحديث بنعمة الله عزَّ وجلَّ إذا كنت قد أعطاك الله علمًا أن تحدث الناس به وتعلم الناس؛ لأن الناس محتاجون.

وفقني الله والمسلمين لما يحب ويرضى.

* * *

وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في سياق الآيات التي فيها الحث على الرفق باليتامى ونحوهم من الضعفاء، قال: وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

﴿أَرَءَيْتَ﴾ يقول العلماء: إن معناها أخبرني، يعني أخبرني عن حال هذا الرجل وماذا تكون. والدين: الجزاء؛ يعني يكذب بالجزاء وباليوم الآخر ولا يصدق به، وعلامة ذلك أنه يدع اليتيم يعني يدفعه بعنف وشدة ولا يرحمه.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يحث الناس على طعام المسكين، وهو بنفسه لا يفعله أيضًا، ولا يُطعم المساكين، فحال هذا

والعياذ بالله أسوأ حال؛ لأنه لو كان يؤمن بيوم الدين حقيقة لرحم من أوصى الله برحمتهم، وحض على طعام المسكين.

وفي سورة الفجر يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨]، وهذه أبلغ مما في سورة الماعون لأنه قال: ﴿لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ وإكرامه أكثر من الوقوف بدون إكرام ولا إهانة، فاليتيم يجب أن يكرم.

وتأمل قوله: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فالمسكين حظه الإطعام ودفع حاجته، أما اليتيم فالإكرام. فإن كان غنيًّا فإنه يكرم ليُتمه ولا يطعم لغناه، وإن كان فقيرًا ـ أي اليتيم ـ فإنه يكرم ليتُمه ويطعم لفقره، ولكن أكثر الناس لا يبالون بهذا الشيء.

واعلم أن الرفق بالضعفاء واليتامى والصغار يجعل في القلب رحمة ولينًا وعطفًا وإنابة إلى الله عزَّ وجلَّ، لا يدركها إلا من جرب ذلك، فالذي ينبغي لك أن ترحم الصغار وترحم الأيتام وترحم الفقراء، حتى يكون في قلبك العطف والحنان والرحمة و «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»(١).

نسأل الله أن يعمنا والمسلمين برحمته وفضله إنه كريم جواد.

* * *

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ يعذب..، رقم(١٢٨٤)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم(٩٢٣).

١/ ٢٦٠ ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ النَّبيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبيِّ ﷺ: اطْرُدْ هؤلاءِ لا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا، وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلالٌ وَرَجُلانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ في نَفْسِ رسول الله ﷺ مَا شاءَ الله أنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] رواه مسلم[١].

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «كنا مع النبي ﷺ ستة نفر» وهذا في أول الإسلام في مكة؛ لأن سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام؛ أسلم وأسلم معه جماعة.

ومن المعلوم أن من أول الناس إسلامًا أبا بكر رضي الله عنه، بعد خديجة وورقة بن نوفل، وكان هؤلاء النفر ستة منهم ابن مسعود رضي الله عنه، وكان راعي غنم فقيرًا، وكذلك بلال بن أبي رباح وكان عبدًا مملوكًا، وكانوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام؛ يجلسون إليه ويستمعون له وينتفعون بما عنده، وكان المشركون العظماء في أنفسهم، يجلسون إلى النبي ﷺ فقالوا له: اطرد عنا هؤلاء، قالوا هذا احتقارًا لهؤلاء الذين يجلسون مع النبي ﷺ.

فوقع في نفس النبي ﷺ ما وقع، وفكر في الأمر، فأنزل الله تعالى:

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص . . . ، رقم(٢٤١٣).

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، نهاه الله عزَّ وجلَّ أن يطرد هؤلاء وإن كانوا فقراء، وإن لم يكن لهم قيمة في المجتمع، لكن لهم قيمة عند الله؛ لأنهم يدعون الله بالغداة والعشي، يعني صباحًا ومساءً، يدعونه دعاء مسألة فيسألونه رضوانه والجنة، ويستعيذون به من النار.

ويدعونه دعاء عبادة فيعبدون الله، وعبادة الله تشتمل على الدعاء، ففي الصلاة مثلاً يقول الإنسان: رب اغفرلي، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وما أشبه ذلك، ثم إن العابد أيضًا إنما يعبد لنيل رضا الله عزَّ وجلَّ.

وفي قوله: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ تنبيه على الإخلاص وأن الإخلاص له أثرٌ كبيرٌ في قبول الأعمال ورفعة العمال عند الله عزَّ وجلَّ، فكلما كان الإنسان في عمله أخلص؛ كان أرضى لله وأكثر لثوابه، وكم من إنسان يصلي وإلى جانبه آخر يصلي معه الصلاة، ويكون بينهما من الرفعة عند الله والثواب والجزاء كما بين السماء والأرض، وذلك لإخلاص النية عند أحدهما دون الآخر.

فالواجب على الإنسان أن يحرص غاية الحرص على إخلاص نيته لله في عبادته، وألا يقصد بعبادته شيئًا من أمور الدنيا؛ لا يقصد إلا رضا الله وثوابه حتى ينال بذلك الرفعة في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى في آخر الآية: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ يعني ليس عليك شيء منهم ولا عليهم

شيء منك، حساب الجميع على الله، وكل يجازى بعمله.

﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، الفاء هذه التي في (فتكون) تعود على قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ لا على قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾، فعندنا هنا في الآية فاءان: الفاء الأولى ﴿فَتَطْرُدَهُم﴾ وهذه مرتبة على قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾، و﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ مرتبة على قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ يعني فإن طردتهم فإنك من الظالمين.

ويُستفاد من هذا الحديث أن الإنسان ينبغي له أن يكون جليسه من أهل الخير الذين يدعون الله صباحًا ومساءً يريدون وجهه، وألا يهتم بالجلوس مع الأكابر، والأشراف، والأمراء، والوزراء، والحكام؛ بل لا ينبغي أن يجلس إلى هؤلاء إلا أن يكون في ذلك مصلحة، فإذا كان في ذلك مصلحة؛ مثل أن يريد أن يأمرهم بمعروف، أو ينهاهم عن منكر، أو يبين لهم ما خفي عليهم من حال الأمة، فهذا طيب وفيه خير.

أما مجرد الأنس بمجالستهم، ونيل الجاه بأنه جلس مع الأكابر، أو مع الوزراء، أو مع الأمراء، أو مع ولاة الأمور، فهذا غرض لا يحمد عليه العبد، إنما يحمد على الجلوس مع من كان أتقى لله؛ من غني وفقير، وحقير وشريف. فالمدار كله على رضا الله عزَّ وجلَّ، وعلى محبة من أحب الله.

وقد ذاق طعم الإيمان من والى من والاه الله، وعادى من عاداه الله، وأحب في الله، وأبغض في الله، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم كذلك، وأن

يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

٢/٢٦١ ـ وعن أبي هُبَيْرَةَ عَائِذِ بن عَمْرٍو المُزَنِيّ وَهُوَ مِنْ أهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوانِ رضي الله عنه، أنَّ أبَا سُفْيَانَ أتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلالٍ في نَفَرٍ فقالوا: مَا أخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عَدُوِّ الله مَأْخَذَهَا، فقال أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: أتَقُولُون هذَا لِشَيْخ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأتَى النَّبيَّ ﷺ، فَأخْبَرَهُ فقال: «يَا أبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أغْضَبْتَهُمْ؟ لَئِنْ كُنْتَ أغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أغْضَبْتَ رَبَّكَ» فَأتَاهُمْ فقال: يَا إخْوَتَاهُ آغْضَبْتُكُمْ؟ قالوا: لا، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أخَيَّ. رواه مسلم(١).

قولُهُ: «مَأخَذَهَا» أيْ: لَمْ تَسْتَوْفِ حَقَّهَا مِنْهُ. وقولُهُ: «يَا أخَيّ» رُوِي بفتحِ الهمزةِ وكسر الخاءِ وتخفيفِ الياءِ، ورُوِي بضم الهمزة وفتحِ الخاء وتشديد الياءِ.

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله في قضية الضعفاء والمساكين، وأنه تجب ملاطفتهم والرفق بهم والإحسان إليهم، أن أبا سفيان مر بسلمان وصهيب وبلال، وهؤلاء الثلاثة كلهم من الموالي، صهيب الرومي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، فمر بهم فقالوا: ما

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سلمان وصهيب وبلال...، رقم(٢٥٠٤).

فعلت أسيافنا بعدو الله ما فعلت يعني: يريدون أنهم لم يشفوا أنفسهم مما فعل بهم أسيادهم من قريش، الذين كانوا يعذبونهم ويؤذونهم في دين الله عزَّ وجلَّ، فكأن أبا بكر رضي الله عنه لامهم على ذلك، وقال: أتقولون لسيد قريش مثل هذا الكلام.

ثم إن أبا بكر أخبر النبي ﷺ بذلك، فقال له: «لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك»، يعني أغضبت هؤلاء النفر ـ مع أنهم من الموالي وليسوا بشيء في عداد الناس وأشرافهم ـ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فذهب أبو بكر رضي الله عنه إلى هؤلاء النفر وسألهم: آغضبتكم؟ فقالوا: لا، قال: يا إخوتاه، آغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أبا بكر.

فدل هذا على أنه لا يجوز للإنسان أن يترفع على الفقراء والمساكين ومن ليس لهم قيمة في المجتمع؛ لأن القيمة الحقيقية هي قيمة الإنسان عند الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، والذي ينبغي للإنسان أن يخفض جناحه للمؤمنين ولو كانوا غير ذي جاه؛ لأن هذا هو الذي أمر الله به نبيه ﷺ حيث قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وفي هذا دليلٌ على ورع أبي بكر رضي الله عنه، وعلى حرصه على إبراء ذمته، وأن الإنسان ينبغي له ـ بل يجب عليه ـ إذا اعتدى على أحد بقول أو فعل أو بأخذ مال أو سب أو شتم أن يستحله في الدنيا؛ قبل أن يأخذ ذلك منه في الآخرة؛ لأن الإنسان إذا لم يأخذ حقه في الدنيا فإنه يأخذه يوم القيامة، ويأخذ من أشرف شيء وأعز شيء على الإنسان يأخذه

من الحسنات؛ من الأعمال الصالحة التي هو في حاجة إليها في ذلك المكان.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ماذا تعدون المفلس فيكم؟ قالوا: من ليس له درهم ولا دينار، أو قالوا: ولا متاع. فقال: «المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيأتي وقد ضرب هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن بقي من حسناته شيء وإلا أُخذ من سيئاتهم فطرح عليه ثم طرح في النار»[1].

* * *

٣/٢٦٢ ـ وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هكَذَا» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا. رواه البخاري[2].

وَ«كَافِلُ الْيَتِيمِ»: الْقَائِمُ بِأُمُورِهِ.

٤/٢٦٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ» وَأَشَارَ الرَّاوِي وَهُوَ مَالِكُ بْن أنَسٍ بالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى. رواه مسلم[3].

وقوله ﷺ: «اليَتِيم لَهُ أو لغَيْرِهِ» مَعْنَاهُ: قَرِيبُهُ، أوِ الأَجْنَبيُّ مِنْهُ، فالْقَرِيبُ

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم(٢٥٨١).
(٢) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان، رقم(٥٣٠٤).
(٣) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم(٢٩٨٣).

مِثْلُ أَنْ تَكْفُلَهُ أُمُّهُ أَوْ جَدُّهُ أَوْ أَخُوهُ أَوْ غَيْرُهُمْ مِنْ قَرابَتِهِ، والله أَعْلَمُ.

٥ / ٢٦٤ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلاَ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتَانِ إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ» متفق عليه[1].

وفي رواية في «الصحيحين»: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ»[2].

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا وكافل اليتيم هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، يعني بالأصبع السبابة والوسطى؛ والأصبع السبابة هي التي بين الوسطى والإبهام، وتسمى السبابة لأن الإنسان يشير بها عند السب، فإذا سبَّ شخصًا قال هذا وأشار بها.

وتسمى السباحة لأن الإنسان يشير بها أيضًا عند التسبيح، ولهذا يشير الإنسان بها في صلاته إذا جلس بين السجدتين ودعا: رب اغفرلي وارحمني؛ كلما دعا رفعها، يشير إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الله في السماء

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب لا يسألون الناس إلحافًا، رقم(٤٥٣٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب المسكين الذين لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق...، رقم (١٠٣٩)[١٠٢].

(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا يسألون الناس إلحافًا، رقم(١٤٧٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق..، رقم(١٠٣٩) [١٠٢].

جل وعلا، وكذلك أيضًا يشير بها في التشهد إذا دعا: السلام عليك أيها النبي السلام علينا، اللهم صلِّ على محمد، اللهم بارك على محمد، في كل جملة دعائية يشير بها إشارة إلى علو الله تعالى وتوحيده.

وفرج بينهما عليه الصلاة والسلام يعني: قارن بينهما وفرج، يعني أن كافل اليتيم مع النبي عليه الصلاة والسلام في الجنة قريب منه، وفي هذا حث على كفالة اليتيم، وكفالة اليتيم هي القيام بما يصلحه في دينه ودنياه؛ بما يصلحه في دينه من التربية والتوجيه والتعليم وما أشبه ذلك، وما يصلحه في دنياه من الطعام والشراب والمسكن.

واليتيم حده البلوغ، فإذا بلغ الصبي؛ زال عنه اليتم، وإذا كان قبل البلوغ فهو يتيم؛ هذا إن مات أبوه، وأما إذا ماتت أمه دون أبيه فإنه ليس بيتيم.

وكذلك الحديث الذي بعده فيه أيضًا ثواب من قام بشئون اليتيم وإصلاحه.

أما الحديث الثالث: فإن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف». يعني المسكين؛ ليس (الشحاذ) الذي (يشحذ) الناس، ترده اللقمة واللقمتان: يعني إذا أعطيته لقمة أو لقمتين أو تمرة أو تمرتين ردته، بل المسكين حقيقة هو الذي يتعفف كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، هذا هو المسكين حقيقة؛ لا يسأل فيُعطى ولا يتفطن له فيعطى. كما يقول العامة: عاف كاف، ما

يدرى عنه، هذا هو المسكين الذي ينبغي للناس تفقده وإصلاح حاله، والحنو عليه، والعطف عليه.

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للمسكين أن يصبر وأن ينتظر الفرج من الله، وأن لا يتكفف الناس أعطوه أو منعوه؛ لأن الإنسان إذا علق قلبه بالخلق وكل إليهم، كما جاء في الحديث: «من تعلق شيئًا وكل إليه»(١) وإذا وكلت إلى الخلق نسيت الخالق، بل اجعل أمرك إلى الله عزَّ وجلَّ، وعلق رجاءك وخوفك وتوكلك واعتمادك على الله سبحانه وتعالى فإنه يكفيك، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الطلاق: ٣]، كل ما أمر الله عزَّ وجلَّ به فهو بالغك، لا يمنعه شيء ولا يرده شيء.

فالمسكين يجب عليه الصبر، ويجب عليه أن يمتنع عن سؤال الناس لا يسأل إلا عند الضرورة القصوى؛ إذا حلت له الميتة حل له السؤال، أما قبل ذلك ما دام يمكنه أن يتعفف ولو أن يأكل كسرة من خبز أو شقًّا من تمرة فلا يسأل، ولا يزال الإنسان يسأل الناس، ثم يسأل الناس، ثم يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم، والعياذ بالله؛ لأنه قد قشر وجهه للناس في الدنيا، ولهذا ذم أولئك القوم الذين يترددون على الناس يسألونهم وهم أغنياء؛ الذين إذا ماتوا وجد عندهم الآلاف، توجد عندهم الآلاف من الذهب والفضة والدراهم القديمة والأوراق.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في كراهية التعليق، رقم(٢٠٧٢)، والنسائي، كتاب تحريم الدم، باب الحكم في السحرة، رقم(١٤٠٧٩).

وهم إذا رأيتهم قلت: هؤلاء أفقر الناس، ثم يؤذون الناس بالسؤال، أو يسألون الناس وليس عندهم شيء لكن يريدون أن يجعلوا بيوتهم كبيوت الأغنياء، وسياراتهم كسيارات الأغنياء، ولباسهم كلباس الأغنياء فهذا سفه، «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»(١) اقتنع بما أعطاك الله؛ إن كنت فقيرًا فعلى حسب حالك، وإن كنت غنيًّا فعلى حسب حالك.

أما أن تقلد الأغنياء وتقول: أنا أريد سيارة فخمة، وأريد بيتًا فارهًا، وأريد فرشًا، ثم تذهب تسأل الناس سواء سألتهم مباشرة قبل أن تشتري هذه الأشياء التي أردت، أو تشتريها ثم تذهب تقول: أنا علي دين وما أشبه ذلك فكل هذا خطأ عظيم، اقتصر على ما عندك، وعلى ما أعطاك ربك عزَّ وجلَّ، واسأل الله أن يرزقك رزقًا لا يطغيك، رزقًا يغنيك عن الخلق وكفى. نسأل الله لنا ولكم التوفيق والسلامة.

* * *

٦/٢٦٥ ـ وعنه عن النبي ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ» وَأَحْسَبُهُ قال: «وَكَالْقَائِمِ الَّذِي لاَ يَفْتُرُ، وَكَالصَّائمِ الَّذِي لاَ يُفْطِرُ» متفقٌ عليه(٢).

---

(١) رواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره...، رقم(٢١٣٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم(٥٣٥٣)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين، رقم(٢٩٨٢).

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ في هذا الباب: باب الرفق باليتامى والمستضعفين والفقراء ونحوهم، قول رسول الله ﷺ: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**» وأحسبه قال: «**وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر**»، والساعي عليهم هو الذي يقوم بمصالحهم ومؤنتهم وما يلزمهم.

والأرامل هم الذين لا عائل لهم سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا، والمساكين هم الفقراء؛ ومن هذا قيام الإنسان على عائلته وسعيه عليهم، على العائلة الذين لا يكتسبون، فإن الساعي عليهم والقائم بمئونتهم ساعٍ على أرملة ومساكين، فيكون مستحقًّا لهذا الوعد ويكون كالمجاهد في سبيل الله، أو كالقائم الذي لا يفتر وكالصائم الذين لا يفطر.

وفي هذا دليلٌ على جهل أولئك القوم الذين يذهبون يمينًا وشمالاً ويدعون عوائلهم في بيوتهم مع النساء، ولا يكون لهم عائل فيضيعون؛ لأنهم يحتاجون إلى الإنفاق ويحتاجون إلى الرعاية وإلى غير ذلك، وتجدهم يذهبون يتجولون في القرى وربما في المدن أيضًا، بدون أن يكون هناك ضرورة، ولكنْ شيءٌ في نفوسهم، يظنون أن هذا أفضل من البقاء في أهليهم بتأديبهم وتربيتهم.

وهذا ظن خطأ، فإن بقاءهم في أهلهم، وتوجيه أولادهم من ذكور وإناث، وزوجاتهم ومن يتعلق بهم أفضل من كونهم يخرجون يزعمون أنهم يرشدون الناس وهم يتركون عوائلهم الذين هم أحق من غيرهم

بنصيحتهم وإرشادهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فبدأ بعشيرته الأقربين قبل كل أحد.

أما الذي يذهب إلى الدعوة إلى الله يومًا أو يومين أو ما أشبه ذلك، وهو عائد إلى أهله عن قرب فهذا لا يضره، وهو على خير ـ لكن كلامنا في قوم يذهبون أربعة أشهر، أو خمسة أشهر، أو سنة ـ عن عوائلهم؛ يتركونهم للأهواء والرياح تعصف بهم، فهؤلاء لا شك أن هذا من قصور فقههم في دين الله عزَّ وجلَّ.

وقد قال النبي عليه الصلاة: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»(١) فالفقيه في الدين هو الذي يعرف الأمور، ويحسب لها، ويعرف كيف تؤتى البيوت من أبوابها، حتى يقوم بما يجب عليه.

* * *

٧/٢٦٦ ـ وعنه عن النبي ﷺ قال: «شرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ يُمْنَعُهَا مَنْ يَأْتِيهَا، وَيُدْعَى إِلَيْهَا مَنْ يَأْبَاهَا، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ» رواه مسلم(٢).

وفي رواية في «الصحيحين» عن أبي هريرة من قوله: «بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ يُدْعَى إِلَيْهَا الأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ»(٣).

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله خيرًا...، رقم(٧١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم(١٠٣٧) [١٧٥].

(٢) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب التزويج في شوال...، رقم(١٤٣٢)[١١٠].

(٣) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب من ترك الدعوة؛ فقد عصى الله ورسوله، =

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «شر الطعام طعام الوليمة يمنعها من يأتيها ويدعى إليها من يأباها، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله».

قوله عليه الصلاة والسلام: «شر الطعام طعام الوليمة» يحتمل أن يكون المراد بالوليمة هنا وليمة العرس، ويحتمل أن يكون أعم، وأن المراد بالوليمة كل ما دعي إلى الاجتماع إليه من عرس أو غيره، وسيأتي بيان ذلك في الأحكام إن شاء الله.

ثم فسر هذه الوليمة التي طعامها شر الطعام وهي التي يدعى إليها من يأباها ويمنعها من يأتيها، يعني يدعى إليها الأغنياء، والغني لا يحرص على الحضور إذا دعي؛ لأنه مستغنٍ بماله، ويمنع منها الفقراء؛ والفقير هو الذي إذا دعي أجاب، فهذه الوليمة ليست وليمة مقربة إلى الله؛ لأنه لا يدعى إليها من هم أحق بها وهم الفقراء؛ بل يدعى إليها الأغنياء.

أما الوليمة من حيث هي ـ ولا سيما وليمة العرس ـ فإنها سنة مؤكدة، قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف: «أولم ولو بشاة»[1] فأمره بالوليمة،

= رقم(٥١٧٧)، ومسلم، كتاب النكاح، باب الأمر بإباحة الداعي إلى الدعوة، رقم(١٤٣٢) [١٠٧].

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ . . .﴾، رقم(٢٠٤٨)، ومسلم، كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم القرآن وخاتم حديد، رقم(١٤٢٧).

قال: «ولو بشاة» يعني ولو بشيء قليل، والشاة قليلة بالنسبة لعبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه؛ لأنه من الأغنياء.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «ومن لم يجب؛ فقد عصى الله ورسوله» يدل على أن إجابة دعوة الوليمة واجبة؛ لأنه لا شيء يكون معصية بتركه إلا وهو واجب، ولكن لابد فيهامن شروط:

الشرط الأول: أن يكون الداعي مسلمًا؛ فإن لم يكن مسلمًا لم تجب الإجابة، ولكن تجوز الإجابة لا سيما إذا كان في هذا مصلحة، يعني لو دعاك كافر إلى وليمة عرسه فلا بأس أن تجيب، لا سيما إن كان في ذلك مصلحة كتأليفه إلى الإسلام، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن يهوديًّا دعاه في المدينة، فأجابه، وجعل له خبزًا من الشعير وإهالة سنخة[(١)]؛ يعني ودكًا قديمًا متغيرًا.

وأما اشتراط العدالة: يعني اشتراط أن يكون الداعي عدلاً فليس بشرط، فتجوز إجابة دعوة الفاسق إذا دعاك، مثل أن يدعوك إنسان قليل الصلاة مع الجماعة، أو حليق اللحية، أو شارب دخان، فأجبه كما تجيب من كان سالمًا من ذلك.

لكن إن كان عدم الإجابة يفضي إلى مصلحة بحيث يخجل هذا الداعي ويترك المعصية التي كان يعتادها حيث الناس لا يجيبون دعوته، فلا تجب دعوته من أجل مصلحته، أما إذا كان لا يستفيد سواء أجبته أو لم

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب شراء النبي ﷺ بالنسيئة، رقم(٢٠٦٩).

تجبه، فأجب الدعوة لأنه مسلم.

الشرط الثاني: أن يكون ماله حلالاً؛ فإن كان ماله حرامًا كالذي يكتسب المال بالربا؛ فإنه لا تجب إجابته لأن ماله حرام، والذي ماله حرام ينبغي للإنسان أن يتورع عن أكل ماله، ولكنه ليس بحرام، يعني لا يحرم عليك أن تأكل من مال مَنْ كسبه حرام؛ لأن النبي ﷺ أكل من طعام اليهود وهم يأكلون الربا؛ يأخذونه ويتعاملون به. لكن الورع أن لا تأكل ممن ماله حرام.

أما إذا كان في ماله حرام يعني ماله مختلط؛ يتجر تجارة حلالاً ويكتسب كسبًا محرمًا؛ فلا بأس من إجابته، ولا تتورع عن ماله؛ لأنه لا يسلم كثير من الناس اليوم من أن يكون في ماله حرام، فمن الناس من يغش فيكتسب من حرام، ومنهم من يرابي في بعض الأشياء، ومنهم الموظفون، وكثيرٌ من الموظفين لا يقومون بواجب الوظيفة، فتجده يتأخر عن الدوام، أو يتقدم فيخرج قبل وقت انتهاء الدوام، وهذا ليس راتبه حلالاً؛ بل إنه يأكل من الحرام بقدر ما نقص من عمل الوظيفة؛ لأنه ملتزم بالعقد مع الحكومة مثلاً أنه يقوم بوظيفته من كذا إلى كذا، فلو فتشت الناس اليوم لوجدت كثيرًا منهم يكون في ماله دخن من الحرام.

الشرط الثالث: ألا يكون في الدعوة منكر؛ فإن كان في الدعوة منكر فإنه لا تجب الإجابة، مثل لو علمت أنهم سيأتون بمغنين، أو عندهم (شيش) يشربها الحاضرون، أو عندهم شراب دخان فلا تجب إلا إذا كنت قادرًا على تغيير هذا المنكر، فإنه يجب عليك الحضور لسببين:

السبب الأول: إزالة المنكر.

والسبب الثاني: إجابة الدعوة.

أما إذا كنت ستحضر ولكن لا تستطيع تغيير المنكر؛ فإن حضورك حرام.

الشرط الرابع: أن يُعيّن المدعو، ومعنى يعينه أن يقول: يا فلان أدعوك إلى حضورك وليمة العرس. فإن لم يعينه بأن دعا دعوة عامة في مجلس فقال: يا جماعة عندنا حفل زواج ووليمة عرس فاحضروا، فإنه لا يجب عليك أن تحضر؛ لأنه دعا دعوة عامة ولم ينص عليك.

فلابد أن يعينه فإن لم يعينه فإنها لا تجب، ثم إنه ينبغي للإنسان أن يجيب كل دعوة؛ لأن من حق المسلم على أخيه أن يجيب دعوته، إلا إذا كان في امتناعِه مصلحة راجحة فليتبع المصلحة.

* * *

٢٦٧/٨ ـ وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ» وَضمَّ أصَابِعَهُ» رواه مسلم[١].

«جَارِيَتَيْنِ» أيْ: بِنْتَيْنِ.

الشرح

أما هذا الحديث ففيه فضل عول الإنسان للبنات، وذلك أن البنت قاصرة ضعيفة مهينة، والغالب أن أهلها لا يأبهون بها، ولا يهتمون بها،

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم(٢٦٣١).

فلذلك قال النبي ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا؛ جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين» وضم أصبعيه: السبابة والوسطى، والمعنى أنه يكون رفيقًا لرسول الله ﷺ في الجنة إذا عال الجاريتين؛ يعني الأنثيين من بنات أو أخوات أو غيرهما، أي أنه يكون مع النبي ﷺ في الجنة، وقرن بين إصبعيه عليه الصلاة والسلام.

والعول في الغالب يكون بالقيام بمئونة البدن؛ من الكسوة والطعام والشراب والسكن والفراش ونحو ذلك، وكذلك يكون في غذاء الروح؛ بالتعليم والتهذيب والتوجيه والأمر بالخير والنهي عن الشر وما إلى ذلك.

ويُؤخذ من هذا الحديث ومما قبله أيضًا أنه ينبغي للإنسان أن يهتم بالأمور التي تقربه إلى الله لا بالأمور الشكليات، أو مراعاة ما ينفع في الدنيا فقط، بل يلاحظ هذا ويلاحظ ما ينفع في الآخرة أكثر وأكثر.

وقوله: «حتى تبلغا» يعني حتى تصلا إلى سن البلوغ؛ وهو خمس عشرة سنة، أو غير ذلك من علامات البلوغ في المرأة كأن تحيض ولو قبل خمس عشرة سنة، أو نبتت لها العانة، أو احتلمت.

* * *

٩/٢٦٨ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا، فَأَخْبَرْتُهُ فقال: «مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ» متفقٌ عليه[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة...، رقم(١٤١٨)، =

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ عن عائشة رضي الله عنها قصة عجيبة غريبة، قالت: دخلت علي امرأة ومعها ابنتان لها تسأل. وذلك لأنها فقيرة. قالت: فلم تجد عندي إلا تمرة واحدة ـ بيت من بيوت النبي عليه الصلاة والسلام لا يوجد فيه إلا تمرة واحدة! ـ قالت: فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها نصفين، وأعطت واحدة نصف التمرة، وأعطت الأخرى نصف التمرة الآخر، ولم تأكل منها شيئًا.

فدخل النبي ﷺ على عائشة فأخبرته لأنها قصة غريبة عجيبة، فقال النبي ﷺ: «من ابتُلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له سترًا من النار» وقوله ﷺ: «من ابتلي»: ليس المراد به هنا بلوى الشر، لكن المراد: من قُدر له، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، يعني من قدر له ابنتان فأحسن إليهما كن له سترًا من النار يوم القيامة، يعني أن الله تعالى يحجبه عن النار بإحسانه إلى البنات؛ لأن البنت ضعيفة لا تستطيع التكسب، والذي يكتسب هو الرجل، قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

فالذي ينفق على العائلة ويكتسب هو الرجل، أما المرأة فإنما شأنها

= ومسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم(٢٦٢٩).

في البيت، تقيمه وتصلحه لزوجها وتؤدب أولادها، وليست المرأة للوظائف والتكسب إلا عند الغرب الكفرة ومن كان على شاكلتهم، ممن اغتر بهم فقلدهم وجعل المرأة مثل الرجل في الاكتساب وفي التجارة وفي المكاتب، حتى صار الناس يختلطون بعضهم ببعض، وكلما كانت المرأة أجمل؛ كانت أحظى بالوظيفة الراقية عند الغرب ومن شابههم ومن شاكلهم!

ونحن ولله الحمد في بلادنا هذه ـ نسأل الله أن يديم علينا هذه النعمة ـ قد منعت الحكومة حسب ما قرأنا من كتاباتها أن يتوظف النساء لا في القطاع العام ولا في القطاع الخاص إلا فيما يتعلق بالنساء ونسأل الله أن يديم علينا هذه النعمة؛ مثل مدارس البنات وشبهها. لكن نسأل الله الثبات، وأن يزيدها من فضله، وأن يمنعها مما عليه الأمم اليوم من هذا الاختلاط الضار.

ومما ورد في هذا الحديث من العبر:

أولاً: بيت من بيوت رسول الله ﷺ ومن أشرف بيوته، فيه أحب نسائه إليه، لا يوجد به إلا تمرة واحدة، ونحن الآن في بلدنا هذا يقدم للإنسان عند الأكل أربعة أصناف شتى، فلماذا فتحت علينا الدنيا وأغلقت عليهم؟! ألكوننا أحب إلى الله منهم؟! لا والله، هم أحب إلى الله منا، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء، ونحن ابتلينا بهذه النعم، فصارت هذه النعم عند كثير من الناس اليوم سببًا للشر والفساد والأشر والبطر، حتى فسقوا والعياذ بالله، ويخشى علينا من عقوبة الله عزَّ وجلَّ بسبب أن كثيرًا منا بطروا هذه

النعم وكفروها، وجعلوها عونًا على معاصي الله سبحانه وتعالى ـ نسأل الله السلامة ـ.

ثانيًا: وفيه أيضًا ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الإيثار، فإن عائشة ليس عندها إلا تمرة ومع ذلك آثرت بها هذه المسكينة، ونحن الآن عندنا أموال كثيرة ويأتي السائل ونرده.

لكن بلاءنا في الحقيقة في رد السائل هو أن كثيرًا من السائلين كاذبون؛ يسأل وهو أغنى من المسؤول، وكم من إنسان سأل ويسأل الناس ويلحف في المسألة فإذا مات وجدت عنده دراهم الفضة والذهب الأحمر والأوراق الكثيرة من النقود! وهذا هو الذي يجعل الإنسان لا يتشجع على إعطاء كل سائل، من أجل الكذب والخداع، حيث يظهرون بمظهر العجزة وبمظهر المعتوهين والفقراء وهم كاذبون.

ثالثًا: وفي هذا الحديث أيضًا من العبر أن الصحابة رضي الله عنهم يوجد فيهم الفقير كما يوجد فيهم الغني، قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، ولولا هذا التفاوت ما اتخذ بعضنا بعضًا سخريًّا، ولو كنا على حد سواء واحتاج الإنسان منا مثلاً لعمل ما كالبناء، فجاء إلى الآخر فقال: أريدك أن تبني لي بيتًا، فقال: لا أبني، أنا مثلك، أنا غني، فإذا أردنا أن نصنع بابًا، قال الآخر: لا أصنع، أنا غني مثلك؛ فهذا التفاوت جعل الناس يخدم بعضهم بعضًا:

النـــاس للنـــاس مـــن بـــدو وحـــاضـــرةٍ
بعـــضٌ لبعـــض وإن لـــم يشعـــروا خـــدمُ

حتى التاجر الغني صاحب المليارات يخدم الفقير. كيف؟! يورد الأطعمة والأشربة والأكسية ومواد البناء وغيرها؛ يجلبها للفقير فينتفع بها، فكل الناس بعضهم يحتاج لبعض، ويخدم بعضهم بعضًا؛ ذلك حكمة من الله عزَّ وجلَّ.

رابعًا: وفي هذا الحديث أيضًا دليلٌ على فضل من أحسن إلى البنات بالمال، والكسوة، وطيب الخاطر، ومراعاة أنفسهن؛ لأنهن عاجزات قاصرات.

خامسًا: وفيه ما أشرنا إليه أولاً من أن الذي يكلف بالنفقة وينفق هم الرجال، أما النساء فللبيوت ولمصالح البيوت، وكذلك للمصالح التي لا يقوم بها إلا النساء كمدارس البنات.

أما أن يجعلن موظفات مع الرجال في مكتب واحد، أو سكرتيرات كما يوجد في كثير من بلاد المسلمين، فإن هذا لا شك خطأ عظيم، وشر عظيم، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها»[١] ؛ لأن أولها قريب من الرجال فصار شرًّا، وآخرها بعيد عن الرجال فصار خيرًا. فانظر

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها...، رقم(٤٤٠).

كيف نُدب للمرأة أن تتأخر وتبتعد عن الإمام، كل ذلك من أجل البعد عن الرجال، نسأل الله أن يحمينا وإخواننا المسلمين من أسباب سخطه وعقابه.

* * *

١٠/٢٦٩ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جَاءتني مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأطْعَمْتُهَا ثَلاثَ تَمرَاتٍ، فَأعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرَفَعَتْ إلى فِيها تَمْرَةً لِتَأكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أنْ تَأكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأعْجَبَنَي شَأنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لرسولِ اللهِ ﷺ فقال: «إنَّ اللهَ قَدْ أوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أوْ أعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ» رواه مسلم[(١)].

١١/٢٧٠ ـ وعن أبي شُرَيْحٍ خُوَيْلِدِ بْنِ عَمْرٍو الخُزَاعِيِّ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالْمَرْأةِ» حديثٌ حسن رواه النسائي بإسناد جيدٍ[(٢)].

ومعنى: «أحَرِّجُ»: ألحِقُ الحَرَجَ، وَهُوَ الإثْمُ، بِمَنْ ضَيَّعَ حَقَّهُمَا، وَأحَذِّرُ مِنْ ذَلِكَ تَحْذِيرًا بَلِيغًا، وَأزْجُرُ عَنْهُ زَجْرًا أكِيدًا.

١٢/٢٧١ ـ وعن مُصْعَبِ بنِ سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنهما قال: رَأى سَعْدٌ أنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَى مَنْ دُونَهُ، فقال النبيُّ ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إلاَّ

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم(٢٦٣٠).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (٢٦٨) كتاب عشرة النساء كما في تقريب تحفة الأشراف (٤٦٩/٢)، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب حق اليتيم، رقم(٣٦٧٨).

بِضُعَفَائِكُمْ» رواه البخاري[١] هكَذَا مُرْسِلاً، فَإِنَّ مُصْعَبَ بن سعدٍ تَابِعِيٌّ، ورواه الحافِظُ أبوبكر الْبَرْقَانِي في صحِيحِهِ مُتَّصِلاً عن مُصْعَب عن أبيه رضي الله عنه.

١٣/٢٧٢ ـ وعن أبي الدَّرْدَاءِ عُوَيْمِرٍ رضي الله عنه قال: سمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ابْغُونِي الضُّعَفَاءَ، فَإِنَّمَا تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ بِضُعَفَائِكُمْ» رواه أبوداود[٢] بإسناد جيد.

الشرح

هذه الأحاديث كلها تدل على مضمون ما سبق من الرفق بالضعفاء واليتامى والبنات وما أشبه ذلك، وفي حديث عائشة الأول قصة كحديثها السابق، لكن الحديث السابق أن عائشة رضي الله عنها أعطتها تمرة واحد فشقتها بين ابنتيها.

أما هذا الحديث فأعطتها ثلاث تمرات، فأعطت إحدى البنتين واحدة، والثانية التمرة الأخرى، ثم رفعت الثالثة إلى فيها لتأكلها، فاستطعمتاها ـ يعني أن البنتين نظرتا إلى التمرة التي رفعتها الأم ـ فلم تطعمها الأم بل شقتها بينهما نصفين، فأكلت كل بنت تمرة ونصفًا والأم لم تأكل شيئًا. فذكرت ذلك للرسول ﷺ وأخبرته بما صنعت المرأة، فقال: «إن الله أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار» يعني: لأنها لما

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، رقم(٢٨٩٦).

(٢) رواه أبوداود، كتاب الجهاد، باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة، رقم(٢٥٩٤).

رحمتهما هذه الرحمة العظيمة أوجب الله لها بذلك الجنة.

فدل ذلك على أن ملاطفة الصبيان والرحمة بهم من أسباب دخول الجنة والنجاة من النار. نسأل الله أن يكتب لنا ولكم ذلك.

وفي الأحاديث الثلاثة التالية لهذا الحديث ما يدل على أن الضعفاء سبب للنصر وسبب للرزق، فإذا حنا عليهم الإنسان وعطف عليهم وآتاهم مما آتاه الله عزَّ وجلَّ؛ كان ذلك سببًا للنصر على الأعداء، وكان سببًا للرزق؛ لأن الله تعالى أخبر أنه إذا أنفق الإنسان لربه نفقة فإن الله تعالى يخلفها عليه. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، يخلفه: أي يأتي بخلفه وبدله.



٣٤ـ باب الوصيّة بالنساء

قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب الوصية بالنساء، يعني الوصية على أن يرفق بهن الإنسان وأن يتقي الله تعالى فيهن؛ لأنهن قاصرات يحتجن إلى من يجبرهن ويكملهن، كما قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤].

ثم استدل المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ بقول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني: عاشروا النساء بالمعروف.

والمعاشرة: معناها المصاحبة والمعاملة؛ فيعاملها الإنسان بالمعروف ويصاحبها كذلك.

والمعروف: ما عرفه الشرع وأقره واطرد به العرف، والعبرة بما أقره الشرع، فإذا أقر الشرع شيئًا فهو المعروف، وإذا أنكر شيئًا فهو المنكر ولو عرفه الناس.

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]، وهذا الخطاب لمن كان عنده زوجتان فأكثر، يبين الله

عزَّ وجلَّ أن الإنسان لا يستطيع أن يعدل بين النساء ولو حرص؛ لأن هناك أشياء تكون بغير اختيار الإنسان؛ كالمودة والميل وما أشبه ذلك، مما يكون في القلب.

أما ما يكون بالبدن فإنه يمكن العدل فيه؛ كالعدل في النفقة، والعدل في المعاملة بأن يقسم لهذه ليلتها وهذه ليلتها، والكسوة، وغير ذلك، فهذا ممكن، لكن ما في القلب لا يمكن أن يعدل الإنسان فيه؛ لأنه بغير اختياره.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا﴾ أي تذروا المرأة التي ملتم عنها ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ بين السماء والأرض، ليس لها قرار؛ لأن المرأة إذا رأت أن زوجها مال مع ضرتها تعبت تعبًا عظيمًا، واشتغل قلبها، فصارت كالمعلقة بين السماء والأرض ليس لها قرار.

ثم قال: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعني إن تسلكوا سبيل الإصلاح وتقوى الله عزَّ وجلَّ؛ فإن الله كان غفورًا رحيمًا: يعني يغفر لكم ما لا تستطيعونه، ولكنه يؤاخذكم بما تستطيعون.

وهاتان الآيتان وغيرهما من نصوص الكتاب والسنة كلها تدل على الرفق بالمرأة وملاحظتها ومعاشرتها بالتي هي أحسن، وأن الإنسان لا يطلب منها حقه كاملًا؛ لأنها لا يمكن أن تأتي به على وجه الكمال فليعفُ وليصفح.

* * *

١/٢٧٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضلعٍ، وإِنَّ أعْوَجَ مَا فِي الضلَعِ أعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَركْتَهُ لَمْ يَزَلْ أعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ» متفقٌ عليه[(١)].

وفي روايةٍ في «الصحيحين»: المَرْأةُ كَالضلعِ إنْ أقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا، اسْتَمْتَعْتَ وفِيهَا عَوَجٌ»[(٢)].

وفي رواية لمسلمٍ: «إِنَّ الْمَرْأةَ خُلِقَتْ مِنْ ضلعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعتَ بِهَا وفيهَا عَوَجٌ، وإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسْرُهَا طَلاقُهَا»[(٣)].

قوله: «عَوَجٌ» هو بفتحِ العينِ والواوِ.

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه في معاشرة النساء أن النبي ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيرًا» يعني: اقبلوا هذه الوصية التي أوصيكم بها، وذلك أن تفعلوا خيرًا مع النساء؛ لأن النساء قاصرات في العقول، وقاصرات في الدين، وقاصرات في التفكير،

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم (٣٣٣١)، ومسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم(١٤٦٨) [٦٠].

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب المدارة مع النساء، رقم(٥١٨٤)، ومسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم(١٤٦٨) [٦٥].

(٣) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم(١٤٦٨) [٥٩].

وقاصرات في جميع شئونهن، فإنهن خلقن من ضلع.

وذلك أن آدم عليه الصلاة والسلام خلقه الله من غير أب ولا أم، بل خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، ولما أراد الله تعالى أن يبث منه هذه الخليقة، خلق منه زوجه، فخلقها من ضلعه الأعوج، فخلقت من الضلع الأعوج، والضلع الأعوج إن استمتعت به استمتعت به وفيه العوج، وإن ذهبت تقيمه انكسر.

فهذه المرأة أيضًا إن استمتع بها الإنسان استمتع بها على عوج، فيرضى بما تيسر، وإن أراد أن تستقيم فإنها لن تستقيم، ولن يتمكن من ذلك، فهي وإن استقامت في دينها فلن تستقيم فيما تقتضيه طبيعتها، ولا تكون لزوجها على ما يريد في كل شيء، بل لابد من مخالفة، ولابد من تقصير، مع القصور الذي فيها.

فهي قاصرة بمقتضى جبلتها وطبيعتها، ومقصرة أيضًا، فإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها، يعني معناه أنك إن حاولت أن تستقيم لك على ما تريد فلا يمكن ذلك، وحينئذ تسأم منها وتطلقها، فكسرها طلاقها.

وفي هذا توجيه من رسول الله ﷺ إلى معاشرة الإنسان لأهله، وأنه ينبغي أن يأخذ منهم العفو ما تيسر، كما قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ يعني ما عفى وسهل من أخلاق الناس ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ولا يمكن أن تجد امرأة مهما كان الأمر سالمة من العيب مائة بالمائة،

أو مواتية للزوج مائة بالمائة، ولكن كما أرشد النبي عليه الصلاة والسلام استمتع بها على ما فيها من العوج.

وأيضًا إن كرهت منها خلقًا رضيت منها خلقًا آخر، فقابل هذا بهذا مع الصبر، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

* * *

٢/٢٧٤ ـ وعن عبد الله بن زَمْعَةَ رضي الله عنه، أنه سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يَخْطُبُ، وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَهَا، فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ انْبَعثَ لهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ، عَارِمٌ مَنِيعٌ في رَهْطِهِ» ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ، فَوَعَظَ فِيهِنَّ، فَقَالَ: «يَعْمِدُ أحَدُكُمْ فَيَجْلِدُ امْرَأتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَومِهِ» ثُمَّ وَعَظَهُمْ في ضَحِكِهِمْ من الضَّرْطَةِ وقال: «لِمَ يَضْحَكُ أحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ؟» متفقٌ عليه[١].

«وَالْعَارِمُ» بالعين المهملةِ والراءِ: هُوَ الشِّرِّيرُ الْمُفْسِد.

وقولُهُ: «انْبَعَثَ» أيْ: قَامَ بسُرْعةٍ.

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يخطب على ناقته، وكان عليه الصلاة والسلام خطبه على نوعين: نوع راتب، ونوع عارض؛ فالخطب الراتبة كخطب

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس، رقم(٤٩٤٢)، ومسلم، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها...، رقم(٢٨٥٥).

يوم الجمعة، وخطب العيدين، والاستسقاء، والكسوف وما أشبه ذلك، والخطب العارضة هي التي يكون لها سبب، فيقوم النبي ﷺ فيخطب الناس ويعظهم ويبين لهم؛ وأحيانًا يخطب على المنبر، وأحيانًا يخطب قائمًا على الأرض، وأحيانًا يخطب على ناقته، وأحيانًا يخطب معتمدًا على بعض أصحابه، حسب ما تقتضيه الحال في وقتها؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام من هديه أنه لا يتكلف؛ فلا يطلب المعدوم، ولا يرد الموجود إذا لم يكن في ذلك تقصير في الشرع، أو تجاوز فيه.

فكان ﷺ يخطب، وسمعه عبد الله بن زمعة، ومن جملة ما خطب أنه قال: «يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد» يعني يجلدها جلد شخص كأنه لا علاقة بينه وبينها، وكأنها عنده عبد أسير عانٍ، وهذا لا يليق؛ لأن علاقة الرجل مع أهله علاقة خاصة ينبغي أن تكون مبنية على المحبة والألفة والبعد عن الفحشاء: القولية أو الفعلية.

أما أن يجلدها كما يجلد العبد ثم في آخر اليوم يضاجعها. كيف تضاجعها في آخر اليوم وتستمتع بها محبة وتلذذًا وشهوة وأنت قد جلدتها جلد العبد؟! فهذا تناقض، ولهذا عتب النبي عليه الصلاة والسلام على هذا العمل، فإنه لا ينبغي أن يقع هذا الشيء من الإنسان، وصدق النبي عليه الصلاة والسلام، فإن هذا لا يليق بالعاقل فضلاً عن المؤمن.

ثم تحدث أيضًا عن شيء آخر وهو الضحك من الضرطة، يعني إذا ضرط الإنسان وخرجت الريح من دبره ولها صوت ضحكوا، فقال ﷺ واعظًا لهم في ذلك: «لم يضحك أحدكم مما يفعل؟».

ألست أنت تضرط كما يضرط هذا الرجل؟ بلى، إذا كان كذلك فلماذا تضحك؟ فالإنسان إنما يضحك ويتعجب من شيء لا يقع منه، أما ما يقع منه؛ فإنه لا ينبغي أن يضحك منه، ولهذا عاتب النبي ﷺ من يضحكون من الضرطة؛ لأن هذا شيء يخرج منهم، وهو عادة عند كثير من الناس.

كثيرٌ من الناس في بعض الأعراف لا يبالون إذا ضرط أحدهم وإلى جنبه إخوانه ولا يحتشمون من ذلك أبدًا، ويرون أنها من جنس العطاس أو السعال أو ما أشبه ذلك. ولكن في بعض الأعراف ينتقدون هذا.

لكن كونك تضحك وتخجل صاحبك، فهذا مما لا ينبغي.

وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان لا ينبغي له أن يعيب غيره فيما يفعله هو بنفسه، إذا كنت لا تعيبه بنفسك فكيف تعيبه بإخوانك؟!

وبهذه المناسبة أود أن أنبه على مسألة شائعة عند العامة، فإنه من المعلوم أن لحم الإبل إذا أكل منه الإنسان وهو متوضئ انتقض وضوءُه، ووجب عليه أن يتوضأ إذا أراد الصلاة، سواء أكله نيئًا أو مطبوخًا، وسواء كان هبرًا، أو كبدًا، أو مصرانًا، أو كرشًا، أو قلبًا، أو رئة، كل ما حملت البعير فإن أكله ناقض للوضوء؛ لأن النبي ﷺ لم يستثنِ شيئًا وإنما قال: «توضئوا من لحوم الإبل»[1]، وسئل أنتوضأ من لحوم الإبل فقال: «**نعم**»، قال: من لحوم الغنم؟ فقال: «إن شئت»[2]؛ لحم الغنم لا ينقض

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الطهارة، باب الوضوء من لحم الإبل، رقم(١٨٤)، والترمذي، كتاب الطهارة، باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل، رقم(٨١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم(٣٦٠).

الوضوء، لحم البقر لا ينقض الوضوء، لحم الخيل لا ينقض الوضوء، لكن لحم الإبل ينقض الوضوء؛ إذا أكلته نيئًا أو مطبوخًا هبرًا أو غير هبرٍ؛ وجب عليك أن تتوضأ.

فأما شرب لبنها، فإن الصحيح أنه ليس بناقض للوضوء؛ لأن النبي ﷺ لما أمر العرنيين أن يخرجوا إلى إبل الصدقة، ويشربوا من أبوالها وألبانها لم يأمرهم بالوضوء، ولو كان واجبًا لأمرهم به، فإن توضأ فهو أحسن، أما الوجوب فلا.

وكذلك المرق لا يجب الوضوء منه، وإن توضأت فهو أحسن، أما اللحم فلابد، وكذلك الشحم فلابد من الوضوء منه.

يقول بعض الناس: إن السبب أن الرسول ﷺ كان في وليمة وكان لحمها لحم إبل، وأنه خرجت ريح من بعض الحاضرين ولا يدري من، فقال الرسول ﷺ: «من أكل لحم إبل فليتوضأ» فقام جميعهم يتوضئون.

وجعلوا هذا السبب في أن الإنسان يتوضأ من لحم الإبل، وهذا حديث باطل لا أصل له، وإنما الرسول ﷺ أمر بالوضوء من لحم الإبل لحكمة الله يعلمها، قد نعلمها نحن وقد لا نعلمها، المهم نحن علينا أن نقول: سمعنا وأطعنا، أمرنا الرسول ﷺ أن نتوضأ من لحوم الإبل إذا أكلنا منها فسمعًا وطاعة.

*　　*　　*

٣/٢٧٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْرَكْ مُؤمِنٌ مُؤمِنَةً إنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» أوْ قَالَ: «غَيْرَهُ» رواه مسلم[١].

وقولُهُ: «يَفْرَك» هو بفتح الياءِ وإسكانِ الفاءِ وفتحِ الراءِ معناه: يُبْغِض، يقالُ: فَرِكَتِ المَرْأَةُ زَوْجَهَا، وَفَرِكَهَا زَوْجُهَا، بكسر الراءِ، يَفْرَكُهَا بفتحِها: أيْ أبْغَضَهَا، والله أعلم.

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلُقًا رضي منها خلقًا آخر».

الفرك: يعني البغضاء والعداوة، يعني لا يعادي المؤمن المؤمنة كزوجته مثلاً، لا يعاديها ويبغضها إذا رأى منها ما يكرهه من الأخلاق، وذلك لأن الإنسان يجب عليه القيام بالعدل، وأن يراعي المعامل له بما تقتضيه حاله، والعدل أن يوازن بين السيئات والحسنات، وينظر أيهما أكثر وأيهما أعظم وقعًا، فيغلب ما كان أكثر وما كان أشد تأثيرًا؛ لأن هذا هو العدل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ﴾ [المائدة: ٨]، يعني لا يحملكم بغضهم على عدم العدل، اعدلوا ولو كنتم تبغضونه، ولهذا لما بعث النبي

---

(١) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم(١٤٦٩).

ﷺ عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر ليخرص عليهم ثمر النخل، وكان النبي ﷺ قد عامل أهل خيبر حين فتحها على أن يكفوه المئونة، ويقوموا بإصلاح النخيل والزرع ولهم النصف.

فكان يبعث عليهم من يخرص عليهم الثمرة، فبعث إليهم عبد الله بن رواحة فخرصها عليهم، ثم قال لهم: يا معشر اليهود أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله عزَّ وجلَّ، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض»[1].

فالشاهد أن الرسول ﷺ أمر أن يكون الإنسان حاكمًا بالعدل والقسط، فقال: «لا يفرك مؤمن مؤمنة» يعني لا يبغضها لأخلاقها، إن كره منها خلقًا رضي منها خلقًا آخر.

إذا أساءت مثلاً في ردّها عليك مرة، لكنها أحسنت إليك مرات، أساءت ليلة لكنها أحسنت ليالي، أساءت في معاملة الأولاد مرة، لكن أحسنت كثيرًا. . وهكذا.

فأنت إذا أساءت إليك زوجتك لا تنظر إلى الإساءة في الوقت الحاضر، ولكن انظر إلى الماضي وانظر للمستقبل واحكم بالعدل.

وهذا الذي ذكره النبي ﷺ في المرأة يكون في غيرها أيضًا ممن يكون بينك وبينه معاملة أو صداقة أو ما أشبه ذلك، إذا أساء إليك يومًا من الدهر

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ٣٦٧).

فلا تنس إحسانه إليك مرة أخرى وقارن بين هذا وهذا، وإذا غلب الإحسان على الإساءة؛ فالحكم للإحسان، وإن غلبت الإساءة على الإحسان فانظر؛ إن كان أهلاً للعفو فاعف عنه، ومن عفا وأصلح فأجره على الله، وإن لم يكن أهلاً للعفو؛ فخذ بحقك وأنت غير ملوم إذا أخذت بحقك، لكن انظر للمصلحة.

فالحاصل أن الإنسان ينبغي له أن يعامل من بينه وبينهم صلة من زوجية أو صداقة أو معاملة، في بيع أو شراء أو غيره، أن يعامله بالعدل إذا كره منه خلقًا أو أساء إليه في معاملة، أن ينظر للجوانب الأخرى الحسنة حتى يقارن بين هذا وهذا، فإن هذا هو العدل الذي أمر الله به ورسوله كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

* * *

٤/٢٧٦ ـ وعن عَمْرِو بن الأحوصِ الجُشَمِيِّ رضي الله عنه أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ في حجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ بَعْدَ أنْ حَمِدَ الله تعالى، وأثْنَى عَلَيْهِ وذَكَّرَ وَوَعَظَ، ثُمَّ قال: «ألاَ وَاسْتَوصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإنَّمَا هُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ غَيْرَ ذلِكَ إلاَّ أنْ يَأتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فَإن فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ في الْمَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، فَإنْ أطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً. ألا إنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا؛ فَحَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلا يَأذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكرَهُونَ، ألاَ وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أنْ تُحْسِنُوا إلَيْهِنَّ

فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ» رواه الترمذي[١] وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

قوله ﷺ: «عَوانٍ» أيْ: أسِيرَاتٌ جَمْع عَانِيَةٍ، بِالْعَينِ المُهْمَلَةِ، وَهِيَ الأسِيرَةُ، والْعَانِي: الأسِيرُ. شَبَّهَ رسول الله ﷺ المَرْأةَ في دُخُولِهَا تَحْتَ حُكْم الزَّوْجِ بالأسِير.

«وَالضَّرْبُ المُبرِّحُ»: هُوَ الشَّاقُّ الشَّدِيدُ.

وقوله ﷺ: «فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً» أيْ: لا تَطْلُبُوا طَرِيقًا تَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَيْهِنَّ وتُؤذُونَهُنَّ بِهِ. والله أعلم.

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن عمرو بن الأحوص الجشمي رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ في خطبة الوداع يخطب وكان ذلك في عرفة؛ لأن النبي ﷺ في حجة الوداع قدم مكة يوم الأحد الرابع من ذي الحجة، وبقي فيها إلى يوم الخميس الثامن من ذي الحجة.

وخرج ضحى يوم الخميس إلى منى، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، فلما طلعت الشمس، صار إلى عرفة، فنزل بنمرة وهي مكان معروف قبل عرفة وليست من عرفة، ثم زالت الشمس وحلت صلاة الظهر، فأمر أن تُرَحّل له ناقته فرحّلت له وركب، حتى أتى بطن الوادي ـ بطن عرنة ـ وهو شعيب عظيم يحدّ عرفة من الناحية الغربية

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم(١١٦٣)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج، رقم(١٨٥١).

إلى الناحية الشمالية، فنزل ثم خطب الناس ﷺ خطبة عظيمة بليغة.

ثم قال فيها من جملة ما قال ما أوصى به أمته بالنسبة للنساء: «استوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هنَّ عوان عندكم» العواني جمع عانية وهي الأسيرة، يعني أن الزوجة عند زوجها بمنزلة الأسير عند من أسره؛ لأنه يملكها، وإذا كان يملكها فهي كالأسير عنده، ثم بين ﷺ أنه لا حق لنا أن نضربهن إلا إذا أتين بفاحشة مبينة، والفاحشة هنا عصيان الزوج، بدليل قوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤]، يعني إن قصرت الزوجة في حق زوجها عليها؛ فإنه يعظها أولاً، ثم يهجرها في المضجع فلا ينام معها، ثم يضربها ضربًا غير مبرح إن هي استمرت على العصيان.

هذه مراتب تأديب المرأة إذا أتت بفاحشة مبينة، وهي عصيان الزوج فيما يجب له: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ يعني لا تضربوهن ولا تقصروا في حقهن؛ لأنهن قمن بالواجب.

ثم بيَّن ﷺ الحق الذي لهن والذي عليهن، فقال: «لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه» يعني لا يجعلن أحدًا يدخل عليهن على فراش النوم أو غيره وأنت تكره أن يجلس على فراش بيتك، وكأن هذا - والعلم عند الله - ضرب مثل، والمعنى: أن لا يكرمن أحدًا تكرهونه؛ هذا من المضادة لكم أن يكرمن من تكرهونه بإجلاسه على الفرش أو تقديم الطعام له، أو ما أشبه ذلك.

وأن لا يأذنّ في بيوتكم لمن تكرهون، يعني لا يدخلن أحدًا البيت وأنت تكره أن يدخل، حتى لو كانت أمها أو أباها، فلا يحل لها أن تدخل

أمها أو أباها، أو أختها أو أخاها، أو عمها أو خالها، أو عمتها أو خالتها إلى بيت زوجها إذا كان يكره ذلك.

وإنما نبهت على هذا؛ لأن بعض النساء والعياذ بالله شر، شر حتى على بنتها، إذا رأت أن زوجها يحبها أصابتها الغيرة والعياذ بالله ـ وهي الأم! ـ ثم حاولت أن تفسد بين البنت وزوجها، فهذه الأم للزوج أن يقول لزوجته لا تدخل بيتي، له أن يمنعها شرعًا، وله أن يمنع زوجته من الذهاب إليها؛ لأنها نمَّامة تفسد، وقد قال النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**»(١) أي نمام.

ثم قال ﷺ: «**ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**». فالزوج هو الذي ينفق على زوجته حتى لو كانت غنية، ولو كانت موظفة، فليس له حق في وظيفتها ولا في راتبها، ليس له قرش واحد. كله لها، وتلزمه بأن ينفق عليها؛ فإذا قال: كيف أنفق عليك وأنت غنية، وأنت لك راتب كراتبي؟ نقول: يلزمك الإنفاق عليها وإن كانت كذلك، فإن أبيت فللحاكم القاضي أن يفسخ النكاح غصبًا من الزوج، وذلك لأنه ملتزم بنفقتها.

والحاصل أن خطبة حجة الوداع خطبة عظيمة قرر فيها النبي ﷺ شيئًا كثيرًا من أصول الدين ومن الحقوق، حتى قال ﷺ من جملة ما قال: «**ألا وإن ربا الجاهلية موضوع تحت قدميَّ**»؛ كانوا في الجاهلية ـ نسأل الله

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، رقم(٦٠٥٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم النميمة، رقم(١٠٥).

العافية ـ إذا حلَّ الدين على الفقير قالوا له: إما أن تربي وإما أن تقضي: «تقضي» يعني توفينا، «تربي» يعني نزيد عليك الدين حتى يصبح أضعافًا مضاعفة.

فقال ﷺ في حجة الوداع حاكمًا ومشرِّعًا: «إن ربا الجاهلية موضوع تحت قدميَّ هاتين» يعني تحت رجلي ليس له قائمة، ثم قال: «وأول ربًا أضع ربا العباس بن عبد المطلب»[1].

الله أكبر، صراحة عظيمة وعدل قائم في تنفيذ أحكام الله، «أول ربًا أضع ربا العباس»، العباس عم الرسول ﷺ.

لو كان النبي ﷺ رجلاً من أهل الدنيا لجحد، ولا أخبر الناس أن عمه يرابي، ولأبقى رباه على ما هو عليه، لكن الرسول ﷺ الذي هو غاية الخلق في العدل يقول: «أول ربًا أضع ربا العباس بن عبد المطلب»، فإنه موضوع كله، فليس لأحد ممن عليه الربا أن يوفيه، فهو ساقط كأن لم يكن؛ ليس للعباس إلا رأس ماله فقط.

وهذا كقوله ﷺ حينما جاء الناس يشفعون في امرأة من بني مخزوم كانت تستعير المتاع وتجحده، تستعير المتاع؛ كالقدر والفرش وغيره، ثم إنها بعد أن تأخذ هذا المتاع كانت تنكر أنها أخذت شيئًا، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها؛ لأنها سارقة.

فأهمّ قريش شأنها؛ امرأة من بني مخزوم ـ إحدى قبائل قريش الكبرى ـ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم(١٢١٨).

فقاموا ليشفعوا لها وقدموا أسامة بن زيد يشفع عند النبي ﷺ.

وأسامة هو ابن عتيق الرسول ﷺ زيد بن حارثة؛ عبد أهدته خديجة للرسول ﷺ فأعتقه ثم رزق بأسامة، وكان النبي ﷺ يحبهما: أسامة وأباه زيدًا، فقالوا لأسامة: اشفع عند الرسول ﷺ.

فلما جاء يشفع أنكر عليه النبي ﷺ، وقال: «**أتشفع في حدٍّ من حدود الله**». إنكار توبيخ.

ثم قام فخطب الناس وقال لهم كلامًا خالدًا عظيمًا: «**أيها الناس؛ إنما أهلك من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف؛ أقاموا عليه الحد**» وهذا جور وظلم فأيهم أحق بالعفو: الضعيف الذي لا يجد، أو الشريف الكبير؟ لا شك أن الضعيف أحق بالعفو إن كان هناك تفريق ومحاباة، ولكن ولله الحمد ليس هنالك تفريق ولا محاباة في إقامة حدود الله.

ثم قال النبي ﷺ: «**وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[(١)] وهي أشرف من المخزومية نسبًا وقدرًا ودينًا، وهي بلا شك أفضل من المخزومية لأنها سيدة نساء أهل الجنة رضي الله عنها.

وقوله ﷺ: «**وايم الله**» حلف وإن لم يستحلف؛ لتأكيد هذا الحكم وبيان أهميته «**لو أن فاطمة**» وهي أشرف من هذه المخزومية «**بنت محمد**»

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا...، رقم(٦٧٨٨)، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره...، رقم(١٦٨٨).

أشرف البشر «سرقت لقطعت يدها» وهذا العدل غاية في عدل البشر، لا يوجد عدل يصدر من أي بشر كان مثل هذا العدل من النبي ﷺ ليقطع كل الحجج والوساطات والشفاعات، وهذا يدل على كمال عدله ﷺ.

المهم أن الرسول ﷺ خطب في حجة الوداع خطبة عظيمة بيَّن فيها كثيرًا من أحكام الإسلام وآدابه، وقد قام بشرح هذه الخطبة الشيخ العلَّامة عبد الله بن محمد بن حميد رحمة الله عليه، رئيس القضاة في هذه المملكة في زمنه، شرحها شرحًا موجزًا لكنه مفيد، فمن أحب فليرجع إليه.

* * *

٥/٢٧٧ ـ وعن مُعَاوِيَةَ بن حَيْدَةَ رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، ما حقُّ زَوْجَةِ أحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قال: «أنْ تُطْعِمَهَا إذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إذَا اكْتَسَيْتَ، لا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلاَ تُقَبِّحْ، وَلاَ تَهْجُرْ إلاَّ فِي الْبَيْتِ» حديثٌ حسنٌ رواه أبوداود[١].

وقال: معنى «لا تُقَبِّحْ» أي: لا تَقلْ قَبَّحَك الله.

٦/٢٧٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكْمَلُ الْمُؤمِنِينَ إيمَانًا أحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ» رواه الترمذي[٢] وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقل عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ ما حقّ امرأة أحدنا عليه، والصحابة رضي الله

---

(١) رواه أبوداود، كتاب النكاح، باب في حق المرأة على زوجها، رقم(٢١٤٢).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم(١١٦٢)، وأبوداود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه. . . ، رقم(٤٦٨٢).

عنهم كانوا إذا سألوا النبي ﷺ فإنما يسألونه ليعملوا لا ليعلموا فقط؛ خلافًا لما عليه كثيرٌ من الناس اليوم يسألون ليعلموا ثم لا يعمل إلا قليل منهم؛ وذلك أن الإنسان إذا علم من شريعة الله ما علم كان حجة له أو عليه. إن عمل به فهو حجة له يوم القيامة، وإن لم يعمل به؛ كان حجة عليه يؤاخذ به.

وما أكثر ما كان الصحابة يسألون النبي ﷺ عن أمور دينهم، ففي القرآن مسائل كثيرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩]؛ كلها أسئلة يريد بها الصحابة رضي الله عنهم أن يعلموا فيها حكم الله ثم يطبقوه في أنفسهم وفي أهليهم.

وهنا سأله معاوية «ما حق امرأة أحدنا عليه؟» قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت» يعني لا تخص نفسك بالكسوة دونها، ولا بالطعام دونها؛ بل هي شريكة لك يجب عليك أن تنفق عليها كما تنفق على نفسك، حتى إن كثيرًا من العلماء يقول: إذا لم ينفق الرجل على زوجته وطالبت بالفسخ عند القاضي؛ فللقاضي أن يفسخ النكاح؛ لأنه قصر بحقها الواجب لها.

قال: «ولا تضرب الوجه ولا تقبِّح» فلا تضربها إلا لسبب وإذا ضربتها فاجتنب الوجه وليكن ضربًا غير مبرح.

وقد سبق لنا أن الإنسان إذا رأى من امرأته نشوزًا وترفعًا عليه، وأنها لا تقوم بحقه؛ وعظها أولاً، ثم هجرها في المضجع، ثم ضربها ضربًا غير مبرح، فإذا حق له أن يضربها لوجود السبب، فإنه لا يضرب الوجه.

وكذلك غير الزوجة لا يُضرب على الوجه، فالابن إذا أخطأ لا يُضرب على الوجه؛ لأن الوجه أشرف ما في الإنسان، وهو واجهة البدن كله، فإذا ضُرب كان أذلَّ للإنسان مما لو ضُرب غير وجهه، يعني يُضرب الرجل على كتفه، على عضده، على ظهره؛ فلا يرى بذلك أنه استذل كما لو ضربته على وجهه، ولهذا نهي عن ضرب الوجه وعن تقبيح الوجه.

قوله: «لا تقبِّح» يعني لا تقل: أنت قبيحة، أو قبَّح الله وجهك، ويشمل النهي عن التقبيح: النهي عن التقبيح الحسي والمعنوي، فلا يقبحها مثل أن يقول: أنت من قبيلة رديئة، أو من عائلة سيئة، أو ما أشبه ذلك. كل هذا من التقبيح الذي نهى الله عنه.

قال: «ولا تهجر إلا في البيت» يعني إذا وجد سبب الهجر فلا تهجرها علنًا وتظهر للناس أنك هجرتها.

اهجرها في البيت؛ لأنه ربما تهجرها اليوم وتتصالح معها في الغد فتكون حالكما مستورة، لكن إذا ظهرت حالكما للناس بأن قمت بنشر ذلك والتحديث به كان هذا خطأ، اهجرها في البيت، ولا يطلع على هجرك أحد، حتى إذا اصطلحت معها رجع كل شيء على ما يرام، دون أن يطَّلع عليه أحد من الناس.

أما الحديث الثاني حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ فإنه حديث

عظيم، قال فيه النبي ﷺ: «أكمل الناس إيمانًا أحسنهم خلقًا».

الإيمان يتفاوت ويتفاضل كما قال الله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وليس الناس في الإيمان سواء؛ من الناس من يؤمن بالغيب وكأنه يشاهده شهود عيان، يؤمن بيوم القيامة وكأنه الآن في تلك الساعات، يؤمن بالجنة وكأنها في تلك الرياض، يؤمن بالنار وكأنه يراها بعينه، يؤمن إيمانًا حقيقيًّا مطمئنًّا لا يخالطه شك.

ومن الناس من يعبد الله على حرف ـ نسأل الله العافية ـ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] يعني على طرف ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ يعني إن لم يواجه أحدًا يشككه في الدين، ولم يواجه إلا صلحاء يعينونه ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ أي ركن إليه.

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، إن أصابته فتنة في بدنه، أو ماله، أو أهله؛ انقلب على وجهه واعترض على القضاء والقدر، وتسخط وهلك والعياذ بالله ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾.

فأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وفي هذا حثّ عظيم على حسن الخلق: حسن الخلق مع الله، وحسن الخلق مع الناس.

أما حسن الخلق مع الله، فأن يرضى الإنسان بشريعته، وينقاد إليها راضيًا، مطمئنًّا بها، مسرورًا بها، سواء كانت أمرًا يؤمر به، أو نهيًا ينهى عنه.

وأن يرضى الإنسان بقدر الله عزَّ وجلَّ، ويكون ما قدر الله عليه مما يسوءه كالذي قدر الله عليه مما يسره، فيقول: يا رب كل شيء من عندك، فأنا راضٍ بك ربًّا، إن أعطيتني ما يسرني شكرت، وإن أصابني ما يسوءني صبرت، فيرضى

بالله، قضاءً وقدرًا، وأمرًا وشرعًا؛ هذا حسن الخلق مع الله.

أما حسن الخلق مع الناس فظاهر، فكفُّ الأذى وبذلُ الندى، والصبر عليهم وعلى أذاهم، هذا من حسن الخلق مع الناس؛ أن تعاملهم بهذه المعاملة تكفّ أذاك عنهم، وتبذل نداك. الندى يعني العطاء، سواء كان مالاً أو جاهًا أو غير ذلك، وكذلك تصبر على البلاء منهم، فإذا كنت كذلك؛ كنت أكمل الناس إيمانًا.

ثم قال النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(١) هذا خير الناس. هو خيرهم لأهله؛ فإذا كان فيك خير؛ فاجعله عند أقرب الناس لك وليكن أهلك هم أول المستفيدين من هذا الخير.

وهذا عكس ما يفعله بعض الناس اليوم، تجده سيىء الخُلُق مع أهله، حسن الخُلُق مع غيرهم، وهذا خطأ عظيم؛ أهلك أحق بإحسان الخُلُق؛ أحسن الخُلُق معهم؛ لأنهم هم الذين معك ليلاً ونهارًا، سرًّا وعلانية، إن أصابك شيء أصيبوا معك، وإن سررت سروا معك، وإن حزنت حزنوا معك، فلتكن معاملتك معهم خيرًا من معاملتك مع الأجانب، فخير الناس خيرهم لأهله.

أسأل الله أن يكمل لي وللمسلمين الإيمان، وأن يجعلنا خير عباد الله في أهلينا ومن لهم حق علينا.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ، رقم(٣٨٩٥)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، رقم(١٩٧٧).

٧/ ٢٧٩ ـ وعن إياس بن عبد الله بن أبي ذُبابٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَضْرِبُوا إمَاءَ الله» فَجَاء عُمَرُ رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، فَقَالَ: ذَئِرْنَ النِّسَاءُ عَلَى أزْوَاجِهِنَّ، فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ، فَأطَافَ بِآلِ رسولِ الله ﷺ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أزْوَاجَهُنَّ، فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أطَافَ بِآلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أُولئِكَ بِخِيَارِكُمْ» رواه أبو داود[1] بإسنادٍ صحيح.

قوله: «ذَئِرنَ» هُوَ بذَالٍ مُعْجَمَةٍ مَفْتُوحَةٍ ثُمَّ هَمْزَةٍ مَكْسُورَةٍ ثُمَّ رَاءٍ سَاكِنَةٍ ثُمَّ نُونٍ، أيْ: اجْتَرَأْنَ، قوله: «أطَافَ» أيْ: أحَاطَ.

٨/ ٢٨٠ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ» رواه مسلم[2].

الشرح

ذكر رحمه الله تعالى فيما نقله فيما يتعلق بأمر النساء أن النبي ﷺ قال: «لا تضربوا إماء الله»، يريد بذلك النساء، فيقال: أمة الله كما يُقال عبد الله، ويقال: إماء الله كما يُقال عباد الله، ومن ذلك الحديث الصحيح: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[3].

نهاهم عن ضرب النساء، فكفُّوا عن ذلك؛ لأن الصحابة رضي الله

---

(١) رواه أبوداود، كتاب النكاح، باب في ضرب النساء، رقم(٢١٤٦)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب ضرب النساء، رقم(١٩٨٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، رقم(١٤٦٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء، ومسلم، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد...، رقم(٤٤٢) [١٣٦].

عنهم كانوا من الطراز الأول والجيل المفضّل، الذين إذا دعوا إلى الله ورسوله قالوا: سمعنا وأطعنا، فكفُّوا عن ضرب النساء. والنساء قاصرات عقل وناقصات دين.

فلما نهى النبي ﷺ عن ضربهن، اجترأن على أزواجهن، كما قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله إن النساء ذئرن على أزواجهن، يعني اجترأن وتعالين على الرجال، فلما سمع النبي ﷺ ما قال عمر؛ أجاز ضربهن، فأفرط الرجال في ذلك وجعلوا يضربونهن حتى وإن لم يكن ذلك من حقهم، فطافت النساء بآل النبي ﷺ، أي ببيوته، وجعلن يتجمعن حول بيوت النبي ﷺ يشكون أزواجهن.

فقال النبي ﷺ يخاطب الناس يخبرهم بأن هؤلاء الذين يضربون أزواجهن ليسوا بخيارهم، أي ليسوا بخيار الرجال، وهذا كقوله: «خيركم خيركم لأهله» فدلَّ هذا على أن الإنسان لا يُفْرِط ولا يُفَرِّط في ضرب أهله؛ إن وجد سببًا يقتضي الضرب فلا بأس.

وقد بيَّن الله عزَّ وجلَّ مراتب ذلك في كتابه فقال: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

المرتبة الثالثة: الضرب، وإذا ضربوهن فليضربوهن ضربًا غير مبرح.

ثم ذكر المؤلف حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة» فقوله ﷺ: «الدنيا متاع» يعني شيء يتمتع به، كما يتمتع المسافر بزاده ثم ينتهي، وخير متاعها المرأة الصالحة؛ إذا وفق الإنسان لامرأة صالحة في دينها وعقلها فهذا خير متاع

الدنيا؛ لأنها تحفظه في سره وماله وولده.

وإذا كانت صالحة في العقل أيضًا، فإنها تدبر له التدبير الحسن في بيته وفي تربية أولادها، إن نظر إليها سرته، وإن غاب عنها حفظته، وإن وكل إليها لم تخنه، فهذه المرأة هي خير متاع الدنيا.

ولهذا قال النبي ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، وحسبها، وجمالها، ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»(١)، يعني عليك بها، فإنها خير من يتزوجه الإنسان؛ فذات الدين وإن كانت غير جميلة الصورة، لكن يجملها خلقها ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك.

* * *

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم(٥٠٩٠)، ومسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات اليد، رقم(١٤٦٦).

٣٥ـ باب حق الزوج على المرأة

قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

وأما الأحاديث فمنها حديث عمرو بن الأحوص السابق في الباب قبله.

١ / ٢٨١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ تَأْتِهِ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا؛ لَعَنَتْهَا الْمَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» متفقٌ عليه[(١)].

وفي رواية لهما: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا؛ لَعَنَتْهَا الْمَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»[(٢)].

وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْبَى عَلَيْهِ إِلاَّ كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم(٣٢٣٧)، ومسلم، كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها، رقم(١٤٣٦) [١٢٢].

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها، رقم(٥١٩٤)، ومسلم، كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها، رقم (١٤٣٦) [١٢٠].

(٣) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها، رقم(١٤٣٦) [١٢١].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب حق الزوج على المرأة.

لما ذكر ـ رحمه الله ـ حقوق الزوجة على زوجها؛ ذكر حقوق الزوج على زوجته، ثم استدل بقول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾.

ثم بيّن سبب هذه القوامة والولاية التي جعلها الله، فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ حيث فضل الرجل على المرأة في العقل والدين والقدرة والقوة وغير ذلك من وجوه الفضائل، والشريعة كلها عدل، تعطي كل أحد ما يستحقه بمقتضى فضله، فإذا كان الله قد فضل الرجال على النساء؛ فإنهم هم القوامون عليهن، وفي هذا لا يدرين الواقع على فضل جنس الرجال على النساء، وأن الرجال أكمل وأفضل وأولى بالولاية من المرأة، ولهذا لما قيل للنبي ﷺ: مات كسري وتولى الأمر بعده امرأة قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[1]، وهذا الحديث إن كان يعني هؤلاء الفرس الذين نصبوا عليهم امرأة؛ فهو يعنيهم ولكن غيرهم مثلهم، وإن كان عامًّا فهو عام، لن يفلح قوم ولوا على أمرهم امرأة، فالرجل هو صاحب القوامة على المرأة، وفي هذا دليل على سفه أولئك الكفار من الغربيين وغير الغربيين، الذين صاروا أذنابًا للغرب يقدِّسون

---

(١) رواه البخاري، كتاب النبي ﷺ إلى كسرى، رقم (٤٤٢٥).

المرأة أكثر من تقديس الرجل؛ لأنهم يتبعون أولئك الأراذل من الكفار الذين لم يعرفوا لصاحب الفضل فضله، فتجدهم مثلاً في مخاطباتهم يقدِّمون المرأة على الرجل فيقول أحدهم: أيها السيدات والسادة، وتجد المرأة في المكان الأعلى عندهم والرجل دونها..

ولكن هذا ليس بغريب على قوم يقدِّسون كلابهم، حتى إنهم يشترون الكلب بالآلاف ويخصصون له من الصابون وآلات التطهير وغير ذلك ما يضحك السفهاء فضلاً عن العقلاء، مع أن الكلب لو غسلته بالأبحر السبعة، ما صار طاهرًا؛ لأنه نجس العين، لا يطهر أبدًا.

فالحاصل أن الرجال هم القوّامون على النساء بما فضَّل الله به بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم، وهذا وجه آخر للقوامة على النساء، وهو أن الرجل هو الذي ينفق على المرأة، وهو المطالب بذلك، وهو صاحب البيت، وليست المرأة هي التي تنفق.

وهذا إشارة إلى أن أصحاب الكسب الذين يكسبون ويعملون هم الرجال، أما المرأة فصناعتها بيتها، تبقى في بيتها تصلح أحوال زوجها، وأحوال أولادها، وأحوال البيت، هذه وظيفتها، أما أن تشارك الرجال بالكسب وطلب الرزق ثم بالتالي تكون هي المنفقة عليه؛ فهذا خلاف الفطرة وخلاف الشريعة، فالله تعالى يقول: ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ فصاحب الإنفاق هو الرجل.

قال تعالى: ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ ﴾ أي مديمات للطاعة، الصالحة تقنت ليس

معناها: الدعاء بالقنوت؛ بل القنوت دوام الطاعة كما قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، أي مديمين لطاعته ﴿قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ يعني: يحفظن سرَّ الرجل وغيبته وما يكون داخل جدرانه من الأمور الخاصة، وتحفظه بما حفظ الله، أي بما أمر الله تعالى بحفظه فهذه هي الصالحة، فعليك بالمرأة الصالحة؛ لأنها خيرٌ لك من امرأة جميلة ليست بصالحة.

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه؛ لعنتها الملائكة حتى تصبح**».

ولعن الملائكة يعني أنها تدعو على هذه المرأة باللعنة، واللعنة هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فإذا دعاها إلى فراشه ليستمتع بها بما أذن الله له فيه فأبت أن تجيء، فإنها تلعنها الملائكة والعياذ بالله، أي تدعو عليها باللعنة إلى أن تصبح.

واللفظ الثاني: أنها إذا هجرت فراش زوجها، فإن الله تعالى يغضب عليها حتى يرضى عنها الزوج، وهذا أشدُّ من الأول؛ لأن الله سبحانه وتعالى إذا سخط؛ فإن سخطه أعظم من لعنة الإنسان، نسأل الله العافية.

ودليل ذلك أن الله تعالى ذكر في آية اللعان أنه إذا لاعن الرجل يقول: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [النور: ٧]، وهي إذا لاعنت تقول: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩]، وهذا يدلّ على أن الغضب أشدُّ، وهو كذلك.

وأيضًا قال في الحديث: «إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتى يرضى عنها» أي الزوج، وهناك قال: «حتى تصبح»، أما هنا فعلَّقه برضى الزوج، وهذا قد يكون أقل، وقد يكون أكثر يعني: ربما يرضى الزوج عنها قبل طلوع الفجر، وربما لا يرضى إلا بعد يومٍ أو يومين، المهم ما دام الزوج ساخطًا عليها فالله عزَّ وجلَّ ساخطٌ عليها.

وفي هذا دليلٌ على عظم حق الزوج على زوجته، ولكن هذا في حق الزوج القائم بحق الزوجة، أما إذا نشز ولم يقم بحقها؛ فلها الحق أن تقتصّ منه وألا تعطيهْ حقه كاملاً؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

لكن إذا كان الزوج مستقيمًا قائمًا بحقها فنشزت هي ومنعته حقه؛ فهذا جزاؤها إذا دعاها إلى فراشه فأبت أن تأتي.

والحاصل أن هذه الألفاظ التي وردت في هذا الحديث هي مطلقة، لكنها مقيدة بكونه قائمًا بحقها، أما إذا لم يقم بحقها فلها أن تقتص منه وأن تمنعه من حقه مثل ما منعها من حقها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾.

وفي هذا الحديث دليلٌ صريحٌ لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة وسلف الأمة من أن الله عزَّ وجلَّ في السماء هو نفسه جلَّ وعلا فوق عرشه، فوق سبع سموات، وليس المراد بقوله: «في السماء» أي ملكه في

السماء؛ بل هذا تحريفٌ للكلم عن مواضعه.

وتحريف الكلم عن مواضعه من صنيع اليهود والعياذ بالله الذين حرَّفوا التوراة عن مواضعها وعمَّا أراد الله بها، فإن ملك الله سبحانه وتعالى في السماء وفي الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، وقال أيضًا: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وقال أيضًا: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ١٢].

كل السموات والأرض كلها بيد الله عزَّ وجلَّ، كلها ملك الله، ولكن المراد أنه هو نفسه عزَّ وجلَّ فوق سمواته على العرش استوى، ولذلك نجد أن المسألة فطرية لا تحتاج إلى دراسة وتعب حتى يقرَّ الإنسان أن الله في السماء، بمجرد الفطرة يرفع الإنسان يديه إلى ربه إذا دعا ويتجه قلبه إلى السماء، واليد ترفع أيضًا نحو السماء.

بل حتى البهائم ترفع رأسها إلى السماء، حدثني أحد الأساتذة في الجامعة عندنا عن شخص اتصل عليه من القاهرة إبان الزلزلة التي أصابت مصر يقول: إنه قبل الزلزلة بدقائق، هاجت الحيوانات في مقرِّها الذي يسمونه: «حديقة الحيوانات» هاجت هيجانًا عظيمًا، ثم بدأت ترفع رأسها إلى السماء. سبحان الله، بهائم تعرف أن الله في السماء، وأوادم من بني آدم ينكرون أن الله في السماء والعياذ بالله، فالبهائم تدري وتعرف.

نحن نشاهد بعض الحشرات إذا طردتها أو آذيتها وقفت ثم رفعت

قوائمها إلى السماء، نشاهدها مشاهدة، فهذا يدل على أن كون الله عزَّ وجلَّ في السماء أمر فطري لا يحتاج إلى دليل أو تعب أو عنت، حتى الذين ينكرون أن الله في السماء ـ نسأل الله لنا ولهم الهداية ـ لو جاءوا يدعون أين يرفعون أيديهم؟ . . إلى السماء، فسبحان الله! أفعالهم تكذب عقيدتهم، هذه العقيدة الباطلة الفاسدة التي يخشى عليهم من الكفر بها.

وهذه جارية، أمة مملوكة في عهد النبي ﷺ، أراد سيِّدها أن يعتقها، فقال له النبي ﷺ: «ادعها»، فجاءت الجارية، فقال لها النبي ﷺ: «أين الله؟» قالت: الله في السماء. قال: «من أنا» قالت: أنت رسول الله. قال لسيدها: «أعتقها فإنها مؤمنة»[١].

سبحان الله! إن هؤلاء الذين يعتقدون أن الله ليس في السماء، يقولون: من قال إن الله في السماء فهو كافر والعياذ بالله، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

المهم أن من عقيدتنا التي ندين الله بها أن الله عزَّ وجلَّ فوق كل شيء، وهو القاهر فوق عباده، وأنه على العرش استوى، وأن العرش على السموات مثل القبة، كأنه قبة أي خيمة مضروبة على السموات والأرض، والسموات والأرض بالنسبة للعرش ليست بشيء.

وجاء في بعض الآثار: أن السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، حلقة الدرع حلقة ضيقة لا يدخل فيها مفتاح، إذا ألقيت في فلاة من الأرض ماذا تشغل من مساحة

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة. . .، رقم(٥٣٧).

هذه الفلاة؟ لا شيء.

قال: «وإن فضل العرش على الكرسي، كفضل الفلاة على هذه الحلقة»[١]، إذًا الله أكبر من كل شيء، ومحيط بكل شيء ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يعني أحاط بها، فما بالك بالرب عزَّ وجلَّ.

فالرب عزّ وجلَّ فوق كل شيء، هذه عقيدتنا التي نسأل الله تعالى أن نموت عليها ونبعث عليها، هذه العقيدة التي يعتقدها أهل السنة والجماعة بالاتفاق.

* * *

٢٨٢/٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ أنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إلاَّ بِإذْنِه، وَلاَ تَأذَنَ فِي بَيْتِهِ إلاَّ بِإذْنِهِ» متفقٌ عليه[٢]. وهذا لفظ البخاري.

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه».

هذا من حقوق الزوج على زوجته، أنه لا يحل لها أن تصوم إلا بإذنه ما دام حاضرًا في البلد، أما إذا كان غائبًا؛ فلها أن تصوم ما شاءت، لكن إذا

---

(١) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٣/ ٤٠٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا...، رقم(٥١٩٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ما أنفق العبد من مال مولاه، رقم(١٠٢٦).

كان في البلد فلا تصوم.

وظاهر الحديث أنها لا تصوم فرضًا ولا نفلاً إلا بإذنه، أما النفل فواضح أنها لا تصوم إلا بإذنه؛ لأن حق الزوج عليها واجب والنفل تطوع لا تأثم بتركه، وحق الزوج تأثم بتركه، وذلك أن الزوج ربما يحتاج إلى أن يستمتع بها، فإذا كانت صائمة وأراد الاستمتاع بها صار في نفسه حرج، وإلا فله أن يستمتع بها ويجامعها وهي صائمة صوم تطوع إذا لم يأذن فيه من قبل ولو أفسد صومها ولا إثم عليه.

لكن من المعلوم أنه سيكون في نفسه حرج، لهذا قال النبي ﷺ: «لا يحل لامرأةٍ أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه».

أما صيام الفرض فإن كان قد بقي من السنة مدة أكثر مما يجب عليها، فلا يحل لها أن تصوم إلا بإذن زوجها إذا كان شاهدًا، يعني مثلاً عليها عشرة أيام من رمضان، وهي الآن في رجب، وقالت: أريد أن أصوم القضاء، نقول: لا تصومي القضاء إلا بإذن الزوج؛ لأن معك سعة من الوقت، أما إذا كان بقي في شعبان عشرة أيام فلها أن تصوم وإن لم يأذن؛ لأنه لا يحل للإنسان الذي عليه قضاء من رمضان أن يؤخره إلى رمضان الثاني، وحينئذ تكون فاعلة لشيءٍ واجب فرض في الدين، وهذا لا يشترط فيه إذن الزوج ولا غيره.

فصوم المرأة فيه تفصيل: أما التطوع فلا يجوز إلا بإذن الزوج، وأما الفرض فإن كان الوقت متسعًا، فإنه لا يجوز إلا بإذن الزوج، وإن كان لا يسع إلا مقدار ما عليها من الصوم، فإنه لا يشترط إذن الزوج، هذا إذا كان

حاضرًا، أما إذا كان غائبًا فلها أن تصوم.

وهل مثل ذلك الصلاة؟ يحتمل أن تكون الصلاة مثل الصوم، وأنها لا تتطوع في الصلاة إلا بإذنه، ويحتمل أن لا تكون مثل الصوم؛ لأن وقت الصلاة قصير بخلاف الصوم، الصوم كل النهار، والصلاة ليست كذلك، الصلاة ركعتان إذا كانت تطوعًا، والفريضة معروف أنه لا يشترط إذنه.

والظاهر أن الصلاة ليست كالصوم، فلها أن تصلي ولو كان زوجها حاضرًا، إلا أن يمنعها فيقول: أنا محتاج إلى استمتاع، لا تصلين الضحى مثلاً، لا تتهجدين الليلة.

على أنه لا يجوز للزوج أن يحرم زوجته الخير، إلا إذا كان هناك حاجة بأن غلبت عليه الشهوة، ولا يتمكن من الصبر، وإلا فعليه أن يكون عونًا لها على طاعة الله، وعلى فعل الخير؛ لأنه يكون مأجورًا بذلك كما أنها مأجورة أيضًا على الخير.

وأما إدخال أحد بيته بغير إذنه فظاهر. فلا يجوز أن تُدخل أحدًا بيته إلا بإذنه، لكن الإذن في إدخال البيت نوعان:

الإذن الأول: إذن العرف: يعني جرى به العرف مثل دخول امرأة الجيران والقريبات والصاحبات والزميلات وما أشبه ذلك، هذا جرى العرف به، وأن الزوج يأذن به، فلها أن تدخل هؤلاء إلا إذا منع وقال: لا تدخل عليك فلانة، فهنا يجب المنع، ويجب أن لا تدخل.

والإذن الثاني: إذن لفظي، بأن يقول لها: أدخلي من شئتي ولا حرج عليك إلا من رأيتي منه مضرة فلا تدخليه، فيتقيد الأمر بإذنه.

وفي هذا دليلٌ على أن الزوج يتحكم في بيته أن يمنع حتى أم الزوجة إذا شاء أن يمنعها، وحتى أختها وخالتها وعمتها، لكنه لا يمنعها من هؤلاء إلا إذا كان هناك ضرر عليه وعلى بيته؛ لأن بعض النساء والعياذ بالله لا يكون فيها خير، تكون ضررًا على ابنتها وزوجها، تأتي إلى ابنتها وتحقنها من العداوة والبغضاء بينها وبين الزوج، حتى تكره زوجها، ومثل هذه الأم لا ينبغي أن تتصل بابنتها؛ لأنها تفسدها على زوجها، فهي كالسحرة الذين يتعلمون ما يفرقون به بين المرء وزوجه.

* * *

٣/٢٨٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالأَمِيرُ رَاعٍ، والرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» متفق عليه[١].

٤/٢٨٤ - وعن أبي علي طلق بن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُّور» رواه الترمذي والنسائي[٢] وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

٥/٢٨٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا» رواه الترمذي[٣]، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم(٨٩٣)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل. . .، رقم(١٨٢٩).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة، رقم(١١٦٠).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة، رقم(١١٥٩).

٦/٢٨٦ ـ وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أيُّمَا امْرَأةٍ مَاتَتْ، وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ» رواه الترمذي[1]، وقال: حديثٌ حسنٌ.

الشــرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته».

الخطاب للأمة جميعًا يبين فيه الرسول ﷺ أن كل إنسان راعٍ ومسؤول عن رعيته. والراعي هو الذي يقوم على الشيء ويرعى مصالحه فيهيئها له، ويرعى مفاسده فيجنبه إياها، كراعي الغنم ينظر ويبحث عن المكان المربع حتى يذهب بالغنم إليه، وينظر في المكان المجدب فلا يتركها في هذا المكان.

هكذا بنو آدم كل إنسان راع، وكلٌّ مسؤول عن رعيته، فالأمير راع ومسؤول عن رعيته، والأمراء يختلفون في نفوذهم وفي مناطق أعمالهم، قد يكون هذا الأمير أميرًا على قرية صغيرة، فتكون مسؤوليته صغيرة، وقد يكون أميرًا على مدينة كبيرة فتكون مسؤوليته كبيرة، وقد يكون مسؤولاً عن أمة؛ كالأمير الذي ليس فوقه أمير في منطقته، كالملك مثلاً هنا، وكالرؤوساء في البلاد الأخرى، وكأمراء المؤمنين في عهد عمر ابن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وكالخلفاء في زمن بني أمية وبني العباس وغيرهم.

فالرعاة تتنوع رعيتهم أو تتنوع رعايتهم ما بين مسؤولية كبيرة واسعة،

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة، رقم(١١٦١).

ومسؤولية صغيرة، ولهذا قال: «الأمير راعٍ» يعني هو مسؤول عن رعيته، الرجل راع لكن رعيته محصورة؛ هو راع في أهل بيته، في زوجته، في ابنه، في بنته، في أخته، في عمته، في خالته، كل من في بيته، هو راع في أهل بيته ومسؤول عن رعيته، يجب عليه أن يرعاهم أحسن رعاية؛ لأنه مسؤول عنهم.

كذلك المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، يجب عليها أن تنصح في البيت، في الطبخ، في القهوة، في الشاي، في الفرش، لا تطبخ أكثر من اللازم، ولا تجهز الشاي أكثر مما يحتاج إليه؛ يجب عليها أن تكون امرأةً مقتصدة؛ فإن الاقتصاد نصف المعيشة، غير مفرطة فيما ينبغي.

مسؤولة أيضًا عن أولادها في إصلاحهم وإصلاح أحوالهم وشؤونهم، كإلباسهم الثياب، وخلع الثياب غير النظيفة، وتغيير فراشهم الذي ينامون عليه، وتغطيتهم في الشتاء وهكذا، مسؤولة عن كل هذا، مسؤولة عن الطبخ وإحسانه ونضجه، وهكذا مسؤولة عن كل ما في البيت.

كذلك العبد مسؤول وراع في مال سيده، ومسؤول عن رعيته، يجب عليه أن يحفظ مال سيده، وأن يتصرف فيه بما هو أحسن، وألا يفرط فيه، وألا يتعدى الحدود وهكذا، فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته.

أما بقية الأحاديث التي ساقها المؤلف؛ - ما عدا الأخيرة منها - فكلها أحاديث تحتاج إلى نظر في صحتها، لكن مجمل ما تدل عليه عظم حق الزوج على زوجته، وأن حق الزوج على زوجته عظيم، يجب عليها أن تقوم به، كما يجب عليه أن يقوم بحقها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٨/٢٨٨ ـ وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» متفقٌ عليه[١].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في نقله عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**ما تركت بعدي فتنة هي أضرّ على الرجال من النساء**».

والمعنى أن النبي ﷺ يخبر بأنه ما ترك فتنة أضرّ على الرجال من النساء، وذلك أن الناس كما قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

كل هذه مما زين للناس في دنياهم، وصار سببًا لفتنتهم فيها، لكن أشدها فتنة النساء، ولهذا بدأ الله بها، فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وإخبار النبي ﷺ بذلك يريد به الحذر من فتنة النساء، وأن يكون الناس منها على حذر؛ لأن الإنسان بشر إذا عرضت عليه الفتن، فإنه يخشى عليه منها.

ويستفاد منه سدّ كل طريق يوجب الفتنة بالمرأة، فكل طريق يوجب

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتلقى من شؤم المرأة، رقم(٥٠٩٦)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار..، باب أكثر أهل الجنة الفقراء...، رقم(٢٧٤٠).

الفتنة بالمرأة؛ فإن الواجب على المسلمين سده، ولذلك وجب على المرأة أن تحتجب عن الرجال الأجانب، فتغطي وجهها، وكذلك تغطي يديها ورجليها عند كثير من أهل العلم، ويجب عليها كذلك أن تبتعد عن الاختلاط بالرجال؛ لأن الاختلاط بالرجال فتنة وسبب للشر من الجانبين، من جانب الرجال ومن جانب النساء.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها**»(١) وما ذلك إلا من أجل بُعْد المرأة عن الرجال، فكلما بعدت فهو خير وأفضل.

وقد كان النبي ﷺ يأمر النساء أن يخرجن إلى صلاة العيد، ولكنهن لا يختلطن مع الرجال، بل يكون لهن موضع خاص، حتى إن النبي ﷺ كان إذا خطب الرجال وانتهى من خطبتهم، نزل فذهب إلى النساء فوعظهن وذكرهن، وهذا يدل على أن النساء كنّ في مكان منعزل عن الرجال.

وكان هذا والعصر عصر قوة في الدين وبُعد عن الفواحش، فكيف بعصرنا هذا؟

فإن الواجب توقي فتنة النساء بكل ما يستطاع، ولا ينبغي أن يغرنا ما يدعو إليه أهل الشر والفساد من المقلِّدين للكفار، من الدعوة إلى اختلاط المرأة بالرجال؛ فإن ذلك من وحي الشيطان والعياذ بالله، هو الذي يزين ذلك في قلوبهم، وإلا فلا شك أن الأمم التي كانت تقدم النساء وتجعلهن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف...، رقم(٤٤٠).

مع الرجال مختلطات، لا شك أنها اليوم في ويلات عظيمة من هذا الأمر، يتمنون الخلاص منه فلا يستطيعون.

ولكن مع الأسف، فإن بعض الناس منا ومن أبنائنا ومن أبناء جلدتنا يدعون إلى التحلل من مكارم الأخلاق، وإلى جلب الفتن إلى بلادنا، في توسع النساء، ومحاولة توظيفهن مع الرجال جنبًا إلى جنب، نسأل الله تعالى أن يعصمنا والمسلمين من الشر والفتن إنه جواد كريم.

* * *

٣٦- باب النَّفقة على العِيَال

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى -: باب النفقة على العيال.

العيال: هم الذين يعولهم الإنسان من زوجة أو قريب أو مملوك، وقد سبق الكلام على حقوق الزوجة، أما الأقارب فلهم حق، قال الله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦].

فالقريب له حق في أن ينفق عليه، يعني أن تبذل له من الطعام والشراب والكسوة والسكنى ما يقوم بكفايته، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المولود له هو الأب، عليه أن ينفق على أولاده وعلى زوجاته، وعلى من أرضعت ولده ولو كانت في غير حباله؛ لأنه قال: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من أجل الإرضاع، أما إذا كانت في حباله فلها النفقة من أجل الزوجية.

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ يشمل الأب الأدنى والأب الأعلى؛ كالجد ومن فوقه، فعليه أن ينفق على أولاد أولاده، وإن نزلوا.

لكن يشترط لذلك شروط:

الشرط الأول: أن يكون المنفق قادرًا على الإنفاق؛ فإن كان عاجزًا فإنه لا يجب عليه الإنفاق، لقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ أي: إلا ما أعطاها، ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

والشرط الثاني: أن يكون المنفق عليه عاجزًا عن الإنفاق على نفسه، فإن كان قادرًا على الإنفاق على نفسه فنفسه أولى، ولا يجب على أحد أن ينفق عليه؛ لأنه مستغن، وإذا كان مستغنيًا، فإنه لا يستحق أن ينفق عليه.

الشرط الثالث: أن يكون المنفق وارثًا للمنفق عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فإن كان قريبًا لا يرث؛ فلا يجب عليه الإنفاق.

فإذا تمت الشروط الثلاثة؛ فإنه يجب على القريب أن ينفق على قريبه ما يحتاج إليه من طعام، وشراب، ولباس، ومسكن، ونكاح، وإن كان قادرًا على بعض الشيء دون بعض؛ وجب على القريب الوارث أن يكمل ما نقص؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ثم ذكر المؤلف ثلاث آيات: الآية الأولى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، والآية الثانية: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الطلاق: ٧]، والآية

الثالثة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

فقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي شيء يكون قد أنفقتموه لله عزَّ وجلَّ ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي يعطيكم خلفه وبدله وهو خير الرازقين.

* * *

١/٢٨٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ودِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ في رَقَبَةٍ، ودِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، ودِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلى أَهْلِكَ. أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ» رواه مسلم[1].

٢/٢٩٠ ـ وعن أبي عبد الله ـ ويقال له: أبو عبد الرحمن ـ ثَوْبَانَ ابن بُجْدد مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبيلِ اللهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ في سَبِيلِ اللهِ» رواه مسلم[2].

٣/٢٩١ ـ وعن أم سلمة رضي الله عنها قالتْ: قلت: يا رسول الله، هَلْ لِي أَجْرٌ في بَنِي أبي سَلَمَة أن أنفق عليهم، ولست بتاركتهم هكذا وهكذا إنما هم بنيَّ؟ فقال: «نَعَمْ لَكِ أَجْرُ مَا أَنْفَقْتِ عَلَيْهِمْ» متفقٌ عليه[3].

٤/٢٩٢ ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في حديثه الطويل الذي

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال...، رقم(٩٩٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال...، رقم(٩٩٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب النفقات، باب وعلى الوارث مثل ذلك...، رقم (٥٣٦٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين...، رقم(١٠٠١).

قدمناه في أول الكتاب في باب النية أن رسول الله ﷺ قال له: «وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إلاَّ أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ في فِيِّ امْرَأتِكَ» متفقٌ عليه[١].

٥/٢٩٣ ـ وعن أبي مسعود البَدْرِيِّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ» متفقٌ عليه[٢].

٦/٢٩٤ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كَفَى بِالمَرْءِ إثْمًا أنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ» حديثٌ صحيحٌ رواه أبوداود[٣] وغيره.

ورواه مسلم في صحيحه بمعناه قال: «كَفَى بِالْمَرْءِ إثْمًا أنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ»[٤].

٧/٢٩٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَا مِن يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا» متفق عليه[٥].

٨/٢٩٦ ـ وعنه عن النبي ﷺ قال: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى وَابْدَأْ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد، رقم(١٢٩٥)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم(١٦٢٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب ماجاء إن الأعمال بالنية..، رقم(٥٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين...، رقم(١٠٠٢).

(٣) رواه أبوداود، كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم، رقم(١٦٩٢).

(٤) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال..، رقم(٩٩٦).

(٥) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، رقم(١٤٤٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، رقم(١٠١٠).

بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ» رواه البخاري(١).

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في باب النفقة على الأهل، كلّها تدل على فضيلة الإنفاق على الأهل، وأنه أفضل من الإنفاق في سبيل الله، وأفضل من الإنفاق في الرقاب، وأفضل من الإنفاق على المساكين؛ وذلك لأن الأهل ممن ألزمك الله بهم، وأوجب عليك نفقتهم، فالإنفاق عليهم فرض عين، والإنفاق على من سواهم فرض كفاية، وفرض العين أفضل من فرض الكفاية.

وقد يكون الإنفاق على من سواهم على وجه التطوع؛ والفرض أفضل من التطوع؛ لقول الله تعالى في الحديث القدسي: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه»(٢).

لكن الشيطان يرغب الإنسان في التطوع ويقلل رغبته في الواجب، فتجده مثلاً يحرص على الصدقة ويدع الواجب، يتصدق على مسكين أو ما أشبه ذلك ويدع الواجب لأهله، يتصدق على مسكين أو نحوه ويدع الواجب لنفسه؛ كقضاء الدين مثلاً، تجده مدينًا يطالبه صاحب الدين بدينه وهو لا يوفي، ويذهب يتصدق على المساكين وربما يذهب للعمرة أو

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم(١٤٢٨).
(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم(٦٥٠٢).

لحج التطوع وما أشبه ذلك ويدع الواجب، وهذا خلاف الشرع وخلاف الحكمة، فهو سفه في العقل وضلال في الشرع.

والواجب على المسلم أن يبدأ بالواجب الذي هو محتم عليه، ثم بعد ذلك ما أراد من التطوع بشرط ألا تكون مسرفًا ولا مقطرًا، فتخرج عن سبيل الاعتدال؛ لقول الله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

يعني لا إقتار ولا إسراف، بل قوامًا، ولم يقل بين ذلك فقط، بل: بين ذلك قوامًا، قد يكون الأفضل أن تزيد أو أن تنقص أو بين ذلك بالوسط.

على كل حال هذه الأحاديث كلها تدل على أنه يجب على الإنسان أن ينفق على من عليه نفقته، وأن إنفاقه على من عليه نفقته أفضل من الإنفاق على الغير.

وفي هذه الأحاديث أيضًا التهديد والوعيد على من ضيع عمن يملك قوته، وهو شامل للإنسان وغير الإنسان، فالإنسان يملك الأرقة مثلاً، ويملك المواشي من إبل وبقر وغنم فهو آثم إذا ضيع من يلزمه قوته من آدميين أو غير آدميين، «كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوتهم»، واللفظ الثاني في غير مسلم: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت» وفي هذا دليلٌ على وجوب رعاية من ألزمك الله بالإنفاق عليه.



٣٧ ـ باب الإنفاق مما يحبّ ومن الجيد

قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

١/٢٩٧ ـ عن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة رضي الله عنه أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب.

قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تعالى أنزل عليك: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب مالي إليَّ بَيْرَحَاءُ، وإنها صدقة لله تعالى أرجو بِرَّهَا وذُخْرَهَا عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال رسول الله ﷺ: «بَخٍ! ذلك مالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وإنِّي أرَى أنْ تَجْعَلَهَا فِي الأقْرَبِين».

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسَّمَهَا أبو طلحة في أقاربه، وبني عمه. متفقٌ عليه[1].

قوله ﷺ: «مَالٌ رَابِحٌ» رُوي في الصحيحن «رَابِحٌ» و«رَايِحٌ» بالباء الموحدة وبالياء المثناة، أيْ: رَايِحٌ عليك نفعه، و«بَيْرَحَاءُ» حديقة نخل، وروي بكسر الباء وفتحها.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب على الأقارب، رقم(١٤٦١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج، رقم(٩٩٨).

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد.

لما ذكر رحمه الله وجوب الإنفاق على الزوجة وعلى الأقارب، ذكر أنه ينبغي للإنسان أن يكون ذا همة عالية، وأن ينفق من أطيب ماله ومما يحب من ماله، وهناك فرق بين الأطيب وبين الذي يحب، الغالب أن الإنسان لا يحب إلا أطيب ماله، لكن أحيانًا يتعلق قلبه بشيء من ماله وليس أطيب ماله فإذا أنفق من الطيب الذي هو محبوب لعامة الناس ومما يحبه هو بنفسه وإن لم يكن من الطيب؛ كان ذلك دليلاً على أنه صادقٌ فيما عامل الله به.

ولهذا سميت الصدقة صدقة لدلالتها على صدق باذلها، فالإنسان ينبغي له أن ينفق الطيب من ماله، وينبغي له أن ينفق مما يحب، حتى يصدق في تقديم ما يحبه الله عزَّ وجلَّ على ما تهواه نفسه.

ثم استدل المؤلف رحمه الله تعالى بآيتين من كتاب الله، فقال: قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ البر يعني الخير الكثير، ومنه سمي البر للخلاء الواسع، فالبر هو الخير الكثير، يعني لن تنال الخير الكثير ولن تنال رتبة الأبرار حتى تنفق مما تحبّ.

والمال كله محبوب لكن بعضه أشد محبة من بعض، فإذا أنفقت مما تحب؛ كان ذلك دليلاً على أنك صادق، ثم نلت بذلك مرتبة الأبرار.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، الخبيث من كل شيء بحسبه، فالخبيث من

المال يطلق على الرديء، ويطلق على الكسب الرديء، ويطلق على الحرام.

فمن إطلاقه على الرديء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ هذا بقية الآية التي أولها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ والخارج من الأرض منه الطيب ومنه الرديء، قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ أي: لا تقصدوا الخبيث وهو الرديء تنفقون منه، ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ يعني لو كان الحق لكم ما أخذتم الرديء إلا على إغماض وعلى كره، فكيف ترضون لغيركم أن تعطوه الرديء وأنتم تأبون أن تأخذوه؟!

وهذا من باب الاستدلال على الإنسان بما يقرّ ويعترف به؛ لأنه لا يرضى أن يأخذ الرديء بدلاً عن الطيب فكيف يرضى أن يعطي الرديء بدلاً عن الطيب؟!

فالخبيث بمعنى الرديء، ومن ذلك أيضًا تسمية النبي ﷺ البصل والكراث الشجرة الخبيثة[١]؛ لأنها رديئة منتنة كريهة، حتى إن الإنسان إذا أكل منها وبقيت رائحتها في فمه فإنه يحرم عليه أن يدخل المسجد، لا للصلاة ولا لغير الصلاة؛ لأن المسجد معمور بالملائكة فإذا دخل المسجد آذى الملائكة، والملائكة طيبون، والطيبون للطيبات، تكره الخبائث من الأعمال والأعيان، فإذا دخلت المسجد وأنت ذو رائحة كريهة آذيت الملائكة.

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلاً أو كراثًا...، رقم(٥٦٥).

وكان الرجل في عهد الرسول ﷺ إذا دخل المسجد وقد أكل كراثًا أو بصلاً طردوه طردًا إلى البقيع، والبقيع تعرفون المسافة بينه وبين المسجد النبوي وأنها بعيدة، يطرد إلى البقيع ولا يقرب المسجد.

ونأسف فإن بعض الناس، نسأل الله لنا ولهم الهداية والعصمة، يشرب الدخان أو الشيشة ويأتي إلى المسجد ورائحة الدخان والشيشة في فمه أو على ثيابه، مع أن هذه رائحة كريهة كل يكرهها، حتى إن بعض الناس لا يستطيع أن يصلي جنب مثل هؤلاء، وهؤلاء يحرم عليهم أن يدخلوا المسجد والروائح الكريهة بفيهم.

وكذلك من به إصنان، والإصنان رائحة كريهة تفوح من إبطيه، أو تفوح من أذنيه، أو تفوح من رأسه وتؤذي، فإنه لا يجوز أن يصلي ما دامت الرائحة المؤذية فيه، لا يجوز أن يدخل المسجد بل يبتعد.

والحمد لله، فإن هذه من المصائب والبلاوي، فإذا ابتلي بمثل هذا لا يقول كيف أحرم نفسي المسجد، فهذا من الله عزَّ وجلَّ، فاحرم نفسك المسجد ولا تؤذي الناس والملائكة، وحاول بقدر ما تستطيع أن تتخلص من هذه الرائحة؛ إما بالتنظيف التام، أو بأن تضع رائحة طيبة تغطي الرائحة الكريهة، وبهذا يمكن أن تعالج هذه الروائح فلا يشم منك إلا الرائحة الطيبة.

ومن إطلاق الخبيث على الكسب الرديء قول النبي ﷺ: «كسب

الحجام خبيث»(١) الحجام الذي يخرج الدم بالحجامة، هذا كسبه خبيث، يعني رديء، وليس المراد أنه حرام، قال ابن عباس رضي الله عنه وعن أبيه: لو كان كسب الحجام حرامًا ما أعطاه النبي ﷺ أجرته، فقد احتجم النبي ﷺ، وأعطى الحجام أجره، ولو كانت حرامًا ما أعطاه؛ لأن الرسول لا يقرّ على الحرام ولا يعين على الحرام، لكن هذا من باب أنه كسب رديءٌ دنيء ينبغي للإنسان أن يتنزه عنه، وأن يحجم الناس إذا احتاجوا إلى حجامته تبرعًا وتطوعًا.

ومن إطلاق الخبيث على المحرم قوله تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، يعني يحرم عليهم الخبائث وهي ضد الطيبات، مثل الميتة، لحم الخنزير، المنخنقة، الخمر، وما أشبه ذلك.

ومعنى الآية أنه لا يحرم إلا الخبائث، وليس معناها أن كل خبيث يحرمه؛ لأن المعروف أن الخبيث يطلق على أوصاف متعددة، لكن المعنى أنه ﷺ لا يحرم إلا الخبائث.

فالحاصل أن الله عزَّ وجلَّ نهى أن يقصد الإنسان الرديء من ماله فيتصدق به، وحثَّ على أن ينفق مما يحب ومما هو خير.

ثم ذكر المؤلف حديث أبي طلحة زوج أم أنس رضي الله عنه، وأبو طلحة

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن، رقم(١٥٦٨) [٤١].

أكثر الأنصار حقلاً يعني أكثرهم مزارع، وكان له بستان فيه ماء طيب مستقبل المسجد ـ أي مسجد الرسول ﷺ ـ يعني أن المسجد في قبلة هذا البستان، وكان فيه ماء طيب عذب، يأتيه النبي ﷺ ويشرب منه.

فلما نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ بادر رضي الله عنه، وسابق وسارع وجاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الله تعالى أنزل قوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء ـ وهذا اسم ذلك البستان ـ وإني أضعها: يعني بين يديك صدقة، إلى الله ورسوله: يعني تصرفها إلى الله ورسوله، فقال النبي ﷺ متعجبًا: بخٍ بخٍ ـ كلمة تعجب يعني ما أعظم هذه الهمة، وما أعلاها ـ ذاك مال رابح، ذاك مال رابح.

وصدق الرسول ﷺ فهذا المال الرابح، فكم من حسنة يربح هذا المال إذا كانت الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؟ صدق النبي ﷺ: «ذاك مال رابحٍ، ذاك مال رابح. . أرى أن تجعلها في الأقربين». أرى أن تجعلها في الأقربين: أي أقاربك، ففعل رضي الله عنه، وقسمها في أقاربه وبني عمه.

وسيأتي إن شاء الله على بعض ما يستفاد من هذا الحديث، لكن تعجبوا كيف كانت مبادرة الصحابة رضي الله عنهم، ومسارعتهم إلى الخير، وكان ابن عمر إذا أعجبه شيء في ماله وتعلقت به نفسه تصدق به؛ لأجل أن يربحه ويلقاه فيما أمامه.

لكن ما تتمسك به فهو إما زائل عنك وإما أن تزول عنه أنت، ولا بد

من أحد الأمرين، إما أن يتلف أو تتلف أنت، لكن الذي تقدمه هو الذي يبقى، نسأل الله أن يعيننا والمسلمين على أنفسنا ويعيذنا من البخل والشح.

والحقيقة أن مالك الحقيقي هو ما تقدمه، وقد ذبح آل النبي ﷺ شاة وتصدقوا بها إلا كتفها، فقدم النبي ﷺ وقال: «ما بقي منها؟» قالت عائشة رضي الله عنها: ما بقي منها إلا كتفها. يعني أنها تصدّقت بها كلها إلا كتفها، فقال النبي ﷺ: «بقي كلّها غيرِ كتفها»[1]، والمعنى أن الذي أكلتم هو الذي ذهب، وأما ما تصدقتم به فهو الذي بقي لكم.

فالحاصل أن الصحابة وذوي الهمم العالية هم الذين يعرفون قدر الدنيا وقدر المال، وأن ما قدَّموه هو الباقي، وما أبقوه هو الفاني، نسأل الله أن يعيذنا والمسلمين من الشح والبخل والجبن والكسل، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، بدون ذكر الباب، رقم(٢٤٧٠).

٣٨ـ باب وجوبُ أمر أهله وأولاده

المميزين وسائر من في رعيته بطاعة الله تعالى، ونهيهم عن المخالفة، وتأديبهم، ومنعهم من ارتكاب مَنْهِيٍّ عنه

قال الله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦].

١/٢٩٨ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تَمْرَةً من تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعلها في فيه فقال رسول الله ﷺ: «كَخْ كَخْ، ارْمِ بِهَا، أمَا عَلِمْتَ أنَّا لا نَأكُلُ الصَّدَقَةَ؟» متفقٌ عليه[1].

وفي رواية: «أنَّا لا تَحِلّ لَنَا الصَّدَقَةُ»[2]، وقوله: «كَخْ كخْ» يُقال بإسْكانِ الخاء، ويقال بكسرها مع التنوين، وهي كلمة زجر للصبي عن المستقذرات، وكان الحسن رضي الله عنه صبيًّا.

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: باب وجوب أمر أهله وأولاده المميزين وسائر من في رعيته بطاعة الله تعالى، ونهيهم عن المخالفة، وتأديبهم، ومنعهم من ارتكاب منهي عنه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ، رقم(١٤٩١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ، رقم(١٠٦٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ، رقم(١٠٦٩).

ووجه المناسبة أن المؤلف رحمه الله، لما ذكر ما يجب للأهل من غذاء الجسم؛ ذكر لهم ما يجب من غذاء الروح على أبيهم ومن له ولاية عليهم، وأولى ما يؤمر به وأوجب وأفضل هي الصلاة، كما قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، فأمره أن يأمر أهله بالصلاة.

والأهل كل من في البيت؛ من زوجة، وابن، وبنت، وعمة، وخالة، وأم، كل من في البيت أهل، أمره أن يأمرهم بالصلاة، وأمره أن يصطبر عليهم يعني يحض نفسه على الصبر، ولهذا جاءت التاء التي فيها زيادة البنية وفيها زيادة المعنى اصطبر؛ لأن أصلها اصتبر عليها.

وذكر الله عن إسماعيل أبي محمد ﷺ، إذ أنه أحد أجداده، أنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضيًا، فالإنسان مسؤول عن أهله، مسؤول عن تربيتهم، حتى ولو كانوا صغارًا إذا كانوا مميزين، أما غير المميز فإنه يؤمر بما يتحمله عقله.

ثم ذكر حديث الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنه أخذ تمرةً من الصدقة فجعلها في فيه، فقال النبي ﷺ: «كخ كخ» يعني أنها لا تصلح لك، ثم أمره أن يخرجها من فيه، وقال: إننا لا تحل لنا الصدقة.

فالصدقة لا تحل لآل محمد؛ وذلك لأنهم أشرف الناس، والصدقات والزكوات أوساخ الناس، ولا يتناسب لأشراف الناس أن يأخذوا أوساخ الناس، كما قال النبي ﷺ لعمّه العبّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه: «**إنا**

آل محمد لا تحل لنا الصدقة؛ إنما هي أوساخ الناس»[١].

ففي هذا دليلٌ على أن الإنسان يجب عليه أن يؤدب أولاده عن فعل المحرم، كما يجب عليه أن يؤدبهم على فعل الواجب، والله الموفق.

* * *

٢٩٩/٢ ـ وعن أبي حفص عمر بن أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد ربيب رسول الله ﷺ قال: كنت غلامًا في حجر رسول الله ﷺ وكانت يَدي تَطِيشُ في الصَّحْفَةِ، فقال لي رسول الله ﷺ: «يَا غُلامُ، سَمِّ اللهَ تَعَالَى، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» فما زالت تلك طعْمَتِي بعد. متفقٌ عليه[٢].

«وَتَطِيشُ»: تدور في نواحي الصَّحْفَةِ.

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى فيما نقله عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه، وكان ربيب النبي ﷺ؛ لأنه ابن زوجته أم سلمة رضي الله عنها، أنه كان مع النبي ﷺ في طعام يأكل فجعلت يده تطيش في الصحفة، يعني تذهب يمينًا وشمالاً، فقال له النبي ﷺ: «يا غلام، سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك» فهذه ثلاثة آداب علَّمها النبي ﷺ هذا الغلام وهي:

أولاً: قال: «سمِّ الله» وهذا عند الأكل.

فعند ابتداء الأكل يجب أن يقول الإنسان: بسم الله، ولا يحل له أن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي ﷺ على الصدقة، رقم(١٠٧٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم(٥٣٧٦)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم(٢٠٢٢).

يتركها؛ لأنه إذا تركها شاركه الشيطان في أكله؛ أعدى عدو له يشاركه في الأكل إذا لم يقل بسم الله، ولو زاد: الرحمن الرحيم فلا بأس؛ لأن قول الرسول ﷺ: «بسم الله»: يعني أذكرُ اسمَ الله.

والتسمية الكاملة هي أن يقول الإنسان: بسم الله الرحمن الرحيم كما ابتدأ الله بها كتابه، وكما أرسل بها سليمان ﷺ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]، فإن اقتصرت على قول بسم الله فلا حرج، وإن زدت الرحمن الرحيم فلا حرج، الأمر في هذا واسع.

وأما التسمية على الذبيحة فهي شرط من شروط التذكية، إذا لم تسمِّ على الذبيحة فهي حرام ميتة، كأنما ماتت بغير ذبح.

ولكن العلماء يقولون: لا ينبغي أن يقول: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأنه الآن يريد أن يذبحها، فالفعل ينافي القول بالنسبة لهذه الذبيحة؛ لأنها ستذبح. هكذا علل بعض العلماء، ولكن لو قالها أيضًا فلا حرج.

الأدب الثاني: قوله: «وكُلْ بيمينك»: وهذا أمر على سبيل الوجوب، فيجب على الإنسان أن يأكل بيمينه، وأن يشرب بيمينه؛ لأن النبي ﷺ نهى أن يأكل الإنسان بشماله، أو أن يشرب بشماله، وقال: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله[1]» وقد نهينا عن اتباع خطوات الشيطان، قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم(٢٠٢٠).

﴿بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

ولهذا كان القول الراجح وجوب الأكل باليمين، ووجوب الشرب باليمين، وأن الأكل بالشمال أو الشرب بالشمال حرام، ثم إن الأكل بالشمال والشرب بالشمال مع كونه من هدي الشيطان؛ فهو أيضًا من هدي الكفار؛ لأن الكفار يأكلون بشمائلهم ويشربون بشمائلهم.

ثم إن بعض الناس إذا كان على الأكل وأراد أن يشرب؛ فإنه يمسك الكأس باليسار ويشرب، ويقول أخشى أن تتلوث الكأس إذا شربت باليمين، فنقول: لتتلوث، فإنها إذا تلوثت فإنما تتلوث بطعام، ولم تتلوث ببول ولا غائط، تلوثت بطعام ثم تغسل.

وبإمكانك أن تمسك الكأس من الأسفل بين إبهامك والسبابة، وتجعلها كالحلقة ولا يتلوث منه إلا شيء يسير، ولا عذر لأحد بالشرب بالشمال من أجل هذا؛ لأن المسألة على سبيل التحريم، والحرام لا يجوز إلا عند الضرورة، والضرورة مثل أن تكون اليد اليمنى شلاَّء، لا يمكن أن يرفعها إلى فيه، أو مكسورة لا يمكن أن يرفعها إلى فيه، فهذه ضرورة، أو تكون متجرحة لا يمكن أن يأكل بها أو يشرب.

المهم إذا كان ضرورة؛ فلا بأس باليسار، وإلا فلا يحل للمسلم أن يأكل باليسار ولا أن يشرب باليسار.

الأدب الثالث: قوله: «وكُلْ مما يليك»: يعني لا تأكل من حافة غيرك، بل كُلْ من الذي يليك؛ لأنك إذا اعتديت على حافة غيرك فهذا سوء أدب، فكل من الذي يليك.

إلا إذا كان الطعام أنواعًا، مثل أن يكون هناك لحم في غير الذي يليك فلا بأس أن تأكل، أو يكون هناك قرع، أو ما أشبه ذلك مما يقصد، فلا بأس أن تأكل من الذي لا يليك؛ لأن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أكلت مع النبي ﷺ «فكان يتتبع الدبّاء من حوالي القصعة»(١).

الدبّاء: القرع، يتتبعه يعني يلقطه من على الصحفة ليأكله، هذا لا بأس به.

وفي هذا الحديث من الفوائد أن ينبغي على الإنسان أن يؤدب أولاده على كيفية الأكل والشرب، وعلى ما ينبغي أن يقول في الأكل والشرب، كما فعل النبي ﷺ في ربيبه، وفي هذا حسن خُلُق النبي ﷺ وتعليمه؛ لأنه لم يزجر هذا الغلام حين جعلت يده تطيش في الصحفة، ولكن علمه برفق، وناداه برفق: «يا غلام؛ سمِّ الله، وكُلْ بيمينك».

وليعلم أن تعليم الصغار لمثل هذه الآداب لا ينسى، يعني أن الطفل لا ينسى إذا علمته وهو صغير، لكن إذا كبر ربما ينسى إذا علمته، وربما يتمرد عليك بعض الشيء إذا كبر، لكن ما دام صغيرًا وعلمته يكون أكثر إقبالاً، ومن اتقى الله في أولاده؛ اتقوا الله فيه، ومن ضيع حق أولاده؛ ضيعوا حقه إذا احتاج إليهم.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب من تتبع حوالي القصعة مع صاحبه...، رقم(٥٣٧٩)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب جواز أكل المرق...، رقم(٢٠٤١).

٤/٣٠١ ـ وعن عمرو بن شُعَيْب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ في الْمَضَاجِعِ» حديثٌ حسنٌ رواه أبوداود بإسنادٍ حسنٍ[1].

٥/٣٠٢ ـ وعن أبي ثُرَيَّةَ سَبْرَةَ بن مَعْبَد الجُهنِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلَاةَ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرِ سِنِينَ» حديث حسن رواه أبوداود، والترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ[2].

ولفظ أبي داود: «مُرُوا الصَّبيَّ بِالصَّلاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ».

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر» وهو حديث حسن له شاهد من حديث سبرة بن معبد الجهني رضي الله عنه، وهذا من حقوق الأولاد على آبائهم؛ أن يأمروهم بالصلاة إذا بلغوا سبع سنوات، وأن يضربوهم عليها أي: على التفريط فيها وإضاعتها إذا بلغوا عشر سنين، ولكن بشرط أن يكونوا ذوي عقل.

فإن بلغوا سبع سنين أو عشر سنين وهم لا يعقلون، يعني فيهم جنون؛

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم(٤٩٥).

(٢) رواه أبوداود، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم(٤٩٤)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء متى يؤمر الصبي بالصلاة، رقم(٤٠٧).

فإنهم لا يؤمرون بشيء، ولا يضربون على شيء، لكن يمنعون من الإفساد؛ سواء في البيت أو خارج البيت.

وقوله: «اضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين»: المراد الضرب الذي يحصل به التأديب بلا ضرر، فلا يجوز للأب أن يضرب أولاده ضربًا مبرحًا، ولا يجوز أن يضربهم ضربًا مكررًا لا حاجة إليه، بل إذا احتاج إليه مثل ألا يقوم الولد للصلاة إلا بالضرب فإنه يضربه ضربًا غير مبرح، بل ضربًا معتادًا؛ لأن النبي ﷺ إنما أمر بضربهم لا لإيلامهم ولكن لتأديبهم وتقويمهم.

وفي هذا الحديث إشارة إلى أن ما ذهب إليه بعض المتأخرين ممن يدَّعون أنهم أصحاب تربية من أن الصغار لا يضربون في المدارس إذا أهملوا، ففي هذا الحديث الرد عليهم، وهو دليلٌ على بطلان فكرتهم، وأنها غير صحيحة؛ لأن بعض الصغار لا ينفعهم الكلام في الغالب، ولكن الضرب ينفعهم أكثر، فلو أنهم تركوا بدون ضرب؛ لضيَّعوا الواجب عليهم، وفرَّطوا في الدروس وأهملوا، فلابد من ضربهم ليعتادوا النظام، ويقوموا بما ينبغي أن يقوموا به، وإلا لصارت المسألة فوضى.

إلا أنه كما قلنا لابد أن يكون الضرب للتأديب لا للإيلام والإيجاع، فيضرب ضربًا يليق بحاله، ضربًا غير مبرح، لا يفعل كما يفعل بعض المعلمين في الزمن السابق؛ يضرب الضرب العظيم الموجع، ولا يهمل كما يدعي هؤلاء المربون الذين هم من أبعد الناس عن التربية، لا يُقال لهم شيء؛ لأن الصبي لا يمتثل ولا يعرف، لكن الضرب يؤدبه، والله الموفق.

* * *

٣٩ ـ باب حَقّ الجار والوصيّة به

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء: ٣٦].

١/٣٠٣ ـ وعن ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ» متفقٌ عليه[١].

٢/٣٠٤ ـ وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً؛ فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ» رواه مسلم[٢].

وفي رواية له عن أبي ذرٍّ قال: إنَّ خَلِيلِي ﷺ أَوْصَانِي: «إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ، فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعرُوفٍ»[٣].

٣/٣٠٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وَاللهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ!» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ!» متفق عليه[٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، رقم(٦٠١٤، ٦٠١٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم(٢٦٢٤، ٢٦٢٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب الوصية بالجار والإحسان، رقم(٢٦٢٥) [١٤٢].

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب الوصية بالجار والإحسان، رقم(٢٦٢٥) [١٤٣].

(٤) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن من جاره بوائقه، رقم(٦٠١٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم إيذاء الجار، رقم(٤٦).

وفي رواية لمسلم: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ».

«الْبَوَائِقُ»: الْغَوَائِل وَالشُّرُورُ.

٤/٣٠٦ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا نِسَاءَ المُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ» متفقٌ عليه(١).

٥/٣٠٧ ـ وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَمْنَعْ جَارٌ جَارَه أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ» ثم يقول أبو هريرة: ما لي أراكم عنها معرضين! والله لأرمين بها بين أكتافكم. متفق عليه(٢).

رُوي: «خَشَبَهُ» بالإضافة والجمع، وروي: «خَشَبَةً» بالتنوين على الإفراد. وقوله: مالي أراكم عنها معرضين: يعني عن هذه السُّنَّة.

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب حق الجار والوصية به.

الجار: هو الملاصق لك في بيتك والقريب من ذلك، وقد وردت بعض الآثار بما يدل على أن الجار أربعون دارًا من كل جانب، ولا شك أن الملاصق للبيت جار، وأما ما وراء ذلك فإن صحت الأخبار بذلك عن النبي ﷺ؛ فالحق ما جاءت به، وإلا فإنه يرجع في ذلك إلى العرف، فما عدَّه الناس جوارًا فهو جوار.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الهبة، بدون ذكر الباب، رقم(٢٥٦٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بالقليل، رقم(١٠٣٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه، رقم(٢٤٦٣)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب غرز الخشب في جدار الجار، رقم(١٦٠٩).

ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى آية سورة النساء: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦].

الجار ذي القربي: يعني الجار القريب.

والجار الجنب: يعني الجار البعيد الأجنبي منك.

قال أهل العلم: والجيران ثلاثة:

١ ـ جار قريب مسلم؛ فله حق الجوار، والقرابة، والإسلام.

٢ ـ وجار مسلم غريب قريب؛ فله حق الجوار، والإسلام.

٣ ـ وجار كافر؛ فله حق الجوار، وإن كان قريبًا فله حق القرابة أيضًا.

فهؤلاء الجيران لهم حقوق: حقوق واجبة، وحقوق يجب تركها.

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ خمسة أحاديث، عن ابن عمر، وعن أبي ذر، وعن أبي هريرة، أما حديث ابن عمر ففيه أن النبي ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» أي سينزل الوحي بتوريثه، وليس المعنى أن جبريل يشرع توريثه؛ لأن جبريل ليس له حق في ذلك، لكن المعنى أنه سينزل الوحي الذي يأتي به جبريل بتوريث الجار، وذلك من شدة إيصاء جبريل به النبي ﷺ.

وأما حديث أبي ذر ففيه أن على الإنسان إذا وسَّع الله عليه برزق، أن يصيب منه جاره بعض الشيء بالمعروف، حيث قال ﷺ: «**إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك**»، أكثر ماءها يعني زدها في الماء لتكثر وتوزع على جيرانك منها، والمرقة عادة تكون من اللحم أو من غيره مما

يؤتدم به، وهكذا أيضًا إذا كان عندك طعام غير المرق، أو شراب كفضل اللبن مثلاً، وما أشبهه ينبغي لك أن تعاهد جيرانك به؛ لأن لهم حقًّا عليك.

وأما أحاديث أبي هريرة ففيها أن النبي ﷺ أقسم ثلاث مرات فقال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قالوا: من يا رسول الله؟ قال: «من لا يأمن جاره بوائقه» يعني غدره وخيانته وظلمه وعدوانه، فالذي لا يأمن جاره من ذلك ليس بمؤمن، وإذا كان يفعل ذلك ويوقعه فعلاً فهو أشد.

وفي هذا دليلٌ على تحريم العدوان على الجار؛ سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل، أما بالقول فأن يسمع منه ما يزعجه ويقلقه، كالذين يفتحون الراديو أو التلفزيون أو غيرهما مما يسمع فيزعج الجيران، فإن هذا لا يحل له، حتى لو فتحه على كتاب الله وهو مما يزعج الجيران بصوته فإنه معتدٍ عليهم، ولا يحلُّ له أن يفعل ذلك.

وأما بالفعل فيكون بإلقاء الكناسة حول بابه، والتضييق عليه عند مداخل بابه، أو بالدق، أو ما أشبه ذلك مما يضره، ومن هذا أيضًا إذا كان له نخلة أو شجرة حول جدار جاره فكان يسقيها حتى يؤذي جاره بهذا السقي، فإن ذلك من بوائق الجار فلا يحلُّ له.

إذًا يحرم على الجار أن يؤذي جاره بأي شيء، فإن فعل فإنه ليس بمؤمن، والمعنى أنه ليس متصفًا بصفات المؤمنين في هذه المسألة التي خالف بها الحق.

وأما ما ذكره في حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره» يعني: إذا كان جارك يريد أن يسقف بيته ووضع الخشب على الجدار، فإنه لا يحل لك منعه؛ لأن وضع الخشب على الجدار لا يضر، بل يزيده قوة، ويمنع السيل منه، ولا سيما فيما سبق حيث كان البناء من اللَّبِن، فإن الخشب يمنع هطول المطر على الجدار فيحميه، وهو أيضًا يشده ويقويه، ففيه مصلحة للجار، وفيه مصلحة للجدار، فلا يحل للجار أن يمنع جاره من وضع الخشب على جداره، وإن فعل ومنع؛ فإنه يجبر على أن يوضع الخشب رغمًا عن أنفه.

ولهذا قال أبو هريرة: مالي أراكم عنها معرضين، والله لأرمين بها بين أكتافكم، يعني من لم يمكن من وضع الخشب على جداره وضعناه على متن جسده بين أكتافه، وقال هذا رضي الله عنه حينما كان أميرًا على المدينة في زمن مروان بن الحكم.

وهذا نظير ما قاله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في المشاجرة التي جرت بين محمد بن مسلمة وجاره، حيث أراد أن يجري الماء إلى بستانه وحال بينه وبينه بستان جاره، فمنعه الجار من أن يجري الماء من على أرضه، فترافعا إلى عمر، فقال: والله لئن منعته لأجرينه على بطنك، وألزمه أن يجري الماء؛ لأن إجراء الماء ليس فيه ضرر؛ لأن كل بستان زرع فإذا جرى الماء الساقي؛ انتفعت الأرض وانتفع ما حول الساقي من الزرع وانتفع الجار، نعم لو كان الجار يريد أن يبنيها بناءً وقال لا أريد أن يجري الماء على الأرض فله المنع، أما إذا كان يريد أن يزرعها فالماء لا يزيده إلا

خيرًا.

وبناءً على هذا فتجب مراعاة حقوق الجيران؛ فيجب الإحسان إليهم بقدر الإمكان، ويحرم الاعتداء عليهم بأي عدوان، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ **فليحسن إلى جاره**»[١].

* * *

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، رقم(٤٨).

٤٠ـ باب برّ الوالدين وصلة الأرحام

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

١/٣١٢ ـ عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: «أيُّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: «الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا» قُلتُ: ثم أيّ؟ قال: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قلت: ثُمَّ أيّ؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله» متفقٌ عليه»(١).

٢/٣١٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إلاَّ أنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا، فَيَشْتَرِيَهُ، فَيُعْتِقَهُ» رواه مسلم(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم(٥٢٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم(٨٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب العتق، باب فضل عتق الولد، رقم(١٥١٠).

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب بر الوالدين وصلة الأرحام.

الوالدان: هما الأب والأم، وعبر بحق الوالدين بالبر اتباعًا لما جاء في النص، وعبر عن صلة الأرحام بالصلة؛ لأنه هكذا جاء أيضًا بالنص، والأرحام هم القرابة.

وبر الوالدين من أفضل الأعمال؛ بل هو الحق الثاني بعد حق الله ورسوله.

وذكر المؤلف رحمه الله، آيات كثيرة في هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ ﴾ [العنكبوت: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وكل هذه الآيات وغيرها تدل على عظم حق الوالدين، وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى حال الأم، وأنها تحمل ولدها وهنًا على وهن: أي ضعفًا على ضعف، من حين أن تحمل به إلى أن تضعه وهي في ضعف ومشقة وعناء، وكذلك عند الوضع، كما قال تعالى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ

كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، كل هذا البيان سبب حقها العظيم.

ثم ذكر الله أشد حالة يكون عليها الوالدان فقال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾؛ لأن الوالدين إذا بلغا الكبر؛ ضعفت نفوسهما، وصارا عالة على الولد، ومع ذلك يقول ﴿إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ﴾ يعني لا تقل إني متضجر منكما؛ بل عاملهما باللطف والإحسان والرفق، ولا تنهرهما إذا تكلما، ﴿أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل﴾ يعني: رد عليهما ردًّا جميلاً لعظم الحق.

ثم ذكر حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال حين سأله عبد الله بن مسعود: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»

فجعل النبي ﷺ مرتبة البر بالوالدين مقدمة على مرتبة الجهاد في سبيل الله، قال: ولو استزدته لزادني، وفي هذا دليلٌ على فضل بر الوالدين.

فإن قال قائل: ما هو البر؟ قلنا: هو الإحسان إليهما؛ بالقول والفعل والمال بقدر المستطاع، اتقوا الله ما استطعتم، وضد ذلك العقوق.

ثم ذكر الحديث الثاني وهو قول الرسول ﷺ: «**لا يجزي ولد والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه**» يعني يعتقه بشرائه؛ لأنه فك أباه من رق العبودية للإنسان، وهذا الحديث لا يدل على أن من ملك أباه لا يعتق عليه؛ بل نقول: إن معناه إلا أن يشتريه فيعتقه، أي فيعتقه بشرائه؛ لأن

الإنسان إذا ملك أباه عتق عليه بمجرد الملك، ولا يحتاج إلى أن يقول عتقته، وكذلك إذا ملك أمه تعتق بمجرد الملك، ولا يحتاج إلى أن يقول عتقتها.

* * *

٤/ ٢١٥ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هذا مُقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قال: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ لَكِ. ثم قال رسول الله ﷺ: «اقْرَؤوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣] متفقٌ عليه[١].

وفي رواية للبخاري: فقال الله تعالى: «مَنْ وَصَلَكِ، وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ، قَطَعْتُهُ»[٢].

٥/ ٣١٦ ـ وعنه رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أَبُوكَ» متفقٌ عليه[٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، رقم(٥٩٨٧)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم...، رقم(٢٥٥٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، رقم(٥٩٨٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بالصحبة، رقم(٥٩٧١)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين وأنهما أحق...، رقم(٢٥٤٨).

وفي رواية: يا رسول الله، مَنْ أحَقُّ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قال: أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ أدْنَاكَ أدْنَاكَ»(١).

«وَالصَّحَابَةُ» بمعنى: الصُّحْبَةِ. وقوله: «ثُمَّ أَبَاكَ» هكَذَا هو منصوب بفعل محذوف، أي: ثم بِرَّ أباك، وفي رواية: «ثُمَّ أبُوكَ» وهذا واضح.

الشرح

هذان الحديثان في بيان فضل صلة الرحم، والرحم سبق لنا أنهم هم الأقارب، وصلتهم بما جرى به العرف واتبعه الناس؛ لأنه لم يبين في الكتاب والسنة نوعها ولا جنسها ولا مقدارها؛ لأن النبي ﷺ لم يقيده بشيء معين؛ فلم يقيده بأن يأكلوا معك، أو يشربوا معك، أو يكتسوا معك؛ أو يسكنوا معك، بل أطلق، ولذلك يرجع فيها للعرف، فما جرى به العرف أنه صلة فهو الصلة، وما تعارف عليه الناس أنه قطيعة فهو قطيعة، هذا هو الأصل.

فلو فرض أن الأعراف فسدت وصار الناس لا يبالون بالقطيعة، وصارت القطيعة عندهم صلة فلا عبرة بهذا العرف؛ لأن هذا العرف ليس عرفًا إسلاميًا، فإن الدول الكافرة الآن لا تتلائم أسرها، ولا يعرف بعضهم بعضًا، حتى إن الإنسان إذا شبَّ ولده وكبر صار مثله مثل الرجل الأجنبي الذي لا يعرف أن له أبًا؛ لأنهم لا يعرفون صلة الأرحام، ولا يعرفون حسن الجوار، وكل أمورهم فوضى فاسدة؛ لأن الكفر دمرهم تدميرًا والعياذ

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين وأنهما أحق. . ، رقم(٢٥٤٨) [٢].

بالله، لكن كلامنا عن المجتمع المسلم المحافظ، فما عده الناس صلة فهو صلة، وما عدوه قطيعة فهو قطيعة.

وفي حديث أبي هريرة الأول أن الله سبحانه وتعالى تكفل للرحم بأن يصل من وصلها ويقطع من قطعها، وفي هذا حثٌّ وترغيب في صلة الرحم، فإذا أردت أن يصلك الله ـ وكل إنسان يريد أن يصله ربه ـ فصل رحمك، وإذا أردت أن يقطعك الله فاقطع رحمك، جزاءً وفاقًا، وكلما كان الإنسان لرحمه أوصل؛ كان الله له أوصل، وكلما قصر جاءه من الثواب بقدر ما عمل، لا يظلم الله أحدًا.

وذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ قوله سبحانه: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ فبين سبحانه وتعالى أن الذين يفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم ملعونون والعياذ بالله أي: مطرودون ومبعدون عن رحمة الله، وقد أصمهم الله أي: جعلهم لا يسمعون الحق، ولو سمعوا ما انتفعوا به، وأعمى أبصارهم؛ فلا يرون الحق، ولو رأوه لم ينتفعوا به، فسد عنهم طرق الخير؛ لأن السمع والبصر يوصل المعلومات إلى القلب، فإذا انسد الطريق لم يصل إلى القلب خير، والعياذ بالله.

وقد ذكر أهل العلم من جملة الصلة النفقة على الأقارب، فقالوا: إن الإنسان إذا كان له أقارب فقراء وهو غني وهو وارث لهم، فإنه يلزمه النفقة عليهم؛ كالأخ الشقيق مع أخيه الشقيق، إذا كان الأخ هذا يرثه لو مات فإنه يجب على الوارث أن ينفق على أخيه ما دام غنيًّا، وأخوه فقيرًا عاجزًا عن

التكسب، فإن هذا من جملة الصلة.

وقالوا أيضًا: إن من جملة الإنفاق أنه إذا احتاج إلى النكاح فإنه يزوجه؛ لأن إعفاف الإنسان من أشد الحاجات.

وعلى هذا فإذا كان للإنسان أخ شقيق ولا يرثه إلا أخوه، وأخوه غني وهو فقير عاجزٌ عن التكسب، وجب عليه أن ينفق عليه طعامًا وشرابًا وكسوة ومسكنًا ومركوبًا إذا كان يحتاجه، وأن يزوجه أيضًا إذا احتاج إلى النكاح؛ لأن الإعفاف من أشدِّ الحاجات فيدخل في صلة الرحم.

وهذه الأمور يجب على الإنسان إذا كان لا يعلم عنها شيئًا أن يسأل أهل العلم حتى يدلوه على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

والحديث الثاني في بيان أحق الناس بحسن صحبة الإنسان، فبين النبي ﷺ أن أحق الناس بذلك الأم، فأعيد عليه السؤال فقال: أمك مرة ثانية، كرر ذلك ثلاث مرات، ثم بعد ذلك الأب؛ لأن الأم حصل عليها من العناء والمشقة للولد ما لم يحصل لغيرها؛ حملته أمه وهنًا على وهن، حملته كرهًا ووضعته كرهًا، وفي الليل تمهده وتهدئه حتى ينام، وإذا أتاه ما يؤلمه لم تنم الليلة حتى ينام.

ثم إنها تفديه بنفسها بالتدفئة عند البرد، والتبريد عند الحر وغير ذلك، فهي أشد عناية من الأب بالطفل، ولذلك كان حقها مضاعفًا ثلاث مرات على حق الأب.

ثم إنها أيضًا ضعيفة أنثى لا تأخذ بحقها، فلهذا أوصى بها النبي ﷺ

ثلاث مرات، وأوصى بالأب مرة واحدة، وفي هذا الحث على أن يحسن الإنسان صحبة أمه، وصحبة أبيه أيضًا بقدر المستطاع. أعاننا الله والمسلمين على ذلك.

وفق الله الجميع لما فيه الخير والصلاح ووصلنا والمسلمين بفضله وإحسانه.

* * *

٣١٨/٧ - وعنه رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وأحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فقال: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ» رواه مسلم[١].

«وَتُسِفُّهُمْ» بضم التاء وكسر السين المهملة وتشديد الفاء، «وَالمَلُّ» بفتح الميم، وتشديد اللام وهو الرَّمادُ الحَارُّ: أي كَأَنَّمَا تُطْعِمُهُمُ الرَّمَادَ الحَارَّ وَهُوَ تَشْبِيهٌ لِمَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الإثْمِ بِمَا يَلْحَقُ آكِلَ الرَّمَادِ الحَارِّ مِنَ الألمِ، وَلاَ شَيْءَ عَلَى هذا المُحْسِنِ إِلَيْهِمْ، لكِنْ يَنَالُهمْ إثْمٌ عَظِيمٌ بَتَقْصِيرِهِم في حَقِّهِ، وإدْخَالِهِمُ الأذَى عَلَيْهِ، والله أعلم.

٣١٩/٨ - وعن أنسٍ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ في رِزْقِهِ، ويُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» متفقٌ عليه[٢].

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم(٢٥٥٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، رقم(٥٩٨٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم(٢٥٥٧).

ومعنى «يُنْسَأ لَهُ في أثَرِهِ»: أيْ: يُؤَخَّرَ له في أجَلِهِ وعُمُرِهِ.

٩/ ٣٢٠ ـ وعنه قال: كَانَ أبو طَلْحَةَ أكْثَرَ الأنْصَارِ بِالمَدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أحَبُّ أمْوَالِهِ إلَيْهِ بَيْرَحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ، وَكَانَ رسولُ الله ﷺ يَدْخُلُهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيها طَيِّبٍ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قَامَ أبو طَلْحَةَ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسُولَ اللهِ، إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وَإنَّ أحَبَّ مَالي إليَّ بَيْرَحَاءُ، وإنَّهَا صَدَقَةٌ للهِ تعالى، أرْجُو بِرَّها وذُخْرَهَا عِنْدَ الله تعالى، فَضَعْهَا يا رسول الله، حَيْثُ أرَاكَ الله، فقال رسول الله ﷺ: «بَخٍ! ذلِكَ مَالٌ رَابحٌ، ذلِكَ مَالٌ رَابحٌ! وقَدْ سَمِعْتُ ما قُلْتَ، وإنِّي أرَى أنْ تَجْعَلَهَا في الأقْرَبِينَ» فَقَالَ أبُو طَلْحَةَ: أفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَسمَهَا أبُو طَلْحَةَ فِي أقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ. متفقٌ عليه[١].

وَسَبَقَ بَيَانُ ألْفَاظِهِ في: بَابِ الإنْفَاقِ مِمَّا يُحِب.

١٠/ ٣٢١ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أقْبَلَ رَجُلٌ إلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺ، فقال: أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ أبْتَغِي الأجْرَ مِنَ اللهِ تعالى. قال: «فَهَل لَكَ مِنْ وَالِدَيْكَ أحَدٌ حَيٌّ؟» قال: نَعَمْ بَلْ كِلاهُمَا قال: «فَتَبْتَغِي الأجْرَ مِنَ اللهِ تعالى؟» قال: نَعَمْ. قال: «فَارْجِعْ إلَى وَالِدَيْكَ، فَأحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا» متفقٌ عليه[٢]، وهذا لفظُ مسلم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم(١٤٦١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم(٩٨٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد بإذن الأبوين، رقم(٣٠٠٤)، =

وفي روايةٍ لهُمَا: جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ فقال: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟ قال: نَعَمْ، قال: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»(١).

١١/٣٢٢ ـ وعنه عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالمُكافئ وَلكِنَّ الوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا» رواه البخاري(٢).

وَ«قَطَعَتْ» بِفَتْحِ القَافِ وَالطَّاءِ. و«رَحِمُهُ» مَرْفُوعٌ.

١٢/٣٢٣ ـ وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي؛ وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي؛ قَطَعَهُ اللهُ» متفقٌ عليه(٣).

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضيلة صلة الرحم، وأن الإنسان الواصل ليس المكافئ الذي إذا وصله أقاربه وصلهم، ولكن الواصل هو الذي إذا قطعت رحمه وصلها، فتكون صلته لله لا مكافأة لعباد الله، ولا من أجل أن ينال بذلك مدحًا عند الناس، قال النبي ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ» يعني بالذي إذا وصله أقاربه وصلهم مكافأة لهم، وإنما الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها.

وكذلك أيضًا في هذه الأحاديث أن الرحم متعلقة بالعرش، تقول:

= ومسلم، كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين...، رقم(٢٥٤٩) [٦].

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد بإذن الأبوين، رقم(٣٠٠٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم(٢٥٤٩) [٥].

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ، رقم(٥٩٩١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، رقم(٥٩٨٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم(٢٥٥٥).

«من وصلني ؛ وصله الله ومن قطعني ؛ قطعه الله»، وهذا يحتمل أن يكون خبرًا وأن يكون دعاءً، يعني يحتمل أن الرحم تخبر بهذا أو تدعو الله عزَّ وجلَّ به، وعلى كل حال فهو دليلٌ على عظم شأن الرحم وصلتها، وأنها تحت العرش تدعو بهذا الدعاء، أو تخبر بهذا الخبر.

ثم ذكر المؤلف حديث الرجل الذي كان يحسن إلى قرابته فيسيئون إليه، ويصلهم فيقطعونه، فقال النبي ﷺ: «إن كنت»: يعني كما تقول «فكأنما تسفهم الملَّ»، والملّ: هو الرماد الحار، وتسفهم: يعني تجعله في أفواههم، والمعنى: أنك كأنما ترغمهم بهذا الرماد الحار عقوبة لهم، ولا يزال لك من الله عليهم ظهير، يعني عون عليهم مادمت على ذلك، أي تصلهم وهم يقطعونك.

فكل هذه الأحاديث وما شابهها تدل على أنه يجب على الإنسان أن يصل رحمه وأقاربه بقدر ما يستطيع، وبقدر ما جرى به العرف، ويحذر من قطيعة الرحم.

* * *

١٤/٣٢٥ ـ وعن أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنهما قالت: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِي مُشرِكَةٌ في عَهْدِ رسول الله ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رسول الله ﷺ قلتُ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أفَأصِلُ أُمِّي؟ قال: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ» متفقٌ عليه(١).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الهبة، باب الهبة للمشركين، رقم(٢٦٢٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة..، رقم(١٠٠٣).

وقولها: «رَاغِبَةٌ»، أيْ: طَامِعَةٌ عِنْدِي تَسْأَلُني شَيْئًا؛ قِيلَ: كَانَتْ أمها مِنَ النَّسَبِ، وَقِيلَ: مَنَ الرَّضَاعَةِ، والصحيحُ الأولُ.

١٥/٣٢٦ - وعن زينَبَ الثَّقَفِيَّةِ امْرَأةِ عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه وعنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تَصَدَّقْنَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ وَلَوْ مِن حُلِيِّكُنَّ» قالت: فَرَجَعتُ إلى عبدِ اللهِ بن مسعودٍ فقلتُ له: إنَّكَ رَجُلٌ خفِيفُ ذَاتِ اليَدِ، وإنَّ رسولَ الله ﷺ قد أمَرَنَا بِالصَّدقَةِ فَأتِهِ، فاسألْهُ، فإن كَانَ ذلكَ يُجزِىءُ عَنِّي وإلا صَرَفتُهَا إلى غَيرِكُمْ. فقال عبدُ الله: بَلِ ائتِيهِ أنتِ، فانْطَلَقْتُ، فَإذَا امْرَأةٌ مِنَ الأنْصَارِ بِبَابِ رسول الله ﷺ حاجَتي حَاجَتُهَا، وَكَانَ رسولُ الله ﷺ قد ألقِيَتْ عَلَيْهِ المَهَابَةُ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا بِلالٌ، فَقُلنَا له: ائتِ رسولَ الله ﷺ، فَأخْبِرْهُ أنَّ امْرَأتَيْنِ بِالبَابِ تَسألانِكَ: أتُجْزِئُ الصَّدَقَةُ عَنْهُمَا على أزْوَاجِهِمَا وَعَلَى أيْتَامٍ في حُجُورِهِمَا؟ وَلا تُخْبِرْهُ مَنْ نحنُ، فَدَخَلَ بِلالٌ عَلى رسول الله ﷺ، فَسألهُ، فقال لهُ رسولُ الله ﷺ: «مَن هُمَا؟» قَالَ: امْرَأةٌ مِنَ الأنْصَارِ وَزَيْنَبُ، فقال رسول الله ﷺ: «أيُّ الزَّيَانِبِ هِيَ؟» قال: امْرَأةُ عبدِ الله، فقال رسول الله ﷺ: «لَهُمَا أجْرَانِ: أجْرُ القَرَابَةِ، وَأجْرُ الصَّدَقَةِ» متفقٌ عليه[1].

الشرح

قال المؤلف فيما نقله عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أبيها: إن أمها قدمت عليها المدينة وهي راغبة فاستفتت النبي ﷺ هل

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر، رقم(١٤٦٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج، رقم(١٠٠٠).

تصلها أم لا؟ وقالت: يا رسول الله، إني أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ فأمرها أن تصلها.

وقولها: «وهي راغبة» قال بعض العلماء معناه: وهي راغبة في الإسلام؛ فيكون الأمر بصلتها من أجل تأليفها على الإسلام، وقيل: بل معنى قولها: وهي راغبة، أي: راغبة في أن أصلها، ومتطلعة إلى ذلك، فأمرها النبي ﷺ أن تصلها، وهذا هو الأقرب أنها جاءت تتشوق وتتطلع إلى أن تعطيها ابنتها ما شاء الله.

ففي هذا دليلٌ على أن الإنسان يصل أقاربه ولو كانوا على غير الإسلام؛ لأن لهم حق القرابة، ويدل لهذا قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان: ١٥]، يعني إن أمرك والداك وألحّا في الطلب على أن تشرك بالله فلا تطعهما؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولكن صاحبهما في الدنيا معروفًا، أي أعطهم من الدنيا ما يجب لهم من الصلة، ولو كانا كافرين أو فاسقين؛ لأن لهما حق القرابة.

وهذا الحديث يدل على ما دلت عليه الآية، وهو أن النبي ﷺ أمر أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أبيها أن تصل أمها مع أنها كافرة.

ثم إن صلة الأقارب بالصدقة يحصل بها أجران: أجر الصدقة، وأجر الصلة، ودليل ذلك حديث زينب بنت مسعود الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر النساء بالصدقة، فرجعت إلى بيتها وكان زوجها عبد الله بن مسعود خفيفَ ذات اليد، يعني أنه ليس عنده مال،

فأخبرته، فطلب منها أن تتصدق عليه، وعلى أيتام كانوا في حاجتها، ولكنه أشكل عليها الأمر فذهبت إلى رسول الله ﷺ تسفتيه، فلما وصلت إلى بيته وجدت عنده امرأةً من الأنصار، حاجتها كحاجة زينب، تريد أن تسأل النبي ﷺ أن تتصدق على زوجها ومن في بيتها.

فخرج بلال وكان النبي ﷺ قد أعطاه الله المهابة العظيمة، كل من رآه هابه، لكنه من خالطه معاشرةً أحبه وزالت عنه الهيبة، لكن أول ما يراه الإنسان يهابه هيبة عظيمة، فإذا خالطه وعاشره أحبه وألفه ﷺ، فخرج بلال فسألهما عن حاجتهما فأخبرتاه أنهما يسألان النبي ﷺ: هل تجوز الصدقة على أزواجهما ومن في بيتهما؟ ولكنهما قالتا له: لا تخبر الرسول ﷺ من هما؛ أحبتا أن تختفيا.

فدخل بلال على النبي ﷺ وأخبره وقال: إن بالباب امرأتين حاجتهما كذا وكذا، فقال: من هما؟ وحينئذ وقع بلال بين أمرين بين أمانة ائتمنتاه عليها المرأتان؛ حيث قالتا: لا تخبره من نحن، ولكن الرسول قال من هما؟ قال: امرأة من الأنصار، وزينب.

فقال: أي الزيانب؟ حيث اسم زينب كثير، فقال: امرأة عبد الله، وكان عبد الله بن مسعود خادمًا للرسول ﷺ يدخل بيته حتى بلا استئذان، وقد عرف النبي ﷺ أهله وعرف حاله.

وهو إنما أخبره مع قولهما له لا تخبره؛ لأن طاعة النبي ﷺ واجبة مقدمة على طاعة كل أحد.

فقال: إن صدقتهما على هؤلاء صدقة وصلة، يعني فيها أجران: أجر

الصدقة، وأجر الصلة؛ فدلّ ذلك على أنه يجوز للإنسان أن يتصدق على أولاده عند الحاجة، ويتصدق على زوجته، وكذلك الزوجة تتصدق على زوجها، وأن الصدقة عليهم صدقة وصلة.

أما الزكاة فإن كان مما يجب على الإنسان أن يدفعه فإنه لا يصح أن يدفع إليهم الزكاة، مثل لو كانت الزكاة لدفع حاجتهما من نفقة، وهو ممن تجب عليه النفقة، وماله يتحمل، فإنه لا يجوز له أن يعطيهما من الزكاة، أما إذا كان ممن لا يجب عليه، كما لو قضى دينًا عن أبيه أو عن ابنه أو زوجته، أو قضت دينًا على زوجها فإن ذلك لا بأس به إذا كان المدين حيًّا، أما إذا كان المدين ميتًا فلا يقضي عنه إلا تبرعًا، أو من التركة، ولا يقضي عنه من الزكاة.

* * *

١٦/٣٢٧ - وعن أبي سُفْيَانَ صَخْر بنِ حَرْبٍ رضي الله عنه، في حَدِيثِهِ الطَّويل في قصَّةِ هِرَقلَ: أنَّ هِرَقْلَ قال لأبي سُفْيَان: فَمَاذَا يَأمُرُكُمْ بِهِ؟ يعْنِي النَّبِيَّ ﷺ قال: قلت: يقولُ: «اعْبُدُوا الله وَحْدَهُ، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا، واتْرُكُوا ما يَقُولُ آباؤُكُمْ، ويَأمُرُنَا بالصَّلاةِ، والصِّدْقِ، والعَفَافِ، والصِّلةِ» متفقٌ عليه[١].

١٧/٣٢٨ - وعن أبي ذرّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا القِيرَاطُ»[٢].

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم(٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، رقم(١٧٧٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل...، رقم(٢٥٤٣) [٢٢٦].

وفي روايةٍ: «سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وهِي أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا؛ فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا»(١).

وفي رواية: «فَإِذَا افْتَتَحْتُمُوهَا، فَأَحْسِنُوا إِلى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا» أو قال: «ذمةً وصهرًا» رواه مسلم(٢).

قال العُلَمَاءُ: الرَّحِمُ التي لهُمْ كَوْنُ هَاجَر أمِّ إسْمَاعيلَ ﷺ مِنْهُمْ، «والصِّهْرُ»: كَوْنُ مَارِيَّةَ أمِّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ رسول الله ﷺ مِنْهم.

١٨ / ٣٢٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نَزَلَت هذِهِ الآيَةُ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دَعَا رسولُ الله ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ، وخَصَّ وقال: «يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، يَا بَنِي كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدُ المُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَة، أَنقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلالِهَا» رواه مسلم(٣).

قوله ﷺ: «بِبِلالِها» هو بفتح الباء الثَّانِيَةِ وَكَسرِهَا، «وَالبِلالُ»: المَاءُ. ومعنى الحديث: سَأصِلُهَا، شَبَّهَ قَطِيعَتَهَا بالحَرَارَةِ تُطْفَأُ بالمَاءِ وَهذه تُبَرَّدُ بالصِّلَةِ.

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل...، رقم(٢٥٤٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل...، رقم(٢٥٤٣) [٢٢٧].

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، رقم(٢٠٤).

١٩ / ٣٣٠ ـ وعن أبي عبد الله عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقولُ: «إنَّ آلَ بَنِي فُلانٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّها بِبِلالِهَا» متفق عليه[1] واللفظ للبخاري.

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف ـ رحمه الله ـ كلها تدل على أهمية صلة الرحم، أي صلة القرابة، وصدرها بحديث أبي سفيان صخر بن حرب حين وفد ومعه قومٌ من قريش على هرقل، وكان قد وفد على هرقل قبل أن يسلم رضي الله عنه؛ لأنه أسلم عام الفتح.

وأما قدومه إلى هرقل، فإنه كان بعد صلح الحديبية، ولما سمع بهم هرقل وكان رجلاً عاقلاً، عنده علمٌ من الكتاب، وعنده علمٌ بمبعث النبي ﷺ وبما يدعو إليه؛ لأن صفة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم موجودة في التوراة والإنجيل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، مكتوبًا بصفته ومعروفًا، حتى إنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لا يشكون فيهم.

فلما قدم هؤلاء الجماعة من العرب من مبعث النبي ﷺ، من الحجاز دعاهم يسألهم عن حال النبي ﷺ، وعما يأمر به، وعما ينهى عنه، وعن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب تبل الرحم ببلالها، رقم(٥٩٩٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم...، رقم(٢١٥).

كيفية أصحابه، ومعاملتهم له، إلى غير ذلك مما سألهم عنه، وقد ذكره البخاري مطولاً في صحيحه، وكان من جملة ما سألهم عنه: ماذا يأمر به؟ قالوا: كان يأمرنا بالصلة، والصدق، والعفاف.

الصلة: يعني صلة الرحم، والصدق: الخبر الصحيح المطابق للواقع، والعفاف: عن الزنى، وعما في أيدي الناس من الأموال، وكذلك الأعراض.

ثم إنه لما ذكر لهم ما ذكر قال له: إن كان ما تقوله حقًّا فسيملك ما تحت قدمي هاتين، يقول ذلك وهو أحد الرئيسين في الدولتين الكبيرتين: الروم والفرس.

يقول ذلك وهو ملك له مملكة كبيرة عظيمة، لكنه يعلم أن ما جاء به النبي ﷺ حق، وأنه هو الصواب المطابق للفطرة ولمصالح الخلق، كان يأمر بالصدق والعفاف والأرحام.

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ أحاديث في هذا المعنى، أي في صلة الأرحام، ومنها أن النبي ﷺ لما أنزل الله عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، جمع قريشًا، وعمم وخص وقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان» يعدهم أفخاذًا أفخاذًا حتى وصل إلى ابنته فاطمة، قال: «يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئًا» وهذا من الصلة.

وبين أن لهم رحمًا سيبلها ببلالها، أي سيبلها بالماء؛ وذلك لأن قطيعة الرحم نار والماء يطفئ النار، وقطيعة الرحم موت والماء به الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فشبه

الرسول ﷺ صلة الرحم بالماء الذي يبل به الشيء.

وكذلك أيضًا من الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمه الله أن النبي ﷺ قال: «إن آل بني فلان ليسوا بأوليائي» وذلك لأنهم كفار.

والواجب على المؤمن أن يتبرأ من ولاية الكافرين، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، فتبرأ منهم مع قرابتهم له.

قال: «ولكن لهم رحم أبلها ببلالها» يعني سأعطيها حقها من الصلة، وإن كانوا كفارًا.

وهذا يدل على أن القريب له حق الصلة وإن كان كافرًا، لكن ليس له الولاية، فلا يوالى ولا يناصر لما عليه من الباطل.

ثم ذكر أيضًا من الأحاديث أن النبي ﷺ أخبر الصحابة بأنهم سيفتحون مصر، وأوصى بأهلها خيرًا، وقال: إن لهم رحمًا وصهرًا، وذلك أن هاجر أم إسماعيل سرية إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام كانت من مصر، ولهذا قال: «إن لهم صهرًا ورحمًا»؛ لأنهم أخوال إسماعيل، وإسماعيل هو أبو العرب المستعربة كلها.

فدل ذلك على أن الرحم لها صلة ولو كانت بعيدة. ما دمت تعرف أن هؤلاء من قبيلتك فلهم الصلة ولو كانوا بعداء.

ودل أيضًا على أن صلة القرابة من جهة الأم كصلة القرابة من جهة الأب.

* * *

٢٠ / ٣٣١ ـ وعن أبي أيُّوبَ خالدِ بنِ زيدٍ الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، أخْبِرْني بعَمَلٍ يُدْخِلُني الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. فقال النبيُّ ﷺ «تَعْبُدُ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ» متفق عليه(١).

٢١ / ٣٣٢ ـ وعن سَلمَانَ بنِ عامر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أفْطَرَ أحَدُكُمْ، فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ، فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا، فَالْمَاءُ، فَإِنَّهُ طَهُورٌ»، وقال: «الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ». رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ(٢).

٢٢ / ٣٣٣ ـ وعن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: كَانَتْ تَحْتِي امْرَأةٌ، وَكُنْتُ أُحِبُّها، وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا، فقال لي: طَلِّقْهَا، فَأَبَيْتُ، فَأتى عُمَرُ رضي الله عنه النبي ﷺ، فَذَكَرَ ذلكَ لَهُ، فقال النبيُّ ﷺ «طَلِّقْهَا» رواه أبوداود، والترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ(٣).

٢٣ / ٣٣٤ ـ وعن أبي الدَّرْدَاء رضي الله عنه أن رَجُلاً أتَاهُ فقال: إنَّ لِي امْرَأةً وَإنَّ أمِّي تَأمُرُني بِطَلاقِها؟ فقال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «الْوَالِدُ أوْسَطُ أبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإنْ شِئْتَ، فَأضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ، أَوِ احْفَظْهُ» رواه الترمذي وقال:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم(١٣٩٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة. . ، رقم(١٣).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة، رقم(٦٥٨)، وأبوداود، كتاب الصوم، باب ما يفطر عليه، رقم(٢٣٥٥)، وابن ماجه، باب ما جاء على يستحب الفطر، رقم(١٦٩٩).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الطلاق، باب ما جاء في الرجل يسأله أبوه أن يطلق زوجته، رقم(١١٨٩)، وأبوداود، كتاب الأدب، باب في بر الوالدين، رقم(٥١٣٨).

حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[١].

٢٤/٣٣٥ ـ وعنِ البَرَاءِ بنِ عازِبٍ رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأمِّ» رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[٢].

وفي الباب أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة؛ منها حديث أصحاب الغار، وحديث جُرَيْجٍ وَقَدْ سَبَقَا، وأحاديثُ مشهورة في الصحيح حَذَفْتُهَا اخْتِصَارًا، وَمِنْ أَهَمِّهَا حديثُ عَمْرِو بن عَبَسَةَ، رضي الله عنه، الطَّويلُ المُشْتَمِلُ عَلَى جُمَلٍ كثيرة مِنْ قَوَاعِدِ الإسْلامِ وآدابِهِ، وَسَأذْكُرُهُ بتَمَامِهِ إنْ شَاءَ الله تعالى في باب الرَّجَاءِ، قال فيه:

دخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ، يَعْنِي في أوَّلِ النُّبُوَّةِ، فقلتُ له: مَا أنْتَ؟ قال: «نَبِيٌّ» فقلتُ: وَمَا نَبيٌّ؟ قال: «أرْسَلَنِي اللهُ تَعَالَى» فقلتُ: بِأيِّ شَيْءٍ أرْسَلَكَ؟ قال: «أرْسَلَنِي بِصَلَةِ الأرْحَامِ، وَكَسْرِ الأوْثَانِ، وَأنْ يُوَحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ» وَذَكَرَ تَمَامَ الحديث[٣]. والله أعلم.

الشرح

هذه الأحاديث في بيان صلة الرحم وبر الوالدين.

منها حديث خالد بن زيد الأنصاري، أنه سأل النبي ﷺ عن عمل يدخله الجنة ويباعده من النار، فقال له: «تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم». والشاهد هنا حيث قال:

---

(١) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في عقوق الوالدين، رقم(١٩٠١).
(٢) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في دعوة الوالدين، رقم(١٩٠٥).
(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب إسلام عمرو بن عبسة، رقم(٨٣٢).

«تصل الرحم»، فجعل النبي ﷺ صلة الرحم من الأسباب التي تدخل الإنسان الجنة وتباعده عن النار.

ولا شك أن كل إنسان يسعى إلى هذا الكسب العظيم؛ أن ينجو من النار ويدخل الجنة، فإن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وكل مسلم يسعى إلى ذلك، وهذا يحصل بهذه الأمور الأربعة:

الأول: تعبد الله لا تشرك به شيئًا؛ لا شركًا أصغر ولا شركًا أكبر.

والثاني: تقيم الصلاة، وتأتي بها كاملة في أوقاتها مع الجماعة إن كنت رجلاً، ودون الجماعة إن كانت امرأة.

والثالث: تؤتي الزكاة، بأن تؤدي ما أوجب الله عليك من الزكاة في مالك إلى مستحقه.

والرابع: تصل الرحم؛ بأن تؤتيهم حقهم بالصلة حسب ما يتعارف الناس، فما أعده الناس صلة فهو صلة، وما لم يعدوه صلة فليس بصلة، إلا إذا كان الإنسان في مجتمع لا يبالون بالقرابات، ولا يهتمون بها، فالعبرة بالصلة نفسها المعتبرة شرعًا.

ثم ذكر حديث سلمان بن عامر الضبي في الإفطار على التمر، فإن لم يجد فعلى ماء، وأن الصدقة على الفقير صدقة، وعلى ذي القرابة ثنتان: صدقة وصلة.

ولهذا قال العلماء: إذا اجتمع فقيران أحدهما من قرابتك والثاني من غير قرابتك، فالذي من قرابتك أولى؛ لأنه أحق بالصلة.

ثم ذكر حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان له امرأة يحبها،

فأمره أبوه أن يطلقها، لكنه أبى ذلك؛ لأنه يحبها، فذكر عمر ذلك للنبي ﷺ، فأمر ابنَ عمرَ بطلاقها.

وكذلك الحديث الآخر في امرأة كانت تأمر ابنها بطلاق زوجته فبين النبي ﷺ أن صلة الرحم أو بر الوالدين سبب لدخول الجنة، وهو إشارة إلى أنه إذا بر والدته بطلاق زوجته كان ذلك سببًا لدخول الجنة.

ولكن ليس كل والد يأمر ابنه بطلاق زوجته تجب طاعته؛ فإن رجلاً سأل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، قال إن أبي يقول: طلق امرأتك، وأنا أحبها، قال: لا تطلقها، قال: أليس النبي ﷺ قد أمر ابن عمر أن يطلق زوجته لما أمره عمره، فقال له الإمام أحمد: وهل أبوك عمر؟ لأن عمر نعلم علم اليقين أنه لن يأمر عبدالله بطلاق زوجته إلا لسبب شرعي، وقد يكون ابن عمر لم يعلمه؛ لأنه من المستحيل أن عمر يأمر ابنه بطلاق زوجته ليفرق بينه وبين زوجته بدون سبب شرعي. فهذا بعيد.

وعلى هذا فإذا أمرك أبوك أو أمك بأن تطلق امرأتك، وأنت تحبها ولم تجد عليها مأخذًا شرعيًا، فلا تطلقها؛ لأن هذه من الحاجات الخاصة التي لا يتدخل أحدٌ فيها بين الإنسان وبين زوجته.



٤١ ـ باب تحريم العقوق وقطيعة الرّحم

قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

١/٣٣٦ ـ وعن أبي بكْرَةَ نُفَيْعِ بن الحارثِ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ» ـ ثلاثًا ـ قُلْنَا: بَلَى يا رسول الله. قال: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فقال: «أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فَمَا زَال يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. متفقٌ عليه[1].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب تحريم العقوق وقطيعة الأرحام.

العقوق بالنسبة للوالدين، وقطيعة الأرحام بالنسبة للأقارب غير

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين، رقم(٥٩٧٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم(٨٧).

الوالدين.

والعقوق مأخوذ من العقِّ وهو القطع، ومنه سميت العقيقة التي تذبح عن المولود في اليوم السابع؛ لأنها تعق: يعني تقطع رقبتها عند الذبح.

والعقوق من كبائر الذنوب لثبوت الوعيد عليه من الكتاب والسنة وكذلك قطيعة الرحم. قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ يعني أنكم إذا توليتم أفسدتم في الأرض، وقطعتم الرحم وحقت عليكم اللعنة، وأعمى الله أبصاركم.

﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ المراد بالأبصار هنا البصيرة وليس بصر العين، والمراد أن الله تعالى يعمي بصيرة الإنسان والعياذ بالله، حتى يرى الباطل حقًّا والحق باطلاً.

وهذه عقوبة أخروية ودنيوية:

أما الأخروية: فقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٥٢].

وأما الدنيوية: فقوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾، يعني: أصم آذانهم عن سماع الحق والانتفاع به، ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾، عن رؤية الحق والانتفاع به.

وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، ميثاق العهد: توكيده، فينقضون العهد، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من القرابات وغيرهم، ويفسدون في الأرض بكثرة المعاصي ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ واللعنة تعني الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ

﴿ٱلدَّارِ﴾ أي سوء العاقبة.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

فأمر الله بالإحسان إلى الوالدين، وقال إن بلغا عندك الكبر أحدهما أو كلاهما؛ إما الأم أو الأب، أو الأم والأب جميعًا فزجرت منهم؛ لأن الإنسان إذا كبر قد يصل إلى الهرم وأرذل العمر فيُتعب، فقال حتى في هذه الحال ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي: لا تقل إني متضجر منكما ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: عند القول، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ يعني: طيبًا حسنًا يدخل السرور عليهما، ويزيل عنهما الكآبة والحزن، ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ يعني: ذل لهما مهما بلغت من علوِّ المنزلة، كما تعلو الطيور، فاخفض لهما جناح الذل، وتذلل لهما رحمة بهما، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ فارحمهما أنت، وادعُ الله أن يرحمهما.

هذا هو الذي أمر الله به بالنسبة للوالدين في حال الكبر، وأما في حال الشباب؛ فإن الوالد في الغالب يكون مستغنيًا عن ولده ولا يهمه.

ثم ذكر المؤلف حديث أبي بكرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ـ ثلاثًا ـ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، هذا من أكبر الكبائر.

فالإشراك بالله كبيرة في حق الله، وعقوق الوالدين كبيرة في حق من

هم أحق الناس بالولاية والرعاية، وهما الوالدان.

وكان ﷺ متكئًا فجلس أي: معتمدًا على يده، فجلس واستقام في جلسته وقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور».

هذا أيضًا من أكبر الكبائر، وإنما جلس النبي ﷺ عند هذا؛ لأن هذا ضرره عظيم، وعاقبته وخيمة.

وقول الزور يعني: الكذب، وشهادة الزور أي: الذي يشهد بالكذب والعياذ بالله، وما أرخص شهادة الزور اليوم عند كثير من الناس، يظن الشاهد أنه أحسن إلى من شهد له، ولكنه أساء إلى نفسه، وأساء إلى من شهد له، وأساء إلى من شهد عليه.

أما إساءته إلى نفسه فلأنه أتى كبيرةً من كبائر الذنوب والعياذ بالله؛ بل من أكبر الكبائر، وأما كونه أساء إلى المشهود له فلأنه سلَّطه على ما لا يستحق وأكله الباطل، وأما إساءته إلى المشهود عليه فظاهرة؛ فإنه ظلمه واعتدى عليه، ولهذا كانت شهادة الزور من أكبر الكبائر والعياذ بالله.

ولا تظن أنك إذا شهدت لأحد زورًا أنك محسن إليه، لا والله بل أنت مسيء إليه، وللأسف فكثير من الناس الآن يشهد عند الحكومة في المسائل بأن فلانًا هو المستحق، ويلبسون على الحكومة، ويستعيرون أسماء ليست بصحيحة، كل هذا من أجل أن ينالوا شيئًا من الدنيا، لكنهم خسروا الدنيا والآخرة بهذا الكذب والعياذ بالله.

وهذا الحديث يوجب للعاقل الحذر من هذه الأمور الأربعة: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور، وشهادة الزور.

٢/٣٣٧ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، والْيَمِينُ الْغَمُوسُ» رواه البخاري[١].

«واليَمِينُ الغَمُوسُ» التي يَحْلِفُهَا كَاذِبًا عَامِدًا، سُمِّيَتْ غَمُوسًا؛ لأنَّها تَغْمِسُ الحَالِفَ في الإِثْمِ.

٣/٣٣٨ ـ وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ!» قَالوا: يا رسول الله، وَهَلْ يَشْتِمِ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟! قال: «نَعَمْ؛ يَسُبُّ أبا الرَّجُلِ، فَيسُبُّ أبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ» متفقٌ عليه[٢].

وفي روايةٍ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ!» قِيلَ: يا رسول الله، كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ والِدَيْهِ؟! قال: يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ».

٤/٣٣٩ ـ وعن أبي محمد جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» قال سفيان في روايته: يَعْنِي: قَاطع رَحِم. متفقٌ عليه[٣].

٥/٣٤٠ ـ وعن أبي عيسى المُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، ومَنْعًا وَهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين الغموس، رقم(٦٦٧٥).
(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم(٩٠).
(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم(٥٩٨٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم(٢٥٥٦).

قِيلَ وَقَالَ، وكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإِضَاعَةَ الْمَالِ» متفقٌ عليه[١].

قولُهُ: «مَنْعًا» مَعْنَاهُ: مَنْعُ ما وَجَبَ عَلَيْهِ. و«هَاتِ»: طَلَبُ مَا لَيْسَ لَهُ. وَ«وَأدَ البَنَاتِ» مَعْنَاهُ: دَفْنُهُنَّ في الحَيَاةِ. و«قِيلَ وقَالَ» مَعْنَاهُ: الحَدِيثُ بِكُلِّ ما يَسْمَعُهُ، فَيَقُولُ: قِيل كَذَا، وقَالَ فُلانٌ كَذا مِمَّا لا يَعْلَمُ صِحَّتَهُ، وَلاَ يَظُنُّهَا، وكَفَى بالمَرْءِ كَذِبًا أنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ.

و«إِضَاعَةُ المَال»: تَبْذِيرُهُ وصَرْفُهُ في غَيْرِ الوجُوهِ المَأذُونِ فِيهَا مِنْ مَقَاصِدِ الآخِرَةِ والدُّنْيَا، وتَرْكُ حِفْظِهِ مَعَ إِمْكَانِ الحِفْظِ. وَ«كَثْرَةُ السُّؤالِ»: الإِلْحَاحُ فِيمَا لا حَاجَةَ إِلَيْهِ.

وفي البابِ أحَادِيثُ سَبَقَتْ فِي البَابِ قَبْلَهُ كَحَدِيثِ «وأقْطَعُ مَنْ قَطَعَكِ»، وحديث: «مَنْ قَطَعَني قَطَعَهُ الله».

الشرح

هذه الأحاديث كلها تدل على تحريم قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وقد سبق لها نظائر، ومما فيه زيادة عما سبق حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه» يعني سبهما ولعنهما كما جاء ذلك في رواية أخرى: «لعن الله من لعن والديه» قالوا: يا رسول الله، كيف يشتم الرجل والديه؟ لأن هذا أمر مستغرب، وأمر بعيد.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، رقم(٥٩٧٥)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، رقم(١٧١٥)[١٢].

قال: «نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

وذلك تحذير من أن يكون الإنسان سببًا في شتم والديه بأن يأتي إلى شخص فيشتم والدي الشخص، فيقابله الشخص الآخر بالمثل ويشتم والديه، ولا يعني ذلك أنه يجوز للثاني أن يشتم والدي الرجل؛ لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولكنه في العادة والطبيعة أن الإنسان يجازي غيره بمثل ما فعل به، فإذا سبه سبه.

وذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، لذلك لما كان سببًا في سب والديه؛ كان عليه إثم ذلك.

ثم ذكر المؤلف حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعًا وهات، ووأد البنات».

الشاهد من هذا الحديث قوله: «عقوق الأمهات» وهو قطع ما يجب لهن من البر، أما وأد البنات فهو دفنهن أحياء، وذلك لأنهم في الجاهلية كانوا يكرهون البنات، ويقولون: إن بقاء البنت عند الرجل مسبة له.

فكانوا والعياذ بالله يأتون بالبنت فيحفرون لها حفرة ويدفنونها وهي حية. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، فحرم الله ذلك، وهو لا شك من أكبر الكبائر، وإذا كان قتل الأجنبي المؤمن سببًا للخلود في النار كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

[النساء: ٩٣]، فالقرابة أشد وأشد.

«ومنعًا وهات» يعني أن يكون الإنسان جموعًا منوعًا؛ يمنع ما يجب عليه بذله من المال، ويطلب ما ليس له، فهات: يعني أعطوني المال، ومنعًا: أي يمنع ما يجب عليه، فإن هذا أيضًا مما حرمه الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه لا يجوز للإنسان أن يمنع ما يجب عليه بذله من الله، ولا يجوز أن يسأل ما لا يستحق، فكلاهما حرام، ولهذا قال: «إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعًا وهات».

«وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»، كره وحرم ليس بينهما فرق؛ لأن الكراهة في لسان الشارع معناها التحريم. ولكنَّ هذا والله أعلم من باب اختلاف التعبير فقط.

«كره لكم قيل وقال» يعني نقل الكلام، وكثرة ما يتكلم الإنسان ويثرثر به، وأن يكون ليس له هم إلا الكلام في الناس، قالوا كذا وقيل كذا، ولا سيما إذا كان هذا في أعراض أهل العلم وأعراض ولاة الأمور، فإنه يكون أشد وأشد كراهة عند الله عزَّ وجلَّ.

والإنسان المؤمن هو الذي لا يقول إلا خيرًا كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيرًا أو ليصمت»(١).

وكثرة السؤال يحتمل أن يكون المراد السؤال عن العلم، ويحتمل أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان...، رقم(٦٤٧٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار...، رقم(٤٧).

يكون المراد السؤال عن المال.

أما الأول: وهو كثرة السؤال عن العلم فهذا إنما يكره إذا كان الإنسان لا يريد إلا إعنات المسؤول، والإشقاق عليه، وإدخال السآمة والملل عليه، أما إذا كان يريد العلم فإنه لا ينهى عن ذلك، ولا يكره ذلك، وقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كثير السؤال، فقد قيل له: بم أدركت العلم؟ قال: أدركت العلم بلسانٍ سؤول، وقلبٍ عقول، وبدن غير ملول.

لكن إذا كان قصد السائل الإشقاق على المسؤول والإعنات عليه، وإلحاق السآمة به، أو تلقط زلاته لعله يزل فيكون في ذلك قدحٌ فيه، فإن هذا هو المكروه.

وأما الثاني: وهو سؤال المال فإن كثرة السؤال قد تلحق الإنسان بأصحاب الشح والطمع، ولهذا لا يجوز للإنسان سؤال المال إلا عند الحاجة، أو إذا كان يرى أن المسؤول يمن عليه أن يسأله، كما لو كان صديقًا لك قوي الصداقة، قريبًا جدًّا، فسألته حاجة وأنت تعرف أنه يكون بذلك ممنونًا، فهذا لا بأس به، أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك؛ فلا يجوز أن تسأل إلا عند الضرورة.

وأما إضاعة المال فهو بذله في غير فائدة لا دينية ولا دنيوية؛ لأن هذا أيضًا إضاعة له لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، فالمال قيام للناس؛ تقوم به مصالح دينهم ودنياهم، فإذا بذله الإنسان في غير ذلك فهذا إضاعة له، وأقبح من ذلك أن يبذله في محرم، فيرتكب في هذا محظورين:

المحظور الأول : إضاعة المال .

والمحظور الثاني : ارتكاب المحرم .

فالأموال يجب أن يحافظ عليها الإنسان، وألا يضعها وألا يبذلها إلا فيما فيه مصلحة له دينية أو دنيوية .

* * *

٤٢- بابُ بر أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة وسائر من يُنْدَب إكرامه

١/ ٣٤١ - عن ابن عمر رضيَ الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن أبَرَّ الْبِرِّ أنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أبِيهِ»(١).

٢/ ٣٤٢ - وعن عبدِ الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رَجُلاً مِنَ الأعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، وحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ، وأعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ، قال ابنُ دِينَارٍ: فَقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللهُ إنَّهُمُ الأَعْرَابُ وَهُمْ يَرْضَوْنَ بِاليَسِيرِ، فقال عبدُ الله بنُ عمر: إنَّ أبَا هذا كَانَ وُدًّا لِعُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه، وإنِّي سَمِعْتُ رسولَ اللهِ يقولُ: «إنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الرَّجُلِ أهْلَ وُدِّ أَبِيهِ»(٢).

وفي روايةٍ عن ابن دينارٍ عن ابن عُمَرَ أنَّهُ كَانَ إذَا خَرَجَ إلَى مَكَّةَ كَانَ لَهُ حِمارٌ يَتَرَوَّحُ عَلَيْهِ إذَا مَلَّ رُكُوبَ الرَّاحِلَةِ، وعِمَامَةٌ يَشُدُّ بها رَأسَهُ، فَبَيْنَا هَوَ يَوْمًا عَلَى ذلِكَ الحِمَارِ إذْ مَرَّ بِهِ أعْرَابيٌّ، فقال: ألَسْتَ ابنَ فُلانِ ابنِ فُلانٍ؟ قال بَلَى. فَأعْطَاهُ الحِمَارَ، فقال: ارْكَبْ هذا، وأعْطَاهُ العِمَامَةَ وقال: اشْدُدْ بِهَا رَأسَكَ، فقال لَهُ بَعضُ أصْحَابِهِ: غَفَرَ الله لَكَ! أعْطَيْتَ هذَا الأعْرَابيَّ حِمَارًا كُنْتَ تَرَوَّحُ عَلَيْهِ، وعِمَامَةً كُنْتَ تَشُدُّ بِهَا رَأسَكَ؟ فقال: إنِّي سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إنَّ مِنْ أبَرِّ الْبِرِّ أنْ يَصِلَ

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما، رقم(٢٥٥٢) [١٢].

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما، رقم(٢٥٥٢) [١١].

الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ»[١] وإِنَّ أَبَاهُ كَانَ صَدِيقًا لِعُمَرَ رضي الله عنه. روى هذِهِ الرِّوَايَاتِ كُلَّهَا مسلم.

الشرح

لما ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ أحكام بر الوالدين وصلة الأرحام؛ ذكر أيضًا أحكام صلة من يصل الوالدين والأرحام، وذلك للعلاقة التي بينهم وبين أقاربه، أو بينهم وبين والديه، ثم ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما ـ وهي قصة غريبة ـ كان ابن عمر رضي الله عنه إذا خرج إلى مكة حاجًّا يكون معه حمار يتروح عليه إذا مل الركوب على الراحلة ـ أي على البعير ـ فيستريح على هذا الحمار ثم يركب الراحلة.

وفي يوم من الأيام لقيه أعرابي فسأله ابن عمر: أنت فلان ابن فلان؟ قال: نعم، فنزل عن الحمار وقال: خذ هذا اركب عليه، وأعطاه عمامة كان قد شد بها رأسه، وقال لهذا الأعرابي: اشدد رأسك بهذا.

فقيل لعبد الله بن عمر: أصلحك الله أو غفر الله لك! إنهم الأعراب، والأعراب يرضون بدون ذلك، يعنون: كيف تنزل أنت عن الحمار تمشي على قدميك، وتعطيه عمامتك التي تشد بها رأسك، وهو أعرابي يرضى بأقل من ذلك.

فقال: إني سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أبر البر صلة الرجل أهل ود

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما، رقم(٢٥٥٢) [١٣].

أبيه» يعني أن أبر البر إذا مات أبو الرجل أو أمه أو أحد من أقاربه أن تبر أهل وده، يعني ليس صديقه فقط بل حتى أقارب صديقه.

وإن أبا هذا كان صديقًا لعمر أي: لعمر بن الخطاب أبيه، فلما كان صديقًا لأبيه؛ أكرمه برًّا بأبيه عمر رضي الله عنه.

وفي هذا الحديث دليلٌ على امتثال الصحابة، ورغبتهم في الخير ومسارعتهم إليه؛ لأن ابن عمر استفاد من هذا الحديث فائدة عظيمة، فإنه فعل هذا الإكرام بهذا الأعرابي من أجل أن أباه كان صديقًا لعمر، فما ظنك لو رأى الرجل الذي كان صديقًا لعمر؟ لأكرمه أكثر وأكثر.

فيُستفاد من هذا الحديث أنه إذا كان لأبيك أو أمك أحد بينهم وبينه ود فأكرمْه، كذلك إذا كان هناك نسوة صديقات لأمك؛ فأكرم هؤلاء النسوة، وإذا كان رجال أصدقاء لأبيك؛ فأكرم هؤلاء الرجال، فإن هذا من البر.

وفي هذا الحديث أيضًا: سعة رحمة الله عزَّ وجلَّ حيث إن البر بابه واسع لا يختص بالوالد والأم فقط؛ بل حتى أصدقاء الوالد وأصدقاء الأم، إذا أحسنت إليهم فإنما بررت والديك فتثاب ثواب البار بوالديه.

وهذه من نعمة الله عزَّ وجلَّ، أن وسَّع لعباده أبواب الخير وكثرها لهم، حتى يلجوا فيها من كل جانب، نسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين من البررة، إنه جواد كريم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

٣/٣٤٣ ـ وعن أبي أُسَيْدٍ ـ بضم الهمزة وفتح السين ـ مالك بن رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قال: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رسول الله ﷺ إذ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فقالَ: يا رسول اللهِ، هَلْ بَقِي مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ فقال: «نَعَمْ، الصَّلاةُ عَلَيْهِمَا، وَالاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لا تُوصَلُ إلاَّ بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِما» رواه أبوداود[1].

٤/٣٤٤ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النبي ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خديجة رضي الله عنها، وَمَا رَأَيْتُهَا قَطُّ، وَلكنْ كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيجة، فَرُبَّمَا قلتُ لَهُ: كَأنْ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيَا إلا خَدِيجَةُ! فيقولُ: «إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لي مِنْهَا وَلَدٌ» متفقٌ عليه[2].

وفي رواية: وإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ فَيُهْدِي في خَلائِلِهَا مِنْهَا مَا يَسَعُهُنَّ[3].

وفي روايةٍ: كَانَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ يَقُولُ: «أَرْسِلُوا بِهَا إِلى أصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ»[4].

وفي روايةٍ قالت: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ على رسول الله ﷺ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فارْتَاحَ لِذَلِكَ فقالَ: «اللَّهُمَّ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ»[5].

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الأدب، باب في بر الوالدين، رقم(٥١٤٢).
(٢) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة، رقم(٣٨١٨).
(٣) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة، رقم(٣٨١٦)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة. . ، رقم(٢٤٣٥) [٧٤].
(٤) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة. . ، رقم(٢٤٣٥) [٧٥].
(٥) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة، رقم(٣٨٢١)، =

قولُهَا: «فَارْتَاحَ» هو بِالحاءِ، وفي الجَمْعِ بين الصحيحين لِلْحُمَيْدِي: «فَارْتَاعَ» بِالعينِ ومَعناه: اهْتَمَّ بِهِ.

الشرح

كذلك أيضًا يبقى من البر بعد موت الوالدين ما ذكره النبي ﷺ حين سئل: هل بقي من بر أبواي شيءٌ أبرهما به بعد موتهما؟ قال ﷺ: «**نعم، الصلاة عليهما**» يعني الدعاء لهما، وليس المراد صلاة الجنازة، بل المراد الدعاء.

فالصلاة هنا بمعنى الدعاء وهي كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وكان النبي ﷺ إذا أتته الصدقة قال: اللهم صلِّ على آل فلان، كما قال عبد الله بن أبي أوفى أنه أتى بصدقة قومه إلى النبي ﷺ فقال: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»[(١)]، فدعا لهم بالصلاة عليهم.

فقول النبي ﷺ هنا: «**الصلاة عليهما**» يعني الدعاء لهما بالصلاة، فيقول: اللهم صلِّ على أبوي، أو يدعو لهم بدخول الجنة والنجاة من النار وما أشبه ذلك.

الثاني: «**الاستغفار لهما**» وهو أن يستغفر الإنسان لوالديه، يقول: اللهم اغفر لي ولوالدي، وما أشبه ذلك، وأما «**إنفاذ عهدهما**» يعني إنفاذ وصيتهما.

فهذه خمسة أشياء: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإكرام

= ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة..، رقم(٢٤٣٧) [٧٨].

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، رقم(٦٣٣٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة، رقم(١٠٧٨).

صديقهما، وإنفاذ عهدهما، وصلة الرحم التي لا صلة لك إلا بهما، هذه من بر الوالدين.

كذلك الصدقة لهما؛ فإن الصدقة تنفع الوالدين، كذلك أيضًا إكرام صديقهما مثل حديث ابن عمر السابق، يعني إن كان له صديق فأكرمه، فإن هذا من بره.

الخامس: صلة الرحم التي لا صلة لك إلا بهما، يعني صلة الأقارب فإن هذا من برهما.

أما قراءة القرآن لهما، أو الصلاة - بأن يصلي الإنسان ركعتين ويقول لوالدي - فهذا لم يأمر به النبي ﷺ ولا أرشد إليه، بل قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[(١)] ولم يقل: ولد صالح يتصدق له، أو يصلي له، أو يحج له، أو يعتمر له، بل قال: يدعو له، فالدعاء خيرٌ من العمل الصالح للوالدين.

لكن لو فعل الإنسان ونوى بهذا العمل لوالديه؛ فإن ذلك لا بأس به؛ لأن الرسول ﷺ لم يمنع سعد بن عبادة أن يتصدق لأمه بل أذن له[(٢)]، ولا الرجل الذي قال: يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها، ولو تكلمت لتصدقت[(٣)].

فهذه خمسة أشياء من بر الوالدين بعد موتهما.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).
(٢) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب إذا قال أرضي أو بستاني، رقم(٢٧٥٦).
(٣) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب ما يستحب لمن توفى فجاءة..، رقم(٢٧٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه..، رقم(١٠٠٤).

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ حديث عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة رضي الله عنها، والغيرة انفعال يكون في الإنسان؛ يحب أن يختص صاحبه به دون غيره، ولهذا سميت غيرة؛ لأنه يكره أن يكون الغير حبيبًا لحبيبه، والنساء الضرات هن أشد بني آدم غيرة.

وعائشة رضي الله عنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ، ولم يحب أحدًا مثلها في حياته بعد خديجة، وكان عليه الصلاة والسلام يحب خديجة؛ لأنها أم أولاده ـ إلا إبراهيم فمن مارية ـ ولأنها وازرته وساعدته في أول البعثة، وواسته في ماله، فلذلك كان لا ينساها.

فكان في المدينة إذا ذبح شاةً أخذ من لحمها وأهداه إلى صديقات خديجة رضي الله عنها، ولم تصبر عائشة رضي الله عنها على ذلك، قالت: يا رسول الله، كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة.

قال: «إنها كانت وكانت»، يعني كانت تفعل كذا، وتفعل كذا، وذكر من خصالها رضي الله عنها.

«وكان لي منها ولد» حيث كل أولاده؛ أربع بنات وثلاثة أولاد كلهم منها إلا ولدًا واحدًا هو إبراهيم رضي الله عنه، فإنه كان من مارية القبطية التي أهداها إليه ملك القبط، فأولاده كلهم من خديجة فلذلك قال: «إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد».

والشاهد من هذا الحديث: أن إكرام صديق الإنسان بعد موته يعتبر إكرامًا له، وبرًّا به، سواء كان من الوالدين، أو من الأزواج، أو من الأصدقاء، أو من الأقارب، فإن إكرام صديق الميت يعتبر إكرامًا له.

٣٤٥/٥ ـ وعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: خَرَجْتُ مَعَ جَرِيرِ بنِ عبدِ اللهِ البَجَليِّ رضي الله عنه في سَفَرٍ، فَكَانَ يَخْدُمُنِي فقلتُ لَهُ: لا تَفْعَلْ، فقال: إنِّي قَدْ رَأيْتُ الأنْصَارَ تَصْنَعُ برَسُول اللهِ ﷺ شَيْئًا آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أنْ لا أصْحَبَ أحَدًا مِنْهُمْ إلا خَدَمْتُهُ. متفقٌ عليه[1].

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ في بقية أحاديث بر أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنه كان في سفر فجعل يخدم رفقته وهم من الأنصار، فقيل له في ذلك، يعني: كيف تخدمهم وأنت صاحب رسول الله ﷺ؟!

فقال: إنِّي رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئًا؛ آليت على نفسي ألا أصحب أحدًا منهم إلا خدمته، يعني: حلفت.

وهذا من إكرام من يكرم النبي ﷺ، فإكرام أصحاب الرجل إكرام للرجل، واحترامهم احترام له، ولهذا جعل رضي الله عنه إكرام هؤلاء من إكرام النبي ﷺ.

* * *

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الخدمة في الغزو، رقم(٢٨٨٨)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في حسن صحبة الأنصار، رقم(٢٥١٣).

٤٣ـ باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ وبيان فضلهم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله: باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ وبيان فضلهم: وأهل بيت الرسول ﷺ: ينقسمون إلى قسمين:

قسم كفار فهؤلاء ليسوا من أهل بيته وإن كانوا أقارب له في النسب، لكنهم ليسوا من أهل بيته؛ لأن الله قال لنوح عليه الصلاة والسلام حين قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾، وكان ابنه كافرًا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦].

فالكفار من أقارب الرسول ﷺ ليسوا من أهل بيته، وإن كانوا أقارب له نسبًا.

لكن أهل بيته هم المؤمنون من قرابته ﷺ، ومنهم أيضًا زوجاته، فإن زوجاته رضي الله عنهن من آل بيته، كما قال الله تعالى في سياق نساء أمهات المؤمنين: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا

تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

وهذا نص صريح واضح جدًّا بأن زوجات الرسول ﷺ من آل بيته، خلافًا للرافضة الذين قالوا: إن زوجات الرسول ﷺ ليسوا من أهل بيته، فزوجاته من أهل بيته بلا شك.

ولأهل بيت الرسول ﷺ المؤمنين حقان: حق الإيمان، وحق القرابة من الرسول ﷺ.

وزوجات الرسول ﷺ أمهات المؤمنين، كما قال تعالى في كتابه ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

فأزواج الرسول ﷺ أمهات للمؤمنين، وهذا بالإجماع، فمن قال: إن عائشة رضي الله عنها ليست أمًّا لي فليس من المؤمنين؛ لأن الله قال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ فمن قال: إن عائشة رضي الله عنها ليست أمًّا للمؤمنين؛ فهو ليس بمؤمن؛ لا مؤمن بالقرآن ولا بالرسول ﷺ.

وعجبًا لهؤلاء؛ يقدحون في عائشة ويسبونها ويبغضونها وهي أحب زوجات الرسول ﷺ إلى الرسول ﷺ، لا يحب أحدًا من نسائه مثل ما يحبها، كما صح ذلك عنه في البخاري أنه قيل: يا رسول الله، من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة». قالوا: فمن الرجال؟ قال

«أبوها»(١) أبو بكر رضي الله عنه.

وهؤلاء القوم يكرهون عائشة ويسبونها ويلعنونها، وهي أقرب نساء الرسول إليه، فكيف يُقال: إن هؤلاء يحبون الرسول؟ وكيف يُقال: إن هؤلاء يحبون آل الرسول؟ ولكنها دعاوى كاذبة لا أساس لها من الصحة.

فالواجب علينا احترام آل بيت الرسول ﷺ من قرابته المؤمنين، ومن زوجاته أمهات المؤمنين، كلهم آل بيته ولهم حق.

ثم ذكر المؤلف الآية التي سقناها الآن ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، نقاء وطهارة، أي النجس المعنوي، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ بعد إزالة النجاسة. والتطهر: تخلية وتحلية، وقوله ﴿تَطْهِيرًا﴾ هذا مصدر مؤكد لما سبق، يدل على أنها طهارة كاملة.

ولهذا من رمى واحدةً من نساء الرسول ﷺ بالزنى ـ والعياذ بالله ـ فإنه كافر حتى لو كانت غير عائشة.

عائشة الذي يرميها بما برأها الله منه كافر مكذب لله، يحل دمه وماله، وأما الذي يرمي سواها بالزنى فالصحيح من أقوال أهل العلم أنه كافر أيضًا؛ لأن هذا أعظم قدح برسول الله ﷺ، أن يكون فراشه ممن يزنين والعياذ بالله، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت...»، رقم(٣٦٦٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم(٢٣٨٤).

لِلْخَبِيثَاتِ﴾[النور: ٢٦].

فمن رمى واحدة من زوجات الرسول ﷺ بالزنى فقد جعل النبي ﷺ ـ وحاشاه من ذلك ـ جعله خبيثاً ـ نعوذ بالله ـ لأن الله يقول ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ وبهذا يعرف أن المسألة خطيرة وعظيمة، وأن الواجب علينا أن نُكِنَّ المحبة الصادقة لجميع آل بيت الرسول ﷺ؛ نسائه كلهن والمؤمنين من قرابته.

* * *

١/٣٤٦ ـ وعن يزيد بن حَيَّانَ قال: انْطَلَقْتُ أنَا وحُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ، وَعَمْرُو ابْن مُسْلِمٍ إلى زَيْدِ بْنِ أرْقَمَ رضي الله عنهم، فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قال له حُصَيْنٌ: لَقَدْ لَقيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثيرًا، رَأيْتَ رسول الله ﷺ، وسَمِعْتَ حَديثَهُ، وَغزَوْتَ مَعَهُ، وَصَلَّيْتَ خَلْفَهُ: لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، حَدِّثْنَا يَا زَيْدُ مَا سَمِعْتَ مِنْ رسول الله ﷺ.

قال: يَا ابْنَ أخِي وَالله لَقَدْ كبرَتْ سِنِّي، وقَدُمَ عَهْدِي، وَنَسِيتُ بعْضَ الذي كُنْتُ أعِي مِنْ رسولِ الله ﷺ، فَمَا حَدَّثْتُكُمْ، فَاقْبَلُوا، وَمَا لا فَلا تُكَلِّفُونِيهِ، ثُمَّ قال: قامَ رسول الله ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ، فَحَمِدَ الله، وَأثْنى عَلَيْهِ، وَوَعَظَ، وَذَكَّرَ، ثُمَّ قالَ:

«أمَّا بَعْدُ: ألا أيُّهَا النَّاسُ، فَإنَّمَا أنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أنْ يَاتِيَ رسولُ ربي فَأُجِيبَ، وأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أوَّلُهُمَا كِتَابُ الله، فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ الله، وَاسْتَمْسِكُوا به». فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ الله، وَرَغَّبَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي أذَكِّرُكُمُ الله فِي أَهْلِ بَيْتِي، أذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي».

فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: ومَنْ أهْلُ بَيْتِهِ يا زَيْدُ، أَلَيْسَ نِساؤُهُ مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ؟

قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ، وَلكنْ أهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ، قال: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ هُمْ آلُ عَلَيٍّ، وَآلُ عَقِيلٍ، وآلُ جَعْفَر، وآلُ عَبَّاس.

قَالَ: كُلُّ هؤُلاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ؟

قَالَ: نَعَمْ. رواه مسلم[١].

وفي روايةٍ: «أَلاَ وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ الله وَهُوَ حَبْلُ الله، مَنِ اتَّبَعَه كَانَ عَلى الهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلالَةٍ»[٢].

٢ / ٣٤٧ ـ وعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عن أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه مَوْقُوفًا عَلَيْهِ أنَّهُ قَالَ: ارْقُبُوا محَمَّدًا ﷺ في أهلِ بَيْتِهِ. رواه البخاري[٣]

مَعْنَى «ارْقُبُوا» رَاعُوهُ واحْتَرِمُوهُ وأكْرِمُوهُ، والله أعلم.

الشرح

هذا الحديث وهذا الأثر في بيان حق آل النبي ﷺ، وقد سبق أن آل بيته هم زوجاته ومن كان مؤمنًا من قرابته، من آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس، وهم الذين تحرم عليهم الصدقة؛ لأن النبي ﷺ قال لعمه العباس وقد سأله عن الصدقة، قال: «إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس،

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عليّ بن أبي طالب..، رقم(٢٤٠٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رقم(٢٤٠٨) [٣٧].

(٣) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين، رقم(٣٧٥١).

وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد»[(١)].

وآل محمد لهم خصائص ليست لغيرهم، ففي باب الفيء لهم حق يختصون به، كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١]، يعني قرابة النبي ﷺ.

ولهم كرامة وشرف وسيادة، فلا تحل لهم الصدقة ولا الزكاة الواجبة؛ لأنها أوساخ الناس، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فلا يحل لهم الصدقة؛ فهم أشرف وأعلى من أن تحل لهم الصدقة، لكن يعطون بدلها من الخمس.

ثم بيَّن في حديث زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال يوم غدير خم؛ وهو غدير بين مكة والمدينة، نزل فيه النبي ﷺ، ووعد وذكّر، وحث على القرآن، وبين أن فيه الشفاء والنور، ثم حث على أهل بيته، فقال: «أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي».

ولم يقل إن أهل بيته معصومون، وإن أقوالهم كالقرآن يجب أن يعمل بها، كما تدّعيه الرافضة، فإنهم ليسوا معصومين، بل هم يخطئون كما يخطئ غيرهم، ويصيبون كما يصيب غيرهم، ولكن لهم حق قرابة النبي ﷺ كما سبق.

وقوله: «أذكركم الله في أهل بيتي»: يعني اعرفوا لهم حقهم، ولا تظلموهم، ولا تعتدوا عليهم، هذا من باب التوكيد، وإلا فكل إنسان مؤمن له حقٌّ على أخيه، لا يحق له أن يعتدي عليه، ولا أن يظلمه؛ لكن

لآل النبي ﷺ حق زائد على حقوق غيرهم من المسلمين.

وإذا كان هذا في حق آل النبي ﷺ فما بالك بحق الرسول ﷺ؟

حق الرسول ﷺ أعظم الحقوق بعد حق الله؛ يجب أن يقدم على النفس والولد والأهل وعلى جميع الناس، في المحبة والتعظيم وقبول هديه وسنته ﷺ، فهو مقدم على كل أحد ﷺ. نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين من أتباعه ظاهرًا وباطنًا.

* * *

٤٤ ـ باب توقير العلماء والكبار وأهل الفضل وتقديمهم على غيرهم، ورفع مجالسهم، وإظهار مرتبتهم

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

١/٣٤٨ ـ وعن أبي مسعود عُقبةَ بن عمرو البدري الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أقْرَؤُهُمْ لكِتَابِ اللهِ، فَإِنْ كَانُوا في الْقِرَاءَةِ سَوَاءً، فَأعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَواءً، فَأقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كانُوا في الهِجْرَةِ سَوَاءً، فَأقْدَمُهُمْ سِنًّا، وَلاَ يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ في سُلْطَانِهِ، وَلاَ يَقْعُدْ في بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إلاَّ بِإِذْنِهِ» رواه مسلم[1].

وفي روايةٍ لَهُ: «فَأقْدَمُهُمْ سِلْمًا» بَدَلَ «سِنًّا»: أوْ إسْلاَمًا.

وفي روايةٍ: «يَؤُم القَوْمَ أقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله، وأقْدَمُهُمْ قرَاءَةً، فَإِنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً فَيَؤُمُّهُمْ أقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا في الهِجْرَةِ سَوَاءً، فَلْيَؤُمَّهُمْ أكْبَرُهُمْ سِنًّا».

وَالمرَادُ «بِسُلْطَانِهِ» مَحَلُّ ولايَتِهِ، أو المَوْضعُ الذي يَخْتَصُّ به.

«وتَكْرِمَتُهُ» بفتحِ التاءِ وكسر الراءِ: وَهِيَ مَا يَنْفَرِدُ بِهِ مِنْ فِرَاشٍ وَسَرِيرٍ وَنَحْوِهِمَا.

٢/٣٤٩ ـ وعنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا في الصَّلاةِ وَيَقُولُ:

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة، رقم(٦٧٣).

«اسْتَوُوا وَلا تَخْتَلِفُوا، فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الأحْلامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِين يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» رواه مسلم(١).

وقوله ﷺ: «لِيَلِنِي» هو بتخفيفِ النُّونِ وَلَيْسَ قَبْلَهَا يَاءٌ، وَرُوِي بتشديد النُّونِ مَعَ يَاءٍ قَبْلَهَا. «وَالنُّهَى»: العُقُولُ، «وَأولُو الأحْلام» هُمُ البَالِغُونَ، وَقيلَ: أهلُ الحِلْمِ وَالفَضْلِ.

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب توقير العلماء، وأهل الفضل، وتقديمهم على غيرهم، ورفع مجالسهم، وإظهار مرتبتهم، يعني وما يتعلق بهذا من المعاني الجليلة.

يريد المؤلف ـ رحمه الله ـ بالعلماء علماء الشريعة الذين هم ورثة النبي ﷺ، فإن العلماء ورثة الأنبياء؛ لأن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا، فإن النبي ﷺ توفي عن بنته فاطمة وعمه العباس ولم يرثوا شيئًا؛ لأن الأنبياء لا يورَّثون إنما ورَّثوا العلم.

فالعلم شريعة الله فمن أخذ بالعلم؛ أخذ بحظ وافر من ميراث العلماء.

وإذا كان الأنبياء لهم حق التبجيل والتعظيم والتكريم، فلمن ورثهم نصيب من ذلك، أن يبجل ويعظم ويكرم، فلهذا عقد المؤلف رحمه الله لهذه المسألة العظيمة بابًا؛ لأنها مسألة عظيمة ومهمة.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف. . .، رقم(٤٣٢) [١٢٢].

وبتوقير العلماء توقر الشريعة؛ لأنهم حاملوها، وبإهانة العلماء تهان الشريعة؛ لأن العلماء إذا ذلوا وسقطوا أمام أعين الناس؛ ذلت الشريعة التي يحملونها، ولم يبق لها قيمة عند الناس، وصار كل إنسان يحتقرهم ويزدريهم فتضيع الشريعة.

كما أن ولاة الأمر من الأمراء والسلاطين يجب احترامهم وتوقيرهم وتعظيمهم وطاعتهم، حسب ما جاءت به الشريعة؛ لأنهم إذا احتقروا أمام الناس، وأذلوا، وهون أمرهم؛ ضاع الأمن وصارت البلاد فوضى، ولم يكن للسلطان قوة ولا نفوذ.

فهذان الصنفان من الناس: العلماء والأمراء، إذا احتقروا أمام أعين الناس فسدت الشريعة، وفسد الأمن، وضاعت الأمور، وصار كل إنسان يرى أنه هو العالم، وكل إنسان يرى أنه هو الأمير، فضاعت الشريعة وضاعت البلاد، ولهذا أمر الله تعالى بطاعة ولاة الأمور من العلماء والأمراء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

ونضرب لكم مثلاً: إذا لم يعظم العلماء والأمراء، فإن الناس إذا سمعوا من العالم شيئًا قالوا: هذا هين، قال فلان خلاف ذلك.

أو قالوا: هذا هين هو يعرف ونحن نعرف، كما سمعنا عن بعض السفهاء الجهال، أنهم إذا جودلوا في مسألة من مسائل العلم، وقيل لهم: هذا قول الإمام أحمد بن حنبل، أو هذا قول الشافعي، أو قول مالك، أو قول أبي حنيفة، أو قول سفيان، أو ما أشبه ذلك قال: نعم، هم رجال ونحن رجال، لكن فرق بين رجولة هؤلاء ورجولة هؤلاء، من أنت حتى

تصادم بقولك وسوء فهمك وقصور علمك وتقصيرك في الاجتهاد وحتى تجعل نفسك ندًّا لهؤلاء الأئمة رحمهم الله؟

فإذا استهان الناس بالعلماء كل واحد يقول: أنا العالم، أنا النحرير، أنا الفهامة، أنا العلامة، أنا البحر الذي لا ساحل له وصار كل يتكلم بما شاء، ويفتي بما شاء، ولتمزقت الشريعة بسبب هذا الذي يحصل من بعض السفهاء.

وكذلك الأمراء، إذا قيل لواحد مثلاً: أمر الولي بكذا وكذا، قال: لا طاعة له؛ لأنه مخل بكذا ومخل بكذا، وأقول: إنه إذا أخل بكذا وكذا، فذنبه عليه، وأنت مأمور بالسمع والطاعة، حتى وإن شربوا الخمور وغير ذلك ما لم نَرَ كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان، وإلا فطاعتهم واجبة؛ ولو فسقوا، ولو عتوا، ولو ظلموا.

وقد قال النبي ﷺ: «اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك»[١].

وقال لأصحابه فيما إذا أخل الأمراء بواجبهم، قال: «اسمعوا وأطيعوا فإنما عليكم ما حملتم وعليهم ما حملوا»[٢].

أما أن نريد أن تكون أمراؤنا كأبي بكر وعمر، وعثمان وعلي، فهذا لا يمكن، لنكن نحن صحابة أو مثل الصحابة حتى يكون ولاتنا مثل خلفاء الصحابة.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين..، رقم(١٨٤٧) [٥٢].

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب في طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق، رقم(١٨٤٦).

أما والشعب كما نعلم الآن؛ أكثرهم مفرط في الواجبات، وكثيرٌ منتهك للحرمات، ثم يريدون أن يولي الله عليهم خلفاء راشدين، فهذا بعيد، لكن نحن علينا أن نسمع ونطيع، وإن كانوا هم أنفسهم مقصرين فتقصيرهم هذا عليهم. عليهم ما حملوا، وعلينا ما حملنا.

فإذا لم يوقر العلماء ولم يوقر الأمراء؛ ضاع الدين والدنيا. نسأل الله العافية.

ثم استدل المؤلف بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي﴾ يعني لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؛ لأن الجاهل متصف بصفة ذم، والعالم متصف بصفة مدح، ولهذا لو تعيّر أدنى واحد من العامة وتقول له: أنت جاهل، غضب وأنكر ذلك، مما يدل على أن الجهل عيب مذموم، كلٌّ ينفر منه، والعلم خير، ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون في أي حال من الأحوال.

العالم يعبد الله على بصيرة، يعرف كيف يتوضأ، وكيف يصلي، وكيف يزكي، وكيف يصوم، وكيف يحج، وكيف يبر والديه، وكيف يصل رحمه.

العالم يهدي الناس ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، لا يمكن أن يكون هذا مثل هذا، فالعالم نورٌ يهتدى به، ويرفع الله به، والجاهل عالة على غيره، لا ينفع نفسه ولا غيره، بل إن أفتى بجهل؛ ضر نفسه وضر غيره، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

ثم استدل المؤلف بحديث عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: «يؤم القوم

أقرؤهم لكتاب الله»، يعني يكون إمامًا فيهم أقرؤهم لكتاب الله «فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا بالسنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلمًا» أي إسلامًا، وفي لفظ سنًّا أي أكبرهم سنًّا.

وهذا يدل على أن صاحب العلم مقدمٌ على غيره؛ يقدم العالم بكتاب الله، ثم العالم بسنة رسول الله ﷺ، ولا يقدم من القوم في الأمور الدينية إلا خيرهم وأفضلهم.

وهذا يدل على تقديم الأفضل فالأفضل في الإمامة، وهذا في غير الإمام الراتب، أما الإمام الراتب فهو الإمام وإن كان في الناس من هو أقرأ منه؛ لقول النبي ﷺ في الحديث: «ولا يؤمن الرجلُ الرجلَ في سلطانه» وإمام المسجد الراتب سلطان في مسجده، حتى إن بعض العلماء يقول: لو أن أحدًا تقدم وصلى بجماعة المسجد بدون إذن الإمام فصلاتهم باطلة، وعليهم أن يعيدوا؛ لأن النبي ﷺ نهى عن هذه الإمامة، والنهي يقتضي الفساد، والله الموفق.

* * *

٣/٣٥٠ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيَلِني مِنْكُمْ أُولُو الأحْلامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» ثَلاثًا «وإيَّاكُمْ وَهَيشَاتِ الأسْوَاقِ» رواه مسلم[1].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف..، رقم(٤٣٢) [١٢٣].

٤ / ٣٥١ ـ وعن أبي يَحْيَى وَقِيلَ: أبي مُحَمَّدٍ سَهْلِ بن أبي حَثْمَة ـ بفتح الحاءِ المهملة، وإسكان الثاءِ المثلثةِ ـ الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال: انْطَلَقَ عَبْدُ اللهِ ابن سَهْلٍ ومُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ إلى خَيْبَرَ وَهِيَ يَومَئِذٍ صُلْحٌ، فَتَفَرَّقَا، فأتَى مُحَيِّصَةُ إلى عبدِ اللهِ بنِ سهلٍ وهو يَتَشَحَّطُ في دَمِهِ قَتِيلاً، فَدَفَنَهُ، ثُمَّ قَدِمَ المَدِينَةَ فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرحمنِ بْنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ وَحُوَيِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إلى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمنِ يَتَكَلَّمُ فقال: «كَبِّرْ كَبِّرْ» وَهُوَ أحْدَثُ القَوْمِ، فَسَكَتَ، فَتَكلمَا فقال: «أتَحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ؟» وَذَكَرَ تَمَامَ الحَدِيث. متفقٌ عليه[1].

وقوله ﷺ: «كَبِّرْ كَبِّرْ» مَعْنَاهُ: يَتَكَلَّمُ الأكْبَرُ.

٥ / ٣٥٢ ـ وعن جابرٍ رضي الله عنه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ يَعْنِي في القَبْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: «أيُّهُمَا أكْثَرُ أخْذًا لِلقُرْآنِ؟» فَإذَا أُشِيرَ لَهُ إلى أحَدِهِمَا قَدَّمَهُ في اللَّحْد. رواه البخاري[2].

٦ / ٣٥٣ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «أَرَانِي في المَنَامِ أتَسَوَّكُ بِسِوَاكٍ، فَجَاءَنِي رَجُلانِ، أحَدُهُمَا أكْبَرُ مِنَ الآخَرِ، فَنَاوَلْتُ السِّوَاكَ الأصْغَرَ، فَقِيلَ لي: كَبِّرْ، فَدَفَعْتُهُ إلى الأكْبَرِ مِنْهُمَا» رواه مسلم مُسْنَدًا، والبخاري تعلِيقًا[3].

٧ / ٣٥٤ ـ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب الموادعة والمصالحة مع المشركين بالمال، رقم(٣١٧٣)، ومسلم، كتاب القسامة، باب القسامة، رقم(١٦٦٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد، رقم(١٣٤٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب السواك، رقم(٢٤٦)، ومسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ، رقم(٢٢٧١).

إجْلَالِ اللهِ تَعَالَى إكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَالجَافِي عَنْهُ، وإكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ» حديثٌ حسنٌ رواه أبوداود[1].

الشرح

هذه الأحاديث فيها الإشارة إلى ما سبق عن المؤلف ـ رحمه الله ـ من إكرام أهل العلم وأهل الفضل الكبير، فمن ذلك حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لِيَلني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم» قال ذلك ثلاثًا، «وإياكم وهيشات الأسواق» وفي قوله: «ليلني منكم» اللام لام الأمر، والمعنى أنه في الصلاة ينبغي أن يتقدم أولو الأحلام والنهى.

وأولو الأحلام: يعني الذين بلغوا الحلم وهم البالغون، والنهى جمع نهية وهي العقل، يعني العقلاء، فالذي ينبغي أن يتقدم في الصلاة العاقلون البالغون؛ لأن ذلك أقرب إلى فهم ما يقوله النبي ﷺ أو ما يفعله، من الصغار ونحوهم، فلهذا حثَّ النبي ﷺ أن يتقدم هؤلاء حتى يلوا الإمام.

وليس معنى الحديث لا يلني إلا أولو الأحلام والنهي، بحيث نطرد الصبيان عن الصف الأول، فإن هذا لا يجوز. فلا يجوز طرد الصبيان عن الصف الأول إلا أن يحدث منهم أذية، فإن لم يحدث منهم أذية؛ فإن من سبق إلى ما لم يسبق إليه أحد أحق به.

وهناك فرق بين أن تكون العبارة النبوية: لا يلني إلا أولو الأحلام،

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، رقم(٤٨٤٣).

وبين قوله: ليلني أولو الأحلام، فالثانية تحث الكبار العقلاء على التقدم، والأولى لو قدر أنها هي نص الحديث لكان ينهى أن يلي الإمام من ليس بالغًا، أو ليس عاقلاً.

وعلى هذا فنقول: إن أولئك الذين يطردون الصبيان عن الصف الأول أخطئوا من جهة أنهم منعوا ذوي الحقوق حقوقهم؛ فإن النبي ﷺ قال: «من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو له»(١).

ومن جهة أخرى أنهم يُكرِّهون الصبيان المساجد، وهذا يؤدي إلى أن ينفر الصبي عن المسجد إذا كان يطرد عنه.

ومنها أن هذه لا تزال عقدة في نفسه من الذي طرده، فتجده يكرهه، ويكره ذكره، فمن أجل هذه المفاسد نقول: لا تطردوا الصبيان من أوائل الصفوف.

ثم إننا إذا طردناهم من أوائل الصفوف؛ حصل منهم لعب، لو كانوا كلهم في صف واحد كما يقوله من يقوله من أهل العلم، لحصل منهم من اللعب ما يوجب اضطراب المسجد، واضطراب أهل المسجد، ولكن إذا كانوا مع الناس في الصف الأول ومتفرقين؛ فإن ذلك أسلم من الفوضى التي تحصل بكونهم يجتمعون في صف واحد.

وقوله ﷺ: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى» يُستفاد منه أن الدنو من الإمام له شأن مطلوب، ولهذا قال: ليلني أي يكون هو الذي يليني.

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الخراج والإمارة، باب في إقطاع الأرضين، رقم(٣٠٧١).

وعلى هذا نقول: إذا كان يمين الصف بعيدًا، وأيسر الصف أقرب منه بشكل واضح، فإن الصف الأيسر أفضل من الأيمن، من أجل دنوه من الإمام؛ ولأنه لما كان الناس في أول الأمر إذا كان إمامهم واثنان معه، فإنهما يكونان عن يمينه واحد، وعن شماله واحد، ولا يكون كلاهما عن اليمين، فدل هذا على مراعاة الدنو من الإمام، وتوسط الإمام من المأمومين.

ولكن هذا الأمر أي كون الإمام واثنان معه يكونان في صف واحد، هذا نسخ، وصار الإمام إذا كان معه اثنان يصفان خلفه، ولكن كونه - حين كان مشروعًا - يجعل أحدهما عن اليمين والثاني عن اليسار؛ يدل على أنه ليس الأيمن أفضل مطلقًا، بل أفضل من الأيسر إذا كان مقاربًا أو مثله، أما إذا تميز بميزة بينة؛ فاليسار مع الدنو من الإمام أفضل.

وفي حديث الرؤيا التي رآها الرسول ﷺ، أنه كان ﷺ يتسوك بسواك فجاءه رجلان فأراد أن يعطيه الأصغر، فقيل له: كبِّر كبِّر. فيه دليلٌ أيضًا على اعتبار الكِبَر، وأنه يقدم الأكبر في إعطاء الشيء.

ومن ذلك إذا قدمت الطعام مثلاً أو القهوة أو الشاي فلا تبدأ باليمين، بل ابدأ بالأكبر الذي أمامك؛ لأن النبي ﷺ لما أراد أن يعطيه الأصغر قيل له كبِّر، ومعلوم أنه لو كان الأصغر هو الأيسر لا يذهب الرسول ﷺ يعطيه إياه، فالظاهر أنه أعطى الأيمن من أجل التيامن، لكن قيل له كبِّر: يعني أعطه الأكبر، فهذا إذا كان الناس أمامك تبدأ بالكبير، لا تبدأ باليمين، أما إذا كانوا جالسين عن اليمين وعن الشمال فابدأ باليمين.

وبهذا يجمع بين الأدلة الدالة على اعتبار التكبير أي مراعاة الكبير، وعلى اعتبار الأيمن، أي مراعاة الأيمن، فنقول: إذا كانت القصة كما جاء عن النبي ﷺ أنه كان معه إناء يشرب منه، وعلى يساره الأشياخ وعلى يمينه غلام وهو ابن عباس، فقال النبي ﷺ للغلام: «**أتأذن لي أن أعطي هؤلاء**» فقال الغلام: لا والله، لا أوثر بنصيبي منك أحدًا. فأعطاه رسول الله ﷺ[(١)]. فإذا كان هكذا فأعطه من على يمينك، أما الذين أمامك فابدأ بالكبير، كما تدل عليه السنة، وهذا هو وجه الجمع بينهما.

ثم إن الإنسان إذا أعطاه الكبير فمن يعطي بعده؟ هل يعطي الذي على يمين الكبير ويكون عن يسار الصاب، أم الذي عن يمين الصاب؟

نقول: يبدأ بالذي عن يمين الصاب وإن كان على يسار الكبير؛ لأننا إذا اعتبرنا التيامن بعد مراعاة الكبر، فالذي على يمينك هو الذي عن يسار مقابلك فتبدأ به، ما لم يسمح بعضهم لبعض، ويقول: أعطه فلانًا.. أعطه فلانًا؛ فالحق لهم، ولهم أن يسقطوه، والله أعلم.

* * *

---

(١) رواه البخاري، كتاب المساقاة، باب من رأى صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة...، رقم(٢٣٥١)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب استحباب إدارة الماء واللبن ونحوهما..، رقم(٢٠٣٠).

٤٥ـ بابُ زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [٦٠ ـ ٦٦].

وقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف: ٢٨].

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ باب زيارة أهل الخير ومحبتهم وصحبتهم وطلب الزيارة منهم.

أهل الخير أهل العلم والإيمان والصلاح، ومحبتهم واجبة؛ لأن أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله، فإذا كان الإنسان محبته تابعة لمحبة الله، وبغضه تابعًا لبغض الله؛ فهذا هو الذي ينال ولاية الله عزَّ وجلَّ.

وأهل الخير إذا جالستهم فأنت على خير؛ لأن النبي ﷺ مثَّل الجليس الصالح بحامل المسك؛ إما أن يحذيك يعني: يعطيك، وإما أن يبيعك، يعني يبيع عليك، وإما أن تجد منه رائحة طيبة[1].

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

وكذلك ينبغي أن تطلب منهم أن يزوروك ويأتوا إليك لما في مجيئهم إليك من الخير.

ثم ذكر المؤلف قصة موسى عليه السلام مع الخضر فإن موسى قال لفتاه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]؛ لأن الله أخبره بأن له عبدًا من عباده آتاه رحمة منه وعلمه من لدنه علمًا، فذهب موسى يطلب هذا الرجل حتى لقيه، وذكر الله تعالى قصتهما مبسوطة في سورة الكهف وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله، والله أعلم.

* * *

١/ ٣٦٠ - وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بَعْدَ وَفاةِ رسول الله ﷺ: انْطَلِقْ بِنَا إلى أمِّ أيْمَن رضي الله عنها نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رسول الله ﷺ يَزُورُهَا، فلَمَّا انْتَهَيَا إليْهَا، بَكَتْ، فَقَالا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ أمَا تَعْلَمِينَ أنَّ مَا عِندَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِ الله ﷺ؟ فقالت: إنِّي لاَ أبْكِي أنِّي لا أعْلَمُ أنَّ ما عِنْدَ اللهِ تعالى خَيْرٌ لرسول اللهِ ﷺ، وَلكِنْ أبْكِي أنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى البُكَاءِ، فَجَعَلا يَبْكِيَانِ مَعَهَا. رواه مسلم[١].

٢/ ٣٦١ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنَّ رَجُلاً زَارَ أخًا لَهُ في قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأرْصَدَ اللهُ تعالى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أتَى عَلَيْهِ قال: أيْنَ تُرِيدُ؟ قال: أُرِيدُ أخًا لي في هذِهِ الْقَرْيَةِ. قال: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّها عَلَيْهِ؟ قال: لا، غَيْرَ أنِّي أحْبَبْتُهُ في اللهِ تعالى، قال: فَإنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكَ بأنَّ اللهَ قَدْ أحبَّكَ

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم(٢٥٥٤).

كَمَا أحْبَبْتَهُ فِيه» رواه مسلم[١].

يُقال: «أرْصَدَه» لِكَذَا: إِذَا وَكَّلَهُ بِحِفْظِهِ، و«المَدْرَجَةُ» بفتح المِيمِ والراءِ: الطَّريقُ، ومعنى «تَرُبُّهَا» تَقُومُ بها، وَتَسْعَى في صَلاحِهَا.

٣/٣٦٢ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا أوْ زَارَ أخًا لَهُ في الله، نَادَاه مُنَادٍ: بِأنْ طِبْتَ، وَطَابَ مَمْشَاكَ، وتَبَوَّأتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلاً» رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ، وفي بعض النسخ غريبٌ[٢].

٤/٣٦٣ ـ وعن أبي موسى الأشعريِّ رضيَ الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «إنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ، ونَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ، إمَّا أنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أنْ تَبْتَاع مِنْهُ، وَإِمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَة، وَنَافِخُ الْكِيرِ، إمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنْتِنَةً» متفقٌ عليه[٣].

«يُحْذيك»: يعطيك.

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل زيارة الإخوان بعضهم لبعض والمحبة في الله عزَّ وجلَّ.

ففي الحديث الأول في قصة الرجلين من الصحابة رضي الله عنهما،

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في الله، رقم(٢٥٦٧).

(٢) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في زيارة الإخوان، رقم(٢٠٠٨)، وابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضًا، رقم(١٤٤٣).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم(٥٥٣٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم(٢٦٢٨).

زارا امرأة كان النبي ﷺ يزورها. فزاراها من أجل زيارة النبي ﷺ إياها. فلما جلسا عندها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله سبحانه وتعالى خير لرسوله؟ يعني خير من الدنيا.

فقالت: إني لا أبكي لذلك ولكن لانقطاع الوحي؛ لأن النبي ﷺ لما مات انقطع الوحي، فلا وحي بعد رسول الله ﷺ، ولهذا أكمل الله شريعته قبل أن يتوفى، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فجعلا يبكيان؛ لأنها ذكّرتهما بما كانا قد نسياه.

وأما الأحاديث الأخرى ففيها أيضًا فضل الزيارة لله عزَّ وجلَّ، وأن الله سبحانه وتعالى يثيب من زار أخاه أو عاده في مرضه، فيُقال له: طبت وطاب ممشاك. ويُقال لمن زار أخاه لغير أمر دنيوي ولكن لمحبته في الله: إن الله أحبك كما أحببته فيه.

والزيارة لها فوائد فمع هذا الأجر العظيم، فهي تؤلف القلوب، وتجمع الناس، وتذكّر الناسي، وتنبه الغافل، وتعلم الجاهل، وفيها مصالح كثيرة يعرفها من جربها.

وأما عيادة المريض ففيها كذلك أيضًا من المصالح والمنافع الشيء الكثير، وقد سبق لنا أنها من حقوق المسلم على المسلم: أن يعوده إذا مرض، ويذكره بالله عزَّ وجلَّ، بالتوبة والوصية وغير ذلك مما يستفيد منه.

فهذه الأحاديث وأشباهها كلها تدل على أنه ينبغي للإنسان أن يفعل ما فيه المودة والمحبة لإخوانه؛ من زيارة وعيادة واجتماع وغير ذلك.

٥/٣٦٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تُنْكَحُ المَرْأةُ لأرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ» متفقٌ عليه[١].

ومعناه: أنَّ النَّاس يَقْصِدُونَ في العَادَةِ مِنَ المَرْأةِ هذِهِ الخَصَالَ الأرْبَعَ، فَاحْرِصْ أنْتَ عَلى ذاتِ الدِّينِ، وَاظْفَرْ بِهَا، وَاحْرِصْ عَلى صُحْبَتِهَا.

٦/٣٦٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ لِجِبْرِيلَ: «مَا يَمْنَعُكَ أنْ تَزُورَنَا أكْثَرَ مِمَّا تَزُورنا؟» فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ رواه البخاري[٢].

٧/٣٦٦ ـ وعَنْ أبي سعيدِ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لاَ تُصَاحِبْ إلاَّ مُؤْمِنًا، وَلاَ يَأكُلْ طَعَامَكَ إلاَّ تَقِيٌّ».

رواه أبوداود، والترمذي بإسنادٍ لا بأس به[٣].

٨/٣٦٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ».

رواه أبوداود، والترمذي بإسنادٍ صحيح، وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ[٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم(٥٠٩٠)، ومسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم(١٤٦٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب وما نتنزل إلا بأمر ربك..، رقم(٤٧٣١).

(٣) رواه أبوداود، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم(٤٨٣٢)، والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في صحبة المؤمن، رقم(٢٣٩٥).

(٤) رواه أبوداود، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم(٤٨٣٣)، والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال بحقه، رقم(٢٣٧٨).

٩/٣٦٨ ـ وعن أبي موسى الأشعَرِيِّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» متفقٌ عليه[(١)].

وفي رواية قال: قِيلَ للنَّبيِّ ﷺ: الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ ولمَّا يَلحَقْ بِهِمْ؟ قال: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، وحسبها، وجمالها، ودينها. فاظفر بذات الدين».

يعني أن الأغراض التي تنكح من أجلها المرأة في الغالب تنحصر في هذه الأربع:

المال: من أجل أن ينتفع به الزوج.

والحسب: يعني أن تكون من قبيلة شريفة، من أجل أن يرتفع بها الزوج.

والجمال: من أجل أن يتمتع بها الزوج.

والدين: من أجل أن تعينه على دينه، وتحفظ أمانته وترعى أولاده.

قال النبي ﷺ: «فاظفر بذات الدين تربت يداك» يعني تمسك بها واحرص عليها، وحثّ على ذلك بقوله: «تربت يداك». وهذه الكلمة تقال

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، رقم(٦١٧٠)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، رقم(٢٦٤١).

عند العرب للحث على الشيء .

ثم ذكر المؤلف أيضًا حديث جبريل أن النبي ﷺ قال : «**ألا تزورنا أكثر مما تزورنا**» فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم : ٦٤].

ففي هذا الحديث طلبُ زيارة أهل الخير إلى بيتك . فتطلب منهم أن يزوروك من أجل أن تنتفع بصحبتهم .

وكذلك في حديث أبي هريرة صحبة المرأة الدَّينة تعينك على دين الله .

وقد سبق أيضًا أن مثل الجليس الصالح كحامل المسك، إما أن يحذيك يعني يعطيك منه، أو يبيعك، أو تجد منه رائحة طيبة .

ثم ذكر المؤلف أحاديث بهذا المعنى، مثل ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : «**المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**» يعني أن الإنسان يكون في الدين، وكذلك في الخلق على حسب من يصاحبه، فلينظر أحدكم من يصاحب، فإن صَاحبَ أهل الخير؛ صار منهم، وإن صاحب سواهم؛ صار مثلهم .

فالحاصل أن هذه الأحاديث وأمثالها كلها تدل على أنه ينبغي للإنسان أن يصطحب الأخيار، وأن يزورهم ويزوروه، لما في ذلك من الخير، والله الموفق .

* * *

١٠ / ٣٦٩ ـ وعن أنس رضي الله عنه أن أعرابيًّا قال لرسول الله ﷺ: «مَتَى السَّاعَةُ؟ قال رسولُ الله ﷺ: «مَا أعْدَدْتَ لهَا؟» قال: حُبُّ الله ورسولِهِ. قال: «أنْتَ مَعَ مَنْ أحْبَبْتَ».

متفقٌ عليه(١)، وهذا لفظ مسلم.

وفي رواية لهما: مَا أعْدَدْتُ لهَا مِنْ كَثيرِ صَومٍ، وَلاَ صَلاةٍ، وَلاَ صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أحِبُّ الله وَرَسُولَهُ(٢).

١١ / ٣٧٠ ـ وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: جاءَ رَجُلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كَيْفَ تَقُولُ في رَجُلٍ أحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فقال رسُولُ الله ﷺ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» متفقٌ عليه(٣).

١٢ / ٣٧١ ـ وعن أبي هُريرة رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «النَّاسُ مَعَادِنٌ كمعادِنِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإسْلاَمِ إذَا فَقهُوا، وَالأرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ» رواه مسلم(٤).

وروى البخاري قوله: «الأرْوَاحُ» إلخ من رواية عائشة رضي الله عنها(٥).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل: ويلك، رقم(٦١٦٧)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، رقم(٢٦٣٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب علامة حب الله، رقم(٦١٧١)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، رقم(٢٦٣٩) [١٦٤].

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من سمي بالأنبياء، رقم(٦١٦٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة، رقم(٢٦٤٠).

(٤) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة، رقم(٢٦٣٨).

(٥) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق ادم صلوات الله عليه، رقم(٣٣٣٦).

١٣ / ٣٧٢ ـ وعن أُسَيْرِ بن عمْرو ويُقَالُ: ابْنُ جابر وهو «بضم الهمزةِ وفتحِ السين المهملة» قال: كَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه إذَا أتَى عَلَيْهِ أمداد أهْلِ اليَمنِ سَألَهُمْ: أفِيكُمْ أوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟

حَتَّى أتى على أوَيْسٍ رضي الله عنه، فقال له: أنْتَ أوَيْسُ بْنُ عامِرٍ؟ قال: نَعَمْ. قال: مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ؟ قال: نَعَمْ. قال: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ، فَبَرأتَ مِنْهُ إلا مَوْضعَ دِرْهَمٍ؟ قال: نَعَمْ، قال: لَكَ وَالدَةٌ؟ قال: نَعَمْ.

قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «يَأتي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أمْدَادِ أهْلِ اليَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ، فَبَرأ مِنْهُ إلا مَوْضعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِها بَرٌّ، لَوْ أقْسَمَ عَلَى الله لأبَرَّهُ، فَإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافعَلْ» فاسْتَغْفِرْ لي فَاسْتَغْفَرَ لَهُ.

فقال له عُمَرُ: أيْنَ تُرِيدُ؟ قال: الكُوفَةَ، قال: ألا أكْتُبُ لَكَ إلى عَامِلِهَا؟ قال: أكُونُ في غَبْرَاءِ النَّاسِ أحَبُّ إليَّ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أشْرَافِهِم، فَوَافَى عُمَرَ، فَسَألَهُ عَنْ أوَيْسٍ، فقال: تَرَكْتُهُ رَثَّ البَيْتِ قَلِيلَ المَتَاعِ.

قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: يَأتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أمْدَادٍ مِنْ أهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فبَرَأ مِنْهُ إلا مَوْضعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِها بَرٌّ لَوْ أقْسَمَ عَلَى الله لأبَرَّهُ، فَإنَ اسْتَطَعْتَ أنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ، فَافْعَلْ».

فَأتَى أوَيْسًا، فقال: اسْتَغْفِرْ لي، قال: أنْتَ أحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ، فَاسْتَغْفِرْ لي. قال: لقِيتَ عُمَرَ؟ قال: نَعَمْ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ، فَانْطَلَقَ عَلَى

وَجهِهِ. رواه مسلم(١).

وفي روايةٍ لمسلمٍ أيضًا عن أُسَيْر بن جابر رضيَ الله عنه أنَّ أهْلَ الكُوفَةِ وَفَدُوا عَلَى عُمَرَ رضيَ الله عنْهُ، وَفِيهِم رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَسْخَرُ بِأوَيسٍ، فقال عُمَرُ: هَلْ هاهُنَا أحدٌ مِنَ القَرنِيِّينَ؟ فَجَاءَ ذلكَ الرَّجُلُ، فقالَ عُمَرُ: إنَّ رسُولَ الله ﷺ قد قال: «إنَّ رَجُلاً يَأتِيكُمْ مِنَ اليَمَنِ يُقالُ لَهُ: أوَيْسٌ، لا يَدَعُ بِاليَمَنِ غَيْرَ أمٍّ لَهُ، قَدْ كانَ بِهِ بَيَاضٌ فَدَعَا اللهَ تعالى، فَأذْهَبَهُ إلا مَوضعَ الدِّينارِ أوِ الدِّرْهَمِ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ»(٢).

وفي روايةٍ له عَن عمر رضي الله عنه قال: إنِّي سَمِعْت رسول الله ﷺ يقول: إنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَال لَهُ: أُوَيْسٌ، ولَهُ وَالدَةٌ وكانَ بِهِ بَيَاضٌ، فَمُروه، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ»(٣).

قوله: «غَبْرَاءِ النَّاسِ» بفتح الغين المعجمة، وإسكان الباءِ وبالمدِّ، وهم فُقَرَاؤهمْ وَصَعَالِيكُهُمْ وَمَنْ لا يُعْرَف عَيْنُه مِنْ أخلاطِهِمْ، و«الأمْداد» جَمْع مَدَدٍ وَهُمُ الأعْوَان والنَّاصِرُون الذِينَ كانُوا يُمِدُّونَ المُسْلِمِينَ في الجِهَادِ.

١٤ /٣٧٣ ـ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اسْتَأذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ في الْعُمْرَةِ، فَأذِنَ لي، وقال: «لا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ» فقال كَلِمَةً مَا يَسُرُّني

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني، رقم(٢٥٤٢) [٢٢٥].

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني، رقم(٢٥٤٢) [٢٢٣].

(٣) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني، رقم(٢٥٤٢) [٢٢٤].

أنَّ لي بِهَا الدُّنْيَا.

وفي روايةٍ قال: «أشْرِكْنَا يَا أُخَيَّ في دُعَائِكَ».

حديثٌ صحيحٌ رواه أبوداود، والترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح[1].

١٥ / ٣٧٤ ـ وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَزُورُ قُبَاء رَاكِبًا وَمَاشِيًا، فيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، متفقٌ عليه[2].

وفي روايةٍ: كان النَّبِيُّ ﷺ يَأتي مَسْجِدَ قُبَاء كُلَّ سَبْتٍ رَاكِبًا وَمَاشِيًا، وكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَفْعَلُهُ»[3].

الشرح

هذه الأحاديث تتعلق بالباب الذي ذكره المؤلف؛ من أنه ينبغي إكرام العلماء وتوقيرهم واحترامهم ومصاحبة أهل الخير والصلاح وزيارتهم ودعوتهم للزيارة وما أشبه ذلك.

ففي الحديث الأول عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أعرابيًّا قال: يا رسول الله؛ متى الساعة؟ فقال له النبي ﷺ: «ماذا أعددت لها؟» قال: حبّ الله ورسوله.

ففي هذا الحديث دليلٌ على أنه ليس الشأن كل الشأن أن يسأل الإنسان

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم(١٤٩٨)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم(٣٥٦٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم(١١٩٤)، ومسلم، كتاب الحج، باب فضل مسجد قباء..، رقم(١٣٩٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب مسجد قباء، رقم(١١٩١)، ومسلم، كتاب الحج، باب فضل مسجد قباء....، رقم(١٣٩٩)[٥٢١].

متى يموت؟ أو بأي أرض يموت؟ ولكن على أي حال يموت؟ هل يموت على خاتمة حسنة؟ أو على خاتمة سيئة؟

ولهذا قال: «ماذا أعددت لها؟» يعني لا تسأل عنها فإنها ستأتي..

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

لكن الشأن ماذا أعددت لها؟ هل عملت؟ هل أنبت إلى ربك؟ هل تبت من ذنبك؟ هذا هو المهم.

وكذلك حديث ابن مسعود وما ذكره المؤلف بعده من فضل محبة الله ورسولهﷺ، وأن الإنسان إذا أحبَّ قومًا كان منهم. قال النبي ﷺ: «المرء مع من أحب».

قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام بشيء فرحنا بهذا الحديث، فأنا أحب الله ورسوله. أحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر، فالمرء مع من أحب؛ لأنه إذا أحب قومًا فإنه يألفهم، ويتقرب منهم، ويتخلق بأخلاقهم، ويقتدي بأفعالهم، كما هي طبيعة البشر.

وأما حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أراد أن يعتمر فقال له النبي ﷺ: «لا تنسنا من دعائك - أو - أشركنا في دعائك»، فهذا حديثٌ ضعيفٌ وإن صحّحه المؤلف، فطريقة المؤلف رحمه الله له أنه يتساهل في الحكم على الحديث إذا كان في فضائل الأعمال.

وهذا وإن كان يصدر عن حسن نية، لكن الواجب اتباع الحق؛ فالصحيح صحيح، والضعيف ضعيف، وفضائل الأعمال تدرك بغير تصحيح الأحاديث الضعيفة.

نعم أمر النبي عليه الصلاة والسلام من رأى أويسًا القرْني أو القرَني أن يطلب منه الدعاء. لكن هذا خاص به؛ لأنه كان رجلاً بارًّا بأمه، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يرفع ذكره في هذه الدنيا قبل جزاء الآخرة.

ولهذا لم يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يطلب أحدٌ من أحدٍ أن يدعو له، مع أن هناك من هو أفضل من أويس؛ فأبوبكر أفضل من أويس بلا شك، وغيره من الصحابة أفضل منه من حيث الصحبة، وما أمر النبي عليه الصلاة والسلام أحدًا أن يطلب الدعاء من أحد.

فالصواب أنه لا ينبغي أن يطلب أحدٌ الدعاء من غيره ولو كان رجلاً صالحًا، وذلك لأن هذا ليس من هدي النبي ﷺ ولا من هدي خلفائه الراشدين، أما إذا كان الدعاء عامًّا، يعني تريد أن تطلب من هذا الرجل الصالح أن يدعو بدعاء عام، كأن تطلب منه أن يدعو الله تعالى بالغيث أو برفع الفتن عن الناس أو ما أشبه ذلك، فلا بأس؛ لأن هذا لمصلحة غيرك، كما لو سألت المال للفقير، فإنك لا تُلامُ على هذا ولا تُذمُّ.

وكذلك النبي عليه الصلاة والسلام فإن سؤال الصحابة له من خصوصياته، يسألونه أن يدعو الله لهم، كما قال الرجل حين حدث النبي ﷺ عن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقام عكَّاشة ابن محصن قال: ادعُ الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت منهم» ثم قال رجل آخر

فقال ﷺ: «سبقك بها عكَّاشة»(١).

وكما قالت المرأة التي كانت تصرع، حيث طلبت من النبي ﷺ أن يدعو الله لها. فقال: «إن شئت دعوت الله لك، وإن شئت صبرت ولك الجنة». فقالت: أصبر ولكن ادع الله ألا تنكشف عورتي(٢).

فالحاصل أن الرسول عليه الصلاة والسلام من خصوصياته أن يُسأل الدعاء، أماغيره فلا.

نعم لو أراد الإنسان أن يسأل من غيره الدعاء وقصده مصلحة الغير، يعني يريد أن الله يثيب هذا الرجل على دعوته لأخيه، أو أن الله تعالى يستجيب دعوته؛ لأنه إذا دعا الإنسان لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك بمثله، فالأعمال بالنيات. فهذا لم ينوِ ذلك لمصلحة نفسه خاصة؛ بل لمصلحة نفسه ومصلحة أخيه الذي طلب منه الدعاء، فالأعمال بالنيات.

أما المصلحة الخاصة فهذا كما قال الشافعي رحمه الله يدخل في المسألة المذمومة، وقد بايع النبي ﷺ أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئًا.

* * *

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب...، رقم(٦٥٤١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل دخول طوائف من المسلمين الجنة..، رقم(٢١٦).

(٢) رواه البخازي، كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح، رقم(٥٦٥٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرضى...، رقم(٢٥٧٦).

٤٦ - باب فضل الحبّ في الله والحثّ عليه وإعلام الرجل من يحبه أنه يحبه، وماذا يقول له إذا أعمله

قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

١/٣٧٥ - وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإيمَانِ: أنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إلاَّ للهِ، وَأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أنْ أنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ» متفقٌ عليه(١).

٢/٣٧٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْم لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: إمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأ في عِبَادَةِ الله عزَّ وجَلَّ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا في اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأةٌ ذَاتُ حُسْنٍ وَجَمَالٍ، فقال: إنِّي أخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» متفقٌ عليه(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم(١٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن حلاوة الإيمان، رقم(٤٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم(٦٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم(١٠٣١).

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب فضل الحب في الله والبغض فيه، وإعلام الرجل من يحبه أنه يحبه، وما يقول له إذا ذكر ذلك.

هذه أربعة أمور، بيّن المؤلف رحمه الله الأدلة الدالة عليها.

فقال رحمه الله قول الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ محمد رسول الله، والذين معه هم أصحابه، أشداء على الكفار، أقوياء على الكفار، رحماء بينهم، يعني يرحم بعضهم بعضًا.

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾، يعني تنظر إليهم في حال الصلاة تجدهم ركعًا سجدًا، خضوعًا لله عزَّ وجلَّ وتقربًا إليه، لا يريدون شيئًا من الدنيا، ولكنهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا. فضلاً من الله: هو الثواب، والرضوان: هو رضى الله عنهم.

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ يعني علامتهم في وجوههم من أثر السجود، وهذه «السيما» هي نور الوجه. نور وجوههم من سجودهم لله عزَّ وجلَّ. وليست العلامة التي تكون في الجبهة، هذه العلامة ربما تكون دليلاً على كثرة السجود، ولكن العلامة الحقيقية هي نور الوجه.

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾ يعني ذلك صفتهم في التوراة، فإن الله سبحانه وتعالى نوّه بهذه الأمة وبرسولها ﷺ، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ

ﭐلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يعني: مثلهم كمثل الزرع ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ يعني الغصن الثاني غير الغصن الأم ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ يعني شدّده وقوّاه، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ قام وعانق الأصل ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ يعني أهل الخبرة والزراع يعجبهم مثل هذا الزرع القوي، إذا كان له شطأ مؤازر له، مقوّله.

﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي ليغيظ الله بهم الكفار من بني آدم، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾، مغفرة للذنوب، وأجرًا عظيمًا على الحسنات.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: ٩]، هؤلاء الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم، ﴿ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ المدينة، أي: سكنوها ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل المهاجرين، وحققوا الإيمان من قبل أن يهاجر إليهم المؤمنون؛ لأن الإيمان دخل في المدينة قبل الهجرة، ﴿ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ سكنوها، ﴿وَالإِيمَانَ﴾ حققوا الإيمان ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل المهاجرين.

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾؛ لأنهم إخوانهم ولهذا لما هاجروا آخى النبي ﷺ بينهم. أي: جعلهم إخوانًا، حتى إن الواحد من الأنصار كان يتنازل عن نصف ماله لأخيه المهاجري، ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ يعني: لا يجدون في صدورهم حسدًا مما أوتي المهاجرون من

الفضل والولاية والنصرة لرسول الله ﷺ.

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: يقدمون غيرهم على أنفسهم. ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي: ولو كانوا جياعًا، فإنهم كانوا يجيعون أنفسهم ليشبع إخوانهم المهاجرون رضي الله عنهم وأرضاهم. ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ يعني من يقيه الله شح نفسه، ويكون كريمًا، يبسط المال ويبذل، ويحب أخاه، فأولئك هم المفلحون.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد هؤلاء وهم التابعون إلى يوم القيامة ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحشر: ١٠]، هؤلاء الذين جاءوا من بعدهم هم تبع لهم، قد رضي الله عنهم كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وهذه الآيات الثلاثة ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ آيات تبين من يستحق الفيء من بيت المال، والذين يستحقون الفيء هم هؤلاء الأصناف الثلاثة، منهم ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾.

سئل الإمام مالك رحمه الله: هل يعطى الرافضة من الفيء قال: لا يعطون من الفيء؛ لأن الرافضة لا يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان؛ لأن الرافضة يرون الصحابة ـ إلا نفرًا قليلاً ـ كلهم كفارًا والعياذ بالله، حتى أبا بكر وعمر، يرون أنهما كافران، وأنهما ماتا على

النفاق، وأنهما ارتدا بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام. نسأل الله العافية.

ولهذا قال الإمام مالك: لا يستحقون من الفيء شيئًا؛ لأنهم لا يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولكن يخصّون الرحمة والمغفرة أو سؤال المغفرة والرحمة لمن يرون أنهم لم يرتدوا، وهم نفر قليل من آل البيت واثنان أو ثلاثة أو عشرة من غيرهم.

فالشاهد من هذه الآية قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني من المؤمنين، وهذا حب في الله، وإلا فإن الأنصار من الأوس والخزرج، ليس بينهم وبين المهاجرين نسب. ليسوا من قريش، لكن الأخوة الإيمانية هي التي جمعت بينهم وصاروا إخوانًا لهم. والأخوة الإيمانية هي أوثق عرى الإيمان، أوثق عرى الإيمان هي الحب في الله والبغض في الله.

ثم ذكر المؤلف حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» من كن فيه: يعني من اتصف بهن، «وجد بهن» يعني بسببهن، «حلاوة الإيمان» ليست حلاوة سكر ولا عسل، وإنما هي حلاوة أعظم من كل حلاوة. حلاوة يجدها الإنسان في قلبه، ولذة عظيمة لا يساويها شيء، يجد انشراحًا في صدره، رغبة في الخير، حبًّا لأهل الخير. حلاوة لا يعرفها إلا من ذاقها بعد أن حُرمها.

«أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» وهنا قال أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ولم يقل: ثم رسوله؛ لأن المحبة هنا لرسول الله عليه الصلاة والسلام هنا تابعة ونابعة من محبة الله سبحانه وتعالى.

فالإنسان يحب الرسول بقدر ما يحب الله، كلما كان لله أحب؛ كان للرسول ﷺ أحبّ.

لكن مع الأسف أن بعض الناس يحبّ الرسول مع الله ولا يحب الرسول لله.

انتبهوا لهذا الفرق. يحب الرسول مع الله ولا يحب الرسول لله. كيف؟ تجده يحب الرسول أكثر من محبته لله، وهذا نوع من الشرك. أنت تحب الرسول لله؛ لأنه رسول الله، والمحبة في الأصل والأم محبة الله عزَّ وجلَّ، لكن هؤلاء الذين غلوا في الرسول ﷺ، يحبون الرسول مع الله لا يحبونه لله، أي يجعلونه شريكًا لله في المحبة؛ بل أعظم من محبة الله. تجده إذا ذكر الرسول ﷺ اقشعر جلده من المحبة والتعظيم، لكن إذا ذكر الله فإذا هو بارد لا يتأثر.

هل هذه محبة نافعة للإنسان؟ لا تنفعه، هذه محبة شركية، عليك أن تحب الله ورسوله، وأن تكون محبتك للرسول ﷺ نابعة من محبة الله وتابعة لمحبة الله، «أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبه إلا لله» هذا الشاهد. تحب المرء لا تحبه إلا لله. لا تحبه لقرابة، ولا لمال، ولا لجاه، ولا لشيء من الدنيا، إنما تحبه لله.

أما محبة القرابة فهي محبة طبيعية. كلٌّ يحب قريبه محبة طبيعية، حتى البهائم تحب أولادها، تجد الأم من البهائم والحشرات تحبّ أولادها حتى يكبروا ويستقلوا بأنفسهم، ثم تبدأ بطردهم.

وإذا كان عندك هرة انظر إليها كيف تحنو على أولادها وتحملهم في

أيام البرد، تدخلهم في الدفء، وتمسكهم بأسنانها، لكن لا تؤثر فيهم شيئًا؛ لأنها تمسكهم إمساك رحمة، حتى إذا فطموا واستقلوا بأنفسهم، بدأت تطردهم؛ لأن الله يلقي في قلبها الرحمة ما داموا محتاجين إليها، ثم بعد ذلك يكونون مثل غيرهم.

فالشاهد أن محبة القرابة محبة طبيعية، لكن إذا كان قريبك من عباد الله الصالحين، فأحببته فوق المحبة الطبيعية فأنت أحببته لله.

«أن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه؛ كما يكره أن يقذف في النار» يعني: يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه.

وهذه ظاهرة فيمن كان كافرًا ثم أسلم، لكن من ولد في الإسلام فيكره أن يكون في الكفر بعد أن منَّ الله عليه بالإسلام كما يكره أن يقذف في النار، يعني أنه لو قذف في النار لكان أهون عليه من أن يعود كافرًا بعد إسلامه، وهذا والحمد لله حال كثير من المؤمنين. كثيرٌ من المؤمنين لو قيل له: تكفر أو نلقيك من أعلى شاهق في البلد أو نحرقك لقال: احرقوني. ألقوني من أعلى شاهق ولا أرتد من بعد إسلامي.

وهذا مراد الردة الحقيقية التي تكون في القلب، أما من أكره على الكفر فكفر ظاهرًا لا باطنًا، بل قلبه مطمئن بالإيمان، فهذا لا يضره لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٦، ١٠٧]، لما

قيل لهم: نقتلكم أو اكفروا، فباعوا الآخرة بالدنيا، وكفروا ليبقوا، فاستحبوا الدنيا على الآخرة، وأن الله لا يهدي القوم الكافرين. نسأل الله لنا ولكم الهداية.

وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار.

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادلٌ، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحاباً في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال إني أخاف الله، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» فهؤلاء سبعة وليس المراد بالسبعة العدد، يعني أنهم سبعة أنفار فقط، ولكنهم سبعة أصناف؛ لأنهم قد يكونون عددًا لا يحصيهم إلا الله عزَّ وجلَّ.

ونحن لا نتكلم على ما ساق المؤلف الحديث من أجله؛ لأن هذا سبق لنا وقد شرحناه فيما مضى، ولكن نتكلم على مسألة ضلَّ فيها كثير من الجهال، وهي قوله: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» حيث توهموا جهلاً منهم أن هذا هو ظل الله نفسه، وأن الله تعالى يظلهم من الشمس بذاته عزَّ وجلَّ، وهذا فهم خاطئ منكر، يقوله بعض المتعالمين الذين يقولون: إن مذهب أهل السنة إجراء النصوص على ظاهرها فيقال أين الظاهر؟! وأين يكون ظاهر الحديث وأن الربّ جل وعلا يظلهم من الشمس؟!

فإن هذا يقتضي أن تكون الشمس فوق الله عزَّ وجلَّ، وهذا شيء منكرٌ لا أحد يقول به من أهل السنة، لكن مشكلات الناس ولاسيما في هذا العصر؛ أن الإنسان إذا فهم؛ لم يعرف التطبيق، وإذا فهم مسألة؛ ظنَّ أنه أحاط بكل شيء علمًا.

والواجب على الإنسان أن يعرف قدر نفسه، وألا يتكلم ـ لاسيما في باب الصفات ـ إلا بما يعلم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكلام الأئمة.

فمعنى «يوم لا ظل إلا ظله» أو «يظلهم الله في ظله» يعني الظل الذي لا يقدر أحد عليه في ذلك الوقت؛ لأنه في ذلك الوقت لا بناء يبنى، ولا شجر يغرس، ولا رمال تقام، ولا أحجار تصفَّف، ولا شيء من هذا. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ـ١٠٧].

ولا يظل الخلائق من الشمس شيء، لا بناء، ولا شجر، ولا حجر، ولا غير ذلك. لكن الله عزَّ وجلَّ يخلق شيئًا يظلل به من شاء من عباده، يوم لا ظل إلا ظله، هذا هو معنى الحديث، ولا يجوز أن يكون له معنًى سوى هذا.

والشاهد من هذا الحديث لهذا الباب قوله: «رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه» يعني أنهما جرت بينهما محبة، لكنها محبة في الله، لا في مال، ولا جاه، ولا نسب، ولا أي شيء، إنما هو محبة الله عزَّ وجلَّ، رآه قائمًا بطاعة الله، متجنبًا لمحارم الله، فأحبه من أجل ذلك، فهذا هو الذي يدخل في هذا الحديث: «تحاباً في الله».

وقوله: «اجتمعا عليه وتفرقا عليه» يعني اجتمعا عليه في الدنيا وبقيت المحبة بينهما حتى فرق بينهما الموت تفرقًا وهما على ذلك.

وفي هذا إشارة إلى أن المتحابين في الله لا يقطع محبتهم في الله شيء من أمور الدنيا، وإنما هم متحابون في الله لا يفرقهم إلا الموت، حتى لو أن بعضهم أخطأ على بعض، أو قصَّر في حق بعض، فإن هذا لا يهمهم؛ لأنه إنما أحبه لله عزَّ وجلَّ، ولكنه يصحح خطأه ويبين تقصيره؛ لأن هذا من تمام النصيحة، فنسأل الله أن يجعلنا والمسلمين من المتحابين فيه، المتعاونين على البر والتقوى إنه جواد كريم.

* * *

٣/٣٧٧ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي». رواه مسلم[١].

٤/٣٧٨ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَ لاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ» رواه مسلم[٢].

٥/٣٧٩ ـ وعنه عن النبي ﷺ: «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا» وذكر الحديث إلى قوله: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ»

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في الله، رقم(٢٥٦٦).
(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم(٥٤).

رواه مسلم[١] وقد سبق بالباب قبله.

٨/٣٨٢ - وعن أبي إدريس الخَوْلاني رَحمهُ الله قال: دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ، فَإذا فَتًى بَرَّاقُ الثَّنَايَا وإذا النَّاسُ مَعَهُ، فَإذا اخْتَلَفُوا في شَيء، أسْنَدُوهُ إلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأيِهِ، فَسَألْتُ عَنْهُ، فقيلَ: هذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، هَجَّرْتُ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالتَّهْجيرِ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صَلاتَهُ، ثُمَّ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُلْتُ: وَاللهِ إنِّي لأحِبُّكَ للهِ، فَقَالَ: آللهِ؟ فَقُلْتُ: اللهِ، فقال: آللهِ؟ فَقُلْتُ: اللهِ، فَأخَذَني بِحَبْوَةِ رِدَائي، فَجَبَذَني إلَيْهِ، فَقَالَ: أبْشِرْ، فَإنِّي سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: وَجَبَتْ مَحَبَّتي لِلْمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتَجالِسِينَ فيَّ، وَالمُتَزَاوِرِينَ فيَّ، وَالمُتَبَاذِلِينَ فيَّ» حديث صحيح رواه مالك في المُوَطَّأ بإسناده الصَّحيح[٢].

قَوْلُهُ: «هَجَّرْتُ»: أيْ بَكَّرْتُ، وَهُوَ بتشديد الجيم. قوله: «آللهِ فَقُلْتُ: اللهِ» الأوَّلُ بهمزةٍ ممدودةٍ للاستفهام والثاني بِلا مدٍّ.

٩/٣٨٣ - عن أبي كَرِيمَةَ المِقْدَادِ بْنِ معدي كرب رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذَا أحبَّ الرَّجُلُ أخَاهُ، فَلْيُخْبِرْه أنَّهُ يُحِبُّهُ» رواه أبوداود، والترمذي[٣] وقال: حديثٌ حسنٌ.

١٠/٣٨٤ - وعن مُعَاذٍ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ، أخَذَ بِيَدِهِ وقال: «يَا

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في الله، رقم(٢٥٦٧).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢/٥٩٣).

(٣) رواه أبـوداود، كتـاب الأدب، بـاب إخبـار الـرجـل بمحبتـه إيـاه، رقـم(٥١٢٤)، والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في إعلام الحب، رقم(٢٣٩٢).

مُعَاذُ، واللهِ، إنِّي لأحِبُّكَ، ثُمَّ أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادتِكَ». حديثٌ صحيحٌ، رواه أبوداود والنسائي(١) بإسناد صحيحٍ.

١١ / ٣٨٥ ـ وعن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ رَجُلاً كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ رَجُلٌ بِهِ، فَقَال: يا رسول الله، إنِّي لأحبُّ هَذَا، فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «أأعْلَمْتَهُ؟» قَالَ: لا، قَالَ: «أَعْلِمْهُ» فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إنِّي أحِبُّكَ في الله، فقالَ: أحَبَّكَ الَّذِي أحْبَبْتَنِي لَهُ. رواه أبوداود(٢) بِإسنادٍ صحيحٍ.

الشرح

هذه الأحاديث كلها في بيان المحبة وأن الإنسان ينبغي له أن يكون حبه لله وفي الله، وفي هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمه الله حيث قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

ففي هذا دليلٌ على أن المحبة من كمال الإيمان، وأنه لا يكمل إيمان العبد حتى يحب أخاه، وأن من أسباب المحبة أن يفشي الإنسان السلام بين إخوانه، أي يظهره ويعلنه، ويسلم على من لقيه من المؤمنين، سواء عرفه أو لم يعرفه، فإن هذا من أسباب المحبة، ولذلك إذا مر بك رجل وسلم عليك أحببته، وإذا أعرض؛ كرهته ولو كان أقرب الناس إليك.

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، رقم(١٥٢٢)، والنسائي، كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم(١٣٠٣).

(٢) رواه أبوداود، كتاب الأدب، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه، رقم(٥١٢٥).

فالذي يجب على الإنسان؛ أن يسعى لكل سبب يوجب المودة والمحبة بين المسلمين؛ وليس من المعقول ولا من العادة أن يتعاون الإنسان مع شخص لا يحبه، ولا يمكن التعاون على الخير والتعاون على البر والتقوى إلا بالمحبة، ولهذا كانت المحبة في الله من كمال الإيمان.

وفي حديث معاذ رضي الله عنه إخبار النبي ﷺ أنه يحبه، وقوله لأنس لما قال له: إني أحب هذا الرجل. قال له: «أأعلمته» فدل هذا على أنه من السنة إذا أحببت شخصًا أن تقول: إني أحبك، وذلك لما في هذه الكلمة من إلقاء المحبة في قلبه؛ لأن الإنسان إذا علم أنك تحبه أحبك مع أن القلوب لها تعارف وتآلف وإن لم تنطق الألسن.

وكما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[1] لكن إذا قال الإنسان بلسانه؛ فإن هذا يزيده محبة في القلب فتقول: إني أحبك في الله.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تدعن أن تقول في دبر كل صلاة» يعني: في آخر كل صلاة؛ لأن دبر الشيء من الشيء كدبر الحيوان، وقد ورد هذا الحديث بلفظ واضح يدل على أن الإنسان يقولها قبل أن يسلِّم فيقول قبل السلام: «اللهم أعني على ذكرك وعلى شكرك وعلى حسن عبادتك».

* * *

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه، رقم(٣٣٣٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة، رقم(٢٦٣٨).

٤٧ـ باب علامات حبّ الله تعالى للعَبْد
والحثّ على التخلق بها والسعي في تحصيلها

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

١/٣٨٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وإنْ سَأَلَنِي، أعْطَيْتُهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذِنِي، لأُعِيذَنَّهُ» رواه البخاري[(١)].

معنى: «آذَنْتُهُ»: أعْلَمْتُهُ بِأنِّي مُحَارِبٌ له. وقوله: «اسْتَعَاذَنِي» روي بالباءِ وروي بالنون.

٢/٣٨٧ ـ وعنه عن النبي ﷺ، قال: «إذَا أَحَبَّ الله تعالى العَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلَ، إنَّ الله تعالى يُحِبُّ فُلانًا، فَأحْبِبْهُ، فيُحبهُ جِبْرِيلُ، فيُنَادي في أهْلِ السَّمَاءِ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا، فَأحِبّوهُ، فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوْضَعُ له القَبُولُ في الأرْضِ» متفقٌ

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم(٦٥٠٢).

عليه[١].

وفي رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى إذا أحبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فقال: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأحِبْبْهُ، فَيُحِبهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا، فأحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ له القُبولُ في الأرْضِ، وإذا أبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إنِّي أُبْغِضُ فُلانًا، فَأبْغِضْهُ، فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي في أهلِ السَّمَاءِ إنَّ الله يُبْغِضُ فُلانًا، فَأبْغِضُوهُ، فَيُبغِضُهُ أهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ البَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ»[٢].

٣٨٨/٣ ـ وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، بَعَثَ رجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ فَكَانَ يَقْرَأ لأصْحَابِهِ فِي صَلاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا، ذَكَرُوا ذلكَ لرسول الله ﷺ فقال: سلُوهُ لأيِّ شَيءٍ يَصْنَعُ ذلك؟» فَسَألوهُ، فقال: لأنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمنِ، فَأنَا أحبُّ أنْ أقْرَأ بها، فقال رسول الله ﷺ: «أخْبِرُوهُ أنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ» متفقٌ عليه[٣].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب علامات حبّ الله تعالى للعبد، يعني علامة أن الله تعالى يحب العبد؛ لأن لكل شيء علامة، ومحبة الله

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم(٣٢٠٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدًا. .، رقم(٢٦٣٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدًا. .، رقم(٢٦٣٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ، رقم(٧٣٧٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم(٨١٣).

للعبد لها علامة؛ منها كون الإنسان متبعًا لرسول الله ﷺ، فإنه كلما كان الإنسان لرسول الله ﷺ أتبع؛ كان لله أطوع، وكان أحب إلى الله تعالى.

واستشهد المؤلف رحمه الله لذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، يعني إن كنتم صادقين في أنكم تحبون الله فأروني علامة ذلك: اتبعوني يحببكم الله.

وهذه الآية تسمى عند السلف آية الامتحان، يمتحن بها من ادَّعى محبة الله، فينظر إذا كان يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فهذا دليلٌ على صدق دعواه.

وإذا أحب الله؛ أحبه الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهذه ثمرة جليلة؛ أن الله تعالى يحبك؛ لأن الله تعالى إذا أحبك؛ نلت بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب» من عادى لي وليًّا: يعني صار عدوًّا لوليٍّ من أوليائي، فإنني أعلن عليه الحرب، يكون حربًا لله. الذي يكون عدوًّا لأحد من أولياء الله فهو حربٌ لله والعياذ بالله مثل أكل الربا ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

ولكن من هو ولي الله؟ ولي الله بيَّنه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

هؤلاء هم أولياء الله، فمن كان مؤمنًا تقيًّا؛ كان لله وليًّا، هذه هي

الولاية، وليست الولاية أن يخشوشن الإنسان في لباسه، أو أن يترهبن أمام الناس، أو أن يطيل كمه أو أن يخنع رأسه؛ بل الولاية الإيمان والتقوى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ فمن عادى هؤلاء فإنه حرب لله والعياذ بالله.

ثم قال الله عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبّ إليَّ مما افترضته عليه» يعني أحبَّ ما يحب الله الفرائض. فالظُّهر أحب إلى الله من راتبة الظُّهر، والمغرب أحبّ إلى الله من راتبة المغرب، والعشاء أحبّ إلى الله من راتبة العشاء، والفجر أحبّ إلى الله من راتبة الفجر، والصلاة المفروضة أحبّ إلى الله من قيام الليل، كل الفرائض أحبّ إلى الله من النوافل، والزكاة أحب إلى الله من الصدقة، وحج الفريضة أحب إلى الله من حج التطوع، كلُّ ما كان أوجب فهو أحبّ إلى الله عزَّ وجلَّ.

«وما تقرب إليَّ عبد بشيء أحبّ إليَّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» وفي هذا إشارة إلى أن من أسباب محبة الله أن تكثر من النوافل ومن التطوع؛ نوافل الصلاة، نوافل الصدقة، نوافل الصوم، نوافل الحج، وغير ذلك من النوافل.

فلا يزال العبد يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يحبه الله، فإذا أحبه الله كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصره به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سأله ليعطينه، ولئن استعاذه ليعيذنه.

«كنت سمعه» يعني: أنني أسدده في سمعه، فلا يسمع إلا ما يرضي الله، «وبصره» أسدده في بصره، فلا يبصر إلا ما يحب الله. «ويده التي يبطش بها» فلا يعمل بيده إلا ما يرضي الله، «ورجله التي يمشي بها» فلا

يمشي برجله إلا لما يرضي الله عزَّ وجلَّ، فيكون مسددًا في أقواله وفي أفعاله.

«ولئن سألني لأعطينه» هذه من ثمرات النوافل ومحبة الله عزَّ وجلَّ؛ أنه إذا سأل الله أعطاه، «ولئن استعاذني» يعني استجار بي مما يخاف من شره «لأعيذنه» فهذه من علامة محبة الله؛ أن يسدّد الإنسان في أقواله وأفعاله، فإذا سُدِّد دلّ ذلك على أن الله يحبه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وذكر أيضًا أحاديث أخرى في بيان محبة الله سبحانه وتعالى وأن الله تعالى إذا أحبَّ شخصًا نادى جبريل، وجبريل أشرف الملائكة، كما أن محمدًا ﷺ أشرف البشر. «نادى جبريل إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» فيحبه أهل الأرض.

وإذا أبغض الله أحدًا ـ والعياذ بالله ـ نادى جبريل: إني أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض، والعياذ بالله؛ فيبغضه أهل الأرض، وهذا أيضًا من علامات محبة الله؛ أن يوضع للإنسان القبول في الأرض، بأن يكون مقبولاً لدى الناس، محبوبًا إليهم، فإن هذا من علامات محبة الله تعالى للعبد. نسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين من أحبابه وأوليائه.

* * *

٤٨ـ باب التحذير من إيذاء الصَّالِحين والضعفة والمساكين

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩، ١٠].

وأما الأحاديث، فكثيرة منها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الباب قبل هذا: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»[١].

ومنها حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه السابق في «باب ملاطفة اليَتيم» وقوله ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُم، لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّك»[٢].

١/ ٣٨٩ ـ وعن جُنْدُبِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلاَةَ الصُّبْحِ، فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ، فَلاَ يَطْلُبَنَّكُمُ اللهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، يُدْرِكْهُ، ثُمَّ يَكُبّه على وجْهِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ» رواه مسلم[٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم(٦٥٠٢).
(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سلمان وصهيب وبلال، رقم(٢٥٠٤).
(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب فضل العشاء والصبح في جماعة، رقم(٦٥٧).

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب التحذير من إيذاء الصالحين والضعفة والمساكين ونحوهم، ثم ساق المؤلف قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

والأذية: هي أن تحاول أن تؤذي الشخص بما يتألم منه قلبيًّا، أو بما يتألم منه بدنيًّا؛ سواء كان ذلك بالسب، أو بالشتم، أو باختلاق الأشياء عليه، أو بمحاولة حسده، أو غير ذلك من الأشياء التي يتأذى بها المسلم.

وهذا كله حرام؛ لأن الله سبحانه وتعالى بيَّن أن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا.

وفهم من الآية الكريمة أنه إذا آذى المؤمنين بما اكتسبوا فإنه ليس عليه شيء، مثل إقامة الحد على المجرم، وتغريم الظالم، وما أشبه ذلك، فهذا وإن كان فيه أذية، لكنها بكسبه، فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ﴾ [النور: ٢].

ولا حرج من أن يؤذي الإنسان شخصًا بسبب كسبه هو وجنايته على نفسه، فإن ذلك لا يؤثر عليه شيئًا.

ثم أشار المؤلف إلى أحاديث تدل على التحذير من أذية المؤمنين، ومنها ما سبق من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الله قال: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب» فالذي يعادي أحدًا من أولياء الله؛ فإن الله تعالى

يعلن عليه الحرب، ومن كان حربًا لله تعالى؛ فهو خاسر.

قال أهل العلم: وأنواع الأذى كثيرة، منها أن يؤذي جاره، ومنها أن يؤذي صاحبه، ومنها أن يؤذي من كان معه في عمل من الأعمال ـ وإن لم يكن بينهم صداقة ـ بالمضايقة وما أشبه ذلك، وكل هذا حرام والواجب على المسلم الحذر منه.

* * *

٤٩ـ بابُ إجراء أحكام النَّاسِ على الظاهرِ وسرائرهم إلى الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

١/ ٣٩٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أنْ لاَ إلهَ إلاَّ الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذلِكَ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأمْوَالُهمْ إلاَّ بِحَقِّ الإسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى» متفقٌ عليه[1].

٢/ ٣٩١ ـ وعن أبي عبد الله طَارِقِ بن أَشَيْمٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رَسُول الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إلاَّ الله، وكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دونِ اللهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسابُهُ عَلَى اللهِ تَعَالَى» رواه مسلم[2].

٣/ ٣٩٢ ـ وعن أبي مَعْبَدٍ المِقْدَادِ بن الأسْوَدِ رضي الله عنه، قال: قلت لِرسُولِ الله ﷺ: أَرَأيْتَ إنْ لقيتُ رَجُلاً مِنَ الكُفَّارِ، فَاقْتَتَلنَا، فَضَرَبَ إحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ، فَقَطَعَها، ثُمَّ لاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فقال: «أسْلَمْتُ لله»، أأقْتُلُهُ يا رسول الله، بَعْدَ أنْ قَالها؟ فَقَالَ: «لا تَقْتُلْهُ».

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة...، رقم(٢٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، رقم(٢٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، رقم(٢٣).

فَقُلْتُ: يا رَسُولَ الله، قَطَعَ إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا؟!

فقال: «لا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتهُ الَّتِي قَالَ» متفقٌ عليه[1].

ومعنى «أَنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ» أيْ: مَعْصُومُ الدَّم مَحْكُومٌ بِإسلامِهِ، ومعنى «أَنَّكَ بِمَنْزِلته» أيْ: مُبَاحُ الدَّمِ بِالقِصاص لِوَرَثَتِهِ، لا أَنَّهُ بِمَنْزِلَتِهِ في الكُفْرِ، والله أعلم.

٤/٣٩٣ ـ وعن أَسَامَةَ بنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما، قال: بَعَثَنَا رسولُ الله ﷺ إلى الحُرَقَةَ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَّحْنَا القَوْمَ عَلَى مِياهِهِمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأنْصَار رَجُلاً مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشيناهُ قال: لا إله إلا الله، فَكَفَّ عَنْهُ الأنْصارِيُّ، وَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قدمْنَا المدِينَةَ، بَلَغَ ذلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فقال لي: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إلهَ إلا اللهُ؟ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ. متفقٌ عليه[2].

وفي روايةٍ: فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «أَقَالَ: لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وَقَتَلْتَهُ؟!» قلتُ: يا رسولَ الله، إنَّمَا قَالهَا خَوْفًا مِنَ السِّلاَحِ، قال: «أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أمْ لاَ؟!» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ.

«الحُرَقَةُ» بضم الحاء المهملة وفتحِ الراءِ: بَطْنٌ مِنْ جُهَيْنَةَ القَبِيلةِ المَعْرُوفَةِ، وقوله: «مُتعَوِّذًا»: أيْ مُعْتَصِمًا بِهَا مَنَ القَتْلِ لا مُعْتَقِدًا لَهَا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا، رقم(٤٠١٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله..، رقم(٩٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾، رقم(٦٨٧٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله..، رقم(٩٦).

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب حمل الناس على ظواهرهم، وأن يكل الإنسان سرائرهم إلى الله عزَّ وجلَّ.

أولاً: اعلم أن العبرة في الدنيا بما في الظواهر؛ اللسان والجوارح، وأن العبرة في الآخرة بما في السرائر بالقلب.

فالإنسان يوم القيامة يحاسب على ما في قلبه، وفي الدنيا على ما في لسانه وجوارحه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٨، ٩]، تختبر السرائر والقلوب. وقال تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ [العاديات: ٩ـ١١].

فاحرص يا أخي على طهارة قلبك قبل طهارة جوارحك. كم من إنسان يصلي، ويصوم، ويتصدق، ويحج، لكن قلبه فاسد.

وهاهم الخوارج حدّث عنهم النبي عليه الصلاة والسلام؛ أنهم يصلون، ويصومون، ويتصدقون، ويقرؤون القرآن، ويقومون الليل، ويبكون، ويتهجدون، ويحقر الصحابي صلاته عند صلاتهم، لكن قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يجاوز إيمانهم حناجرهم»[1] لا يدخل الإيمان قلوبهم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدين، رقم(٦٩٣٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم(١٠٦٣، ١٠٦٤).

مع أنهم صالحو الظواهر، لكن ما نفعهم. فلا تغتر بصلاح جوارحك، وانظر قبل كل شيء إلى قلبك، أسأل الله أن يصلح قلبي وقلوبكم. أهم شيء هو القلب.

رُفع رجل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام قد شرب الخمر فجلده، ثم رفع إليه مرة أخرى فجلده، فسبَّه رجلٌ من الصحابة، وقال: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتي به إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

فقال له الرسول ﷺ: «لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله»[(١)] فالقلب هو الأصل ولهذا قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [المائدة: ٤١].

أما في الدنيا بالنسبة لنا مع غيرنا، فالواجب إجراء الناس على ظواهرهم؛ لأننا لا نعلم الغيب، ولا نعلم ما في القلوب، ولا يكلِّف الله نفسًا إلا وسعها، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إنما أقضي بنحو ما أسمع»[(٢)].

ولسنا مكلفين بأن نبحث عمَّا في قلوب الناس، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، يعني المشركين إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة؛ فخلّوا سبيلهم وأمرهم إلى الله، إن الله غفور رحيم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر..، رقم(٦٧٨٠).
(٢) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، رقم(٧١٦٩)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم(١٧١٣).

وقال النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، وحسابهم على الله».

وبذلك يكون العمل بالظواهر؛ فإذا شهد إنسان أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة؛ عصم دمه وماله، وحسابه على الله؛ فليس لنا إلا الظاهر.

وكذلك أيضًا من قال لا إله إلا الله؛ حرم دمه وماله، هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم ذكر المؤلف حديثين عجيبين فيهما قصتان عجيبتان:

الأول: حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، إن لقيت رجلاً من المشركين، فقاتلته، فضربني بالسيف حتى قطع يدي، ثم لاذ مني بشجرة، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله. أفأقتله؟

قال: «لا تقتله» وهو مشرك قطع يد رجل مسلم، ولاذ بالشجرة، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله. قال: أأقتله؟

قال: «لا تقتله»، فإن قتلته فأنت مثله قبل أن يقول هذه الكلمة، يعني تكون كافرًا.

مع العلم بأني أنا وأنتم، نظن أن هذا الرجل قال أشهد أن لا إله إلا الله خوفًا من القتل، ومع ذلك يقول: لا تقتله، فعصم دمه وماله.

وفي هذا الحديث أيضًا الدليل على أن ما أتلفه الكفار من أموال

المسلمين وما جنوه على المسلمين غير مضمون. يعني الكافر لو أتلف شيئًا للمسلمين، أو قتل نفسًا لا يضمن إذا أسلم، فالإسلام يمحو ما قبله.

القصة الثانية: بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد في سرية إلى الحُرَقة من جهينة، فلما وصلوا إلى القوم وغشوهم، هرب من المشركين رجل، فلحقه أسامة ورجلٌ من الأنصار يتبعانه يريدان قتله، فلما أدركاه قال: لا إله إلا الله، أما الأنصاري فكان أفقه من أسامة، فكفَّ عنه، تركه لما قال لا إله إلا الله. وأما أسامة فقتله.

فلما رجعوا إلى المدينة. وبلغ ذلك النبي ﷺ قال لأسامة: «**أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله**» قال: نعم يا رسول الله؛ إنما قال ذلك يتعوذ من القتل، يستجير بها من القتل، قال: «**أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله**» قال: نعم قالها يتعوذ من القتل. كرر ذلك عليه، حتى قال له في رواية لمسلم: «**ما تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة؟**».

يقول أسامة رضي الله عنه: حتى تمنيتُ أني لم أكن أسلمت قبل هذا اليوم؛ لأنه لو كان كافرًا ثم أسلم عفا الله عنه، لكن الآن فعل هذا الفعل وهو مسلم، فهذا مشكل جدًّا على أسامة.

والرسول ﷺ يكرر: «**أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله**». «**ما تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة؟**». مع العلم بأن الذي يغلب على الظن ما فهمه أسامة؛ أنه قالها متعوذًا من القتل، يستجير بها من القتل، لكن مع ذلك إذا قال لا إله إلا الله انتهى الأمر ويجب الكف عنه، ويعصم بذلك دمه وماله، وإن كان قالها متعوذًا أو قالها نفاقًا، فحسابه على الله.

فهذا دليلٌ على أننا نحمل الناس في الدنيا على ظواهرهم، أما ما في القلوب فموعده يوم القيامة، تنكشف السرائر، ويُحَصّل ما في الضمائر، ولهذا علينا أيها الإخوة أن نطهر قلوبنا قبل كل شيء ثم جوارحنا.

أما بالنسبة لمعاملتنا لغيرنا، فعلينا أن نعامل غيرنا بالظاهر. واسمع إلى قول الرسول ﷺ: «إنكم تختصمون إليَّ» يعني تخاصمون مخاصمات بينكم «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض» يعني أفصح وأقوى دعوى «فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن اقتطعت له من حق أخيه شيئًا فإنما أقتطع له جمرةً من نار، فليستقل أو ليستكثر»[1].

فحمل النبي عليه الصلاة والسلام الأمر في الخصومة على الظاهر، لكن وراءك النار إذا كنت كاذبًا في دعواك، وأنك أخذت القاضي بلسانك وبشهادة الزور، فإنما يقتطع لك جمرة من النار فاستقل أو استكثر.

وخلاصة ما تقدم: أن الإنسان يعامل في الدنيا على الظاهر، وأما يوم القيامة فعلى الباطن.

فعلينا نحن أن نعامل غيرنا بما يظهر لنا من حاله، وأمره إلى الله، وعلينا نحن أنفسنا أن نطهر قلوبنا، لا يكون فيها شيء؛ لا يكون فيها بلاء، كبر، حقد، حسد، شرك، شك، نسأل الله أن يعيذنا من هذه الأخلاق، فإن هذا خطير جدًّا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيل، باب في الهبة والشفعة، رقم(٦٩٦٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم(١٧١٣).

نسأل الله أن يهدينا وإياكم لأحسن الأخلاق والأعمال، لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يجنبنا سيئات الأخلاق والأعمال، لا يجنبنا إياها إلا هو.

* * *

٦/٣٩٥ ـ وعن عبدِ الله بنِ عُتْبَةَ بنِ مسعودٍ قال: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه، يقولُ: إنَّ نَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالوَحْيِ في عَهْدِ رسول الله ﷺ، وإنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأخُذُكُمْ الآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أظْهَرَ لَنَا خَيْرًا، أمَّنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وليْسَ لَنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللهُ يُحاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِه، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا، لَمْ نَأمَنْهُ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وإنْ قَالَ: إنَّ سَرِيرَتَه حَسَنَةٌ» رواه البخاري(١).

الشرح

قال المؤلف فيما نقله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من رواية عبد الله بن عتبة بن مسعود؛ عمه عبد الله بن مسعود ـ الصحابي الجليل ـ رضي الله عنه؛ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إنا نعلم يعني عمن أسر سريرة باطلة في وقت الوحي بما ينزل من الوحي؛ لأن أناسًا في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام كانوا منافقين، يظهرون الخير ويبطنون الشر، ولكن الله تعالى كان يفضحهم بما ينزل من الوحي على رسوله ﷺ، يفضحهم لا بأسمائهم، ولكن بأوصافهم التي تحدد أعيانهم.

(١) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب الشهود العدول، رقم(٢٦٤١).

والحكمة من ذكرهم بالأوصاف دون الأعيان؛ أن ذلك يكون للعموم، يعني لكل من اتصف بهذه الصفات، مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

ومثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

ومثل قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٩].

وهذا كثيرٌ في سورة التوبة التي سمَّاها بعض السلف: الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين.

لكن لما انقطع الوحي صار الناس لا يعلمون من المنافق؛ لأن النفاق في القلب والعياذ بالله.

يقول رضي الله عنه: من أظهر لنا خيرًا؛ أخذناه بما أظهر لنا، وإن أسرّ سريرة، يعني سيئة، ومن أظهر لنا شرًّا، فإننا نأخذه بشره ولو أضمر ضميرةً طيبة؛ لأننا نحن لا نكلَّف إلا بالظاهر، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى علينا؛ ألا نحكم إلا بالظاهر؛ لأن الحكم على الباطن من الأمور الشاقة، والله عزَّ وجلَّ لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

فمن أبدى خيرًا؛ عاملناه بخيره الذي أبداه لنا، ومن أبدى شرًّا؛ عاملناه بشره الذي أبداه لنا، وليس لنا من نيته مسؤولية، النية موكولة إلى ربِّ العالمين عزَّ وجلَّ، الذي يعلم ما توسوس به نفس الإنسان.

* * *

٥٠ـ بابُ الخوف

قال الله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٢ـ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ـ٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥ـ٢٨].

والآيات في الباب كثيرة جدًّا معلوماتٌ، والغرض الإشارة إلى بعضها وقد حَصلَ.

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: باب الخوف، الخوف ممن؟ الخوف من الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الذي يعبد الله يجب أن يكون خائفًا راجيًا؛ إن نظر إلى ذنوبه وكثرة أعماله السيئة خاف، إن نظر إلى أعماله الصالحة وأنه قد يشوبها شيء من العُجب والإدلال على الله خاف، إن نظر إلى أعماله الصالحة وأنه قد ينالها شيء من الرياء خاف، وإن نظر إلى عفو الله، ومغفرته، وكرمه، وحلمه، ورحمته رجا؛ فيكون دائرًا بين الخوف والرجاء.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ يعني: يعطون ما أعطوا من الأعمال الصالحة ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة ألاَّ تقبل منهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

فينبغي بل يجب أن يكون سير الإنسان إلى الله عزَّ وجلَّ دائرًا بين الخوف والرجاء، لكن أيهما يغلِّب؟ هل يغلِّب الرجاء؟ أو يغلب الخوف؟ أو يجعلهما سواء؟

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غلب جانب الرجاء، صار من الآمنين من عذاب الله، وإن غلب جانب الخوف؛ صار من القانطين من رحمة الله، وكلاهما سيء، فينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا.

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ آيات في سياق باب الخوف، سبق بعضها، ومنها قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، يعني أن الله عزَّ وجلَّ يحذرنا من نفسه أن يعاقبنا على معاصينا وذنوبنا، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

هذا أيضًا فيه أن الإنسان يجب أن يخاف هذا اليوم العظيم، الذي قال الله عنه: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ يعني من شدة ما ترى من الأهوال ومن الأفزاع.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ يعني مشدوهين، ليس عندهم عقول، ولكنهم ليسوا بسكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤]، وسبق الكلام عليها.

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، إلى آخر السورة، أي من خاف المقام بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فإنه سوف يقوم بطاعته، ويخشى من عقابه، فله جنتان، وفي أثناء الآيات يقول: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، فهذه أربع جنات لمن خاف مقام الله عزَّ وجلَّ، ولكن الناس فيها على درجات. نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين من أهلها

بمنِّه وكرمه.

وأما الأحاديث فكثيرةٌ جدًّا، فنذكرُ مِنْهَا طرفًا وبالله التَّوفيقُ.

١/٣٩٦ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسولُ الله ﷺ، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ: «إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فيهِ الرُّوحَ، وَيُؤمَرُ بِأرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أوْ سَعِيدٌ. فَوَ الَّذي لا إلهَ غَيْرُهُ إنَّ أحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بَعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إلا ذِراعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بَعَمَلِ أهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُها، وَإنَّ أحَدكُمْ لَيَعْمَلُ بَعَمَلِ أهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتابُ فَيَعْمَلُ بَعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا» متفقٌ عليه[1].

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في باب الخوف والتحذير من الأمن من مكر الله، قال فيما نقله عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد، فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم(٣٢٠٨)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم(٢٦٤٣).

بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

قوله رضي الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق، يعني الصادق فيما يقول، والمصدوق فيما يوحى إليه من الوحي، وفيما يُقال له من الوحي، فهو صادق لا يخبر إلا بالصدق، مصدوق لا ينبأ إلا بالصدق صلوات الله وسلامه عليه.

وإنما قدم هذه المقدمة؛ لأنه سيخبر عن أمر غيبي باطن يحدث في ظلمات ثلاث: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة» إذا جامع الرجل امرأته، وألقى في رحمها الماء بقي أربعين يومًا وهو نطفة على ما هو عليه، ماء، لكنه يتغير شيئًا فشيئًا، يميل إلى الحُمرة، حتى يتم عليه أربعون يومًا.

فإذا تم عليه أربعون يومًا، إذا هو قد استكمل الحُمرة وصار قطعة دم؛ علقة، فيمضي عليه أربعون يومًا أخرى وهو علقة، يعني قطعة دم، لكنها جامدة، ولكنه يثخن ويغلظ شيئًا فشيئًا، حتى يتم له ثمانون يومًا.

فإذا تم له ثمانون يومًا فإذا هو مضغة؛ قطعة لحم، هذه المضغة قال الله تعالى فيها: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، فتبقى أربعين يومًا، تخلَّق من واحد وثمانين يومًا إلى مائة وعشرين يومًا، ولا يتبين فيها الخلق تبينًا ظاهرًا إلا إذا تم لها تسعون يومًا في الغالب.

فإذا مضى عليها أربعون يومًا وهي مضغة، أرسل الله إليها الملك

الموكّل بالأرحام؛ لأن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، فالملائكة جنود الله عزَّ وجلَّ، وكل منهم موكّل بشيء؛ منهم الموكل بالأرحام، ومنهم الموكل بالنفوس يقبضها، ومنهم الموكل بالأعمال يكتبها، ومنهم الموكل بالأبدان يحفظها، وظائف عظيمة للملائكة، أمرهم الله عزَّ وجلَّ بها.

فيأتي ملك الأرحام إلى كل رحم، فينفخ فيه الروح بإذن الله عزَّ وجلَّ، وهذه الروح أمر لا يعلمه إلا ربّ العالمين. قال الله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ينفخها في هذا البدن، الذي هو قطعة لحم في الرحم، ليس فيها حراك ولا إحساس ولا شيء، فإذا نفخ هذه الروح دخلت في هذا البدن، فتسير فيه كما تسير الجمرة في الفحمة بإذن الله، أو الطين في المدر اليابس، فتدبّ في هذا الجسد حتى تدخل في الجسد كله، فيكون إنسانًا، ويتحرك، وتحس الأم بتحركه بعد مائة وعشرين يومًا، وحينئذ يكون إنسانًا، أما قبل فهو ليس بشيء.

ولو سقط الجنين قبل تمام مائة وعشرين يومًا، فليس له حكم من جهة الصلاة عليه، بل يؤخذ ويدفن في أي حفرة من الأرض، ولا يصلّى عليه.

أما إذا تم مائة وعشرين يومًا، يعني أربعة أشهر، صار حينئذ إنسانًا، فإذا سقط بعد ذلك، فإنه يغسل، ويكفن، ويصلّى عليه، ولو كان قدر اليد، فإنه يصلى عليه، ويدفن في مقابر المسلمين إن كان مسلمًا.

وإن كان من أولاد النصارى، يعني أمه وأبوه من النصارى، فلا يدفن

في مقابر المسلمين، يل يخرج ويدفن بدون تغسيل ولا تكفين؛ لأنه وإن كان طفلاً، فإن الرسول سُئل عن أولاد المشركين فقال: «هم منهم»(١).

والحاصل أنه إذا تم له أربعة أشهر يغسل، ويكفّن، ويصلّى عليه، ويدفن في مقابر المسلمين، ويسمّى، ويُعقُّ عنه على الأرجح ليشفع لوالديه يوم القيامة؛ لأنه يُبعث يوم القيامة.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ويُؤمر» الملك «بأربع» كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد.

فيكتب رزقه: وكتب الرزق يعني هل هو قليل، أم كثير؟ ومتى يأتيه؟ وهل ينتقص أم لا ينتقص؟ المهم أنه يكتب كاملاً.

ويكتب أجله أيضًا: في أي يوم؟ وفي أي مكان؟ وفي أي ساعة؟ وفي أي لحظة؟ وعن بُعد أم قُرب؟ وبأي سبب من الأسباب موته؟ والمهم أنه يكتب كاملاً.

ويكتب عمله: هل هو صالح، أم سيء، أم نافع، أم قاصر على الشخص نفسه؟ والمهم يكتب كل أعماله.

ويكتب مآله: وما أدراك ما المآل؟ فيكتب هل هو شقي أم سعيد؟ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب أهل الدار يبيتون فيصاب الولدان والذراري، رقم(٣٠١٢)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب جواز قتل النساء والصبيان في البيات من. . . ، رقم(١٧٤٥).

﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٦ـ١٠٨].

كل هذا يكتب. لكن أين يكتب؟ وردت آثار أنه يكتب في جبينه على جبهته.

فإن قال قائل: كيف تتسع الجبهة لكتابة هذه الأشياء كلها؟

قلنا: لا تسأل عن أمور الغيب. ومن أنت حتى تسأل عن أمور الغيب؟ قل آمنت بالله وصدقت بالله وبرسوله، ولا تسأل: كيف؟

وقد وقع الآن في وقتنا ما يشهد لمثل هذا ـ كمبيوتر قدر اليد يكتب به الإنسان آلاف الكلمات، وهو من صنع البشر. فما بالك بصنع الله عزَّ وجلَّ.

والحاصل أن هذا من المسائل التي يخبر بها الرسول عليه الصلاة والسلام وأنت لا تدركها بحسك، فإن الواجب عليك أن تصدق وتسلم؛ لأنك لولم تصدق وتسلم إلا بما تدركه بحسك لم تكن مؤمنًا، وما كنت مؤمنًا بالغيب، فالذي يؤمن بالغيب هو الذي يقبل كل ما جاء عن الله ورسوله، ويقول آمنت بالله ورسوله وصدقت.

قال: «فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها». ولكن أبشروا فإن هذا الحديث مقيد، بأنه لا يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وأما الذي يعمل بعمل أهل الجنة بقلبٍ وإخلاص فإن الله لا يخذله عزَّ وجلَّ، والله أكرم من العبد، فإذا

عملت بعمل أهل الجنة بإخلاص ـ نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين منهم ـ فإن الله لا يخذلك، لكن فيما يبدو للناس.

والدليل على هذا القيد ما ثبت في صحيح البخاري، أن رجلاً كان مع النبي ﷺ في غزوة، وكان شجاعًا مقدامًا، لا يترك للعدو شاذة ولا فاذة إلا قضى عليها، فتعجب الناس منه؛ ومن شجاعته، من إقدامه، فقال النبي ﷺ ذات يوم: «إنه من أهل النار» أعوذ بالله، هذا الشجاع الذي يفتك بالعدو من أهل النار؟ فكبُر ذلك على المسلمين، وعظُم عليهم، وخافوا، كيف يصير هذا من أهل النار؟

فقال رجلٌ: والله لألزمنه؛ أتابعه وأراقبه؛ لأرى نهايته كيف تكون؟ فمشى معه، وفي أثناء القتال أصاب هذا الرجل الشجاع السهم فجزع، فأخذ بسيفه فسلّه، فوضعه في صدره، واتكأ عليه حتى خرج من ظهره، قتل نفسه جزعًا، فجاء الرجل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. قال: وبم؟

قال: الرجل الذي قلت إنه من أهل النار. حصل له كذا وكذا.

فقال النبي ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس» الحمد لله على هذا القيد، يعمل فيما يبدو للناس بعمل أهل الجنة وهو من أهل النار، يظنون أنه صالح، ولكن في قلبه فساد، وهو من أهل النار.

قال في حديث ابن مسعود: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» هذا عكس الأول.

الأول: وجدنا له شاهدًا في الواقع وهي قصة هذا الرجل.

وهذا له أيضًا شاهد في الواقع، يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها. وقع هذا في عهد الرسول ﷺ، رجل يُقال له الأُصَيْرِم من بني عبد الأشهل، كافر منابذ للدعوة الإلهية، ضد المسلمين، فلما كان في غزوة أحد، وخرج الناس من المدينة يغزون، ألقى الله في قلبه الإسلام، فأسلم وخرج يجاهد.

فلما حصل ما حصل للمسلمين، وقُتل منهم من قُتل، وذهب الناس ينظرون في قتلاهم، فوجدوا الأُصيرم، فقال له قومه: ما الذي جاء بك؛ فقد عهدناك ضد هذه الدعوة، أَحَدَبٌ على قومك، يعني عصبية، أم رغبة في الإسلام؟

قال: بل رغبة في الإسلام، وأقرئوا الرسول ﷺ مني السلام، وأخبروه أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم مات، فأخبروا بذلك النبي ﷺ وأظنه قال: «إنه من أهل الجنة».

فهذا الرجل أمضى عمره كله في الكفر، ضد الإسلام، وضد المسلمين، وكان خاتمته هذه الخاتمة، عمل بعمل أهل النار، حتى لم يكن بينه وبينها إلا ذراع، فسبق عليه الكتاب، فعمل بعمل أهل الجنة، فكان من أهل الجنة.

ساق المؤلف هذا الحديث من أجل أن نخاف وأن نرجو، نخاف على أنفسنا من الفتنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يسأل الله دائمًا الثبات: اللهم ثبتني بالقول الثابت، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «اللهم مقلب

القلوب، ثبِّت قلبي على دينك، اللهم مُصرِّف القلوب، صرِّف قلبي إلى طاعتك»[١]. هذا وهو النبي ﷺ.

وأيضًا نأخذ من هذا الحديث ألا نيأس، ولا نيأس من شخص نجده على الكفر أو على الفسق، ربما يهديه الله في آخر لحظة، ويموت على الإسلام. نسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يتوفانا على الإيمان بمنِّه وكرمه.

* * *

٢/٣٩٧ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّم يَومَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا» رواه مسلم[٢].

٣/٣٩٨ ـ وعن النُّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ يُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّه لأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا» متفق عليه[٣].

٤/٣٩٩ ـ وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه أن نبيَّ الله ﷺ قال: «مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلى

---

(١) رواه مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم(٢٦٥٤).
(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب في شدة حر نار جهنم. . ، رقم(٢٨٤٢).
(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم(٦٥٦١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أهون النار عذابًا، رقم(٢١٣).

حُجْزَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأخُذُهُ إِلَى تَرْقُوَتِهِ» رواه مسلم(١).

«الحُجْزَةُ»: مَعْقِدُ الإزَارِ تَحْتَ السُّرَّةِ. و«التَّرْقُوةُ» بفتحِ التاء وضم القاف: هي العَظْمُ الذي عِنْدَ ثُغْرَةِ النَّحْر، وللإنْسَانِ تَرْقُوَتَانِ فِي جَانِبَي النَّحْرِ.

٥/ ٤٠٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أنْصَافِ أُذُنَيْهِ» متفقٌ عليه(٢).

و«الرَّشْحُ» العَرَقُ.

٦/ ٤٠١ ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: خَطَبَنَا رسول الله ﷺ خُطْبَةً ما سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، فقال: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أعْلَمُ؛ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» فَغَطَّى أصْحَابُ رسول الله ﷺ وجُوهَهُمْ، وَلَهُمْ خَنِينٌ. متفقٌ عليه(٣).

وفي رواية: بَلَغَ رسول الله ﷺ عَنْ أصْحَابِهِ شَيْءٌ فخطب، فقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ والنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَاليَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، ولَبَكَيْتُمْ كَثيرًا» فَمَا أتَى على أصْحَابِ رسول الله ﷺ يَوْمٌ أشَدُّ مِنْهُ، غَطَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ.

«الخَنِينُ» بالخاءِ المعجمة: هُوَ البُكَاءُ مَعَ غنَّةٍ وانْتِشاقِ الصَّوْتِ مِنَ الأنْفِ.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب في شدة حر نار جهنم، رقم(٢٨٤٥).
(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾، رقم(٦٥٣١)، ومسلم، كتاب الجنة، باب في صفة القيامة، رقم(٢٨٦٢).
(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾، رقم (٤٦٢١)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار...، رقم(٢٣٥٩).

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله، كلها أحاديث تفيد الخوف من يوم القيامة ومن عذاب النار، فذكر أحاديث منها:

أنه يؤتى يوم القيامة بجهنم، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، وهذا يدل على هول هذه النار ـ نسأل الله أن يعيذنا والمسلمين منها، ومن هول ذلك اليوم ـ؛ لأن الله تعالى جعل سبعين ألف ملك مع كل زمام من سبعين ألف زمام يجرون بها جهنم والعياذ بالله. فهذا العدد الكبير من الملائكة يدل على أن الأمر عظيمٌ والخطر جسيم.

وبيَّن النبي ﷺ أن أهون أهل النار عذابًا، من يوضع في قدميه جمرتان من نار يغلي منهما دماغه. وهو يرى أنه أشدّ الناس عذابًا، وإنه لأهونهم؛ لأنه لو رأى غيره؛ لهان عليه الأمر، وتسلى به، ولكنه يرى أنه أشد الناس عذابًا والعياذ بالله، فحينئذ يتضجر ويزداد بلاء ومرضًا نفسيًّا والعياذ بالله، ولذلك ذكر النبي ﷺ هذا الحديث تحذيرًا لأمته من عذاب النار.

وذكر أيضًا أن من الناس من تبلغ النار إلى كعبيه وإلى ركبتيه وإلى حُجْزته.

وذكر أيضًا أن الناس في يوم القيامة يبلغ العرق منهم إلى الكعبين، وإلى الركبتين، والحقوين، ومن الناس من يلجمه العرق.

فالأمر خطير، فيجب علينا جميعًا أن نحذر من أهوال هذا اليوم، وأن نخاف الله سبحانه وتعالى، فنقوم بما أوجب علينا، وندع ما حرم علينا.

نسأل الله أن يعيننا والمسلمين على ذلك بمنّه وكرمه.

* * *

٧/٤٠٢ ـ وعن المقداد رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيل».

قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامرٍ الرَّاوِي عَنِ المِقْدَادِ: فوَالله مَا أدْرِي ما يَعْني بِالمِيلِ، أمَسَافَةَ الأرضِ، أمِ المِيلِ الذي تُكْتَحَلُ بِهِ العَيْنُ «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أعْمَالِهِمْ في العَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إلى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إلى حِقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إِلْجَامًا» وأشار رسُولُ الله ﷺ بِيدِهِ إلى فِيهِ» رواه مسلم(١).

٨/٤٠٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ في الأرْض سبْعِين ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهمْ» متفقٌ عليه(٢).

ومعنى «يَذْهبُ في الأرض»: ينزل ويغوص.

٩/٤٠٤ ـ وعنه قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجْبة فقال: «هَلْ تَدْرُون ما هذا؟» قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أعْلمُ. قال: «هذا حجرٌ رُمِيَ بِهِ في النَّارِ مُنْذُ سبْعِين خريفًا فهُوَ يَهْوِي في النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتهى إلى قعْرِهَا فَسَمِعْتُمْ وَجْبَتَهَا» رواه

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب في صفة يوم القيامة..، رقم(٢٨٦٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾، رقم(٦٥٣٢)، ومسلم، كتاب الجنة، باب في صفة يوم القيامة، رقم(٢٨٦٣).

مسلم(١).

١٠/٤٠٥ ـ وعن عَدِيِّ بنِ حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ تَرْجُمانٌ، فَيَنْظُرُ أيْمَن مِنْهُ، فلاَ يَرَى إلا ما قدَّم، ويَنْظُرُ أشْأمَ مِنْهُ، فَلا يَرَى إلا ما قدَّم، ويَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلا يَرَى إلا النَّار تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرةٍ» متفقٌ عليه(٢).

١١/٤٠٦ ـ وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنِّي أرَى مَا لا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أرْبَعِ أصَابِعَ إلا وَمَلَكٌ واضعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ تعالى، واللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أعْلَمُ، لَضَحِكْتُم قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إلى اللهِ تَعَالى» رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ(٣).

وَ«أطَّتْ» بفتح الهمزة وتشديد الطاءِ، وَ«تَئِطُّ» بفتح التاء وبعدها همزة مكسورة، والأطِيطُ: صَوْتُ الرَّحْلِ وَالْقَتَبِ وَشِبْهِهِما، وَمَعْنَاهُ: أنَّ كَثْرَةَ مَنْ في السَّمَاءِ مِنَ المَلائِكَةِ العَابِدينَ قَدْ أثْقَلَتها حَتَّى أطَّتْ.

و«الصُّعُدَات» بضم الصاد والعين: الطُّرُقَاتُ: ومعنى «تَجْأرُونَ»: تَسْتَغِيثُونَ.

١٢/٤٠٧ ـ وعن أبي بَرْزَةَ ـ براءٍ ثم زاي ـ نَضْلَةَ بن عُبَيْدٍ الأسْلَمِيِّ رضي الله

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب في شدة حر نار جهنم. . ، رقم(٢٨٤٤).
(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجلّ يوم القيامة مع الأنبياء، رقم(٧٥١٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، رقم(١٠١٦).
(٣) رواه الترمذي، باب في قول النبي ﷺ لو تعلمون ما أعلم. . . ، رقم(٢٣١٢).

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَزُول قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ» رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[(١)].

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى، كلها تدل على عظم يوم القيامة، وأن على المؤمن أن يخاف من هذا اليوم العظيم.

ذكر أحاديث فيها دنوّ الشمس من الخلائق بقدر ميل، قال سليم بن عامر الراوي عن المقداد: لا أدري أيريد بذلك: مسافة الأرض، أم ميل المكحلة، وكلاهما قريب، وإذا كانت الشمس في أوجها في الدنيا وبعدها عنا بهذه الحرارة، فكيف إذا كانت بهذا القرب؟!

ولكن هذه الشمس ينجو منها من شاء الله، فإن الله تعالى يظل أقوامًا بظله يوم لا ظل إلا ظله، منهم من سبق ذكره وهم: السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمامٌ عادلٌ، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجلٌ قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابًا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال إني أخاف الله، ورجلٌ تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، رقم(٢٤١٧).

وكذلك من أنظر معسرًا، أو وضع عنه، المهم أن هناك أناسًا ينجون من حرِّ هذه الشمس، فيظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وذكر أحاديث العرق، وأن الناس يعرقون، حتى يبلغ العرق من الأرض سبعين ذراعًا، وحتى يلجم بعضهم إلجامًا، وبعضهم يصلُ إلى كعبيه، وبعضهم إلى ركبتيه، وبعضهم إلى حقويه، يختلف الناس حسب أعمالهم في هذا العرق.

وذكر أيضًا أحاديث أخرى، فيها التحذير من نار جهنم، نسأل الله لنا وللمسلمين السلامة منها.

والحاصل أن الإنسان إذا قرأ هذه الأحاديث وغيرها مما لم يذكره المؤلف، فإن المؤمن يخاف ويحذر، وليس بين الإنسان وبين هذا إلا أن ينتهي أجله في الدنيا، ثم ينتقل إلى دار الجزاء؛ لأنه ينتهي العمل. أحسن الله لنا وللمسلمين الخاتمة.

* * *

١٥/ ٤١٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَافَ أدْلَجَ، وَمَنْ أدْلَجَ، بَلَغَ المَنْزِلَ، ألاَ إنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيةٌ، ألاَ إنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ» رواه الترمذي[١]. وقال: حديثٌ حسنٌ.

وَ«أدْلَجَ» بإسْكَان الدّال، ومعناه: سَارَ مِنْ أوَّل اللَّيْلِ، وَالمُرَادُ: التَّشْمِيرُ في

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، رقم(٢٤٥٠).

الطَّاعَة. والله أعلم.

١٦/٤١١ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً» قُلْتُ: يا رسول الله؛ الرِّجَالُ والنِّساءُ جَميعًا؛ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلى بعض!؟ قال: «يَا عَائِشَةُ الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُم ذلِكَ».

وفي رواية: «الأَمْرُ أَهَمُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ» متفقٌ عليه[1].

«غُرلاً» بضمِّ الغيْنِ المُعْجَمةِ، أي: غَيْرَ مختُونينَ.

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في باب الخوف: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل» أدلج يعني: مشى في الدلجة، وهي أول الليل «ومن أدلج بلغ المنزل»؛ لأنه إذا سار في أول الليل، فهو يدل على اهتمامه في المسير، وأنه جاد فيه، ومن كان كذلك بلغ المنزل.

«ألا وإن سلعة الله غالية، ألا وإن سلعة الله الجنة».

السلعة: يعني التي يعرضها الإنسان للبيع، والجنة قد عرضها الله عزَّ وجلَّ لعباده ليشتروها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم(٦٥٢٧)، ومسلم، كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم(٢٨٥٩).

أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فمن خاف: يعني من كان في قلبه خوف لله؛ عمل العمل الصالح الذي ينجيه مما يخاف.

وأما حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُحشر الناس» يعني يجمعون يوم القيامة «حفاة» ليس لهم نعال «عراة» ليس عليهم ثياب «غرلاً» غير مختونين.

يخرج الناس من قبورهم كيوم ولدتهم أمهاتهم يعني في كمال الخلقة، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، الرجال والنساء، يعني عراة ينظر بعضهم إلى بعض. قال: الأمر أكبر أو أعظم من أن يهمهم ذلك، أو من أن ينظر بعضهم إلى بعض، أي: إن الأمر عظيمٌ جدًّا، لا ينظر أحدٌ إلى أحد ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

نسأل الله تعالى أن ينجينا وإياكم من عذاب النار، وأن يجعلنا وإياكم ممن يخافه ويرجوه.



٥١- بابُ الرّجاء

قال الله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

١/٤١٢ - وعن عبادةَ بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ ألْقَاهَا إلى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، والجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ». متفقٌ عليه[(١)].

وفي روايةٍ لمسلم: «مَنْ شَهِدَ أنْ لا إله إلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارِ»[(٢)].

٢/٤١٣ - وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ، فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِها أوْ أزِيدُ، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ، فَجَزاءُ سَيِّئَة

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا ﴾، رقم(٣٤٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم(٢٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة. . ، رقم(٢٩).

سَيِّئَةٌ مثلُهَا أوْ أغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا؛ تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا؛ وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ باعًا، وَمَنْ أتاني يَمْشِي، أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيني بقُرابِ الأرْضِ خَطِيئَةً لا يُشْرِكُ بي شَيْئًا؛ لَقِيتُهُ بِمِثْلِها مَغْفِرَةً». رواه مسلم(١).

معنى الحديث: «مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ بِطاعَتِي «تَقَرَّبْتُ» إليْهِ بِرَحْمَتِي، وَإِنْ زادَ زِدْتُ، «فَإِنْ أتاني يَمْشِي» وَأَسْرَعَ في طاعَتِي «أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» أيْ: صَبَبْتُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ، وَسَبَقْتُهُ بها، وَلَمْ أحْوِجْهُ إلى المَشْيِ الكَثِيرِ في الوُصُولِ إلى المَقْصُودِ. «وَقُرَابُ الأرض» بضمِّ القاف ويُقال بكسرها، والضمُّ أصحُّ، وأشهر، ومعناه: ما يُقارِبُ مِلأها، والله أعلم.

٣ / ٤١٤ ـ وعن جابر رضيَ الله عنه، قال: جاءَ أعْرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رَسُولَ الله، ما المُوجِبتَانِ؟ فَقَالَ: «مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ باللهِ شَيْئًا؛ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ دَخَلَ النَّارَ» رواه مسلم(٢).

٤ / ٤١٥ ـ وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، ومُعاذٌ رديفُهُ على الرَّحْلِ قالَ: «يامُعاذُ». قال: لبَّيْكَ يا رَسُولَ الله، وسَعْدَيْكَ، قال: «يا مُعَاذُ». قال: لبَّيْكَ يا رسُولَ الله، وسَعْدَيْكَ، قال: «يَا مُعَاذُ». قال: لبَّيْكَ يا رَسُولَ الله، وَسَعْدَيْكَ ثلاثًا، قال: «ما مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إلا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ» قالَ: يَا رسُولَ اللهِ، أفَلاَ أُخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله، رقم(٢٦٨٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، رقم(٩٣).

قال: «إِذًا يَتَّكِلُوا» فَأخْبَرَ بِها مُعاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأثُمًا. متفقٌ عليه[١].

وقوله: «تَأثمًا» أي: خَوفًا مِنَ الإثمِ في كَتْمِ هذا العِلْمِ.

الشرح

لما ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ باب الخوف؛ ذكر باب الرجاء، وكأنه رحمه الله يغلّب جانب الخوف، أو يقول: إذا رأيت الخوف قد غلب عليك؛ فافتح باب الرجاء.

ثم ذكر المؤلف آياتٍ وأحاديث؛ منها قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

هذه الآية نزلت في التائبين، فإن من تاب؛ تاب الله عليه وإن عظم ذنبه، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ـ٧٠].

فمن تاب من أي ذنب؛ فإن الله يتوب عليه مهما عظم ذنبه، لكن إن كانت المعصية في أمر يتعلق بالمخلوقين، فلابد من إيفائهم حقَّهم في

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية، رقم(١٢٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد، دخل الجنة، رقم(٣٢).

الدنيا قبل الآخرة، حتى تصح توبتك.

أما غير التائبين، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فغير التائبين إن كان عملهم كفرًا، فإنه لا يغفر، وإن كان سوى الكفر، فإنه تحت المشيئة؛ إن شاء الله عذب عليه، وإن شاء غفر له.

لكن إن كان من الصغائر، فإن الصغائر تكفَّر باجتناب الكبائر، وببعض الأعمال الصالحة.

ثم ذكر المؤلف أحاديث متعددة في هذا الباب، وكلها أحاديث توجب للإنسان قوة الرجاء بالله عزَّ وجلَّ، حتى يلاقي الإنسانُ ربَّه وهو يرجو رحمته، ويغلِّبها على جانب الخوف.

وفيها أحاديث مطلقة مقيدة بنصوص أخرى، مثل ما ذكره رحمه الله في أن من لقي الله عزَّ وجلَّ لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار. المراد بهذا: الشرك وكذلك الكفر؛ ككفر الجحود والاستكبار وما أشبه ذلك، فإنه داخل في الشرك الذي لا يغفر. نسأل الله أن يجعلنا ممن يرجون رحمته ويخافون عذابه.

* * *

٦/٤١٧ ـ وَعَنْ عِتْبَانَ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، وهو ممَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، قالَ: كُنْتُ أُصَلِّي لِقَوِمِي بَبني سالمٍ، وكانَ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وادٍ إذَا جاءَتِ الأمطارُ، فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيازُهُ قِبَلَ مَسْجِدِهِمْ، فَجِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ فقلتُ له: إنِّي أنْكَرْتُ بَصَرِي، وَإنَّ الوَادِيَ الذي بَيْنِي وبَيْنَ قَوْمِي يَسيلُ إذا جَاءَتِ الأمْطارُ، فَيَشُقُّ عَلَيَّ

اجْتِيازُهُ، فَوَدِدْتُ أنَّكَ تَأتي، فَتُصَلي في بَيْتِي مَكَانًا أتَّخِذُهُ مُصَلًّى.

فقال رسولُ الله ﷺ: «سَأفْعَلُ». فغدا عليَّ رسول الله ﷺ وأبوبكر، رضي الله عنه بعد ما اشتد النهار واسْتَأذَنَ رسُولُ الله ﷺ فَأذِنْتُ له، فَلَمْ يَجْلِسْ حتى قال: «أيْنَ تُحِبُّ أنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟» فَأشَرْتُ لَهُ إلى المَكَانِ الذي أحِبُّ أنْ يُصَلِّيَ فيه، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَكَبَّرَ وصَفَفْنَا وَراءَهُ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ، فَحَبَسْتُهُ عَلَى خَزيرَةٍ تُصْنَعُ لَهُ، فَسَمِعَ أهْلُ الدَّارِ أنَّ رسُولَ الله ﷺ في بَيْتِي، فَثَابَ رِجالٌ منهمْ حَتَّى كَثُرَ الرِّجالُ في البَيْتِ، فقالَ رَجُلٌ: مَا فَعَلَ مَالِكٌ لا أراهُ!

فَقَالَ رَجُلٌ: ذلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ الله ورسولهُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «لا تَقُلْ ذَلِكَ، ألا تَرَاهُ قال: لا إله إلا اللهُ يَبْتَغِي بذلِكَ وَجْهَ اللهِ تَعَالى؟!».

فَقَالَ: الله ورسولُهُ أعْلَمْ، أمَّا نحْنُ فَوَ الله ما نرَى وُدَّهُ، وَلا حَديثَهُ إلا إلى المُنافِقين! فقالَ رسولُ الله ﷺ: «فَإنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ على النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إله إلا اللهُ يَبْتَغِي بذلك وَجْهَ اللهِ» متفقٌ عليه[1].

و«عِتْبَان» بكسر العين المهملة، وإسكان التاء المُثَنَّاة فَوْقُ وبعْدَهَا باءٌ مُوَحَّدةٌ. و«الخَزيرَةُ» بالخاء المُعَجَمَةِ، وَالزَّاي: هي دقيق يُطْبخُ بشَحْمٍ.

وقوله: «ثَابَ رجالٌ» بالثَّاءِ المُثَلثَة، أيْ: جاؤوا واجْتَمَعُوا.

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عتبان بن مالك رضي الله

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، رقم(٤٢٥)، ومسلم، كتاب المساجد، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم(٣٣) [٢٦٣].

عنه، وكان يؤم قومه بني سالم، وكان بينه؛ أي بين بيته وبين قومه وادٍ يعني شعيب يجري فيه السيل. فإذا جاء السيل؛ شق عليه عبوره.

وأضف إلى ذلك أن بصره ضعُف، فصار يشق عليه مرتين؛ من جهة المشي، ومن جهة البصر والنظر. فجاء فأخبر النبي ﷺ بذلك، وطلب منه أن يأتي إلى بيته ليصلي في مكانٍ من البيت، يتخذه عتبان مصلى يصلي فيه، وإن لم يكن مسجدًا.

فقال النبي ﷺ: «سأفعل» ثم خرج هو وأبوبكر رضي الله عنه حين اشتد النهار، وكان أبوبكر رفيقه حضرًا وسفرًا، لا يفارقه، كثيرًا ما يكون معه، وكثيرًا ما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: جئت أنا وأبو بكر وعمر، ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، رجعت أنا وأبو بكر وعمر.

فهما صاحباه ووزيراه رضي الله عنهما، صاحباه في الدنيا، وصاحباه في البرزخ، وقريناه يوم القيامة هؤلاء الثلاثة يقومون لله رب العالمين من مكان واحد، من البيت الذي دفن فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، والذي أصبح الآن في قرارة المسجد النبوي.

انظر إلى الحكمة: اختار الله عزَّ وجلَّ أن يكون البيت الذي دفن فيه الرسول داخل المسجد؛ ليقوم هؤلاء الثلاثة يوم القيامة من وسط المسجد، مسجد النبي عليه الصلاة والسلام.

وعلى هذا لا تكره شيئًا اختاره الله، قد يختار الله شيئًا فيه مصلحة عظيمة لا تدري عنها أنت، كره الناس أن يكون بيت الرسول الذي دفن فيه في وسط المسجد، وقالوا: هذا شبهة لعباد القبور الذين يبنون المساجد

على المقابر.

ولكن ليس في ذلك شبهة؛ لأن المسجد لم يبن على القبر، وإنما امتدَّ المسجد وبقي القبر في البيت مستقلاًّ عن المسجد، ليس فيه حجة لأي إنسان إلا رجلاً مبطلاً، يقول كما قال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، لكن انظر الحكمة؛ أن يكون خروجهم يوم القيامة من مكان واحد، من جوف المسجد النبوي، سبحان الله العظيم، حكمة تغيب عن كثير من الناس.

والحاصل أن النبي ﷺ خرج حين اشتد النهار، يعني حين ارتفعت الشمس إلى دار بني مالك، فاستأذن، فأذن له، فدخل ولم يجلس؛ بل قال: أين تريد أن أصلي؛ لأنه جاء لغرض، فأحب أن يبدأ بالغرض الذي جاء من أجله قبل أي شيء، وهذا من الحكمة؛ أنك إذا أردت شيئًا لا تعرج إلى غيره حتى تنتهي منه من أجل أن تضبط الوقت ويبارك لك فيه.

كثيرٌ من الناس تضيع عليه الأوقات بسبب أنه يتلقّف الأشياء. وأضرب لهذا مثلاً: هب أنك تريد أن تراجع مسألة من مسائل العلم في كتاب من الكتب، تقرأ الفهرس؛ لأجل أن تعرف أين مكان هذه المسألة، ثم تمر بك مسألة فتقول أريد أن أطَّلع على هذه المسألة، ثم تطلع على الأخرى، ويفوتك المقصود الذي من أجله راجعت هذا الكتاب. لكن ابدأ أولاً بما أردت قبل أي شيء، ثم بعد ذلك ما زاد فهو فضل.

فصلى النبي ﷺ بالمكان، وصلوا معه جماعة؛ لأن هذه جماعة عارضة لا دائمة.

ثم لما فرغ من صلاته، إذا هو قد أعَدَّ له طعامًا زهيدًا، فسمع أهل الدار. الدار هو ما نسميه عندنا بالحي والحارة، سمع أهل الدار أن الرسول ﷺ عند عتبان بن مالك، فثاب إليه أناسٌ، يعني اجتمعوا يريدون أن يهتدوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، ويسمعوا من قوله، ويأخذوا من سنته، فاجتمعوا فقالوا: أين فلان، قالوا: ذاك منافق. ذاك منافق.

فأنكر النبي ﷺ على من قال ذلك وقال: «**لا تقل ذلك، ألا تراه قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**».

فقال الرجل: الله ورسوله أعلم؛ لأن من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله؛ فهو مؤمن ليس منافقًا، والمنافق يقولها رياءً وسمعة، لا تدخل قلبه والعياذ بالله، أما من قالها يبتغي بها وجه الله؛ فإنه مؤمن بها، مصدق، تدخل قلبه.

ثم إن النبي ﷺ قال: «**إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**». فكل من قالها يبتغي وجه الله، فإن الله يحرمه على النار، لماذا؟ لأنه إذا قالها يبتغي بها وجه الله؛ فإنه سيقوم بمقتضاها، ويعمل بما تقتضيه هذه الكلمة العظيمة، من أداء الواجب، وترك المحرم، والإنسان إذا أدى الواجب وترك المحرم؛ أحَلّ الحلال، وحرم الحرام، وقام بالفرائض، واجتنب النواهي، فإن هذا من أهل الجنة، يدخل الجنة ويحرم الله عليه النار.

وليس في هذا الحديث دليلٌ على أن تارك الصلاة لا يكفر؛ لأننا نعلم علم اليقين، مثل الشمس، أن من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله لا

يمكن أن يترك الصلاة. هذا محال؛ فالذي يقول: أنا أقول لا إله إلا الله أبتغي بذلك وجه الله، وهو لا يصلي، فهو من أكذب الكاذبين. لو كان يبتغي وجه الله؛ ما ترك الصلاة التي هي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين.

وفي هذا الحديث فوائد:

منها: أن من كانت حاله مثل حال عتبان بن مالك، فإنه معذور بترك الجماعة وله أن يصلي في بيته، مثل أن يكون بينه وبين المسجد وادٍ لا يستطيع العبور معه، فإنه معذور.

ومنها: جواز قول الإنسان سأفعل في المستقبل، إذا قال ستأتينا غدًا، قال: سآتيك وإن لم يقل إن شاء الله. فإن قال قائل: ما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، لشيء: عام سواء من فعل الله أو من فعلك؟

قلنا: إن الذي يقول سآتيك غدًا له نيتان:

النية الأولى: أن يقول هذا جازمًا بالفعل، فهذا لا يقوله إلا أن يقول إن شاء الله؛ لأنه لا يدري أيأتي عليه الغد أو لا، ولا يدري هل إذا أتى عليه الغد يكون قادرًا على الإتيان إليه أو لا، ولا يدري إذا كان قادرًا، يحول بينه وبينه مانع أو لا.

النية الثانية: إذا قال: سأفعل، يريد أن يخبر عما في قلبه من الجزم دون أن يقصد الفعل؛ فهذا لا بأس به؛ لأنه يتكلم عن شيء حاضر، مثل: لو قيل لك: هل ستسافر مكة؟ قلت: نعم سأسافر، تريد أن تخبر عما في

قلبك من الجزم، هذا شيء حاضر حاصل، أما إن أردت الفعل، أنك ستفعل يعني سيقع منك هذا، فهذا لا تقل فيه سأفعل إلا مقرونًا بمشيئة الله.

ومنها: أن الإنسان يعذر بترك الجماعة فيما إذا كان بينه وبين المسجد ما يشق عليه من وحل أو ماء أو غيره، وقد كان من هدي النبي ﷺ أنه كان ينادي مناديه في الليلة المطيرة؛ أن صلوا في رحالكم، يعني في أماكنكم، وذلك من أجل أن لا يشق على الناس، فأما إذا كان ماء بلا مشقة وبلا دحر ووحل؛ فإنه لا يعذر الإنسان بترك الجماعة.

ومن فوائد حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه: أن المصلى الذي يكون في البيت لا يكون له حكم المسجد، فلو أن الإنسان اتخذ مصلى في بيته لا يصلي إلا فيه، فليس بمسجد، سواء حَجَّره أو لم يُحَجِّرْه.

وعلى هذا فلا تثبت له أحكام المسجد؛ فيجوز للإنسان أن يبقى فيه وهو جنب، وإذا جلس فيه لا يلزمه تحية المسجد، فكل أحكام المساجد لا تثبت له، وإذا أراد أن يعتكف فيه؛ لم يصح اعتكافه. حتى لو كانت امرأة ولها مسجد في بيتها، فإنها لا تعتكف فيه.

ومن فوائد حديثه رضي الله عنه: أنه يجوز أن تقام الجماعة في النوافل؛ لكن ليس دائمًا بل أحيانًا، فإن النبي ﷺ لما أراه عتبان المكان الذي يصلي فيه، تقدم وصلى بهم ركعتين وصلوا خلفه، فإذا صلى الإنسان الراتبة مثلاً أو سنة الضحى، إذا صلاها جماعة؛ فلا بأس بذلك أحيانًا.

وثبت عنه ﷺ أنه صلى معه ابن عباس رضي الله عنهما صلاة الليل، وصلى معه ابن مسعود، وصلى معه حذيفة، لكن ليس دائمًا. فصلاة الجماعة نفلاً أحيانًا لا بأس بها.

ومن فوائد هذا الحديث: أنه لا بأس أن يتخذ الإنسان مصلى يعتاد الصلاة فيه في بيته، ولا يُقال إن هذا مثل اتخاذ مكان معين في المسجد لا يصلي إلا فيه، فإن هذا منهي عنه، يعني ينهى الإنسان أن يتخذ في المسجد مكانًا لا يصلي إلا فيه، مثل أنه لا يصلي النافلة، لا تحية المسجد ولا غيرها إلا فيه، فإن النبي ﷺ نهى عن استيطان كاستيطان البعير، يعني عن اتخاذ موطنٍ كأعطان الإبلِ، تأوي إليه وتبيت فيه.

ومنها: أنه يجب على الإنسان أن يحبس لسانه عن الكلام في الناس، بنفاق، أو كفر، أو فسق، إلا ما دعت الحاجة إليه، فإنه لابد أن يبينه؛ لأن النبي ﷺ لما قال رجلٌ عن مالك: إنه منافق، قال: «**لا تقل هكذا؛ أما علمت أنه قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله؟**».

لكن هذا متى يحصل أن يشهد الرسول عليه الصلاة والسلام لرجل بالإخلاص؛ هو ليس بحاصل بعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام، إنما ليس لنا إلا الظاهر، فمن ظهر لنا من حاله الصلاح؛ وجب علينا أن نحكم له بالصلاح، وألا نغتابه ولا نسبه.

ومن فوائد هذا الحديث: محبة الصحابة لرسول الله ﷺ والجلوس إليه؛ لأنهم لما علموا أنه عند عتبان بن مالك ثابوا إليه، واجتمعوا عنده، ليتعلموا منه، وينالهم من بركة علمه عليه الصلاة والسلام.

ومنها: ما سبق أن أشرنا إليه أن الإنسان يبدأ بالشغل الذي يريده قبل كل شيء؛ لأن النبي ﷺ صلى في المكان قبل أن يجلس، وقبل أن ينظر إلى ما صنع له من الطعام.

ومن فوائده أيضًا: أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان على جانب كبير من التواضع؛ لأنه لما انتهى من الصلاة، يقول عتبان: حبسته على (خزيرة) نوع من الطعام ليس بذاك الجيد. حبسه: يعني قال له انتظر حتى ينتهي الطعام، ويقدمه إلى رسول الله ﷺ، وهذا لا شك أن فيه تواضعًا من رسول الله ﷺ.

ومنها: وهي من أكبر فوائد هذا الحديث. أن من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله، فإن الله يحرم عليه النار «**فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**» يعني يطلب وجه الله.

ومعلوم أن الذي يقول هذا طالبًا وجه الله، فسيفعل كل شيء يقربه إلى الله، من فروض ونوافل، فلا يكون في هذا دليلٌ للكسالى والمهملين؛ يقولون: نحن نقول لا إله إلا الله نبتغي بذلك وجه الله. نقول: لو كنتم صادقين ما أهملتم العبادات الواجبة عليكم.

* * *

٤١٨/٧ ـ وعن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: قَدِمَ رسُولُ الله ﷺ، بِسَبْي، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْي تَسْعَى، إذْ وَجَدتْ صَبِيًّا فِي السَّبْي أخَذَتْهُ، فَألْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا، فَأَرْضَعَتْهُ، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «أتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طارِحَةً وَلَدَهَا فِي

النَّارِ؟» قُلْنَا: لا والله. فَقَالَ: «للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا» متفقٌ عليه(١).

٨/ ٤١٩ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، كَتَبَ في كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي».

وفي روايةٍ: «غَلَبَتْ غَضَبِي» وفي روايةٍ «سَبَقَتْ غَضَبِي». متفقٌ عليه(٢).

٩/ ٤٢٠ ـ وعنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ».

وفي روايةٍ: «إِنَّ للهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالبَهَائِمِ وَالهوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وبِهَا يَتَراحَمُونَ، وبِهَا تَعْطِفُ الوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تَعَالَى تِسْعًا وتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» متفقٌ عليه(٣).

ورواهُ مسلم أيضًا من روايةِ سَلْمَانَ الفَارِسيِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن لله تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ؛ فَمِنْهَا رَحْمَةٌ يَتَراحَمُ بِهَا الخَلْقُ بَيْنَهُمْ، وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ لِيَومِ القِيَامَةِ»(٤).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم(٥٩٩٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى. . ، رقم(٢٧٥٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم(٧٤٠٤)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله. . . ، رقم(٢٧٥١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، رقم(٦٠٠٠)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى. . . ، رقم(٢٧٥٢).

(٤) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى. . ، رقم(٢٧٥٣).

وفي روايةٍ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ؛ كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقُ مَا بَيْنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الأَرْضِ رَحْمَةً، فَبِهَا تَعْطِفُ الوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا على بَعْضٍ، فَإِذا كانَ يَوْمُ القِيَامَةِ، أَكْمَلَهَا بهذه الرَّحْمَةِ»(١).

١١ / ٤٢٢ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، ولجَاءَ بقوم يُذنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ الله تعالى، فَيَغْفِرُ لَهُمْ» رواه مسلم(٢).

١٢ / ٤٢٣ ـ وعن أبي أَيُّوبَ خالِد بن زيد رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَولا أَنَّكُمْ تُذنِبُون؛ لَخَلَقَ اللهُ خَلقًا يُذنبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُون، فَيَغْفِرُ لَهُمْ» رواه مسلم(٣).

١٣ / ٤٢٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا قُعُودًا مَعَ رسول الله ﷺ مَعَنَا أَبُو بكْر وَعُمَرُ رضي الله عنهما في نَفَرٍ، فَقَامَ رسول الله ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا، فَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا؛ فَفَزِعْنَا، فَقُمْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ، فَخَرَجتُ أَبْتَغِي رسول الله ﷺ حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلأَنْصَارِ ـ وَذَكَرَ الحَديثَ بطُوله إلى قوله: فقال: رسول الله ﷺ: «اذْهَبْ فَمَنْ لَقِيتَ وَرَاءَ هذا الحَائِطِ يَشهَدُ أَنْ لا إِلهَ إلا الله، مُسْتَيقِنًا بِهَا قَلبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ» رواه مسلم(٤).

---

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى. . ، رقم(٢٧٥٣) [٢١].
(٢) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنب بالاستغفار توبة، رقم(٢٧٤٩).
(٣) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، رقم(٢٧٤٨).
(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم(٣١).

١٤/٤٢٥ ـ وعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ تَلا قَولَ الله عزَّ وجلَّ في إبراهيم ﷺ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقَوْلَ عيسى ﷺ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وقال: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي» وَبَكَى، فقال الله عزَّ وجلَّ: «يَا جبريلُ اذْهَبْ إلى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أعْلَمُ، فَسَلْهُ ما يُبْكِيهِ؟» فَأتَاهُ جِبريلُ، فَأخبَرَهُ رسولُ الله ﷺ بِمَا قال، وَهُوَ أعْلَمُ، فقال الله تعالى: «يا جِبريلُ اذْهَبْ إلَى مُحَمَّدٍ فَقُل: إنَّا سَنُرضِيكَ في أُمَّتِكَ وَلا نَسُوؤكَ» رواه مسلم[١].

الشرح

هذه الأحاديث في باب الرجاء، ذكرها المؤلف رحمه الله وهي كثيرة جدًّا منها: أن الله سبحانه وتعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ودليل ذلك قصة هذه المرأة التي كانت في السبي فرأت صبيًّا، فأخذته وألصقته على صدرها وأرضعته. فقال النبي ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار». قالوا: لا. قال: «فالله أرحم بعباده من هذه بولدها».

وهذا من تمام رحمته سبحانه وتعالى.

وآيات ذلك كثيرة، منها: هذه النعم التي تترى علينا، وأعظمها نعمة الإسلام، فإن الله تعالى أضلَّ عن الإسلام أممًا، وهدى عباده المؤمنين لذلك، وهي أكبر النعم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته، رقم(٢٠٢).

ومنها: أن الله أرسل الرسل إلى الخلق مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس حجةٌ بعد الرسل.

وكذلك ذكر المؤلف الأحاديث التي فيها أن رحمة الله سبقت غضبه، ولهذا يَعْرِض الله عزَّ وجلَّ على المذنبين أن يستغفروا ربهم، حتى يغفر لهم، ولو شاء لأهلكهم ولم يرغبهم في التوبة.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥]، ولهذا قال في الحديث الذي رواه مسلم، قال: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم**».

وهذا ترغيب في أن الإنسان إذا أذنب، فليستغفر الله، فإنه إذا استغفر الله عزَّ وجلَّ بنية صادقة، وقلب موقن فإن الله تعالى يغفر له، ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ومنها: أن النبي ﷺ لما تلا قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الأصنام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]؛ رفع ﷺ يديه وبكى، وقال: «**يا رب؛ أمتي أمتي**» فقال الله سبحانه وتعالى لجبريل: «**اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك**».

وقد أرضاه الله عزَّ وجلَّ في أمته، بأن جعل لهذه الأمة أجرها

مضاعفًا، كما جاء في الحديث الصحيح[١] : أن مثل هذه الأمة مع من سبقها، كمثل رجل استأجر أجراء، من أول النهار إلى الظهر، فأعطاهم على دينار دينارًا، واستأجر أجراء من الظهر إلى العصر وأعطاهم على دينار دينارًا، واستأجر أجراء من العصر إلى الغروب وأعطاهم على دينارين دينارين، فاحتج الأولون وقالوا: كيف تعطينا على دينار دينار ونحن أكثر منهم عملاً وتعطي هؤلاء على دينارين دينارين.

فقال لهم الذي استأجرهم: هل ظلمتكم شيئًا؟ قالوا: لا.

إذًا لا لوم عليه في ذلك؛ ففضل الله على هذه الأمة كثير.

وقد أرضاه الله في أمته ولله الحمد من عدة وجوه، منها كثرة الأجر، وأنهم الآخرون السابقون يوم القيامة، وأنها فُضّلت بفضائل كثيرة، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأُحلت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي**»[٢].

فهذه الخصائص له ولأمته عليه الصلاة والسلام. فالحاصل أن هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله، كلها أحاديث رجاء، تحملُ الإنسان على أن يعمل العمل الصالح، يرجو بذلك ثواب الله ومغفرته.

* * *

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإجارة، باب الإجارة إلى نصف النهار، رقم(٢٢٦٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب التيمم، باب وقول الله تعالى: ﴿ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً...﴾، رقم(٣٣٥)، ومسلم، كتاب المساجد، بدون ذكر الباب، رقم(٥٢١).

١٥ /٤٢٦ ـ وعن مُعَاذِ بنِ جَبَل رضي الله عنه، قال: كُنتُ رِدْفَ النبيِّ ﷺ على حِمار فقال: «يَا مُعاذ هَل تَدري مَا حَقُّ الله على عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟» قلتُ: الله ورسولُهُ أعْلَمُ.

قال: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أنْ يَعْبُدُوهُ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

فقلتُ: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟

قال: «لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» متفقٌ عليه[١].

١٦ /٤٢٧ ـ وعنِ البَرَاءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «المُسْلِمُ إذَا سُئِلَ في القَبْرِ يَشهَدُ أن لا إلهَ إلا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله، فَذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] متفقٌ عليه[٢].

١٧ /٤٢٨ ـ وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الكَافِرَ إذَا عَمِلَ حَسَنَةً، أُطعِمَ بِهَا طُعمَةً مِنَ الدُّنيا، وَأمَّا المؤمِنُ، فَإنَّ الله تعالى يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ في الآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا في الدُّنْيَا عَلى طَاعَتِهِ»[٣].

وفي رواية: «إن الله لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا في الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب من جاهد نفسه في طاعة الله، رقم(٦٥٠٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، رقم(٣٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب يثبت الله الذين آمنوا..، رقم(٤٦٩٩)، ومسلم، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم(٢٨٧١).

(٣) رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، رقم(٢٨٠٨) [٥٧].

في الآخِرَةِ، وَأمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ للهِ تعالى في الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا» رواه مسلم(١).

١٩ / ٤٣٠ ـ وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أربَعُونَ رَجُلاً لا يُشرِكُونَ باللهِ شَيئًا إلا شَفَّعَهُمُ الله فيه» رواه مسلم(٢).

٢٠ / ٤٣١ ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ رسولِ الله ﷺ في قُبَّةٍ نَحوًا مِنْ أرْبَعِينَ، فقال: «أَتَرْضَوْنَ أنْ تَكونُوا رُبعَ أهْلِ الجَنَّةِ؟» قلنا: نعم. قال: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قلنا: نعم.

قال: «وَالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الجَنَّةَ لاَ يَدخُلُهَا إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، ومَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلاَّ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أوْ كَالشَّعْرَةِ السَّودَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ» متفقٌ عليه(٣).

٢١ / ٤٣٢ ـ وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللهُ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيَقُولُ: هذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ»(٤).

---

(١) رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، رقم(٢٨٠٨) [٥٦].
(٢) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم(٩٤٨).
(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم(٦٥٢٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابًا، رقم(٢٢١).
(٤) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم(٢٧٦٧).

وفي روايةٍ عنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيامَةِ نَاسٌ مِنَ المُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ يَغْفِرُهَا اللهُ لَهُمْ» رواه مسلم[١].

قوله: «دَفَعَ إلى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهودِيًّا أوْ نَصْرَانِيًّا، فَيَقُولُ: هذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ» مَعْنَاهُ مَا جَاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لِكُلِّ أحَدٍ مَنزلٌ في الجَنَّةِ، ومَنْزِلٌ في النَّارِ، فالمُؤمِنُ إذَا دَخَلَ الجَنَّةَ خَلَفَهُ الكَافِرُ في النَّارِ؛ لأنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِذَلِكَ بِكُفْرِهِ».

ومَعنى: «فكَاكُكَ»: أنَّكَ كُنْتَ مُعَرَّضًا لِدُخُولِ النَّارِ، وَهذَا فِكَاكُكَ؛ لأن الله تعالى قَدَّرَ لِلنَّارِ عَدَدًا يَمْلؤُهَا، فَإذَا دَخَلَها الكُفَّارُ بِذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِم، صَارُوا في مَعنى الفِكَاكِ لِلْمُسلمينَ. والله أعلم.

٢٢/٤٣٣ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يُدْنَى المُؤْمِنُ يومَ القِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فيقولُ: أتَعرفُ ذَنبَ كَذَا؟ أتَعرفُ ذَنبَ كَذَا؟ فيقول: رَبِّ، أعْرِفُ، قال: فَإنِّي قد سَتَرتُها عَلَيْكَ في الدُّنْيَا، وَأَنَا أغْفِرُها لَكَ اليومَ، فيُعطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاته» متفقٌ عليه[٢].

«كَنَفُه»: سَتْرُهُ وَرَحْمَتُهُ.

---

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم(٢٧٦٧) [٥١].

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا...، رقم(٤٦٨٥)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم(٢٧٦٨).

الشرح

هذه الأحاديث المتعددة كلها في باب الرجاء، ولكن الرجاء لابد أن يكون له عمل يُبنى عليه.

أما الرجاء من دون عمل يُبنى عليه، فإنه تمنٍّ لا يستفيد منه العبد، ولهذا جاء في الحديث: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»(١). فلابد من عمل يتحقق به الرجاء.

ذكر المؤلف رحمه الله حديث معاذ بن جبل؛ أنه كان ردف النبي ﷺ على حمار. فقال: له: «**أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**» قال الله ورسوله أعلم.

وهذا من آداب طالب العلم، إذا سئل عن شيء؛ أن يقول الله أعلم، ولا يتكلم فيما لا يعلم.

قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا**».

يعني أن لا يعذب من عبده وهو لا يشرك به شيئًا؛ لأن نفي الشرك يدل على الإخلاص والتوحيد، ولا إخلاص وتوحيد إلا بعبادة.

فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ فقال: «**لا تبشرهم فيتكلوا**».

---

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، بدون ذكر الباب، رقم(٢٤٥٩)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم(٤٢٦٠).

يعني لا تبشرهم فيتكلوا على ما يجب، ولا يقوموا بما ينبغي أن يقوموا به من النوافل، ولكن معاذًا رضي الله عنه أخبر بها عند موته تأثمًا. يعني خوفًا من إثم كتمان العلم فأخبر بها.

ولكن قول الرسول: «لا تبشرهم فيتكلوا» فيه إنذار من الاتكال على هذا، وأن الإنسان يجب أن يعلم أنه لابد من عبادة.

وكذلك الأحاديث التي ذكرها المؤلف كلها في سياق الرجاء. منها أن المؤمن يُسأل في القبر، فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. قال النبي ﷺ هذا هو القول الثابت الذي قال الله فيه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

والميت في قبره يُسأل عن ثلاث: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول ربي الله، وديني الإسلام، ونبيّي محمد ﷺ.

وكذلك أيضًا ما ذكره رحمه الله من صفة محاسبة العبد المؤمن، أن الله عزَّ وجلَّ يأتي يوم القيامة، فيخلو بعبده المؤمن، ويضع عليه كنفه يعني ستره، ويقول: فعلت كذا وفعلت كذا، ويقرره بالذنوب، فإذا أقر قال: «**كنت سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. فيعطى كتاب حسناته باليمين**».

ومن ذلك أيضًا أن المؤمنين كل واحد منهم يعطى يهوديًّا أو نصرانيًّا يوم القيامة، ويقال: هذا فكاكك من النار، يعني هذا يكون بدلك في النار، وأما أنت فقد نجوت.

فنحن يوم القيامة إن شاء الله تعالى كل واحد منا يجعل بيده يهودي أو نصراني يُلقى في النار بدلاً عنه، يكون فكاكًا له من النار.

ولا يلزم من هذا أن يكون اليهود والنصارى على قدر المسلمين، فالكفار أكثر من المسلمين بكثير، من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم؛ لأن بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون كلهم في النار وواحد في الجنة.

وذكر المؤلف أيضًا حديثاً أن الرسول عليه الصلاة والسلام عرض على الصحابة. فقال: «**أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة؟ قالوا: بلى، قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة**» يعني: نصف أهل الجنة من هذه الأمة، والنصف الباقي من بقية الأمم كلها، وهذا يدل على كثرة هذه الأمة؛ لأنها آخر الأمم، وهي التي ستبقى إلى يوم القيامة.

وقد جاء في السنن والمسند، أن صفوف أهل الجنة مائة وعشرون[1]، منها ثمانون من هذه الأمة، فتكون هذه الأمة ثلثي أهل الجنة، وهذا من رحمة الله عزَّ وجلَّ ومن فضل الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن الرسول ﷺ يُعطى أجر كل من عمل بسنته وشريعته.

* * *

---

(١) رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أهل الجنة، رقم(٢٥٤٦)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد...، رقم(٤٢٨٩).

٢٣ / ٤٣٤ ـ وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ رَجُلاً أصَابَ مِن امْرَأةٍ قُبْلَةً، فَأتَى النَّبيَّ ﷺ فأخبره، فانزل الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤]. فقال الرجل: ألي هذا يا رسولَ الله؟ قال: «لجَمِيع أُمَّتِي كُلِّهِمْ» متفقٌ عليه(١).

٢٤ / ٤٣٥ ـ وعن أنَسٍ رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إلَى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله، أصَبْتُ حَدًّا، فَأقِمْهُ عَليَّ، وَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَصَلَّى مَعَ رسول الله ﷺ فَلَمَّا قَضَى الصَّلاة قال: يا رسول الله، إنِّي أصَبْتُ حدًّا، فأقِمْ فيَّ كتَابَ الله. قال: «هَلْ حَضَرْتَ مَعَنَا الصَّلاةَ؟» قال: نَعم. قال: «قد غُفِرَ لَكَ» متفقٌ عليه(٢).

وقوله: «أصَبْتُ حَدًّا» معناه: مَعْصِيةً تُوجِبُ التَّعْزِير، وَلَيسَ المُرَادُ الحَدَّ الشَّرعِيَّ الحَقيقيَّ؛ كَحَدِّ الزِّنَا والخمر وَغَيْرِهِمَا، فإنَّ هذِهِ الحُدودَ لا تَسْقُطُ بِالصَّلاةِ، ولا يجوزُ للإمامِ تَرْكُهَا.

٢٥ / ٤٣٦ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله ليَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أنْ يَاكُلَ الأكْلَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْها». رواه مسلم(٣).

«الأكْلَةُ» بفتح الهمزة وهي المرة الواحدةُ مِنَ الأكلِ؛ كَالغَدوَةِ والعَشْوَةِ،

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾، رقم(٤٦٨٧)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾، رقم(٢٧٦٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب إذا أقر بالحد ولم يبين هل للإمام..، رقم (٦٨٢٣)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾، رقم(٢٧٦٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم(٢٧٣٤).

والله أعلم.

٢٦ / ٤٣٧ ـ وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيْلِ ليتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدهُ بِالنَّهارِ لِيَتُوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، حتى تطْلُع الشمسُ مِنْ مَغْرِبها» رواه مسلم(١).

٢٧ / ٤٣٨ ـ وعن أبي نجيح عمرو بن عَبَسَةَ ـ بفتح العين والباء ـ السّلمِيِّ رضي الله عنه قال: كنتُ وَأَنَا في الجَاهِلِيَّةِ أظُنُّ أنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلاَلَةٍ، وأنَّهُمْ ليْسُوا على شيء، وَهُمْ يَعْبُدُون الأوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أخْبَارًا، فَقَعَدْتُ على راحِلتي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فإذَا رسول الله ﷺ مُسْتَخْفيًا، جُرَآءُ عليهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بَمَكَّةَ، فقلتُ له: ما أنت؟ قال: «أنَا نَبيٌّ».

قلتُ: وما نبيٌّ؟ قال: «أرْسَلَنِي اللهُ».

قلت: وبأيِّ شَيْءٍ أرْسَلَكَ؟ قال: «أرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأرْحَام، وكسْرِ الأوثَانِ، وَأنْ يُوَحَّد الله لا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ».

قلت: فَمَنْ مَعَكَ على هذا؟

قال: «حُرٌّ وَعَبْدٌ». ومعهُ يَوْمَئِذٍ أبوبكرٍ وبِلالٌ رضي الله عنهما قلت: إنِّي مُتَّبِعُكَ، قال: «إنَّك لَنْ تَسْتَطِيعَ ذلك يَوْمَكَ هَذَا، ألا تَرى حَالي وحالَ النَّاسِ؟ ولكن ارْجعْ إلى أهْلِكَ فإذَا سمِعْتَ بي قد ظهْرتُ فأتِني».

قال: فَذَهَبْتُ إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنتُ في أهْلِي، فجعلتُ أتخبَّرُ الأخْبَار، وأسْألُ النَّاس حين قدم المدينة حَتَّى قدم نفرٌ من أهْلِي المدينةَ،

---

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب، رقم(٢٧٥٩).

فقلتُ: ما فعل هذا الرَّجُلُ الذي قَدِمَ المدينةَ؟ فقالوا: النَّاسُ إليهِ سِرَاعٌ، وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ، فَلَمْ يَستَطِيعُوا ذلكَ، فَقَدِمْتُ المَدِينَةَ، فَدَخَلتُ عليهِ، فقلتُ: يا رسول الله، أتَعرِفُني؟

قال: «نَعَمْ أنتَ الَّذِي لَقيتَني بِمكةَ». قال: فقلتُ: يا رسولَ الله، أخْبِرْنِي عمَّا عَلَّمكَ الله وأجْهَلُهُ، أخبِرْني عَنِ الصلاة؟

قال: «صَلِّ صلاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ اقْصُرْ عَنِ الصَّلاةِ حَتَّى تَرْتَفِعَ الشَّمْسُ قِيدَ رُمَحٍ، فَإِنَّها تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَي شَيْطَانٍ، وَحينَئذٍ يَسْجُد لها الكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ، فإنَّ الصلاة مشهودةٌ مَحضورَةٌ، حتى يستقِلَّ الظِّلُّ بالرُّمحِ، ثُمَّ اقْصُر عن الصَّلاةِ، فإنه حينئذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ؛ فإذا أقبلَ الفَيء فصلِّ؛ فإن الصَّلاةَ مَشهودةٌ مَحْضورَةٌ، حتى تُصَلِّيَ العصرَ، ثم اقصُر عن الصلاة حتى تَغْرُبَ الشمسُ؛ فإنها تَغرُبُ بين قَرَنَيْ شيطانٍ، وحينئذٍ يسجدُ لها الكُفّارُ».

قال: فقلت: يا نَبِيَّ الله، فالوضوءُ حدّثني عنه.

فقال: «مَا مِنْكُمْ رجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ، فَيَتَمَضْمضُ ويَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ، إلا خَرَّتْ خطايَا وجهِه وفيه وخيَاشيمِهِ، ثم إذا غَسَلَ وجهَهُ كما أمَرَهُ الله، إلا خرَّتْ خطايَا وجهِهِ مِنْ أطرافِ لحْيتِهِ مع الماءِ، ثم يغسل يَدَيْهِ إلى المِرفقَينِ، إلا خرَّت خطايا يديه من أنامِلِهِ مع الماء، ثم يَمسحُ رَأسَهُ، إلا خَرَّتْ خطَايَا رأسِهِ من أطرافِ شَعْرِهِ مع الماء، ثم يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إلى الكعبَيْن، إلا خَرَّتْ خطايا رِجْلَيْهِ من أنامِلِهِ مع الماء، فإن هو قام فصلَّى، فحمِدَ الله تعالى، وأثْنَى عليهِ ومَجَّدَهُ بالذي هو له أهْلٌ، وفَرَّغَ قلبه لله تعالى، إلا انصَرَفَ من خطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يومَ ولَدَتْهُ أُمُّهُ».

فحدَّث عَمرو بن عَبَسَة بهذا الحديث أبَا أُمَامةَ صاحِبَ رسول الله، فقال له أبو أمَامة: يا عمْرُو بن عَبَسَةَ، انظُر ما تقولُ! في مقامٍ واحِدٍ يعطى هذَا الرَّجلُ؟ فقال عمْرو: يا أبا أمامَةَ، لقَدْ كبرَتْ سِني، ورَقَّ عظْمي، واقْتَربَ أجَلي، وما بيْ حَاجَةٌ أنْ أكذِبَ على الله تعالى، ولا على رسول الله ﷺ، لولم أسْمَعهُ من رسول الله ﷺ مَرَّةً أوْ مَرَّتَيْنِ أو ثلاثًا، حتَّى عَدَّ سبعَ مَرَّاتٍ، مَا حَدَّثتُ أبدًا بهِ، ولكنِّي سمِعتُهُ أكثر من ذلك. رواه مسلم(١).

قوله: «جُرَآءُ عليه قومُه»: هو بِجِيمٍ مضمومة وبالمدِّ على وزنَ عُلماءَ، أي: جاسِرونَ مُستطيلونَ غيرُ هائبينَ. هذِهِ الرواية المشهورةُ، ورواه الحُمَيدِي وغيرُهُ: «حِراءٌ» بكسر الحاء المهملة، وقال: معناه: غِضابٌ ذَوُو غَمٍّ وهمٍّ، قد عِيلَ صبرُهُمْ به، حَتى أَثَّرَ في أجسامِهِمْ، من قولهم: حَرَى جِسمُهُ يَحْرَى، إذا نَقَصَ مِنْ أَلمٍ أو غمٍّ ونحوِهِ، والصَّحيحُ أنَّهُ بالجيمِ. قوله ﷺ: «بين قَرنَي شيطان» أي: ناحيتي رأسِهِ، والمرادُ التَّمثيلُ، معناهُ: أنَّه حينئذٍ يَتَحرَّكُ الشيطانُ وشيعتُه، ويَتَسَلَّطونَ. وقوله: «يُقَرِّبُ وَضوءَه» معناه: يُحْضِرُ الماءَ الذي يَتَوَضَّأُ به. وقوله: «إلا خَرَّتْ خطايا» هو بالخاء المعجمة: أَي سَقَطَت، ورواه بَعضُهُم «جرَتْ» بالجيم، والصحيح بالخاءِ، وهو روايةُ الجُمهور. وقوله: «فَيَنْتَثِرُ» أي: يَسْتَخرجُ ما في أَنِفه مِن أذى، والنَّثَرةُ: طرَفُ الأنفِ.

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمه الله كلها أيضًا فيها من

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب إسلام عمرو بن عبسة، رقم(٨٣٢).

الرجاء ما فيها، فمن ذلك أن الصلوات الخمس تكفر السيئات التي قبلها، كما في قصة الرجل الذي أصاب من امرأة قبلة، والذي أصاب حدًّا وطلب من النبي ﷺ أن يقيمه عليه، فإن الصلاة هي أفضل أعمال البدن وهي تذهب السيئات، قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ١١٤].

ولكن لابد أن تكون الصلاة على الوجه الذي يرضاه الله عزَّ وجلَّ، كما في حديث عمرو بن عبسة حينما أمره النبي ﷺأن يتوضأ وأرشده إلى أن لها أوقات محدّدة، وهناك أوقات ينهى الإنسان أن يصلي فيها.

ثم أرشد النبي ﷺ عمرو بن عبسة إلى صفة الوضوء الصحيحة؛ لأن الإنسان إذا توضأ على هذه الصفة خرجت خطاياه، وإذا صلى وقد فرّغ قلبه لله كفّر الله عنه.

فلابد من ملاحظة هذا القيد؛ لأن من الناس من يصلي ولكنه ينصرف من صلاته ما كتب له إلا عشرها أو أقل؛ لأن قلبه غافل وكأنه ليس في صلاة؛ بل كأنه يبيع ويشتري أو يعمل أعمالاً أخرى حتى تنتهي الصلاة.

ومن وساوس الشيطان أن الإنسان يصلي فإذا كبَّر للصلاة؛ انفتحت عليه الهواجس من كل مكان، فإذا سلم زالت عنه، مما يدل على أن هذا من الشيطان، يريد أن يخرب عليه صلاته حتى يحرم من هذا الأجر العظيم.

وفي حديث عمرو بن عبسة فوائد كثيرة منها: أن النبي ﷺ بدأ غريبًا خائفًا مختفيًا عليه الصلاة والسلام، جاءه عمرو بن عبسة وقد رأى ما عليه

أهل الجاهلية وأنهم ليسوا على شيء، فصار يتطلب الدين الصحيح الموافق للفطرة، حتى سمع بالنبي ﷺ في مكة، فجاء إليه، فوجده مستخفيًا في بيته، لم يتبعه إلا حر وعبد ـ أبو بكر وبلال ـ لم يتبعه أحد، وفي هذا دليلٌ على أن أبا بكر رضي الله عنه أول من آمن بالرسول عليه الصلاة والسلام، ثم آمن بعده من الأحرار علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومن حكمة النبي ﷺ أنه قال لعمرو: «**إنك لا تستطيع أن تعلن إسلامك في هذا اليوم، ولكن اذهب فإذا سمعت أني خرجت فأتني**» فذهب وأتى إليه بعد نحو ثلاث عشرة سنة في المدينة، بعد أن هاجر وقال له: أتعرفني؟ قال: «نعم». وأخبره أنه يعرفه، لم ينس طوال هذه المدة.

ثم أخبره مما يجب عليه لله عزَّ وجلَّ من حقوق، وبيَّن له أن الإنسان إذا توضأ وأحسن الوضوء؛ خرجت خطاياه من جميع أعضائه، وأنه إذا صلَّى فإن هذه الصلاة تكفر عنه، فدل ذلك على أن فضل الله عزَّ وجلَّ أوسع من غضبه، وأن رحمته سبقت غضبه. نسأل الله أن يرحمنا وإياكم برحمته إنه جواد كريم.

* * *

٥٢ ـ باب فضل الرجاء

قال الله تعالى إخبارًا عن العبد الصالح: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ [غافر: ٤٤، ٤٥].

١ / ٤٤٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال: «قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي ـ والله للهُ أفْرَحُ بتوبَة عَبْدِهِ مِنْ أحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاةِ ـ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا؛ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا؛ تَقَربْتُ إليهِ بَاعًا، وإذا أقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي؛ أقْبَلْتُ إِلَيْهِ أهَرْوِلُ» متفقٌ عليه، وهذا لفظ إحدى روايات مسلم[(١)]. وتقدَّم شرحُهُ في الباب قبله.

٢ / ٤٤١ ـ وعنْ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّهُ سَمِعَ النبيَّ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بثلاثةِ أيام يقُول: «لا يَمُوتَنَّ أحَدُكُمْ إلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ عزَّ وَجَلَّ» رواه مسلم[(٢)].

٣ / ٤٤٢ ـ وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «يَا ابْنَ آدَمَ، إنَّكَ مَا دَعوتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُك عَنَانَ السَّمَاءِ، ثم استَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، رقم(٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب التوبة، باب الحث على ذكر الله، رقم(٢٦٧٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم(٢٨٧٧).

شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ(١).

«عَنَانَ السَّمَاءِ» بفتح العين، قيل: هو ما عنَّ لك منها، أي: ظهر إذا رفعت رأسك، وقيل: هو السحاب، و«قُرَابِ الأَرْضِ» بضم القاف، وقيل: بكسرها، والضم أصح وأشهر، وهو ما يقارب ملأها، والله أعلم.

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى: باب فضل الرجاء، لما ذكر رحمه الله النصوص الدالة على الرجاء وعلى سعة فضل الله وكرمه، ذكر فضل الرجاء، وأن الإنسان ينبغي له أن يكون طامعًا في فضل الله عزَّ وجلَّ راجيًا ما عنده.

ثم ذكر قول العبد الصالح وهو الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، وكان ناصحًا لقومه، يناصحهم ويبين لهم بالبراهين ما هم عليه من الباطل، وما عليه موسى من الحق، وفي النهاية قال لهم: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ يعني: أجعله مفوضًا إليه، لا أعتمد على غيره، ولا أرجو إلا إياه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾. قال الله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ أي: سيئات مكرهم ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، رقم(٣٥٤٠).

ثم ذكر حديث أبي هريرة أن الله تعالى قال في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني**». أنا عند ظن عبدي بي: يعني أن الله عند ظن عبده به؛ إن ظن به خيرًا فله، وإن ظن به سوى ذلك فله، ولكن متى يحسن الظن بالله عزَّ وجلَّ؟

يحسن الظن بالله إذا فعل ما يوجب فضل الله ورجاءه، فيعمل الصالحات ويحسن الظن بأن الله تعالى يقبله، أما أن يحسن الظن وهو لا يعمل؛ فهذا من باب التمني على الله، ومن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني فهو عاجز.

حسن الظن بأن يوجد من الإنسان عمل يقتضي حسن الظن بالله عزَّ وجلَّ، فمثلاً إذا صليت أحسن الظن بالله بأن الله يقبلها منك، إذا صمت فكذلك، إذا تصدقت فكذلك، إذا عملت عملاً صالحًا أحسن الظن بأن الله تعالى يقبل منك، أما أن تحسن الظن بالله مع مبارزتك له بالعصيان فهذا دأب العاجزين الذين ليس عندهم رأس مالٍ يرجعون إليه.

ثم ذكر أن الله سبحانه وتعالى أكرم من عبده، فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبرًا؛ تقرب الله منه ذراعًا، وإن تقرب منه ذراعًا، تقرب منه باعًا، وإن أتاه يمشي أتاه يهرول عزَّ وجلَّ، فهو أكثر كرمًا وأسرع إجابة من عبده.

وهذه الأحاديث وأمثالها مما يؤمن به أهل السنة والجماعة على أنه حق حقيقة لله عزَّ وجلَّ، لكننا لا ندري كيف تكون هذه الهرولة، وكيف يكون هذا التقرب، فهو أمر ترجع كيفيته إلى الله، وليس لنا أن نتكلم فيه، لكن نؤمن بمعناه ونفوض كيفيته إلى الله عزَّ وجلَّ.

ثم ذكر المؤلف أحاديث في هذا المعنى كلها تدل على أنه ينبغي للإنسان أن يحسن الظن بالله سبحانه وتعالى، ولكن مع فعل الأسباب التي توجب ذلك. نسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياكم لما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة.

* * *

٥٣- باب الجمع بين الخوف والرجاء

اعلم أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفًا راجيًا، ويكونَ خَوْفُهُ ورجاؤُهُ سواءً، وفي حال المرض يُمَحِّض الرَّجَاءِ.

وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسُّنَّة وغير ذلك مُتظاهرَةٌ على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦ ـ ٩]. والآيات في هذا المعنى كثيرة. فيجتمع الخوْفُ والرجاءُ في آيَتَيْن مقترِنَتَيْنِ أو آيات أو آية.

١/٤٤٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَوْ يَعْلَمُ المؤْمِنُ ما عِنْدَ اللهِ مِنَ العُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ من الرَّحْمَةِ، مَا قَنطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ» رواه مسلم(١).

٢/٤٤٤ ـ وعن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى...، رقم(٢٧٥٥).

وُضِعْتِ الْجِنَازَةُ واحْتَمَلَهَا النَّاسُ أوِ الرِّجَالُ عَلَى أعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قالَتْ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي، وإِنْ كانتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالتْ: يا وَيْلَهَا! أينَ تَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلاَّ الإِنْسَانُ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ» رواه البخاري[1].

٣/٤٤٥ ـ وعن ابنِ مسعود رضي الله عنه قال: قال رسُول الله ﷺ: «الْجَنَّةُ أقْرَبُ إلى أحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، والنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ» رواه البخاري[2].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب الجمع بين الخوف والرجاء، وتغليب الرجاء في حال المرض.

هذا الباب قد اختلف فيه العلماء، هل الإنسان يغلب جانب الرجاء أو جانب الخوف؟.

فمنهم من قال: يغلب جانب الرجاء مطلقًا، ومنهم من قال: يغلب جانب الخوف مطلقًا.

ومنهم من قال ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه سواءً، لا يغلّب هذا على هذا، ولا هذا على هذا؛ لأنه إن غلب جانب الرجاء؛ أمن مكر الله، وإن غلب جانب الخوف؛ يئس من رحمة الله.

وقال بعضهم: في حال الصحة يجعل رجاءه وخوفه واحدًا كما اختاره النووي رحمه الله في هذا الكتاب، وفي حال المرض يغلب الرجاء

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب حمل الرجال الجنازة دون النساء، رقم(١٣١٤).
(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله...، رقم(٦٤٨٨).

أو يمحضه.

وقال بعض العلماء أيضًا: إذا كان في طاعة؛ فليغلب الرجاء، وأن الله يقبل منه، وإذا كان عند فعل المعصية؛ فليغلب الخوف؛ لئلا يقدم على المعصية.

والإنسان ينبغي له أن يكون طبيب نفسه، إذا رأى من نفسه أنه أمن من مكر الله، وأنه مقيم على معصية الله، ومتمن على الله الأماني، فليعدل عن هذه الطريق، وليسلك طريق الخوف.

وإذا رأى أن فيه وسوسة، وأنه يخاف بلا موجب؛ فليعدل عن هذا الطريق وليغلب جانب الرجاء حتى يستوي خوفه ورجاؤه.

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ آيات جمع الله فيها ذكر ما يوجب الخوف، وذكر ما يوجب الرجاء، ذكر فيها أهل الجنة وأهل النار، وذكر فيها صفته عزَّ وجلَّ وأنه شديد العقاب وأنه غفور رحيم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٨، ٩٩]؛ حيث إنه في مقام التهديد والوعيد قدم ذكر شدة العقاب ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفي حالة تحدثه عن نفسه وبيان كمال صفاته قال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]؛ فقدم ذكر المغفرة على ذكر العذاب؛ لأنه يتحدث عن نفسه عزَّ وجلَّ، وعن صفاته الكاملة ورحمته التي سبقت غضبه.

ثم ذكر المؤلف أحاديث في هذا المعنى تدل على أنه يجب على

الإنسان أن يجمع بين الخوف والرجاء، مثل قول النبي ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة؛ ما طمع بجنته أحد».

والمراد لو يعلم علم حقيقة وعلم كيفية لا أن المراد لو يعلم علم نظر وخبر؛ فإن المؤمن يعلم ما عند الله من العذاب لأهل الكفر والضلال، لكن حقيقة هذا لا تدرك الآن، لا يدركها إلا من وقع في ذلك ـ أعاذنا الله وإياكم من عذابه.

«ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد»، والمراد حقيقة ذلك، وإلا فإن الكافر يعلم أن الله غفور رحيم، ويعلم معنى المغفرة، ويعلم معنى الرحمة.

وذكر المؤلف أحاديث في معنى ذلك مثل قوله: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك».

شراك النعل يضرب به المثل في القرب؛ لأن الإنسان لابسٌ نعلَه، فالجنة أقرب إلى أحدنا من شراك نعله؛ لأنها ربما تحصل للإنسان بكلمة واحدة، والنار مثل ذلك، ربما تحدث النار بسبب كلمة يقولها القائل، مثل الرجل الذي كان يمر على صاحب معصية فينهاه ويزجره، فلما تعب قال: والله لا يغفر الله لفلان.

فقال الله تعالى: «من ذا الذي يتألى عليَّ ألا أغفر لفلان؛ قد غفرت له وأحبطت عملك»(١)، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته.

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله =

فالواجب على الإنسان أن يكون طبيب نفسه في كونه يغلب الخوف أو الرجاء، إن رأى نفسه تميل إلى الرجاء وإلى التهاون بالواجبات وإلى انتهاك المحرمات استنادًا إلى مغفرة الله ورحمته؛ فليعدل عن هذا الطريق، وإن رأى أن عنده وسواسًا، وأن الله لا يقبل منه؛ فإنه يعدل عن هذا الطريق.

* * *

= تعالى . . .، رقم(٢٦٢١).

٥٤- باب فضل البكاء من خشية الله تعالى وشوقًا إليه

قال الله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠].

١/٤٤٦ - وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال لي النبيُّ ﷺ: اقْرأ عليَّ القُرآنَ» قُلْتُ: يا رسول الله، أقْرأ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أنْزِلَ؟! قال: «إنِّي أُحِبُّ أنْ أسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فقرأت عليه سورَةَ النِّسَاءِ، حتى جِئْتُ إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «حَسْبُكَ الآنَ» فَالْتَفَتُّ إلَيْهِ، فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. متفق عليه[١].

٢/٤٤٧ - وعن أنس رضي الله عنه قال: خَطَبَ رسولُ الله ﷺ خُطْبَةً ما سَمِعْتُ مِثْلَهَا قطُّ، قال: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» قال فَغَطَّى أصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ وُجُوهَهُمْ ولَهُمْ خَنِين. متفقٌ عليه[٢]، وَسَبَقَ بَيَانُهُ في باب الخَوْفِ.

٣/٤٤٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ يَلِجُ

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب نساؤكم حرث لكم، رقم(٤٥٨٢)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن...، رقم(٨٠٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، رقم(٤٦٢١)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ...، رقم(٢٣٥٩).

النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ في الضَّرْعِ، ولا يجْتَمِعُ غُبَارٌ في سَبِيلِ اللهِ ودُخَانُ جَهَنَّمَ» رواه الترمذي[١]، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

٤ / ٤٤٩ ـ وعنه قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: إمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأ في عِبَادَةِ اللهِ تعالى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امْرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجَمَال، فَقَالَ: إنِّي أخَافُ اللهَ، ورَجُلٌ تَصَدَّق بِصَدَقَةٍ فَأخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُه، ورَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» متفقٌ عليه[٢].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب فضل البكاء من خشية الله عزَّ وجلَّ، يعني خوفًا منه وشوقًا إليه تبارك وتعالى، وذلك أن البكاء له أسباب: تارة يكون الخوف، وتارة يكون الألم، وتارة يكون الشوق، وغير ذلك من الأسباب التي يعرفها الناس.

ولكن البكاء من خشية الله إما خوفًا منه وإما شوقًا إليه تبارك وتعالى، فإذا كان البكاء من معصية فعلها الإنسان؛ فهذا البكاء سببه الخوف من الله عزَّ وجلَّ، وإذا كان عن طاعة فعلها، كان هذا البكاء شوقًا إلى الله سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله، رقم(١٦٣٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب السمر في الفقه والخير بعد العشاء، رقم(٦٠٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم(١٠٣١).

وذكر المؤلف رحمه الله آيتين: آية فيها الثناء على الذين يبكون من خشية الله وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ [الإسراء: ١٠٧]، أي أوتوا العلم من قبل القرآن، وهم أهل الكتاب ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، يعني إن وعد ربنا واقع لا محالة، فإن هنا للتوكيد.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ يعني عليها، والمراد المبالغة في السجود، حتى تكاد أذقانهم تضرب بالأرض من شدة المبالغة في سجودهم ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ خشوعًا في القلب يظهر أثره وعلامته على الجوارح.

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠]، وهذا ذم لهم أن يضحك الإنسان من القرآن ويعجب منه عجب استنكار وسخرية ولا يبكي منه، والقرآن أعظم واعظ، يعظ الله به القلوب، لكنه إذا ورد على قلوب كالحجارة والعياذ بالله؛ فإنها لا تلين ولكنها تزداد صلابة. نسأل الله العافية.

ثم ذكر المؤلف حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ طلب منه أن يقرأ عليه القرآن، فقال: يا رسول الله، كيف أقرؤه عليك وعليك أنزل؟ يعني: أنت أعلم به مني، فكيف أقرؤه عليك؟. قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري».

هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام، وفيه إشارة إلى أن الإنسان قد يكون إنصاته لقراءة غيره أخشع لقلبه مما لو قرأ هو، وهو كذلك أحيانًا،

فأحيانًا إذا سمعت القرآن من غيرك خشعت وبكيت، لكن لو قرأته أنت ما خشعت على هذه الهيئة.

فقرأ عليه سورة النساء، فلما بلغ هذه الآية العظيمة: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، يعني ماذا تكون حالك؟! وماذا تكون حالهم؟!

كيف هنا للاستفهام، والاستفهام يشد النفس وينبه القلب ﴿ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ يوم القيامة.

والشهداء طائفتان من الناس:

الطائفة الأولى: الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والثانية: أهلُ العلم الذين ورثوا الأنبياء، فإنهم شهداء بعد ميراث الأنبياء بعد أن يموت الأنبياء، فالشهداء على الخلق هم العلماء بعد الرسل يشهدون بأن الرسل بلغوا، ويشهدون على الأمة بأن الرسالة قد بلغتهم، ويالها من ميزة عظيمة لأهل العلم، أن يكونوا هم شهداء الله في أرضه.

يقول: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾، وقد ذكر الله في سورة الجاثية ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ على ركبها ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ كتاب الأعمال، أو إلى كتابها الذي نزل عليها بالوحي ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

يقول: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يعني يا محمد ﴿ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الأمم ﴿ شَهِيدًا ﴾ ماذا تكون الحال. فقال النبي

ﷺ له: «حسبك الآن». قال ابن مسعود: فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان.

يبكي عليه الصلاة والسلام خوفًا من هذه الحالة الرهيبة العظيمة. ففي هذا دليلٌ على البكاء من قراءة القرآن وأن الإنسان يبكي من قراءة القرآن.

وذكر المؤلف حديثاً آخر سبق لنا شرحه وهو أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**» يعني لو تعلمون ما أعلم من حقائق الأمور التي أخفاها الله عنكم وعلمها الرسول ﷺ لكنه أخفاها عن الخلق رحمة بهم وعلمها النبي ﷺ ولكنه لم يؤمر بإبلاغها للناس، وقد يكون المراد بذلك حقائق ما أخبر به أنه يعلم شيئًا من الحقائق لا يعلمها الناس، فالله أعلم.

ولما قال ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**» غطى الصحابة وجوههم ولهم خنين. يعني أصوات بكاء. يبكون لأن المراد بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لو تعلمون ما أعلم**» التحذير مما علمه عليه الصلاة والسلام، فجعلوا يبكون رضي الله عنهم وأرضاهم، وهذا يدل على كمال إيمانهم، وكمال تصديقهم بما أخبر به الرسول ﷺ.

ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة المشهور، وقد سبق أيضًا «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**» وذكر منهم: «**رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**» ذكر الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وأحكامه وآياته، ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، إما شوقًا إليه، وإما خوفًا منه، فهذا من الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

والمراد بالظل هنا: ظل يخلقه الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة يظلل فيه من

شاء من عباده، وليس المراد ظل نفسه جل وعلا؛ لأن الله نور السموات والأرض، ولا يمكن أن يكون الله ظلًّا من الشمس، فتكون الشمس فوقه وهو بينها وبين الخلق، ومن فهم هذا الفهم فهو بليد أبلد من الحمار؛ لأنه لا يمكن أن يكون الله عزَّ وجلَّ تحت شيء من مخلوقاته، فهو العلي الأعلى، ثم هو نور السموات والأرض.

قال النبي عليه الصلاة والسلام «حجابه» يعني حجاب الله «النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[١]، يعني لو كشف هذا الحجاب ـ والحجب أيضًا من نور، لكنها نور دون نور البارئ عزَّ وجلَّ. لو كشف الله هذا النور لأحرقت سبحات وجهه أي بهاؤه وعظمته ونوره، ما انتهى إليه بصره من خلقه، وبصره ينتهي إلى كل شيء.

والمعنى لو كشفه لأحرق هذا النور كلَّ شيء، كيف يكون المراد بالظل ظل الرب عزَّ وجلَّ؟! لكن كما قلت: بعض الناس أجهل من الحمار، لا يدري ما يترتب على قوله الذي يقوله في تفسير كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ولا يمكن أن يريد الرسول عليه الصلاة والسلام هذا.

حتى الرواية التي وردت في ظل عرشه فيها نظر؛ لأن المعروف أن العرش أكبر من السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم، والسموات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة،

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام، رقم(١٧٩).

فكيف يكون العرش تحت الشمس يظل الناس؟!

لو صح الحديث لقلنا: ربما يكون طرف العرش مثلاً، والله عزَّ وجلَّ على كل شيء قدير، لكن هذه اللفظة في صحتها نظر، والصواب أنه ظل يخلقه الله عز وجل في ذلك اليوم؛ إما من الغمام أو من غير ذلك، الله أعلم، لكنه ظل يستر الله به من شاء من عباده حرَّ الشمس.

وإنما قال: «يوم لا ظل إلا ظله»؛ لأننا في الدنيا نستظل بالبناء الذي نبنيه، ونستظل بالأشجار التي تغرس، ونستظل بسفوح الجبال، وبالجدران، وبغير ذلك، نستظل بأشياء نحن نصنعها بأيدينا وبأشياء خلقها الله عزَّ وجلَّ.

لكن في الآخرة ليس هناك ظل، قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥]، كل الجبال تنسف مهما عظمت، أكبر الجبال وأعظمها تنسف؛ تكون رملاً، هباءً منثورًا، تطير في الجو ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، تطير في الهواء وإن كنت تظنها جامدة لا تتحرك.

وقد سمعت عن بعض الناس المتأخرين يقول: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ يعني في الدنيا، وأن هذا دليلٌ على أن الأرض تدور، وعلل ذلك بأن يوم القيامة يقين ليس فيه شيء من الحسبان.

وهذا من جهله وعدم معرفته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا

هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١، ٢]، هذا من يراهم على خلاف الواقع، فالأمر إذا ذهل الإنسان ولو كان أمامه شيء متيقن، فإنه تضيع حواسه وإدراكاته.

المهم أن قوله: «يوم لا ظل إلا ظله» أي: إلا الظل الذي يخلقه الله عزَّ وجلَّ، يظل به من شاء من عباده. وهذا هو الشاهد.

قوله: «ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» فأنت يا أخي إذا ذكرت الله فاذكر ربك خالي القلب، لا تفكر في شيء، إن فكرت في شيء لم يحصل لك أن تبكي من خشية الله أو الشوق إليه؛ لأنه لا يمكن أن يبكي الإنسان وقلبه مشغول بشيء آخر، كيف تبكي شوقًا إلى الله وخوفًا منه، وقلبك مشغول بغيره؟! ولهذا قال: «ذكر الله خاليًا» يعني: خالي القلب مما سوى الله عزَّ وجلَّ، خالي الجسم أيضًا، ليس عنده أحد حتى يكون بكاؤه رياءً وسمعة، فهو مخلص القلب، فهذا أيضًا ممن يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. أسأل الله أن يظلني وإياكم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

* * *

٥/ ٤٥٠ ـ وعَنْ عبد الله بن الشِّخِير رضي الله عنه قال: أَتَيْتُ رسُولَ الله ﷺ وهُوَ يُصَلِّي ولجَوفِهِ أزيزٌ كَأزيز المرْجَل منَ البُكَاء.

حديثٌ صحيحٌ رواه أبو داود والترمذي[1] في الشمائل بإسنادٍ صحيحٍ.

(١) رواه أبوداود، كتاب الصلاة، باب البكاء في الصلاة، رقم(٩٠٤).

٦/٤٥١ ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ لأبيِّ بنِ كعب رَضِيَ اللهُ عنهُ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ أمَرَني أنْ أقْرَأ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قَالَ: وَسَمَّاني؟ قالَ: «نعم» فَبكى أبيٌّ. متفق عليه[1]. وفي رواية: فَجَعَلَ أُبَيّ يَبْكِي.

٧/٤٥٢ ـ وعنْهُ قالَ: قالَ أبوبَكْرٍ لعمرَ رضي الله عنهما، بعد وفاة رسول الله ﷺ، انْطَلِقْ بِنَا إلى أمِّ أيْمَنَ رضي الله عنهما نَزُورُها كما كان رسُولُ الله يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهيْنَا إِلَيْهَا بَكَت، فَقَالا لها: مَا يُبْكِيكِ؟ أمَا تَعْلَمينَ أنَّ مَا عندَ الله تعالى خَيْرٌ لرَسُولِ الله ﷺ! قالتْ: إنِّي لا أبْكِي أنِّي لا أعْلَمُ أنَّ ما عنْدَ الله خَيْرٌ لرَسُول الله ﷺ، ولكِنِّي أبْكِي أنَّ الوَحْيَ قَد انْقطَعَ مِنَ السَّمَاء؛ فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى البُكَاء، فَجَعلا يَبْكِيَانِ مَعَهَا. رواه مسلم[2]. وقد سبق في باب زيارَة أهل الخير.

٨/٤٥٣ ـ وعن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: لمَّا اشْتَدَّ بِرَسولِ الله ﷺ وَجَعُهُ، قيلَ لهُ في الصَّلاةِ، فقال: «مُرُوا أبا بكْرٍ فَلْيَصلِّ بِالنَّاسِ» فقالت عائشةُ رضي الله عنها: إنَّ أبا بَكْر رَجُلٌ رَقيقٌ، إذَا قرأ القُرآنَ غَلبَهُ البُكَاءُ، فَقَالَ: «مُرُوهُ فَلْيصَلِّ».

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ: إنَّ أبا بَكْرٍ إذا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ منَ البُكَاء. متفقٌ عليه[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب أبي بن كعب، رقم(٣٨٠٩)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والخلق، رقم(٧٩٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن. . .، رقم(٢٤٥٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب حد المريض أن يشهد الجماعة، رقم(٦٦٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر، رقم(٤١٨) [٩٤].

٩/٤٥٤ ـ وعن إبراهيمَ بن عبد الرّحمنِ بن عَوف أنَّ عبدَ الرَّحْمَنِ بنَ عَوْف رضي اللهُ عنهُ أُتي بطَعامٍ وكان صائمًا، فقال: قُتِلَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْر رضي الله عنه وَهُوَ خَيرٌ منِّي، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَا يُكَفَّنُ فيه إلا بُرْدَةٌ إنْ غُطِّيَ بِهَا رَأسَهُ بَدَتْ رِجْلاهُ، وإنْ غُطِّيَ بِهَا رجْلاهُ بَدَا رأسُهُ، ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ ـ أوْ قَالَ: أعْطِينَا مِنَ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا ـ قَدْ خَشِينَا أن تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ. رواه البخاري[(١)].

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف في باب البكاء من خشية الله أو من الشوق إليه سبحانه وتعالى، ذكر فيها عدة أحاديث، منها: حديث عبد الله ابن الشخير رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ وهو يصلي وكان لصدره أزيز كأزيز المرجل.

المرجل: القِدْر يغلي على النار وله صوت معروف، وأزيز صدر النبي ﷺ كان من خَشية الله بلا شك، فهذا بكاء من خشية الله.

وذكر حديث أنس أن النبي ﷺ قال لأُبي بن كعب: «إن الله عزّ وَجلَّ أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ [البينة: ١]، فقال: وسمَّاني لك؟ قال: «نعم». فبكى أُبي.

لكن هذا البكاء يحتمل أن يكون شوقًا إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأن أمر نبيه ﷺ أن يقرأ هذه السورة على أُبي تدل على رفعة أُبي بن كعب رضي الله عنه،

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الكفن من جميع المال، رقم(١٢٧٤).

ويحتمل أن يكون ذلك من الفرح ؛ فإن الإنسان ربما يبكي إذا فرح ، كما أنه يبكي إذا حزن .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله أحاديث كلها تدل على البكاء على الحزن على ما مضى ، منها حديث أم أيمن رضي الله عنها حين زارها الصحابيان : أبو بكر وعمر ، أتيا إليها كما كان النبي ﷺ يزورها ، فلما أتيا إليها بكت فقالا لها : «ما يبكيك؟ أما علمت أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ؟ قالت : بلى إني لا أبكي أني لا أعلم» . يعني : بل أنا أعلم «ولكن أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء» انقطع الوحي «فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها» .

وكذلك حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حين جيء إليه بالطعام وهو صائم ، والصائم يشتهي الطعام عادة ، ولكنه رضي الله عنه تذكر ما كان عليه الصحابة الأولون ، وهو رضي الله عنه من الصحابة الأولين من المهاجرين رضي الله عنهم ، لكنه قال احتقارًا لنفسه قال : إن مصعب بن عمير رضي الله عنه كان خيرًا مني .

وكان مصعبٌ رجلاً شابًا ، كان عند والديه بمكة وكان والداه أغنياء ، وأمه وأبوه يلبسانه من خير اللباس : لباس الشباب والفتيان ، وقد دلّلاه دلالاً عظيمًا ، فلما أسلم هجراه وأبعداه ، وهاجر مع النبي ﷺ ، فكان مع المهاجرين ، وكان عليه ثوب مرقع بعدما كان في مكة عند أبويه يلبس أحسن الثياب ، لكنه ترك ذلك كله مهاجرًا إلى الله ورسوله .

وأعطاه النبي ﷺ الراية يوم أحد ، فاستشهد رضي الله عنه . وكان معه

بردة ـ أي ثوب ـ إذا غطوا به رأسه بدت رجلاه ـ وذلك لقصر الثوب ـ وإن غطوا رجليه بدا رأسه، فأمر النبي ﷺ أن يستر به رأسه وأن تستر رجلاه بالإذخر؛ نبات معروف.

فكان عبد الرحمن بن عوف يذكر حال هذا الرجل، ثم يقول: إنهم قد مضوا وسلموا مما فتح الله به من الدنيا على من بعدهم من المغانم الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح: ١٩].

ثم قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «قد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا»؛ لأن الكافر يجزى على حسناته في الدنيا، وله في الآخرة عذاب النار، والمؤمن قد يجزى في الدنيا وفي الآخرة، لكن جزاء الآخرة هو الأهم.

فخشي رضي الله عنه أن تكون حسناتهم قد عجلت لهم في هذه الدنيا، فبكى خوفًا وفرقًا، ثم ترك الطعام رضي الله عنه.

ففي هذا دليلٌ على البكاء من خشية الله ومخافة عقابه، والله الموفق.

* * *

٥٥ ـ باب فضل الزّهد في الدنيا
والحث على التقلُّل منها، وفضل الفقر

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وقال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ١ ـ ٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى: باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها وفضل الفقراء.

الدنيا: هي حياتنا هذه التي نعيش فيها، وسميت دنيا لسببين:

السبب الأول: أنها أدنى من الآخرة؛ لأنها قبلها كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

والثاني: أنها دنيئة ليست بشيء بالنسبة للآخرة، كما روى الإمام أحمد رحمه الله من حديث المستورد بن شداد أن النبي ﷺ قال: «لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»(١) موضع السوط: موضع العصى القصيرة الصغيرة في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها، فهذه هي الدنيا.

وذكر المؤلف رحمه الله آيات عديدة كلها تفيد أنه لا ينبغي للعاقل أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم(٢٨٩٢).

يركن إلى الدنيا، أو يغتر بها، أو يلهو بها عن الآخرة، أو تكون مانعًا له من ذكر الله عزَّ وجلَّ، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني: المطر ﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ يعني أنبتت الأرض منه نباتًا متنوعًا مختلطًا متقاربًا، ليس بينه فجوات ليس فيها نبات، كل الأرض نباتات بأنواع الأعشاب من كل زوج بهيج ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ أي: كملت ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ كأن لم تكن.

وهذه هي الحياة الدنيا، واعتبر ذلك أنت في واقعك، كم من أناس عشت معهم عاشوا في هذه الدنيا عيشة راضية، وفي رفاهية وأنس وأولاد وزجات وقصور وسيارات، ثم انتقلوا عنها كأن لم يكونوا بالأمس، انتقلوا هم عنها، أو يأتي دنياهم شيء يتلفها، فكم من إنسان غني عنده أموال عظيمة أصبح فقيرًا يسأل الناس.

فهذه هي الدنيا، وإنما ضرب الله هذا المثل لئلا نغتر بها، فقال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني: مثل هذا التفصيل والتبيين ﴿ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لمن عندهم تفكير في الأمور ونظر في العواقب.

ثم قال: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس: ٢٥]، أي: فرق بين هذه وهذه، دار السلام هي الجنة: أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهلها دار السلام وسميت كذلك؟ لأنها سالمة من كل كدر، ومن كل تنغيص، ومن كل أذى. لما ذكر الدنيا قال: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ فإلى أيهما تركن أيها العاقل؟ لا شك أن العاقل يركن إلى دار السلام، ولا تهمه دار الفناء

والنكد والتنغيص، فهو سبحانه وتعالى يدعو كل الخلق إلى دار السلام ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

والهداية مقيدة، لم يقل: ويهدي كل أحد، ولكن قال: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فمن هو الحقيق والجدير بهداية الله؟ هو من أناب إلى الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فمن كان عنده نية طيبة وخالصة لابتغاء وجه الله والدار الآخرة، فهذا هو الذي يهديه الله عزَّ وجلَّ، وهو داخل في قوله: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

ثم ذكر المؤلف آيات أخرى مثل قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، معناه: أن الحياة الدنيا كماء نزل على أرض فأنبتت، فأصبح هشيمًا تذوره الرياح، يبس وصارت الرياح تطير به، هكذا أيضًا الدنيا.

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠].

هذه خمسة أشياء كلها ليس بشيء: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد، مثالها: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]، أعجب الكفار؛ لأن الكفار هم الذين يتعلقون بالدنيا وتسبي عقولهم الدنيا، فهذا نبات نبت من الغيث فصار الكفار يتعجبون منه من حسنه ونضارته: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠]، يزول وينتهي الآخرة: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

فأيهما تريد؟ تريد الآخرة؛ فيها عذابٌ شديد لمن آثر الدنيا على الآخرة، وفيها مغفرة ورضوان لمن آثر الآخرة على الدنيا.

والعاقل إذا قرأ القرآن وتبصر؛ عرف قيمة الدنيا، وأنها ليست بشيء، وأنها مزرعة للآخرة، فانظر ماذا زرعت فيها لآخرتك؟ إن كنت زرعت خيرًا؛ فأبشر بالحصاد الذي يرضيك، وإن كان الأمر بالعكس؛ فقد خسرت الدنيا والآخرة، نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية.

* * *

وأما الأحاديث فأكثرُ منْ أنْ تُحْصَرَ فَنُنَبِّهُ بطرَف منها على ما سواه.

١/٤٥٧ ـ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفِ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ أبا عُبَيْدةَ بنَ الجَرَّاحِ رضي الله عنه إلى البَحْرَيْنِ يَأتِي بِجِزْيَتِهَا، فَقَدِمَ بِمَال من البَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأنصارُ بقُدوم أبي عُبَيْدَةَ، فوافَوْا صلاةَ الفَجْر مَعَ رسول الله ﷺ فلَمَّا صَلَّى رسول الله ﷺ انْصَرَفَ، فتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رسول الله ﷺ حِينَ رَآهُمْ، ثُمَّ قال: «أظُنُّكُمْ سَمِعْتُم أنَّ أبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بشَيءٍ مِنَ البَحْرَيْنِ؟» فقالوا: أجَل يا رسول الله، فقال: «أبْشِرُوا وَأمِّلُوا ما يَسرُّكُمْ، فوالله ما الفَقْرَ أخْشَى عَلَيْكُمْ، ولَكِنِّي أخْشَى أنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كما بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فتُهْلِكَكُمْ كَمَا أهْلَكَتْهُمْ» متفقٌ عليه[١].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجزية، باب الجزية والموادعة، رقم(٣١٥٨)، ومسلم، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٩٦١).

٢/٤٥٨ ـ وعن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قال: جَلَسَ رسول الله ﷺ على المِنْبَر، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فقال: «إنَّ مِمَّا أخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا» متفقٌ عليه[١].

٣/٤٥٩ ـ وعنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإنَّ الله تعالى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ» رواه مسلم[٢].

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف رحمه الله في باب الزهد في الدنيا والترغيب فيه، وقد ذكر قبل ذلك آيات متعددة كلها تدل على أن هذه الدنيا ليست بشيء بالنسبة للآخرة، وأنها ممر ومزرعة للآخرة، فإن قال قائل: يقال ورع، ويُقال زهد، فأيهما أعلى؟ وما الفرق بينهما؟

فالجواب أن الزهد أعلى من الورع، والفرق بينهما أن الورع ترك ما يضر، والزهد ترك ما لا ينفع، فالأشياء ثلاثة أقسام: منها ما يضر في الآخرة، ومنها ما ينفع، ومنها ما لا يضر ولا ينفع.

فالورع: أن يدع الإنسان ما يضره في الآخرة، يعني أن يترك الحرام.

والزهد: أن يدع ما لا ينفعه في الآخرة، فالذي لا ينفعه لا يأخذ به،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ العناق في الصدقة، رقم(١٤٦٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، رقم(١٠٥٢) [١٢٣].

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء...، باب أكثر أهل الجنة الفقراء...، رقم(٢٧٤٢).

والذي ينفعه يأخذ به، والذي يضره لا يأخذ به من باب أولى، فكان الزهد أعلى حالاً من الورع، فكل زاهد ورع، وليس كل ورع زاهدًا.

ولكن حذَّر النبي عليه الصلاة والسلام من أن تفتح الدنيا علينا كما فتحت على من كان قبلنا فنهلك كما هلكوا.

لما قدم أبو عبيدة بمال من البحرين، وسمع الأنصار بذلك، جاؤوا إلى النبي ﷺ فوافوه في صلاة الفجر، فلما انصرف من الصلاة تعرضوا له فتبسم عليه الصلاة والسلام؛ يعني ضحك، لكن بدون صوت، تبسم لأنهم جاؤوا متشوفين للمال.

فقال لهم: «لعلكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة من البحرين؟» قالوا: أجل يا رسول الله. سمعنا بذلك يعني وجئنا لننال نصيبنا.

فقال عليه الصلاة والسلام: «ما الفقر أخشى عليكم» الفقر لا أخشاه.

والفقر قد يكون خيرًا للإنسان، كما جاء في الحديث القدسي الذي يروى عن النبي ﷺ أن الله قال: «إن من عبادي من لو أغنيته لأفسده الغنى»، يعني: أطغاه وأضله وصده عن الآخرة والعياذ بالله ففسد، «وإن من عبادي من لو أفقرته لأفسده الفقر».

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «ما الفقر أخشى عليكم» يعني: لا أخشى عليكم من الفقر؛ لأن الفقير في الغالب أقرب إلى الحق من الغني.

وانظروا إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ من الذي يكذبهم؟ يكذبهم الملأ الأشرار الأغنياء، وأكثر من يتبعهم الفقراء، حتى النبي عليه الصلاة والسلام أكثر من يتبعه الفقراء.

فالفقر لا يخشى منه، بل الذي يخشى منه أن تبسط الدنيا عليهم، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أخشى أن تبسط عليكم - يعني كما بسطت على من كانوا قبلنا، فتهلككم كما أهلكتهم».

وهذا هو الواقع، وانظر إلى حالنا نحن هنا - يعني في المملكة - لما كان الناس إلى الفقر أقرب، كانوا لله أتقى وأخشع وأخشى، ولما كَثُر المال؛ كثُر الإعراض عن سبيل الله، وحصل الطغيان، وصار الإنسان الآن يتشوف لزهرة الدنيا وزينتها. . سيارة، بيت، فرش، لباس، يباهي الناس بهذا كله، ويعرض عما ينفعه في الآخرة.

وصارت الجرائد والصحف وما أشبهها لا تتكلم إلا بالرفاهية وما يتعلق بالدنيا، وأعرضوا عن الآخرة، وفسد الناس إلا من شاء الله.

فالحاصل أن الدنيا إذا فتحت - نسأل الله أن يقينا وإياكم شرها - أنها تجلب شرًّا وتطغي الإنسان ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقد قال فرعون لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]، افتخر بالدنيا، فالدنيا خطيرة جدًّا.

وفي هذه الأحاديث أيضًا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الدنيا حلوة خضرة» حلوة المذاق، خضرة المنظر، تجذب وتفتن، فالشيء إذا كان حلوًا ومنظره طيبًا فإنه يفتن الإنسان، فالدنيا هكذا حلوة خضرة حلوة في المذاق، خضرة في المنظر.

ولكن: «وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون» يعني جعلكم

خلائف فيها؛ يخلف بعضكم بعضًا، ويرث بعضكم بعضًا. «فينظر كيف تعملون» هل تقدّمون الدنيا أو الآخرة؟، ولهذا قال: «فاتقو الدنيا واتقوا النساء».

ولكن إذا أغنى الله الإنسان، وصار غناه عونًا له على طاعة الله، ينفق ماله في الحق، وفي سبيل الله؛ صارت الدنيا خيرًا.

ولهذا كان رجل الدنيا الذي ينفق ماله في سبيل الله، وفي مرضاة الله عزَّ وجلَّ، صار ثاني اثنين بالنسبة للعالم الذي آتاه الله الحكمة والعلم وصار يعلم الناس.

فهناك فرق بين الذي ينهمك في الدنيا ويعرض عن الآخرة، وبين الذي يغنيه الله، ويكون غناه سببًا للسعادة والإنفاق في سبيل الله ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

* * *

٤ / ٤٦٠ ـ وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اللَّهمَّ لاَ عَيشَ إلا عَيْشُ الآخِرَةِ». متفقٌ عليه[(١)].

٥/ ٤٦١ ـ وعنه رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ قال: «يَتْبَعُ الميتَ ثَلاَثَةٌ: أهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ: فَيَرْجعُ اثْنَان، وَيَبْقَى وَاحِدٌ؛ يَرْجعُ أهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ» متفقٌ عليه[(٢)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم(٦٤١٣)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم(١٨٠٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم(٦٤١٤)، ومسلم، =

٤٦٢/٦ - وعنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُؤْتَى بأَنْعَمِ أهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أهْلِ النَّارِ يَوْمِ القِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ في النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قطُّ؟ فَيَقُولُ: لا والله يا رَبِّ.

وَيُؤْتَى بأشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا في الدُّنْيَا مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يا ابْنَ آدمَ هَلْ رأيتَ بؤسًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قطُّ؟ فَيَقُولُ: لا واللهِ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قطُّ، وَلاَ رأيْتُ شِدَّةً قطُّ» رواه مسلم[1].

٤٦٣/٧ - وعن المستورد بن شدادٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدُّنْيَا في الآخِرَة إلا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أصْبُعَهُ في اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟» رواه مسلم[2].

٤٦٤/٨ - وعن جابرٍ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ بالسُّوق وَالنَّاسُ كَنَفَتَيْه، فَمَرَّ بجَدْيٍ أسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ، فَأخَذَ بأذُنِهِ، ثُمَّ قال: «أيُّكُمْ يُحِبُّ أنْ يَكُونَ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فقالوا: مَا نُحِبُّ أنَّهُ لَنَا بِشَيءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟

ثم قال: «أتُحِبُّونَ أنَّهُ لَكُمْ؟» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عَيْبًا؛ أنَّهُ أسَكُّ، فكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ! فقال: فَوَ اللهِ للدُّنْيَا أهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ» رواه مسلم[3].

= كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٩٦٠).

(١) رواه مسلم، كتاب صفة القيامة، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار...، رقم(٢٨٠٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر...، رقم(٢٨٥٨).

(٣) رواه مسلم، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٩٥٧).

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله أحاديث في بيان الزهد في الدنيا، وأن النعيم هو نعيم الآخرة، منها: عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن أن النبي ﷺ قال: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» يعني العيشة الهنيئة الراضية الباقية هو عيش الآخرة، أما الدنيا فإنه مهما طاب عيشها فمآلها للفناء، وإذا لم يصحبها عمل صالح فإنها خسارة.

ولهذا ذكر في ضمن الأحاديث هذه «أنه يؤتى بأنعم أهل الدنيا في الدنيا» يعني أشدهم نعيمًا في بدنه وثيابه وأهله ومسكنه ومركوبه وغير ذلك، «فيصبغ في النار صبغة» يعني يغمس فيها غمسة واحدة، ويُقال له: «يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟، فيقول: لا والله يا ربِّ ما رأيت» لأنه ينسى كل هذا النعيم، هذا وهو شيء يسير، فكيف بمن يكون مخلدًا فيها والعياذ بالله أبد الآبدين.

وذكر أيضًا حديث جابر أن النبي ﷺ مرَّ في السوق بجدي أسك. والجدي من صغار الماعز، وهو أسك: أي مقطوع الأذنين، فأخذه النبي عليه الصلاة والسلام ورفعه وقال: «هل أحد منكم يريده بدرهم؟ قالوا: يا رسول الله، ما نريده بشيء. قال: هل أحد منكم يود أن يكون له؟ قالوا: لا. قال: إن الدنيا أهون عند الله تعالى من هذا الجدي».

فهذا جدي ميت لا يساوي شيئًا، ومع ذلك فالدنيا أهون وأحقر عند الله تعالى من هذا الجدي الأسك الميت، فهي ليست بشيء عند الله، ولكن من عمل فيها عملاً صالحًا؛ صارت مزرعة له في الآخرة، ونال فيها

السعادتين: سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

أما من غفل وتغافل وتهاون ومضت الأيام عليه وهو لم يعمل؛ فإنه يخسر الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وكل بني آدم خاسر إلا هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف الأربعة: آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر. جعلنا الله وإياكم منهم.

* * *

٩/٤٦٥ - وعن أبي ذرٍّ الغفاريّ رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في حَرَّةٍ بالمدينة، فاستَقْبَلَنَا أُحُدٌ، فقال: «يا أبا ذَرٍّ». قلت: لَبَّيْكَ يا رسول الله، فقال: «ما يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أحُدٍ هَذَا ذَهَبًا تَمْضِي عَلَيَّ ثَلاثَةُ أيَّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إلا شَيءٌ أرْصِدُهُ لِدَيْنٍ، إلا أن أقُول بِهِ في عبَاد الله هَكَذَا، وهكذا وهَكَذَا» عن يَمِينِهِ وعن شماله ومن خلفه.

ثم سار فقال: «إنَّ الأكثَرينَ هُمُ الأقَلُّونَ يَومَ القِيَامَةِ إلا مَنْ قال بالمال هكَذَا وهكَذَا وهكذا» عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه «وَقَليلٌ مَا هُمْ». ثم قال لي: «مَكَانَكَ لا تَبْرَحْ حَتَّى آتِيكَ».

ثُمَّ انْطَلَقَ في سَوَادِ اللَّيْلِ حَتَّى تَوارى فَسَمِعْتُ صَوْتًا قَدِ ارْتَفَعَ، فَتَخَوَّفْتُ أنْ يَكُونَ أَحَدٌ عَرَض للنَّبيِّ ﷺ فَأَرَدْتُ أنْ آتِيهُ، فَذَكَرْتُ قَوله: «لا تَبْرَحْ حَتَّى آتيكَ»

فلم أبْرَحْ حَتَّى أتَانِي.

فقُلْتُ: لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتًا تخَوَّفْتُ مِنْهُ، فَذَكَرْتُ له، فقال: «وَهَلْ سَمِعْتَهُ؟» قلتُ: نَعَم، قال: «ذَاكَ جبريلُ أتاني فقال: مَنْ ماتَ مِنْ أمَّتِكَ لا يُشْرِكُ باللهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ».

قُلْتُ: وإنْ زَنَى، وإنْ سرق؟ قال: «وَإنْ زَنَى، وَإنْ سَرَقَ». متفق عليه[١]، وهذا لفظ البخاري.

١٠/٤٦٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أحُدٍ ذَهَبًا؛ لَسَرَّنِي أنْ لا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلاثُ لَيَالٍ وَعِنْدِي منه شَيءٌ إلا شَيْءٌ أرْصِدُهُ لِدَيْنٍ» متفقٌ عليه[٢].

١١/٤٦٧ ـ وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انْظُرُوا إلى مَنْ هُوَ أسْفَلَ مِنْكُمْ وَلاَ تَنْظُرُوا إلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أجْدَرُ أن لا تَزْدَرُوا نعمةَ اللهِ عَلَيْكُمْ» متفقٌ عليه[٣]، وهذا لفظ مسلم.

١٢/٤٦٨ ـ وعنه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ والدِّرْهَمِ وَالقَطيفَةِ والخَمِيصَةِ؛ إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ؛ وَإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ» رواه

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب المكثرون هم المقلون، رقم(٦٤٤٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا. . .، رقم(٩٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ ما أحب. . .، رقم(٦٤٤٥)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة، رقم(٩٩١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ينظر إلى من هو أسفل منه، رقم(٦٤٩٠)، ومسلم، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٩٦٣) [٩].

البخاري[(١)].

١٣/ ٤٦٩ ـ وعنه رضي الله عنه قال: لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أهل الصُّفَّة، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رداءٌ؛ إمَّا إزار، وَإِمَّا كِسَاءٌ، قَدْ رَبَطُوا في أعْنَاقِهِم، فَمنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الكَعْبَيْنِ، فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهية أنْ تُرى عَوْرَتُهُ» رواه البخاري[(٢)].

١٤/ ٤٧٠ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الكَافِرِ» رواه مسلم[(٣)].

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمه الله، كلها تدل على الزهد في الدنيا.

فمنها حديث أبي ذر وأبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبًا تمضي علي ثلاثة أيام وعندي منه دينار، إلا شيء أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا» عن يمينه وعن شماله ومن خلفه.

وهذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أزهد الناس في الدنيا؛ لأنه لا يريد أن يجمع المال إلا شيئًا يرصده لدين، وقد توفي ﷺ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم(٢٨٨٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب نوم الرجل في المسجد، رقم(٤٤٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٩٥٦).

ودرعه مرهونة عند يهودي في شعير أخذه لأهله[١].

ولو كانت الدنيا محبوبة إلى الله عزَّ وجلَّ ما حرم منها نبيه ﷺ «فالدُّنْيَا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما ولاه وعالمًا ومتعلمًا»[٢] وما يكون في طاعة الله عزَّ وجلَّ.

ثم ذكر في حديث أبي ذر «أن المكثرين هم المقلون يوم القيامة» يعني المكثرون من الدنيا هم المقلون من الأعمال الصالحة يوم القيامة، وذلك لأن الغالب على من كثر ماله في الدنيا الغالب عليه الاستغناء والتكبر والإعراض عن طاعة الله؛ لأن الدنيا تلهيه، فيكون مكثرًا في الدنيا مقلاًّ في الآخرة. وقوله: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا» يعني في المال وصرفه في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

وفي حديث أبي ذر: «أن من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة وإن زنى وإن سرق» وهذا لا يعني أن الزنى والسرقة سهلة، بل هي صعبة، ولهذا استعظمها أبو ذر وقال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق».

وذلك لأن من مات على الإيمان وعليه معاص من كبائر الذنوب؛ فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ، رقم(٢٩١٦)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب الرهن وجوازه في الحضر كالسفر، رقم(١٦٠٣).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٣٢٢) وقال: حسن غريب، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب منزلة الفقراء، رقم(٤١١٢).

٤٨، ١١٦].

قد يعفو الله عنه ولا يعاقبه، وقد يعاقبه، ولكن إن عاقبه فمآله إلى الجنة؛ لأن كل من كان لا يشرك بالله ولم يأت شيئًا مكفرًا؛ فإن مآله إلى الجنة.

أما من أتى مكفرًا كالذي لا يصلي والعياذ بالله، فهذا مخلد في النار؛ الذي لا يصلي كافر مرتد مخلد في نار جهنم حتى لو قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، وآمنت بالله وآمنت باليوم الآخر وهو لا يصلي، فإنه مرتد؛ لأن المنافقين كانوا يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، وكانوا يذكرون الله ولكن لا يذكرون الله إلا قليلاً ويصلون ولكن ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]، ومع ذلك فهم في الدرك الأسفل من النار.

وكذلك الأحاديث التي تلت ما رواه أبو ذر رضي الله عنه، كلها تدل على الزهد في الدنيا، وأن الإنسان لا ينبغي أن يعلق نفسه بها، وأن تكون الدنيا بيده لا بقلبه، حتى يقبل بقلبه على الله عزَّ وجلَّ؛ فإن هذا هو كمال الزهد، وليس المعنى أنك لا تأخذ شيئًا من الدنيا؛ بل خذ من الدنيا ما يحل لك، ولا تنس نصيبك منها، ولكن اجعلها في يدك ولا تجعلها في قلبك، وهذا هو المهم. نسأل الله لنا وللمسلمين العافية والسلامة.

* * *

١٥ / ٤٧١ ـ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بِمَنْكبيِّ، فقال: «كُنْ في الدُّنْيَا كأنَّكَ غَريبٌ، أو عَابِرُ سَبيلٍ».

وكان ابنُ عمرَ رضي الله عنهما يقول: إذا أمْسَيْتَ، فَلا تنتظر الصَّبَاحَ، وَإِذَا أصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاء، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ» رواه البخاري[1].

قالوا في شرح هذا الحديث معناه: لا تَركَن إلي الدُّنْيَا ولا تَتَّخِذْهَا وَطَنًا، ولا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِطُولِ البَقَاءِ فِيهَا وَلاَ بالاعتناء بِهَا، وَلاَ تَتَعَلَّقْ مِنْهَا إلا بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الغريب في غَيْرِ وَطَنِهِ، وَلاَ تَشْتَغِلْ فِيهَا بِمَا لا يَشْتَغِلُ بِه الغريبُ الَّذي يُريدُ الذَّهَابَ إلى أهْلِهِ. وبالله التوفيقُ.

١٦ / ٤٧٢ ـ وَعَنْ أَبِي الْعَبَّاس سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، دُلَّنِي على عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ. فَقَالَ: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وازْهَدْ فِيما عِنْدَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ ماجَه وغَيْرُهُ بِأَسَانِيد حَسَنَةٍ رواه ابن ماجه[2].

١٧ / ٤٧٣ ـ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: ذَكَرَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا، فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي، مَا يَجِدث مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ[3].

«الدَّقْلُ» بِفَتْحِ الدَّالِ الْمُهْمَلَةِ والقافِ: رَدِيءُ التَّمْرِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا . . . ، رقم(٦٤١٦).

(٢) رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، رقم(٤١٠٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب منه، رقم(٢٩٧٨).

١٨ / ٤٧٤ ـ وَعَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وما فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إلاَّ شَطْرُ شَعِيرٍ في رَفٍّ لي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ. مُتَّفقٌ عَلَيْهِ[١].

قَوْلُها: «شَطْرُ شَعِيرٍ»: أَيْ شَيْءٌ مِنْ شَعِيرٍ.

١٩ / ٤٧٥ ـ وَعنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ ـ أخِي جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ أُمِّ المُؤمِنِينَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ: مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَلاَ عَبْدًا وَلاَ أَمَةً وَلاَ شَيْئًا، إلاَّ بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ الَّتِي كَانَ يَرْكَبُها، وسِلاَحَهُ، وأَرْضًا جَعَلَهَا لابْنِ السَّبيلِ صَدَقَةً. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[٢].

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمه الله تعالى في باب الزهد في الدنيا وترك المكاثرة فيها والرغبة في الآخرة، والمتاجرة فيها، فذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ النبي ﷺ بمنكبي، وأخذ بمنكبه من أجل أن يستعد لما يلقيه عليه فينتبه فقال: «كن في الدُّنْيَا كأَنَّكَ غريب أو عابر سبيل» يحتمل أن هذا من باب الشك، أي: أن الراوي شك، هل قال رسول الله ﷺ الأول أو الثاني.

ويحتمل أنه من باب التنويع يعني: كن كالغريب الذي يداخل الناس ولا يهتم بالناس، ولا يعرف بين الناس، أو كأنك عابر سبيل تريد أن تأخذ

---

(١) رواه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب نفقة نساء النبي ﷺ، رقم(٣٠٩٧)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب منه، رقم(٢٩٧٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصايا، رقم(٢٧٣٩).

ما تحتاجه في سفرك وأنت ماش.

وهذا التمثيل الذي ذكره النبي ﷺ هو الواقع؛ لأن الإنسان في هذه الدنيا مسافر، فالدنيا ليست دار مقر؛ بل هي دار ممر، سريعٌ راكبه لا يفتر ليلاً ولا نهارًا، فالمسافر ربما ينزل منزلاً فيستريح، ولكن مسافر الدنيا لا ينزل، هو دائمًا في سفر، كل لحظة فإنك تقطع بها شوطًا من هذه الدنيا لتقرب من الآخرة.

فما ظنكم بسفر لا يفتأ صاحبه يمشي ويسير. أليس ينتهي بسرعة؟ الجواب: بلى، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

وينبغي للإنسان أن يقيس ما يستقبل من عمره بما مضى، فالذي مضى كأنه لا شيء، حتى أمسك الأدنى، كأنك لم تمر به، أو كأنه حلم، وكذلك فما يستقبل من دنياك، فهو كالذي تقدم، ولهذا لا ينبغي الركون إلى الدنيا ولا الرضا بها؛ وكأن الإنسان مخلد فيها.

ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنه يقول: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء» فإنك قد تموت قبل أن تمسي. «وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح» فإنك قد تموت قبل أن تصبح، ولكن انتهز الفرصة، لا تؤخر العمل، لا تركن إلى الدنيا فتؤمل البقاء مع أنك لا تدري.

«وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» انتهز الصحة، انتهز الحياة، فإنك قد تمرض فتعجز، وقد تفتقر فتعجز، وقد تموت فينقطع عملك.

ثم ذكر أحاديث في هذا المعنى، منها: أن النبي ﷺ مات ولم يترك شيئًا مما يأكله ذو كبد رطبة إلا شيئًا من الشعير كما قالت ذلك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «لم يترك إلا شيئًا من الشعير» ومع ذلك فإنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي بشعير أخذه لأهله. اضطر عليه الصلاة والسلام فأخذ من هذا اليهودي شعيرًا، ابتاعه منه ورهنه درعه، فمات وهي مرهونة عنده عليه الصلاة والسلام.

وهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام أزهد الناس في الدنيا إذ لو شاء أن تصير معه الجبال ذهبًا لصارت، ولكنه لا يريد هذا، يريد أن يتقلل من الدنيا حتى يخرج منها لا عليه ولا له منها؛ بل كان عليه الصلاة والسلام يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، ويعيش عيشة الفقراء. والله الموفق.

* * *

٢٠/٤٧٦ ـ وعن خَبَّاب بن الأرَتّ رضي الله عنه قال: «هَاجَرْنَا مَعَ رسول الله ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ الله تعالى؛ فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى الله، فَمِنَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بن عُمَيْرٍ رضي الله عنه قُتِلَ يَوْمَ أحُدٍ وَتَرَكَ نَمرَةً، فَكُنَّا إذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأسَهُ بَدَتْ رِجْلاهُ، وَإِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رِجْلَيْهِ بَدَا رأسُهُ، فَأَمَرَنَا رسولُ الله ﷺ أنْ نُغَطِّيَ رَأسَهُ، وَنَجْعلَ عَلَى رِجْلَيْهِ شَيئًا من الإذْخِر، ومِنَّا مَنْ أيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ، فَهُوَ يَهْدِبُهَا». متفقٌ عليه(١).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا لم يجد كفنًا...، رقم(١٢٧٦)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في كفن الميت، رقم(٩٤٠).

٢١ / ٤٧٧ ـ وعن سَهْلِ بن سَعْدِ السَّاعِديِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ». رواه الترمذي(١) وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

٢٢ / ٤٧٨ ـ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلاَ إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فِيها إِلاَّ ذِكْرَ اللهِ تَعالَى وما وَالاهُ، وعالِمًا ومَتَعَلِّمًا». رواهُ التِّرْمِذِيُّ وقالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ(٢).

٢٣ / ٤٧٩ ـ وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «لاَ تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتَرْغَبوا فِي الدُّنْيا». رواهُ التِّرْمِذِيُّ وقالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ(٣).

٢٥ ـ ٤٨١ ـ وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عِياضٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وفِتْنَةُ أُمَّتِي: الْمالُ». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ وقالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ(٤).

٢٦ / ٤٨٢ ـ وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو ـ ويُقَالُ أَبُو عَبْدِ اللهِ، ويُقالُ أَبُو لَيْلَى ـ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَيْسَ لابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هذِهِ الْخِصالِ: بَيْتٌ يَسْكُنُهُ، وثَوْبٌ يُوارِي عَوْرَتهُ، وَجِلْفُ الْخُبْزِ، والْمَاءُ». رواهُ التِّرْمِذِيُّ وقالَ:

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عزَّ وجلَّ، رقم(٢٣٢٠)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم(٤١١٠)، وقال الترمذي: صحيحٌ غريبٌ.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٣٢٢).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٣٢٨).

(٤) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، رقم(٢٣٣٦).

حَدِيثٌ صحيحٌ[(١)].

قالَ التِرْمِذِيُّ: سَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ سُلَيْمَانَ بْنَ سَالِمِ الْبَلْخِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّضْرَ بْنَ شُمَيْلٍ يَقُولُ: الْجِلْفُ: الْخُبْزُ لَيْسَ مَعَهُ إِدَامٌ. وقالَ غَيْرُهُ: هُوَ غَلِيظُ الْخُبْزِ. وقالَ الْهَرَوِيُّ: الْمُرَادُ بِهِ هُنَا وِعاءُ الْخُبْزِ: كالْجُوَالِقِ والْخُرْجِ. واللهُ أَعْلَمُ.

٢٧/٤٨٣ ـ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ ـ بِكَسْرِ الشِّينِ والْخَاءِ الْمُشَدَّدَة الْمُعْجَمَتَيْنِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وهوَ يَقْرَأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مالِي مالِي! وهَلْ لَكَ يابْنَ آدَمَ مِنْ مالِكَ إِلاَّ ما أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ!؟». رواهُ مُسْلِمٌ[(٢)].

الشرح

هذه الأحاديث كلها تدور على ما سبق من الحث على الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة.

فذكر المؤلف رحمه الله حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه في قصة مصعب بن عمير، وهو من المهاجرين الذي هاجروا لله عزَّ وجلَّ ابتغاء وجه الله، وكان شابًا مدللاً من قبل والديه في مكة، ولما أسلم طرده أبواه لأنهما كانا كافرين، فهاجر رضي الله عنه وقتل في أحد في السنة الثالثة من الهجرة، يعني لم يمض على هجرته إلا ثلاثة أعوام أو أقل، فقتل شهيدًا رضي الله عنه، وكان صاحب الراية، ولم يكن معه شيء إلا بردة،

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٣٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب منه، رقم(٢٩٥٨).

ثوب واحد، إن غطوا به رأسه؛ بدت رجلاه، وإن غطوا به رجليه بدا رأسه، فأمر النبي ﷺ أن يغطى رأسه، ويجعل على رجليه شيء من الإذخر، والإذخر نبات معروف تأكله البهائم، فأمر النبي ﷺ أن يجعل على رجليه لأجل أن يغطيهما.

قال: «ومنا»: يعني المهاجرين «من أينعت له الدنيا» أينعت: يعني استوت وأثمرت «فهو يهدبها» أي يجنيها ويقطفها ويتمتع بها، ولا يعلم الأول خير أم الآخر، ولكن الدنياخطيرة جدًّا على الإنسان كما في هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي في المال»[1]، يكثر المال عند الناس فينسوا به الآخرة، ولهذا نهي عن اتخاذ الضياع، الضياع يعني الحدائق والبساتين، فإن الإنسان يلهو بها عما هو أهم منها من أمور الآخرة، والحاصل أن الإنسان ينبغي له أن يكون زاهدًا في الدنيا، راغبًا في الآخرة، وأن الله إذا رزقه مالاً فليجعله عونًا على طاعة الله، وليجعل الدنيا في يده لا في قلبه، حتى يربح بالدنيا والآخرة ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وقرأ النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢]، ألهاكم يعني شغلكم عن المقابر وعن الموت وما بعده ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ لم ينطق الإنسان من الدنيا حتى مات، فقال عليه

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، رقم(٢٣٣٦).

الصلاة والسلام: «مالي مالي، مالي مالي».

يفتخر به «وليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأمضيت»، هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام وهو كذلك، فالإنسان ما لَه من مالِهِ إلا هذه الأشياء، إما أن يأكل طعامًا وشرابًا، وإما أن يلبس من أنواعِ اللباس، وإما أن يتصدق، والباقي له هو ما يتصدق به، أما ما يأكله ويلبسه؛ فإن كان يستعين به على طاعة الله؛ كان خيرًا له، وإن كان يستعين به على معصية الله وعلى الأشر والبطر؛ كان محنة عليه والعياذ بالله والله الموفق.

* * *

٢٨ / ٤٨٤ ـ وعن عبد الله بن مُغَفَّل رضي الله عنه قال: قال رَجُلٌ للنَّبِيِّ ﷺ: يا رسول الله، والله إنِّي لأحبُّكَ، فقال: «انْظُرْ مَاذا تَقُولُ؟» قال: وَالله إِنِّي لأحبُّكَ، ثَلاثَ مَرَّات، فقال: «إنْ كُنْتَ تُحِبُّنِي فَاعِدَّ لِلْفَقْر تِجْفَافًا، فَإِنَّ الفَقْرَ أَسْرَعُ إلى من يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إلى مُنْتَهَاهُ» رواه الترمذي[١] وقال: حديثٌ حسنٌ.

٣٠ / ٤٨٦ ـ وعن عبد الله بن مَسْعود رضي الله عنه قال: نَامَ رسولُ الله ﷺ على حَصِيرٍ، فقام وَقَدْ أثَّرَ في جَنْبه، قُلْنَا: يَا رسولَ الله، لو اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً! فقال: «مَالي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أنَا في الدُّنْيَا إلا كَراكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» رواه الترمذي[٢] وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في فضل الفقر، رقم(٢٣٥٠)، وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال بحقه، رقم(٢٣٧٧)، وقال: =

٣١/٤٨٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ الفُقَرَاءُ الجَنَّةَ قَبْلَ الأغْنِيَاءِ بِخَمْسِمائَةِ عَامٍ» رواه الترمذي[1] وقال: حديثٌ صحيحٌ.

٣٢/٤٨٨ ـ وعن ابن عبَّاسٍ وعمْرَانَ بنِ الحُصَيْنِ رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ قال: «اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ، واطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ» متفق عليه[2] من رواية ابن عباس، ورواه البخاري أيضًا من رواية عمْرَانَ بن الحُصَيْنِ[3].

٣٣/٤٨٩ ـ وعن أسامةَ بن زيدٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةَ مَنْ دَخَلَهَا المسَاكِينُ، وأصْحَابُ الجَدِّ مَحْبُوسُونَ، غَيْرَ أنَّ أصحابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إلى النار» متفق عليه[4].

٣٤/٤٩٠ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ:

ألا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا الله بَاطِلُ

متفقٌ عليه[5].

= حديث حسن صحيح.

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة، رقم(٢٣٥٣)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب فضل الفقر، رقم(٦٤٤٩)، ومسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء...، رقم(٢٧٣٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم(٣٢٤١).

(٤) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم(٦٥٤٧)، ومسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء...، رقم(٢٧٣٦).

(٥) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب أيام الجاهلية، رقم(٣٨٤١)، ومسلم، كتاب =

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى في باب الزهد في الدنيا، منها حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: والله إني لأحبك، فقال النبي ﷺ: «انظر ماذا تقول؟» قال: والله إني لأحبك، فرددها ثلاثًا، فقال النبي ﷺ: «إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافًا، فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه»؛ لأن السيل إذا كان له منتهى وقد جاء من مرتفع يكون سريعًا.

ولكن هذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ؛ لأنه لا ارتباط بين الغنى ومحبة النبي ﷺ، فكم من إنسان غني يحب الرسول عليه الصلاة والسلام، وكم من إنسان فقير أبغض ما يكون إليه الرسول عليه الصلاة والسلام، فهذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ.

ولكن علامة محبة الرسول ﷺ أن يكون الإنسان أشد اتباعًا له، وأشد تمسكًا بسنته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

فالميزان هو اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن كان للرسول أتبع فهو له أحب، وأما الفقر والغنى فإنه بيد الله عزَّ وجلَّ.

وكذلك أيضًا من الزهد في الدنيا ما كان النبي ﷺ عليه من شظف العيش وقلة ذات اليد، حيث كان ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبه،

= الشعر، باب منه، رقم(٢٢٥٦).

فيقال له: ألا نجعل لك وطاءً، يعني فراشًا تطؤه وتنام عليه؟ فقال: «مالي وللدنيا؟، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راحِ وتركها».

فالرسول ﷺ ليس له همٌّ في الدنيا، ولا يبقى عنده مال بل كلّه ينفقه في سبيل الله، ويعيش عيشة الفقراء.

ثم ذكر المؤلف أحاديث في أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء، وأن الفقراء أكثر أهل الجنة، وذلك لأن الفقراء ليس عندهم ما يطغيهم، فهم متمسكنون خاضعون.

ولهذا إذا تأملت الآيات؛ وجدت أن الذين يكذبون الرسل هم الملأ الأشراف والأغنياء، وأن المستضعفين هم الذين يتبعون الرسل، فلهذا كانوا أكثر أهل الجنة، وكانوا يدخلون الجنة قبل الأغنياء بتقادير اختلفت فيها الأحاديث عن النبي ﷺ، ويجمعها أن السير يختلف، فقد يكون السير في عشرة أيام لشخص مسرع يسيره الآخر في عشرين يومًا مثلاً.

ثم ذكر قول النبي عليه الصلاة والسلام في كلمة لبيد الشاعر المشهور قال: «أصدق كلمة قالها شاعر؛ كلمة لبيد:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل

كل شيء سوى الله فهو باطل ضائع لا ينفع، وأما ما كان لله؛ فإنه هو الذي ينفع صاحبه ويبقى له، ومن ذلك الدنيا فإنها باطل، كما قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، إلا ما كان فيها من ذكر الله وطاعته، فإنه حق وخير.

وفي هذا الحديث إشارة إلى أن الحق يقبل حتى لو كان من الشعراء، فالحق مقبول من كل أحد جاء به، حتى لو كان كافرًا وقال بالحق فإنه يقبل منه، ولو كان شاعرًا أو فاسقًا وقال بالحق فإنه يقبل منه.

وأما من قال بالباطل فقوله مردود ولو كان مسلمًا؛ يعني العبرة بالمقالات لا بالقائلين، ولهذا ينبغي على الإنسان أن ينظر إلى الإنسان من خلال فعله لا من شخصه.

* * *

٥٦ - باب فضل الجوع وخشونة العيش والاقتصار على القليل من المأكول والمشروب والملبوس وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات

قال الله تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

والآيات في الباب كثيرةٌ مَعْلُومَةٌ.

١/٤٩١ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ» متفقٌ عليه(١).

وفي رواية: مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّد ﷺ مُنْذُ قَدِمَ المَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ البُرِّ ثَلاثَ لَيَالٍ تباعًا حَتَّى قُبِضَ.

(١) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة، رقم(٥٤١٦)، ومسلم، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٩٧٠).

٢/٤٩٢ ـ وعن عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها، أنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: «واللهِ يا ابْنَ أخْتِي إنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إلَى الهِلال، ثُمَّ الهِلالِ، ثم الهلال: ثلاثةَ أهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ في أبياتِ رسولِ الله ﷺ نَارٌ. قُلْتُ: يا خَالةُ، فَمَا كَانَ يُعيشُكُمْ؟ قالت: الأسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالمَاءُ، إلا أنَّهُ قَدْ كَانَ لرسول الله ﷺ جِيرانٌ مِنَ الأنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ وكانُوا يُرْسِلُون إلى رسول الله مِنْ ألبَانِهَا فيسْقِينَا» متفقٌ عليه[١].

٣/٤٩٣ ـ وعن أبي سعيد المَقْبريِّ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أنه مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أيْدِيهِمْ شاةٌ مَصْلِيَّةٌ، فَدَعَوْهُ فَأَبَى أنْ يَأكُلَ، وقال: خَرجَ رسول الله ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ. رواه البخاري[٢].

الشرح

هذا الباب ذكره المؤلف رحمه الله بعد باب الزهد في الدنيا، يبين فيه أنه ينبغي للإنسان ألا يكثر من الشهوات في أمور الدنيا، وأن يقتصر على قدر الحاجة فقط، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك، وذكر آيات فيها بيان عاقبة الذين يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات، فقال: وقول الله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

قوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ أي من بعد الأنبياء الذين ذكروا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الهبة، باب منه، رقم(٢٥٦٧)، ومسلم، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٩٧٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه، رقم(٥٤١٤).

قبل هذه الآية، خلف من بعدهم خلف لم يتبعوا طريقتهم وإنما ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾.

وإضاعة الصلاة تعني التفريط فيها.

في شروطها: كالطهارة، وستر العورة، واستقبال القبلة.

وفي أركانها: كالطمأنينة في الركوع، والسجود، والقيام والقعود.

وفي واجباتها: كسؤال المغفرة بين السجدتين، والتسبيح في الركوع، والسجود، والتشهد الأول، وما أشبه ذلك.

وأشد من هذا الذين يضيعونها عن وقتها؛ فلا يصلون إلا بعد خروج الوقت، فإن هؤلاء إما أن يكون لهم عذر من نوم أو نسيان، فصلاتهم مقبولة ولو بعد الوقت، وإما ألا يكون لهم عذر فصلاتهم مردودة لا تقبل منهم، ولو صلوا ألف مرة.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: يعني ليس لهم همٌّ إلا الشهوات؛ ما تشتهيه بطونهم وفروجهم، فهم ينعمون أبدانهم ويتبعون ما تنعم به الأبدان، ويضيعون الصلاة والعياذ بالله.

ثم قال تعالى مبينًا جزاءهم ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠]، وهذا وعيدٌ لهم؛ لأنهم والعياذ بالله يلقون الغي لأن الجزاء من جنس العمل ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

ثم ذكر المؤلف حديث عائشة رضي الله عنها في بيان عيش النبي ﷺ، وأنه ما شبع من خبز الشعير ليلتين تباعًا؛ لقلة ذات يده عليه الصلاة

والسلام، وأنه كان يمضي عليه الشهران في ثلاثة أهلَّة ما يوقد في بيته نار، وإنما هو الأسودان: التمر والماء، مع أنه ﷺ لو شاء لصارت الجبال معه ذهبًا، ولكنه ﷺ يريد أن يقتصر على الدنيا بما يساوي الدنيا من الحاجة فقط، والله الموفق.

* * *

٥٧- باب القناعة والعفاف والاقتصاد في المعيشة

٣/٥٢٤ - وعن حَكيم بن حِزَام رضي الله عنه قال: سَأَلْتُ رسول الله ﷺ فَأعْطَانِي، ثُمَّ سَألْتُهُ فَأعْطَانِي، ثُمَّ سَألْتُهُ فَأعْطَانِي، ثم قال: «يا حكيمُ، إنَّ هَذَا المَالَ خَضِرٌ حُلوٌ، فَمَنْ أخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ؛ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أخَذَهُ بإشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيه، وَكَانَ كَالَّذِي يَأكُلُ وَلا يَشْبَعُ، واليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى».

قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ لا أرزَأ أحدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أفَارِقَ الدُّنْيَا.

فَكَانَ أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَدْعُو حَكِيمًا لِيُعْطِيَهُ العَطَاءَ، فَيَأبَى أنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا.

ثُمَّ إن عُمَرَ رَضِيَ الله عنه دَعَاهُ ليُعْطِيَهُ، فَأبَى أنْ يَقْبَلَهُ. فقال: يا معْشَرَ المُسْلِمينَ، أشْهِدُكُمْ عَلَى حَكيمٍ أني أعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ الَّذي قَسَمَهُ الله لَهُ في هذا الفيء فيأبى أن يأخُذَهُ. فَلَمْ يرزأ حَكيمٌ أحَدًا مِنَ النَّاس بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى تُوُفيَ. متفقٌ عليه[1].

«يرزأ» براء ثم زاي ثم همزة، أي: لم يأخذ من أحد شيئًا، وأصل الرزء: النقصان، أي: لم ينقص أحدًا شيئًا بالأخذ منه. و«إشراف النفس»: تطلعها وطمعها بالشيء. و«سخاوة النفس» هي عدم الإشراف إلى الشيء، والطمع فيه،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم(١٤٧٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خيرٌ من السفلى، رقم(١٠٣٥).

والمبالاة به والشّره.

٦/ ٥٢٧ ـ وعن حكيم بن حزَامٍ رضيَ الله عنه أنَّ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ السُّفْلَى، وابْدَأ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله» متفقٌ عليه[1]. وهذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم أخصر.

٧/ ٥٢٨ ـ وعن أبي سُفْيَانَ صَخْر بن حَرْبٍ رضي الله عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُلْحِفُوا في المسْألةِ، فوَ الله لا يَسألُنِي أحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا، فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا وَأَنَا له كَارهٌ، فَيُبَارَكَ لَهُ فِيمَا أعْطَيْتُهُ» رواه مسلم[2].

٩/ ٥٣٠ ـ وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لاَ تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللهَ تَعَالَى وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعةُ لَحْمٍ» متفقٌ عليه[3].

«المُزْعَةُ» بضم الميم وإسكان الزاي وبالعين المهملة: القِطْعة.

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى فيما نقله عن حكيم بن حزام رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ فأعطاه؛ أي سأله مالاً فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم سأله فأعطاه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم(١٤٢٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، رقم(١٠٣٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم(١٠٣٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثرًا، رقم(١٤٧٤)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم(١٠٤٠).

وكان من هدي النبي ﷺ وكرمه وحسن خلقه أنه لا يرد سائلاً سأله شيئًا، فما سئل شيئًا على الإسلام إلا أعطاه عليه الصلاة والسلام، ثم قال لحكيم: «**إن هذا المال خضِر حلو**» خضر يسر الناظرين، حلو يسر الذائقين، فتطلبه النفس وتحرص عليه.

«فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه»، فكيف بمن أخذه بسؤال؟ يكون أبعد وأبعد، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب: «ما جاءك منِ هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك»[(١)]. يعني ما جاءك بإشراف نفس وتطلع وتشوف فلا تأخذه، وما جاءك بسؤال فلا تأخذه.

ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام لحكيم بن حزام: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»: اليد العليا هي يد المعطي، واليد السفلى هي يد الآخذ، فالمعطي يده خير من يد الآخذ؛ لأن المعطي فوق الآخذ، فيده هي العليا كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فأقسم حكيم بن حزام رضي الله عنه بالذي بعث النبي ﷺ بالحق ألا يسأل أحدًا بعده شيئًا، فقال: «يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا».

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب رزق الحكام والعاملين، رقم(٧١٦٣، ٧١٦٤)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة، رقم(١٠٤٥).

فتوفي الرسول عليه الصلاة والسلام، وتولى الخلافة أبو بكر رضي الله عنه، فكان يعطيه العطاء فلا يقبله، ثم توفي أبو بكر، فتولى عمر فدعاه ليعطيه، فأبى، فاستشهد الناس عليه عمر، فقال: اشهدوا أني أعطيه من بيت مال المسلمين ولكنه لا يقبله، قال ذلك رضي الله عنه لئلا يكون له حجة على عمر يوم القيامة بين يدي الله، وليتبرأ من عهدته أمام الناس، ولكن مع ذلك أصر حكيم رضي الله عنه ألا يأخذ منه شيئًا حتى توفي.

وفي اللفظ الآخر الذي ساقه المؤلف أن الرسول ﷺ قال: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول» فالإنسان يبدأ بمن يعول، يعني بمن يلزمه نفقته، فالإنفاق على الأهل أفضل من الصدقة على الفقراء؛ لأن الإنفاق على الأهل صدقة وصلة وكفاف وعفاف، فكان ذلك أولى، ابدأ بمن تعول والإنفاق على نفسك أولى من الإنفاق على غيرك، كما جاء في الحديث «ابدأ بنفسك فتصدَّق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك»(١).

وذكر المؤلف رحمه الله حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم». يعني لا يزال الرجل يسأل الناس ـ يعني يسأل المال ـ حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم. نسأل الله العافية.

وهذا وعيد شديدٌ يدل على تحريم كثرة السؤال من الناس، ولهذا قال العلماء: لا يحل لأحد أن يسأل شيئًا إلا عند الضرورة، إذا اضطر الإنسان

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الابتداء في النفقة بالنفس، رقم(٩٩٧).

فلا بأس أن يسأل، أما أن يسأل للأمور الكماليات لأجل أن يسابق الناس فيما يجعله في بيته، فإن هذا لا شك في تحريمه، ولا يحل له أن يأخذ ولا الزكاة حتى لو أعطيها فلا يأخذ الزكاة من أجل الكماليات التي لا يريد منها إلا أن يسابق الناس ويماريهم، أما الشيء الضروري فلا بأس به. والله أعلم.

* * *

١ / ٥٣٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تكثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأل جَمْرًا؛ فَلْيَسْتَقِلَّ أوْ لِيَسْتَكْثِرْ» رواه مسلم[١].

١٢ / ٥٣٣ ـ وعن سَمُرَةَ بن جُنْدَبٍ رضي الله عنه قال: قال رسُول الله ﷺ: «إنَّ المَسْأَلَةَ كَدٌّ يَكُدُّ بِهَا الرَّجُلُ وَجهَهُ، إلا أنْ يَسْألَ الرَّجُلُ سُلْطَانًا أوْ في أمْرٍ لابُدَّ مِنْهُ» رواهُ الترمذي[٢]، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

١٣ / ٥٣٤ ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أصَابَتْهُ فَاقَةٌ فأنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، ومَنْ أنْزَلَهَا باللهِ، فيُوشِكُ الله لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أوْ آجِلٍ» رواهُ أبوداود، والترمذي[٣]، وقال: حديثٌ حسنٌ.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم(١٠٤١).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في النهي عن المسألة، رقم(٦٨١)، وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وأبوداود، كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، رقم(١٦٣٩)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب مسألة الرجل في أمر لابد له منه، رقم(٢٦٠٠)، رقم(٥/ ١٠٠).

(٣) رواه أبوداود، كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف، رقم(١٦٤٥)، والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الهم في الدنيا وحبها، رقم(٢٣٢٦)، وقال الترمذي: حديث =

١٤ / ٥٣٥ - وعَنْ ثَوْبَان رضيَ الله عنه قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَكَفَّلَ لِي أنْ لا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، وأتَكَفَّلُ له بالجَنَّةِ؟» فقلت: أنا، فَكَانَ لا يَسْأَلُ أحَدًا شيئًا. رواه أبوداود[١] بإسنادٍ صحيحٍ.

١٥ / ٥٣٦ - وعن أبي بِشْر قَبيصَةَ بنِ المُخَارِقِ رضي الله عنه قال: «تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ أسْألُهُ فيها، فقال: «أقِمْ حَتَّى تأتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأمُرَ لَكَ بِهَا» ثُمَّ قَالَ: «يا قَبيصَة، إنَّ المسألة لا تَحِلُّ إلا لأحَدِ ثَلاثَة: رَجُلٌ تَحَمَّلَ حَمَالَةً؛ فَحَلَّتْ لَهُ المَسْألَة حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ. وَرَجُلٌ أصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْألَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ، أوْ قال: سِدادًا مِنْ عَيْشٍ، وَرَجُلٌ أصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُولَ ثلاثَةٌ مِنْ ذَوي الحِجَى مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أصَابَتْ فُلانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْألَةُ حتَّى يُصِيبَ قِوامًا مِنْ عَيْشٍ، أوْ قالَ: سِدادًا مِنْ عَيْشٍ. فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ المسألَةِ يا قَبِيصَةُ، سُحْتٌ، يأكُلُهَا صَاحِبُهَا سَحْتًا» رواه مسلم[٢].

١٦ / ٥٣٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ المِسْكينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّه اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتَانِ، والتَّمْرَةُ والتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ المِسْكِينَ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيه، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ، فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسألَ النَّاسَ» متفقٌ عليه[٣].

= حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

(١) رواه أبوداود، كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة، رقم(١٦٤٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب من تحل له المسألة، رقم(١٠٤٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، رقم(١٤٧٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنًى ولا يفطن له فيتصدق، رقم(١٠٣٩).

الشرح

هذه الأحاديث في بيان الوعيد لمن سأل الناس أموالهم بغير ضرورة.

ففي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من سأل الناس أموالهم تكثرًا، فإنما يسأل جمرًا فليستقل أو ليستكثر» يعني من سأل الناس أموالهم ليكثر بها ماله، فإنما يسأل جمرًا فليستقل أو ليستكثر، إن استكثر زاد الجمر عليه، وإن استقل قلَّ الجمر عليه، وإن ترك سلم من الجمر، ففي هذا دليلٌ على أن سؤال الناس بلا حاجة من كبائر الذنوب.

ثم ذكر أحاديث منها أن من أنزل حاجته بالناس، وفاقته بالناس فإنها لا تقضى حاجته؛ لأن من تعلق شيئًا وكل إليه، ومن وكل إلى النَّاس أمره، فإنه خائب لا تقضى حاجته، ويستمر دائمًا يسأل ولا يشبع، ومن أنزلها بالله عزَّ وجلَّ واعتمد على الله وتوكل عليه، وفعل الأسباب التي أمر بها؛ فإنه يوشك أن تقضى حاجته؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الطلاق: ٣].

وذكر حديث قبيصة أنه جاء يسأل النبي ﷺ في حمالة تحمَّلها، فأمره أن يقيم عنده حتى تأتيه الصدقة فيأمر له بها، وذكر ﷺ أن المسألة لا تحل إلا لواحد من ثلاثة:

رجل تحمل حمالة، يعني التزم في ذمته لإصلاح ذات البين، فهذا يعطى وله أن يسأل حتى يصيبها، ثم يمسك ولا يسأل.

ورجل آخر أصابته جائحة اجتاحت ماله، كنارٍ وغرقٍ وعدوٍ وغير ذلك، فيسأل حتى يصيب قوامًا من عيش.

والثالث: رجلٌ كان غنيًّا فافتقر بدون سبب ظاهر، وبدون جائحة معلومة، فهذا له أن يسأل، لكن لا يعطى حتى يشهد ثلاثة من أهل العقول من قومه بأنه أصابته فاقة، فيعطى بقدر ما أصابه من الفقر.

فهؤلاء الثلاثة هم الذين تحل لهم المسالة وما سوى ذلك يقول الرسول ﷺ: «فما سواهن من المسألة يا قبيصة، سحت يأكلها صاحبها سحتًا».

والسحت هو الحرام وسمي سحتًا؛ لأنه يسحت بركة المال، وربما يسحت المال كله، فيكون عليه آفات وغرامات تسحت ماله من أصله والله الموفق.



٥٨- باب جواز الأخذ من غير مسألة ولا تطلّع إليه

١/٥٣٨ - عَنْ سالم بنِ عبدِ الله بن عُمَرَ عَنْ أبيه عبدِ الله بن عُمَرَ، عن عمر رضي الله عنهم قال: كان رسول الله ﷺ يُعْطِيني العَطَاء، فأقُولُ: أعطِهِ مَنْ هو أفقر إليه مني، فقال: «خُذْهُ؛ إذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ، فَخُذْهُ فتَمَوَّلْهُ، فَإِنْ شِئْتَ كُلْهُ، وَإِنْ شِئتَ تَصَدَّقْ بِهِ، وَمَا لاَ، فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ».

قَالَ سَالِمٌ: فَكَانَ عَبْدُ الله لا يَسألُ أحَدًا شَيْئًا، وَلا يَرُدُّ شَيْئًا أُعْطِيَهُ. متفقٌ عليه[(١)].

«مُتشرِفٍ» بالشين المعجمة: أي: متطلّع إليه.

* * *

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب من أعطاه الله شيئًا من غير مسألة ولا إشراف، رقم(١٤٧٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إباحة الأخذ لمن أعطى من غير مسألة ولا...، رقم(١٠٤٥).

٥٩- باب الحث على الأكل من عمل يده والتعفف به عن السؤال والتعرض للإعطاء

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

١/ ٥٣٩ - عن أبي عَبْدِ الله الزُّبَيْر بن العوَّام رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لأنْ يَأخُذَ أحَدُكُمْ أحبُلَهُ ثُمَّ ياتي الجَبَلَ، فَيَأتِيَ بحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبيعَهَا، فيَكُفَّ الله بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَسألَ النَّاس، أعطَوْهُ أوْ مَنَعُوهُ» رواه البخاري(١).

٢/ ٥٤٠ - وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأنْ يَحْتَطِبَ أحَدُكُمْ حُزمَةً عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ لَهُ من أنْ يسْألَ أحَدًا، فيُعْطِيَهُ أو يَمْنَعَهُ» متفقٌ عليه(٢).

٣/ ٥٤١ - وعنه عنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «كان دَاودُ عليه السَّلامُ لا يَأكُلُ إلا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» رواه البخاري(٣).

٤/ ٥٤٢ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ زَكَرِيَّا عَلَيهِ السَّلامُ نَجَّارًا» رواه مسلم(٤).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم(١٤٧١).
(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب كسب الرجل وعمله، رقم(١٤٧٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم(١٠٤٢).
(٣) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم(٢٠٧٣).
(٤) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب في فضائل زكريا، رقم(٢٣٧٩).

٥٤٣/٥ ـ وعن المِقْدَامِ بنِ مَعْدِي كَرِبَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبيَّ الله دَاودَ ﷺ كان يَأكلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» رواه البخاري[1].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى: باب قبول الإنسان ما يعطى من غير أن يكون له تطلع إليه، وهذا معنى الترجمة.

يعني أن الإنسان لا ينبغي له أن يعلق نفسه بالمال فيتطلع إليه أو يسأل؛ لأن ذلك يؤدي إلى ألا يكون له هم الدنيا، والإنسان إنما خلق في الدنيا من أجل الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

فلا ينبغي للإنسان أن يعلق نفسه بالمال ولا يهتم به. إن جاءه من غير تعب ولا سؤال ولا استشراف نفس فيقبله، وإلا فلا.

ثم ذكر حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يعطيه العطاء فيقول: أعطه من هو أفقر مني فيقول له الرسول عليه الصلاة والسلام: «خذه؛ إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، فتموَّله فإن شئت كله، وإن شئت تصدَّق به، وما لا فلا تتبعه نفسك».

فكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يسأل أحدًا شيئًا، وإذا جاءه شيء من

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم(٢٠٧٢).

غير سؤال قبله، وهذا غاية ما يكون من الأدب، ألا تذل نفسك بالسؤال، ولا تستشرف للمال وتعلق قلبك به.

وإذا أعطاك أحد شيئًا فاقبله؛ لأن رد العطية والهدية قد يحمل من أعطاك على كراهيتك فيقول: هذا الرجل استكبر، هذا الرجل عنده غطرسة، وما أشبه ذلك.

فالذي ينبغي أن من يعطيك تقبل منه ولكن لا تسأل، إلا إذا كان الإنسان يخشى ممن أعطاه أن يمنَّ به عليه في المستقبل فيقول: أنا أعطيتك، أنا فعلت معك كذا وكذا وما أشبه ذلك، فهنا يرده؛ لأنه إذا خشي أن يقطع المعطي رقبته بالمنة عليه في المستقبل؛ فليحمِ نفسه من هذا.

ثم ذكر المؤلف أنه ينبغي للإنسان أن يأكل من عمل يده ويتعفف عن السؤال، وأن يكتسب ويتجر؛ لقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، أي في أنحائها: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي ابتغوا الرزق من فضل الله عزَّ وجلَّ.

وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] فقال: انتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله.

ولكن لا ينسينَّك ابتغاؤك من فضل الله ذكر ربك، ولهذا قال: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ثم ذكر رحمه الله ما ثبت في صحيح البخاري، أن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده، وكان داود يصنع الدروع كما قال تعالى:

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، فكان حدادًا.

أما زكريا فكان نجارًا يعمل وينشر ويأخذ الأجرة على ذلك.

وهذا يدل على أن العمل والمهنة ليست نقصًا؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يمارسونها، ولا شك أن هذا خيرٌ من سؤال الناس، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «لأن يأخذ أحدكم حزمة من حطب على ظهره فيبيعها» يعني ويأخذ ما كسب منها: «خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

ولا شكَّ أن هذا هو الخلق النبيل؛ ألا يخضع الإنسان لأحد، ولا يذل له، بل يأكل من كسب يده، من تجارته أو صناعته أو حرثه. قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]. ولا يسأل الناس شيئًا، والله الموفق.

* * *

٦٠- باب الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقة بالله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

١/ ٥٤٤ - وعَنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاه اللهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحقِّ، ورَجُلٌ آتاه اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا» متفقٌ عليه[١].

٢/ ٥٤٥ - وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إليه مِنْ مَالِهِ؟» قالُوا: يا رسول الله، مَا مِنَّا أَحَدٌ إلا مَالُهُ أَحَبُّ إليه. قال: «فَإِنَّ مَالَهُ ما قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ ما أَخَّرَ» رواه البخاري[٢].

٣/ ٥٤٦ - وعَن عَديِّ بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقُوا

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم(٧٣)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، رقم(٨١٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له، رقم(٦٤٤٢).

النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» متفقٌ عليه(١).

٤/٥٤٧ ـ وعن جابر رضي الله عنه قال: ما سُئِلَ رسُولُ الله ﷺ شَيئًا قَطُّ، فقال: لا. متفق عليه(٢).

٥/٥٤٨ ـ وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إلا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُول الآخَرُ: اللَّهُمَّ أعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا» متفقٌ عليه(٣).

٦/٥٤٩ ـ وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أنفِقْ يا ابْنَ آدمَ يُنْفَقْ عَلَيْكَ» متفقٌ عليه(٤).

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى: باب الحث على إنفاق المال في سبل الخير مع الثقة بالله عزَّ وجلَّ.

المال الذي أعطاه الله بني آدم، أعطاهم الله إياه فتنة؛ ليبلوهم هل يحسنون التصرف فيه أم لا.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب طيب الكلام، رقم(٦٠٢٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة...، رقم(١٠١٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء...، رقم(٦٠٣٤)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ، رقم(٢٣١١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾، رقم(١٤٤٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، رقم(١٠١٠).

(٤) رواه البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم(٥٣٥٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة...، رقم(٩٩٣).

[التغابن: ١٥]، فمن الناس من ينفقه في شهواته المحرمة، وفي لذائذه التي لا تزيده من الله إلا بعدًا، فهذا يكون ماله وبالاً عليه والعياذ بالله.

ومن الناس من ينفقه ابتغاء وجه الله فيما يقرب إلى الله على حسب شريعة الله، فهذا ماله خير له.

ومن الناس من يبذل ماله في غير فائدة، ليس في شيء محرم ولا في شيء مشروع، فهذا ماله ضائع عليه، وقد نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال(١).

وينبغي للإنسان إذا بذل ماله فيما يرضي الله أن يكون واثقًا بوعد الله سبحانه وتعالى حيث قال في كتابه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي يعطيكم خلفًا عنه.

وليس معناه فهو يَخْلُفهُ، إذ لو كانت فهو يَخلُفه، لكان معنى الآية: أن الله يكون خليفة، وليس الأمر كذلك، بل فهو يُخْلِفه أي يعطيكم خلفًا عنه.

ومنه الحديث: «اللهم أجرني في مصيبتي وأخلِف لي خيرًا منها»(٢) ولا تقل واخلُف لي خيرًا منها، بل وأخلف أي ارزقني خلفًا عنها خيرًا منها.

فالله عزَّ وجلَّ وعد في كتابه أن ما أنفقه الإنسان فإن الله يخلفه عليه، يعطيه خلفًا عنه، وهذا يفسره قول الرسول عليه الصلاة والسلام في الأحاديث التي ساقها المؤلف مثل قوله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خَلَفًا، ويقول الآخر:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستقراض، رقم(٢٤٠٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة. . .، رقم(١٧١٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم(٩١٨).

اللهم أعط ممسكًا تلفًا» يعني أتلف ماله.

والمراد بذلك من يمسك عما أوجب الله عليه من بذل المال فيه، وليس كل ممسك يُدعى عليه؛ بل الذي يمسك ماله عن إنفاقه فيما أوجب الله، فهو الذي تدعو عليه الملائكة بأن الله يتلفه ويتلف ماله.

والتلف نوعان: تلف حسي، وتلف معنوي.

١ ـ التلف الحسي: أن يتلف المال نفسه، بأن يأتيه آفة تحرقه أو يُسرق أو ما أشبه ذلك.

٢ ـ والتلف المعنوي: أن تنزع بركته، بحيث لا يستفيد الإنسان منه في حياته، ومنه ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال لأصحابه: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا وماله أحب إليه.

فمالك أحب إليك من مال زيد وعمرو وخالد، ولو كان من ورثتك، قال: «فإن ماله ما قدّم ومال وارثه ما أخّر».

وهذه حكمة عظيمة ممن أوتي جوامع الكلم ﷺ، فمالك الذي تقدمه لله عزَّ وجلَّ تجده أمامك يوم القيامة، ومال الوارث ما يبقى بعدك من الذي ينتفع به ويأكله هو الوارث، فهو مال وارثك على الحقيقة. فأنفق مالك فيما يرضي الله، وإذا أنفقت؛ فإن الله يخلفه وينفق عليك، كما قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابن آدم أنفق ينفق عليك».

وهذه الأحاديث كلها وكذلك الآيات تدل على أنه ينبغي للإنسان أن يبذل ماله حسب ما شرع الله عزَّ وجلَّ، كما جاء في الحديث الذي صدّر به

المؤلف هذا الباب؛ أن الرسول ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين» يعني لا غبطة، ولا أحد يغبط على ما أعطاه الله سبحانه وتعالى من مال وغيره إلا في اثنتين فقط:

الأولى: رجل أعطاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، صار لا يبذله إلا فيما يرضي الله، هذا يحسد؛ لأنك الآن تجد التجار يختلفون، منهم من ينفق أمواله في سبيل الله، في الخيرات، في أعمال البر، إعانة فقير، بناء مساجد، بناء مدارس، طبع كتب، إعانة على الجهاد، وما أشبه ذلك. فهذا سلط على هلكته في الحق.

ومنهم من يسلطه على هلكته في اللذائذ المحرمة والعياذ بالله، يسافر إلى الخارج فيزني، ويشرب الخمر، ويلعب القمار، ويتلف ماله فيما يغضب الرب عزَّ وجلَّ، فالذي سلطه الله على هلكة ماله في الحق هذا يغبط؛ لأن الغالب أن الذي يستغني يبطر ويمرح ويفسق، فإذا رؤي أن هذا الرجل الذي أعطاه الله المال ينفقه في سبيل الله؛ فهو يغبط.

والثانية: رجلٌ آتاه الله الحكمة يعني العلم، الحكمة هنا العلم كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، «فهو يقضي بها ويعلمها الناس» يقضي بها في نفسه وفي أهله، وفي من تحاكم عنده، ويعلمها الناس أيضًا، ليس يقتصر على أن يأتيه الناس فيقول: إذا جاءوني حكمت وقضيت؛ بل يقضي ويعلِّم، ويبدأ الناس بذلك، فهذا لا شك أنه مغبوط على ما آتاه الله عزَّ وجلَّ من الحكمة.

والناس في الحكمة ينقسمون إلى أقسام:

قسم آتاه الله الحكمة فبخل بها حتى على نفسه، لم يتنتفع بها في نفسه، ولم يعمل بطاعة الله، ولم ينته عن معصية الله، فهذا خاسر والعياذ بالله، وهذا يشبه اليهود الذين علموا الحق واستكبروا عنه.

وقسم آخر أعطاه الله الحكمة فعمل بها في نفسه، لكن لم ينفع بها عباد الله، وهذا خيرٌ من الذي قبله، لكنه ناقص.

وقسم آخر أعطاه الله الحكمة فقضى بها وعمل بها في نفسه وعلمها الناس، فهذا خيرُ الأقسام.

وهناك قسم رابع لم يؤت الحكمة إطلاقًا فهو جاهل، وهذا حُرم خيرًا كثيرًا، لكنه أحسن حالاً ممن أوتي الحكمة ولم يعمل بها؛ لأن هذا يُرجى إذا علم أن يتعلم ويعمل، بخلاف الذي أعطاه الله العلم، وكان علمه وبالاً عليه والعياذ بالله نسأل الله تعالى أن يرزقنا وإياكم الحكمة والعلم النافع والعمل الصالح.

* * *

١٠ / ٥٥٣ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما سُئل رسولُ الله ﷺ عَلَى الإسلامِ شَيْئًا إلاَّ أعْطَاهُ، وَلَقَدْ جَاءَهُ رجُلٌ، فأعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ أسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لا يَخْشَى الفَقْرَ، وإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إلا الدُّنْيَا، فَمَا يَلْبَثُ إلاَّ يَسِيرًا حَتَّى يَكُونَ الإِسْلامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا. رواه مسلم[١].

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله...، رقم(٢٣١٢).

١٣ / ٥٥٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَال، وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إلا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أحَدٌ لله إلا رَفَعَهُ الله عَزَّ وجَلَّ» رواه مسلم(١).

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما سئل النبي ﷺ شيئًا على الإسلام إلا أعطاه؛ لأنه ﷺ كان أكرم الناس، وكان يبذل أمواله فيما يقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك أنه ﷺ إذا سأله شخص على الإسلام يعني على التأليف على الإسلام والرغبة فيه إلا أعطاه، مهما كان هذا الشيء، حتى إنه سأله أعرابي فأعطاه غنمًا بين جبلين، بين جبلين معناه: أنها غنم كثيرة؛ لكن الرسول ﷺ أعطاه لما يرجو من الخير لهذا الرجل ولمن وراءه.

ولذلك ذهب هذا الرجل إلى قومه فقال: «يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر»، عليه الصلاة والسلام، يعني: يعطي عطاءً جزيلاً، عطاء من لا يخشى الفقر، فانظر إلى هذا العطاء كيف أثَّر في هذا الرجل هذا التأثير العظيم، حتى أصبح داعية إلى الإسلام.

وهو إنما سأل طمعًا كغيره من الأعراب، فالأعراب أهل طمع، يحبون المال ويسألونه، ولكنه لما أعطاه الرسول عليه الصلاة والسلام هذا العطاء الجزيل صار داعية إلى الإسلام، فقال: «يا قوم أسلموا» ولم يقل:

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم(٢٥٨٨).

أسلموا تدخلوا الجنة وتنجوا من النار، بل قال: «أسلموا؛ فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر» يعني سيعطيكم ويكثر.

ولكنهم إذا أسلموا من أجل المال، فإنهم لا يلبثون يسيرًا إلا وقد صار الإسلام أحب شيء إليهم، أحب من الدنيا وما فيها، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعطي الرجل تأليفًا له على الإسلام، يعطيه حتى يسلم للمال؛ لكنه لا يلبث إلا يسيرًا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها.

ويؤخذ من هذا الحديث وأمثاله: أنه لا ينبغي لنا أن نبتعد عن أهل الكفر وعن أهل الفسوق، وأن ندعهم للشياطين تلعب بهم؛ بل نؤلفهم، ونجذبهم إلينا بالمال واللين وحسن الخلق حتى يألفوا الإسلام، فها هو الرسول عليه الصلاة والسلام يعطي الكفار، يعطيهم حتى من الفيء.

بل إن الله جعل لهم حظًّا من الزكاة، نعطيهم لنؤلفهم على الإسلام، حتى يدخلوا في دين الله، والإنسان قد يسلم للدنيا، ولكن إذا ذاق طعم الإسلام رغب فيه، فصار أحب شيء إليه.

قال بعض أهل العلم: طلبنا العلم لغير الله؛ فأبى أن يكون إلا لله، فالأعمال الصالحة لابد أن تربي صاحبها على الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام.

وإذا كان هذا دأب الإسلام فيمن يُعطى على الإسلام ويُؤلف؛ فإنه ينبغي لنا أن ننظر إلى هذا نظرة جدية، فنعطي من كان كافرًا إذا وجدنا فيه قربًا من الإسلام، ونهاديه ونحسن له الخلق، فإذا اهتدى فلئن يهدي الله

بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم.

وهكذا أيضًا الفساق هَادِهِمْ، انصحهم باللين، وبالتي هي أحسن، ولا تقل: أنا أبغضهم لله، ابغضهم لله وادعهم إلى الله، بغضك إياهم لله لا يمنعك أن تدعوهم إلى الله؛ بل ادعهم إلى الله عزَّ وجلَّ وإن كنتَ تكرههم، فلعلهم يومًا من الأيام يكونون من أحبابك في الله.

ثم ذكر المؤلف الحديث الآخر أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «ما نقصت صدقة من مال» يعني الإنسان إذا تصدق؛ فإن الشيطان يقول له: أنت إذا تصدقت نقص مالك، عندك مائة ريال إذا تصدقت بعشرة لم يكن عندك إلا تسعون، إذًا نقص المال فلا تتصدق، كلما تصدقت ينقص مالك.

ولكن من لا ينطق عن الهوى يقول: «إن الصدقة لا تنقص المال، لا تنقصه لماذا؟»، قد تنقصه كمًّا، لكنها تزيده كيفًا وبركة، وربما هذه العشرة يأتي بدلها مائة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]، أي يجعل لكم خلفًا عنه عاجلاً، وأجرًا وثوابًا آجلاً. قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

والمسلمون اليوم مقبلون على شهر رمضان، وشهر رمضان مقبل عليهم، فهو شهر الجود والكرم، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكرم الناس، وكان أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة(١).

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي ﷺ، رقم(١٩٠٢)، ومسلم، =

الريح المرسلة التي أمرها الله وأرسلها فهي عاصفة سريعة، ومع ذلك فالرسول عليه الصلاة والسلام أسرع بالخير في رمضان من هذه الريح المرسلة، فينبغي لنا إن كانت زكاة فزكاة، وإن كانت تبرعًا فتبرع؛ لأنه شهر الخير والبركة والإنفاق.

ويزيد العامة على قوله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال» يجري على ألسنة العامة قولهم: «بل تزده؛ بل تزده». وهذه لا صحة لها، فلم تصح عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنما الذي صح عنه ﷺ قوله: «ما نقصت صدقة من مال».

فالزيادة التي تحصل بدل الصدقة إما كمية وإما كيفية.

مثال الكمية: أن الله تعالى يفتح لك بابًا من الرزق ما كان في حسابك.

والكيفية: أن ينزل الله لك البركة فيما بقي من مالك.

ثم قال ﷺ: «وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا»، إذا جنى عليك أحد وظلمك في مالك، أو في بدنك، أو في أهلك، أو في حق من حقوقك، فإن النفس شحيحة تأبى إلا أن تنتقم منه، وأن تأخذ بحقك، وهذا لك. قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

ولا يلام الإنسان على ذلك، لكن إذا هم بالعفو وحدث نفسه بالعفو قالت له نفسه الأمارة بالسوء: إن هذا ذل وضعف، كيف تعفو عن شخص

= كتاب الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس، رقم(٢٣٠٨).

جنى عليك أو اعتدى عليك؟!

فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا» والعز ضد الذل، والذي تحدثك به نفسك أنك إذا عفوت فقد ذللت أمام من اعتدى عليك، فهذا من خداع النفس الأمارة بالسوء ونهيها عن الخير، فإن الله تعالى يثيبك على عفوك هذا، فالله لا يزيدك إلا عزًّا ورفعة في الدنيا والآخرة.

ثم قال ﷺ: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه». وهذه الرفعة تكون بسبب التواضع والتضامن، والتهاون، ولكن الإنسان يظن أنه إذا تواضع نزل، ولكن الأمر بالعكس، إذا تواضعت لله؛ فإن الله تعالى يرفعك.

وقوله: «تواضع لله» لها معنيان:

المعنى الأول: أن تتواضع لله بالعبادة وتخضع لله وتنقاد لأمر الله.

المعنى الثاني: أن تتواضع لعباد الله من أجل الله، وكلاهما سبب للرفعة، سواء تواضعت لله بامتثال أمره واجتناب نهيه وذللت له وعبدته، أو تواضعت لعباد الله من أجل الله لا خوفًا منهم، ولا مداراة لهم، ولا طلبًا لمال أو غيره، إنما تتواضع من أجل الله عزَّ وجلَّ، فإن الله تعالى يرفعك في الدنيا أو في الآخرة.

فهذه الأحاديث كلها تدل على فضل الصدقة والتبرع، وبذل المعروف والإحسان إلى الغير، وأن ذلك من خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

٦١ـ باب النهي عن البخل والشح

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ٨ ـ ١١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه رياض الصالحين باب النهي عن البخل والشح.

والبخل: هو منع ما يجب وما ينبغي بذله.

والشح: هو الطمع فيما ليس عنده، وهو أشد من البخل؛ لأن الشحيح يطمع فيما عند الناس ويمنع ما عنده، والبخيل يمنع ما عنده مما أوجب الله عليه من زكاة ونفقات، ومما ينبغي بذله فيما تقتضيه المروءة.

وكلاهما ـ أعني البخل والشح ـ خلقان ذميمان، فإن الله سبحانه وتعالى ذم من يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، وقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

ثم استدل المؤلف رحمه الله بآيتين من كتاب الله:

الآية الأولى: وهي في البخل، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ٨ ـ ١١]، وهذه الآيات قسيم الآيات التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧].

فالإنسان المصدق بالحق المعطي لما يجب إعطاؤه وبذله من علم،

ومال وجاه، والمتقي لله عزَّ وجلَّ، هذا ييَّسر لليسرى، أي ييسره الله تعالى لأيسر الطرق في الدنيا والآخرة.

وقد أجاب النبي ﷺ أصحابه حينما حدثهم. قال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومن النار» يعني أن الأمر مفروغ منه ـ قالوا: «يا رسول الله، أفلا نتكل وندع العمل؟ يعني نتكل على ما كتب لنا وندع العمل. قال: «لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[١].

ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

فأنت فكّر في نفسك، هل عندك تصديق وإعطاء وبذل لما يجب بذله وتقوى لله عزَّ وجلَّ، فإنك موفق ميسر لليسرى، والعكس بالعكس.

الشاهد من هذه الآية في الباب قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ بخل بما يجب بذله من مال أو جاه أو علم.

ومن ذلك ما جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «البخيل من إذا ذكرت عنده لم يصلّ عليَّ»[٢] عليه الصلاة والسلام. وهذا بخل بما يجب على الإنسان إذا سمع ذكر نبيه عليه الصلاة والسلام الذي هداه الله على يديه. أن يبخل فلا يصلى عليه، عليه الصلاةوالسلام، وكان

---

(١) رواه البخاري، كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، رقم(٦٦٠٥)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي. . .، رقم(٢٦٤٧).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب قول الرسول ﷺ رغم أنف الرجل، رقم(٣٥٤٦). وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

الأولى به والأجدر بالصلاة والسلام عليه.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ أي استغنى بنفسه وزعم أنه مستغن عن رحمة الله والعياذ بالله، فلا يعمل ولا يستقيم على أمر الله.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي كذب بالكلمة الحسنى وهي قول الحق، وهي ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ تعسر عليه الأمور التي تسهل على المتقي، فلا تسهل عليه الطاعات يجد الطاعات ثقيلة؛ الصلاة ثقيلة، والصدقة ثقيلة، والصيام ثقيل، والحج ثقيل، كل شيء متعسر عنده.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ١١]، يعني أي شيء يغني عنه ماله إذا هلك؟ والجواب أنه لا يغني عنه شيئًا، فهذا المال الذي بخل به لا يحميه من عذاب الله وعقابه ولا يغني عنه شيئًا.

وأما الآية الثانية التي استدل بها المؤلف فهي في الشح، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني من يقيه الله شحّ نفسه فلا يطمع فيما ليس له؛ فهذا هو المفلح.

* * *

١/٥٦٣ ـ وعن جابر رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، واتَّقُوا الشحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، واستَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» رواه مسلم[١].

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم(٢٥٧٨).

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في كتاب رياض الصالحين في باب النهي عن البخل والشح قال: عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» اتقوا الظلم بمعنى احذروه، واتخذوا وقاية منه وابتعدوا عنه.

والظلم: هو العدوان على الغير، وأعظم الظلم وأشده الشرك بالله عزَّ وجلَّ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ويشمل الظلم ظلم العباد، وهو نوعان: ظلم بترك الواجب لهم، وظلم بالعدوان عليهم بأخذ أو بانتهاك حرماتهم.

فمثال الأول ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «مطل الغني ظلم[(١)]» يعني ممانعة الإنسان الذي عليه دين عن الوفاء وهو غني قادرٌ على الوفاء ظلم، وهذا منع ما يجب؛ لأن الواجب على الإنسان أن يبادر بالوفاء إذا كان له قدرة، ولا يحل له أن يؤخر، فإن أخر الوفاء وهو قادر عليه؛ كان ظالمًا والعياذ بالله.

والظلم ظلمات يوم القيامة، وكل ساعة أو لحظة تمضي على المماطل فإنه لا يزداد بها إلا إثمًا والعياذ بالله، وربما يعسر الله عليه أمره فلا يستطيع الوفاء إما بخلاً وإما إعدامًا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستقراض، باب مطل الغنى ظلم، رقم(٢٤٠٠)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني..، رقم(١٥٦٤).

يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

فمفهوم الآية أن من لا يتقي الله لا يجعل له من أمره يسرًا، ولذلك يجب على الإنسان القادر أن يبادر بالوفاء إذا طلبه صاحبه، أو أجله وانتهى الأجل.

ومن الظلم أيضًا اقتطاع شيء من الأرض. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا؛ طُوقه يوم القيامة من سبع أرضين»(١).

ومن الظلم الاعتداء على الناس في أعراضهم بالغيبة أو النميمة أو ما أشبه ذلك، فإن الغيبة ذكرك أخاك بما يكره في غيبته، فإن كان في حضرته؛ فهو سب وشتم، فإذا ظلم الناس بالغيبة بأن قال: فلان طويل. فلان قصير. فلان سيء الخلق. فلان فيه كذا، فهذه غيبة وظلم يحاسب عليها يوم القيامة.

وكذلك أيضًا إذا جحد ما يجب عليه جحودًا؛ بأن كان لفلان عليه حق، فيقول ليس له علي حق ويكتم، فإن هذا ظلم؛ لأنه إذا كانت المماطلة ظلمًا فهذا أظلم، كمن جحد شيئًا واجبًا عليه، فإنه ظالم.

وعلى كل حال؛ اتقوا الظلم بجميع أنواعه، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، يكون على صاحبه والعياذ بالله ظلمات بحسب الظلم الذي وقع

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم(٢٤٥٣)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض. . .، رقم(١٦١٠).

منه؛ الكبير ظلماته كبيرة، والكثير ظلماته كثيرة، وكل شيء بحسبه، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وفي هذا دليلٌ على أن الظلم من كبائر الذنوب؛ لأنه لا وعيد إلا على كبيرة من كبائر الذنوب، فظلم العباد وظلم الخالق عزَّ وجلَّ رب العباد؛ كله من كبائر الذنوب.

ثم قال ﷺ: «واتقوا الشح» يعني الطمع في حقوق الغير. اتقوه: أي احذروا منه، واجتنبوه «فإنه أهلك من كان قبلكم» يعني من الأمم «حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» فكان هلاكهم بذلك والعياذ بالله.

* * *

٦٢ - باب الإيثار والمواساة

قال الله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

وقال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الدهر: ٨]. إلى آخر الآيات.

الشرح

باب الإيثار والمواساة. ذكر المؤلف هذا الباب عقب باب النهي عن البخل والشح؛ لأنهما متضادان.

فالإيثار: أن يقدم الإنسان غيره على نفسه.

والمواساة: أن يواسي غيره بنفسه، والإيثار أفضل ولكن ليعلم أن الإيثار ينقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: ممنوع، والثاني: مكروه أو مباح، والثالث: مباح.

أما الممنوع فهو أن تؤثر غيرك بما يجب عليك شرعًا فإنه لا يجوز أن تقدم غيرك فيما يجب عليك شرعًا.

ومثاله: إذا كان معك ماء يكفي لوضوء رجل واحد، وأنت لست على وضوء، وهناك صاحب لك ليس على وضوء فالماء لك، لكن إما أن يتوضأ به صاحبك وتتيمم أنت، أو تتوضأ أنت ويتيمم صاحبك، ففي هذه الحال لا يجوز أن تعطيه الماء وتتيمم أنت؛ لأنك واجد للماء، والماء في ملكك، ولا يجوز العدول عن الماء إلى التيمم إلا لعادم.

فالإيثار في الواجبات الشرعية حرام، ولا يحل؛ لأنه يستلزم إسقاط الواجب عليك.

وأما القسم الثاني: وهو المكروه أو المباح: فالإيثار بالأمور المستحبة، وقد كرهه بعض أهل العلم وأباحه بعضهم، لكن تركه أولى لا شك إلا لمصلحة.

ومثاله: أن تؤثر غيرك في الصف الأول الذي أنت فيه، مثل أن تكون أنت في الصف الأول في الصلاة، فيدخل إنسان فتقوم عن مكانك وتؤثره به، فقد كره أهل العلم هذا، وقالوا: إن هذا دليلٌ على أن الإنسان يرغب عن الخير، والرغبة عن الخير مكروهة، إذ كيف تقدم غيرك إلى مكان فاضل أنت أحق به منه؟!

وقال بعض العلماء: تركه أولى إلا إذا كان فيه مصلحة، كما لو كان أبوك وتخشى أن يقع في قلبه شيء عليك فتؤثره بمكانك الفاضل، فهذا لا بأس به.

القسم الثالث: وهو المباح: وهذا المباح قد يكون مستحبًّا، وذلك أن تؤثر غيرك في أمر غير تعبدي، أي تؤثر غيرك وتقدمه على نفسك في أمر غير تعبدي.

مثل: أن يكون معك طعام وأنت جائع، وصاحب لك جائع مثلك، ففي هذه الحال إذا آثرته فإنك محمود على هذا الإيثار؛ لقول الله تبارك وتعالى في وصف الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحشر: ٩].

ووجه إيثارهم على أنفسهم أن المهاجرين لما قدموا المدينة تلقاهم الأنصار بالإكرام والاحترام والإيثار بالمال، حتى أن بعضهم يقول لأخيه المهاجري: إن شئت أن أتنازل عن إحدى زوجتي لك فعلت؛ يعني يطلقها فيتزوجها المهاجريّ بعد مضي عدتها. وهذا من شدة إيثارهم رضي الله عنهم لإخوانهم المهاجرين.

وقال تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

يعني يطعمون الطعام وهم يحبونه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا، ويتركون أنفسهم، هذا أيضًا من باب الإيثار.

* * *

١/٥٦٤ - وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: إنِّي مَجْهُودٌ، فَأرْسَلَ إِلَى بَعضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: والَّذي بَعَثَكَ بالحَقِّ مَا عِنْدِي إلا مَاءٌ، ثم أرْسَلَ إِلَى أخْرَى، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهنَّ مِثْلَ ذلك: لا والَّذِي بَعَثَكَ بِالحقِّ ما عِنْدِي إلا ماءٌ، فقال النبي ﷺ: «من يُضِيفُ هَذَا اللَيْلَةَ؟» فقال رَجُلٌ من الأنْصَارِ: أنا يا رسُول الله، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لامْرَأته: أكرمي ضَيْفَ رسول الله ﷺ.

وفي رواية قال لامرأتِهِ: هل عِنْدَكِ شَيءٌ؟ فَقَالَتْ: لا، إلا قُوتَ صِبْيَانِي. قال: عَلِّليهِم بِشَيءٍ وإذَا أرَادُوا العَشَاءَ، فَنَوِّمِيهم، وإذَا دخل ضَيْفُنَا، فَأطْفِئِي السِّرَاجَ، وأرِيهِ أنَّا نأكُلُ؛ فقَعَدُوا وأكل الضَّيْفُ وبَاتا طَاوِيَيْنِ، فلَمَّا أصْبَحَ، غَدَا على النَّبِيِّ ﷺ فقال: «لَقَدْ عَجَبَ اللهُ من صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ» متفقٌ عليه[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قول الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم...، =

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى في باب الإيثار على النفس هذا الحديث العظيم العجيب؛ الذي يبين حال رسول الله ﷺ وأصحابه حيث جاءه رجل فقال: «يا رسول الله ﷺ إني مجهود» يعني مجهد من الفقر والجوع، وهو ضيف على رسول الله ﷺ، فأرسل النبي ﷺ إلى زوجاته واحدة تلو الآخرى يسألها هل عندها شيء، فكانت كلّ واحدة تقول: «لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء».

تسعة أبيات للرسول عليه الصلاة والسلام ليس فيها إلا الماء، مع أن النبي ﷺ لو شاء أن يسيّر الله الجبال معه ذهبًا لسارت، لكنه عليه الصلاة والسلام كان أزهد الناس في الدنيا، كل بيوته التسعة ليس فيها شيء إلا الماء.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «من يُضيف هذا الليلة» يعني هذا الضيف.

فقال رجلٌ من الأنصار: «أنا يا رسول الله» أنا أضيفه. «فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا؛ إلا قوت صبياني» يعني ليس عندها في البيت إلا العشاء لهم تلك الليلة فقط. فقال: «أكرمي ضيف رسول الله ﷺ» وأمرها أن تشغل أولادها وتلهيهم.

حتى إذا جاء وقت الطعام نومتهم، وأطفأت المصباح، وأرت الضيف

= رقم(٣٧٩٨)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف...، رقم(٢٠٥٤).

أنهم يأكلون معه ففعلت، هدأت الصبيان وعللتهم ونومتهم، فناموا على غير عشاء، ثم إن العشاء لما قُدِّم أطفأت المصباح وأرت الضيف أنها تأكل هي وزوجها معه، وهما لا يأكلان، فشبع الضيف وباتا طاويين، يعني غير متعشيين إكرامًا لضيف الرسول ﷺ.

ثم إنه أصبح فغدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره الرسول عليه الصلاة والسلام أن الله قد عجب من صنيعهما تلك الليلة، والعجب هنا عجب استحسان، استحسن عزَّ وجلَّ صنيعهما من تلك الليلة لما يشتمل عليه من الفوائد العظيمة.

ففي هذا الحديث من الفوائد ما يلي:

أولاً: بيان حال رسول الله ﷺ وما هو عليه من شظف العيش وقلة ذات اليد، مع أنه عليه الصلاة والسلام أكرم الخلق على الله، ولو كانت الدنيا تساوي عند الله شيئًا؛ لكان أبر الناس بها وأحقهم رسول الله ﷺ، ولكنها لا تساوي شيئًا.

قال ابن القيم رحمه الله:

لو ساوت الدنيا جناح بعوضة
لم يسق منها الرب ذا الكفران
لكنها والله أحقر عنده
من ذا الجناح القاصر الطيران

أحقر من جناح البعوضة عند الله؛ فليست بشيء.

ومنها: حسن أدب الصحابة مع النبي ﷺ، فإن هذا الأنصاري رضي

الله عنه قال لزوجته: «أكرمي ضيف رسول الله ﷺ» ولم يقل أكرمي ضيفنا مع أن الذي أضافه في الحقيقة هو هذا الرجل، لكنه أضافه نيابة عن الرسول عليه الصلاة والسلام، فجعله ضيفًا لرسول الله ﷺ.

ومنها: أنه يجوز عرض الضيافة على الناس، ولا يعد هذا من المسألة المذمومة، أولاً لأنه لم يعين، فلم يقل: يا فلان ضيّف هذا الرجل حتى نقول: إنه أحرجه، وإنما هو على سبيل العموم، فيجوز للإنسان مثلاً إذا نزل به ضيف وكان مشغولاً، أو ليس عنده ما يضيفه به، أن يقول لمن حوله: من يضيّف هذا الرجل؟ ولا حرج في ذلك.

ومنها: الإيثار العظيم من هذا الرجل الأنصاري، حيث بات هو وزوجته وصبيته من غير عشاء إكرامًا لهذا الضيف الذي نزل ضيفًا على رسول الله ﷺ.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان ألا يُري ضيفه أنه مانّ عليه، أو أن الضيف مضيق عليه، ومحرج له؛ لأن الرجل أمر بإطفاء المصباح حتى لا يظن الضيف أنه ضيق عليهم وحرمهم العشاء، وهذا مأخوذ من أدب الخليل إبراهيم عليه السلام حين نزلت به الملائكة ضيوفًا ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]، حينئذ، لكنه راغ إلى أهله، أي ذهب بسرعة وخفية لئلا يخجل الضيف.

ومنها: أنه يجوز للإنسان أن يؤثر الضيف ونحوه على عائلته، وهذا في الأحوال النادرة العارضة، وإلا فقد قال النبي ﷺ: «ابدأ بنفسك

فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك»[١].

ولكن إذا عرضت مثل هذه الأحوال؛ فلا حرج على الإنسان أن يقدم الضيف أو نحوه ممن يجب عليه إكرامه.

ومن تأمل سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وهديه وهدي أصحابه؛ وجد فيها من مكارم الأخلاق ومعالي الآداب ما لو سار الناس عليه لنالوا بذلك رفعة الدنيا والآخرة. وفقنا الله وإياكم لما فيه الخير في الدنيا والآخرة.

* * *

٢/٥٦٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «طَعَامُ الاثْنَيْنِ كافي الثَّلاثَةِ، وطَعَامُ الثَّلاثَةِ كَافي الأربَعَةِ» متفقٌ عليه[٢].

وفي رواية لمسلم[٣] عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «طَعَامُ الوَاحِدِ يَكفِي الاثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الاثْنَيْنِ يَكْفِي الأربَعَةَ، وَطَعَامُ الأربَعَةِ يَكفِي الثَّمَانِيَةَ».

٣/٥٦٦ ـ وعن أبي سَعيدِ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ في سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إذ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظهْرٍ فَلْيَعُد به عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله...، رقم(٩٩٧).
(٢) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب طعام الواحد يكفي الاثنين، رقم(٥٣٩٢)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب فضيلة المواساة في الطعام...، رقم(٢٠٥٨).
(٣) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب فضيلة المواساة في الطعام...، رقم(٢٠٥٩).

كَانَ لَهُ فَضْلٌ من زَادٍ، فَلْيَعُد به عَلَى مَنْ لا زادَ لَهُ» فَذَكَرَ مِنْ أصْنَافِ المَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأيْنَا أنَّهُ لا حَقَّ لأحدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ(١). رواه مسلم.

٤ /٥٦٧ ـ وعن سَهْل بن سعد رضي الله عنه أنَّ امرَأةً جَاءَتْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ، فَقَالَتْ: نَسَجتُهَا بِيَدَيَّ لأكْسُوكَهَا، فأخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إلَيْهَا، فَخَرَجَ إلَيْنَا وَإنَّهَا لإزَارُهُ، فقال فُلانٌ: اكسُنِيهَا مَا أحْسَنَها!

فَقَالَ: «نَعَمْ» فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ في المَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا ثُمَّ أرسَلَ بِهَا إلَيْهِ.

فَقَالَ لَهُ القَوْمُ: ما أحسَنْتَ! لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إلَيْهَا، ثُمَّ سَألْتَهُ، وَعَلِمتَ أنَّهُ لا يَرُدُّ سَائِلاً، فَقَالَ: إنِّي والله ما سألْتُهُ لألْبَسَهَا، إنَّمَا سألته لِتَكُونَ كَفَنِي. قال سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ. رواه البخاري(٢).

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله هذه الأحاديث الأربعة في باب الإيثار وهي حديث أبي هريرة، وجابر، وأبي سعيد، وسهل بن سعد.

ففي الحديثين الأولين، بيَّن النبي ﷺ أن طعام الواحد يكفي الاثنين، وأن طعام الاثنين يكفي الأربعة، وأن طعام الأربعة يكفي الثمانية، وهذا حث منه عليه الصلاة والسلام على الإيثار، يعني أنك لو أتيت بطعامك الذي قدرت أنه يكفيك، وجاء رجلٌ آخر فلا تبخل، لا تبخل عليه وتقول

---

(١) رواه مسلم، كتاب اللقطة، باب استحباب المواساة بفضول المال، رقم(١٧٢٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب من استعد الكفن في زمن رسول الله ﷺ، رقم(١٢٧٧).

هذا طعامي وحدي؛ بل أعطه منه حتى يكون كافيًا للاثنين.

وكذلك لو جاء اثنان بطعامهما، ثم جاءهما اثنان، فلا يبخلان عليه ويقولان هذا طعامنا، بل يطعمانهما؛ فإن طعامهما يكفيهما ويكفي الاثنين، وهكذا الأربعة مع الثمانية.

وإنما ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام هذا من أجل أن يؤثر الإنسان بفضل طعامه على أخيه.

وكذلك أيضًا حديث أبي سعيد في قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ على رحل له، فجعل يلتفت يمينًا وشمالاً، وكأن النبي ﷺ فهم أن الرجل محتاج، فقال عليه الصلاة والسلام: «من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له».

وذكر أنواعًا ولم يبادر فيقول من كان له فضل زاد مثلاً لئلا يخجل الرجل، بل قال: «من كان له فضل ظهر»، والرجل لا يحتاج إلى الظهر؛ لأنه كان على راحلته، لكن هذا من حسن خطاب النبي ﷺ.

يقول الراوي: «حتى رأينا أنه لا حقّ لأحد منا في فضل» يعني أن الإنسان يبذل كل ما عنده حتى لا يبقى معه فضل، يعني من الطعام والشراب والرحل وغير ذلك، وهذا كله من باب الإيثار.

وأما الحديث الرابع حديث سهل بن سعد، فإن امرأة جاءت وأهدت إلى النبي ﷺ بردة، وكان ﷺ لا يرد الهدية؛ بل يقبل الهدية ويثيب عليها صلوات الله وسلامه عليه، وهذا من كرمه وحسن خلقه، فتقدم رجل إليه، فقال: ما أحسن هذه، وطلبها من النبي ﷺ، ففعل الرسول عليه الصلاة

والسلام، خلعها وطواها، وأعطاه إياها.

فقيل للرجل: كيف تطلبها من النبي ﷺ وأنت تعلم أنه لا يردّ سائلاً؟ فقال: والله ما طلبتها لألبسها، ولكن لتكون كفني رضي الله عنه، فأبقاها عنده فصارت كفنه، ففي هذا إيثار النبي ﷺ على نفسه؛ لأنه آثر بها هذا الرجل مع أن الذي يظهر أنه في حاجة لها.

* * *

٥/٥٦٨ ـ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الأشْعَرِيِّينَ إذَا أرْمَلُوا في الغَزْوِ، أو قَلَّ طَعَام عِيالِهِمْ بِالمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ في ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إنَاءٍ وَاحِدٍ بالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وأنَا مِنْهُمْ» متفقٌ عليه[1].

«أرملوا»: فرغ زادهم، أو قارب الفراغ.

* * *

(١) رواه البخاري، كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام...، رقم(٢٤٨٦)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأشعريين، رقم(٢٥٠٠).

٦٣ـ باب التنافس في أمور الآخرة والاستكثار مما يُتبرك به

قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

١/٥٦٩ ـ وعن سهلِ بنِ سعدٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أُتِيَ بِشَرابٍ، فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلامٌ وَعَنْ يَسَارِهِ الأشْيَاخُ، فقال لِلْغُلام: «أتأذنُ لِي أَنْ أعْطِيَ هَؤُلاءِ؟» فقال الغُلَامُ: لا والله يا رَسُولَ اللهِ، لا أوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أحَدًا، فَتَلَّهُ رسولُ الله ﷺ في يَدِهِ. متفقٌ عليه[1].

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في آخر باب فضل الإيثار، حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وأصحابه الذين هم من الأشعريين من أهل اليمن، كانوا يتساعدون في أمورهم، فإذا أتاهم شيء من المال جمعوه ثم اقتسموه بينهم بالسوية. قال النبي ﷺ: **«فهم مني وأنا منهم»** قال ذلك تشجيعًا لما يفعلونه.

وهذا الحديث أصلٌ في الجمعيات التعاونية التي يفعلها بعض الناس اليوم، تجتمع القبيلة على أن يضعوا صندوقًا يجمعون فيه ما يريد الله عزَّ وجلَّ من المال؛ إما بالنسبة وإما بالاجتهاد والترشيح، فيكون مثلاً على

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب إذا أذن له أو أحله. . .، رقم(٢٤٥١)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب استحباب إدارة الماء. . .، رقم(٢٠٣٠).

كل واحد منهم أن يدفع اثنين في المائة من راتبه أو من كسبه أو ما أشبه ذلك، ويكون هذا الصندوق معدًّا للجوائح والنكبات التي تحصل على واحد منهم.

فهذا أصله حديث أبي موسى رضي الله عنه الذي سبق، فإذا جمع الناس صندوقًا على هذا النحو ليتساعدوا فيه على نكبات الزمان من الحوادث وغيرها، فإن لذلك أصلاً في السنة، وهو من الأمور المشروعة.

ولكن ينبغي أن نعلم أن هذا الصندوق قد يكون لمن يقع عليه الحادث، وقد يكون لمن يقع منه الحادث.

أما الأول: فأن يوضع الصندوق للناس لمساعدة الناس الذين يحصل عليهم جوائح؛ مثل جوائح تتلف زروعهم ومواشيهم، أو أمطار تهدم بيوتهم، أو ما أشبه ذلك، أو حوادث تحدث على سياراتهم من غيرهم، فيحتاجون إلى المساعدة؛ فهذا طيب ولا إشكال فيه.

أما الثاني: فهو للحوادث التي تقع من الشخص، فإذا فعل شخص حادثًا مثل دعس أحد أو ما أشبه ذلك يساعد، فهذا ينبغي أن ينظر في هذا الأمر؛ لأننا إذا وضعنا صندوقًا لهذا فإن السفهاء قد يتهورون، ولا يهمهم أن تقع الحوادث منهم، فإذا قدر أننا وضعنا صندوقًا لهذا الشيء فليكن ذلك بعد الدراسة؛ دراسة ما حدث من الشخص دراسة عميقة، وأنه لم يحدث منه تهورٌ ولم يحدث منه تفريطٌ، وإلا فلا ينبغي أن توضع الصناديق لمساعدة هؤلاء السفهاء الذين يومًا يدعسون شخصًا، ويومًا يصدمون سيارة وما أشبه ذلك، وربما يقع ذلك عن حال غير مرضية كَسُكْرٍ، أو عن

حال يفرط فيها الإنسان كالنوم وما أشبه ذلك.

والحاصل أن هذه الصناديق تكون على وجهين:

الوجه الأول: مساعدة من يحصل عليه حادث، فهذا طيب ولا إشكال فيه.

والوجه الثاني: أن يكون ممن يحصل منه حادث، فهذا إن وضع ـ ولا أحبذ أن يوضع، لكن إن وضع ـ فإنه يجب التحرز والتثبت من كون هذا الرجل الذي حصل منه الحادث لم يحصل منه تفريط ولا تعدٍّ.

ثم إن هذا المال الذي يوضع في الصندوق ليس فيه زكاة مهما بلغ من القدر، وذلك لأنه ليس له مالك، ومن شروط وجوب الزكاة أن يكون المال له مالك، وهذا الصندوق ليس له مالك؛ بل من حصل عليه حادث فإنه يساعد منه، وأصحابه الذين وضعوا هذه النقود في هذا الصندوق فإنهم لا يملكون أخذها؛ لأنهم قد أخرجوها من أموالهم لمال من؟ لا لأحد وإنما هو للمساعدة، وعلى هذا فلا يكون فيها زكاة.

ثم هاهنا مسألة يسأل عنها الكثير من الناس، وهي أنه يجتمع أناس من الموظفين مثلاً، ويقولون: سنخصم من كل راتب من رواتب هؤلاء النفر ألف ريال على كل واحد، أو عشرة في المائة من راتبه، يعني إما بالنسبة أو بالتعيين، ونعطيها واحدًا منا، وفي الشهر الثاني نعطيها الثاني، وفي الشهر الثالث نعطيها الثالث، وفي الشهر الرابع نعطيها الرابع، حتى تدور عليهم ثم ترجع للأول المرة الثانية، فبعض الناس يسأل عنها.

والجواب على هذا أن نقول: إن هذا صحيحٌ ولا بأس به، وليس فيه

حرج، ومن توهم أنه من باب القرض الذي جر نفعًا فقد وهم؛ لأني إذا سلفتُ أنا هؤلاء الإخوان الذين معي شيئًا فأنا لا آخذ أكثر مما أعطيت، وكونهم يقولون سوف يرجع إليه مال كثيرٌ نقول: نعم، ولكن لم يرجع إليه أكثر مما أعطى، فغاية ما فيه أنه سلف بشرط أن يوفى وليس في هذا شيء.

فهذا وهم من بعض الإخوان وهم بعض طلبة العلم الذين يظنون أن هذا من باب الربا؛ هذا ليس فيه ربا إطلاقًا، بل هو من باب التساعد والتعاون، وكثيرًا ما يحتاج بعض الزملاء إلى أموال حاضرة تفك مشاكله، ويسلم من أن يذهب إلى أحد يتدين منه ويربي عليه، أو يذهب إلى بنك يأخذ منه بالربا أو ما أشبه ذلك، فهذه مصلحة وليس فيها مفسدة بأي وجه من الوجوه والله الموفق.



٦٤ـ باب فضل الغني الشاكر

وهو من أخذ المال من وجهه وصرفه في وجوهه المأمور بها

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ـ٧].

وقال تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٧ـ٢١].

وقال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقال تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٩٢].

والآيات في فضل الإنفاق في الطاعات كثيرة مَعْلُومَةٌ.

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى: باب فضل الغني الشاكر، وهو الذي يأخذ المال بحقه ويصرفه في حقه.

فالغني هو الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى ما يستغني به عن غيره من مال أو علم أو جاه أو غير ذلك، وإن كان الأكثر استعمالاً أن الغني هو الذي أعطاه الله المال الذي يستغني به عن غيره.

والله سبحانه وتعالى يبتلي عباده بالمال يعني بالغنى وبالفقر، فمن

الناس من لو أغناه الله لأفسده الغنى، ومن الناس من لو أفقره الله لأفسده الفقر، والله عزَّ وجلَّ يعطي كل أحد بحسب ما تقتضيه الحكمة ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وإذا أعطى الله الإنسان المال فإنه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: من يعطيه الله المال يكتسبه من طريق حرام؛ كالمرابي، والكذاب، والغشاش في البيع والشراء، ومن أكل أموال الناس بالباطل وما أشبه ذلك، فهذا غناه لا ينفعه؛ لأنه غنى في الدنيا، ولكنه فقير والعياذ بالله في الدنيا والآخرة.

إذ أن هذا الشيء الذي دخل عليه من هذا الوجه سوف يعاقب عليه يوم القيامة، وأعظمه الربا، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول في كتابه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

القسم الثاني من الأغنياء: من أغناه الله بالمال لكن عن طريق الحلال، يبيع بالبيان والنصح والصدق، ويأخذ كذلك، ولا يكتسب إلا المال الحلال، فهذا هو الذي ينفعه غناه؛ لأن من كان كذلك؛ فالغالب أن الله

يوفقه لصرفه فيما ينفع.

فهذا هو الغني الشاكر الذي يأخذ المال بحقه، ويصرفه في حقه على الوجه الذي شرعه الله له.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله آيات في هذا المعنى، فذكر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧].

﴿أعطى﴾ يعني بذل المال في وجهه، واتقى الله سبحانه وتعالى في بذله وفي جمعه، فهذا ييسر لليسرى.

وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ٨ ـ ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ يعني النار ﴿الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢١]، يعني سيجنب هذه النار ﴿الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ يعني على وجه يتزكى به، وعلى وجه يقربه إلى الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ يعني ليس يعطي المال من باب المكافأة، مكافأة نعمة يجزي عليها غيره، ولكنه يعطي المال لله، ولهذا قال: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ لكن يعطي المال ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ بما يجازيه الله به.

فعلى المؤمن إذا أغناه الله عزَّ وجلَّ أن يكون شاكرًا لله قائمًا بما أوجب الله عليه من بذل المال في حقه على الوجه الذي يرضي الله عزَّ وجلَّ.

* * *

١ / ٥٧١ ـ وعن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: «لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رجُلٌ آتاهُ الله مَالاً، فَسلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتاهُ الله حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا» متفقٌ عليه(١)، وتقدم شرحه قريبًا.

٢ / ٥٧٢ ـ وعن ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رجُلٌ آتاهُ الله القُرآنَ، فهو يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً، فَهُو يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النَّهَارِ» متفقٌ عليه(٢).

٣ / ٥٧٣ ـ وَعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ فُقَرَاءَ المُهَاجِرِينَ أتَوْا رسول الله ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أهلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ العُلَى، والنَّعِيمِ المُقِيمِ، فَقَالَ: «وما ذَاكَ؟» فَقَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ، وَيَعْتِقُونَ ولا نَعْتِقُ، فقال رسول الله ﷺ: «أفَلاَ أعَلِّمُكُمْ شَيئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلاَ يَكُونُ أحَدٌ أفْضَلَ مِنْكُمْ إلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟» قالوا: بَلَى يا رسولَ الله، قَالَ: «تُسَبِّحُونَ وَتُحَمِّدُونَ وَتُكَبِّرُونَ، دُبُر كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وثَلاثِينَ مَرَّةً» فَرَجَعَ فُقَراءُ المُهَاجِرينَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: سَمِعَ إخْوانُنَا أهْلُ الأموَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ؟ فَقَالَ رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» متفقٌ عليه(٣)، وهذا لفظ رواية مسلم.

«الدُّثُورُ»: الأموال الكثيرةُ، والله أعلم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، رقم(٥٠٢٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن يعلمه. . .، رقم(٨١٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء بعد الصلاة، رقم(٦٣٢٩)، ومسلم، كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة. . .، رقم(٥٩٥).

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله أحاديث في بيان الذين ينفقون أموالهم ويجودون بها في سبيل الله، ففي حديث عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما بيان أنه لا حسد إلا في اثنتين، يعني: لا أحد يُغبط غبطة حقيقية إلا هذان الصنفان:

الأول: من آتاه الله العلم وهو الحكمة، فكان يعمل بها ويعلمها الناس، فهذا هو الذي يغبط؛ لأنك إذا قارنت بين حال هذا الرجل وحال الجاهل عرفت الفرق بينهما؛ الجاهل يعبد الله على جهل، ولا يعرف من شريعة الله إلا ما فعله الناس، فتجده يتبع الناس على الصواب والخطأ، وهذا نقص كبير في عبادة الرجل؛ لأن الإنسان إذا عبد الله على غير بصيرة؛ صارت عبادته ناقصة.

كذلك إذا قارنت بين رجل آتاه الله العلم ولكنه لم يعمل به، ورجل آتاه الله العلم فعمل به وعلمه الناس، تجد الفرق العظيم بين هذا وهذا، فالذي يغبط حقيقة هو الذي آتاه الله العلم فعمل به وعلمه الناس.

والثاني: رجلٌ آتاه الله مالاً فهو ينفقه في سبيل الله، في كل ما يرضي الله ليلاً ونهارًا، فهذا هو الذي يغبط، أما من آتاه الله المال ولكنه لم ينفقه في مرضاة الله؛ فلا غبطة فيه، ولا يغبط على ما أوتي؛ لأن هذا المال إن انتفع به؛ انتفع به في الدنيا فقط؛ لأنه لا ينفقه لله ولا في سبيل الله.

والرجل الثالث: رجلٌ فقيرٌ لم يؤت مالاً فهو أيضًا لا يغبط، فلا يغبط من ذوي المال **إلا من آتاه الله مالاً** فسلطه على هلكته في الحق، فيما يرضي

الله عزَّ وجلَّ.

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين جاء فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور» جمع أجر «بالدرجات العلى والنعيم المقيم». قال: «**وما ذاك؟**» قالوا: «يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق» يعني فهم أفضل منا؛ لأن الله منَّ عليهم بالمال فبذلوه في طاعة الله، وفيما يرضي الله.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم، وتسبقون من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟**» فقالوا: «بلى يا رسول الله»، قال: «**تسبحون وتحمدون وتكبرون، دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة**».

يعني تقولون: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين، والله أكبر ثلاثًا وثلاثين، فصاروا يفعلون ذلك، ولكن الأغنياء سمعوا بهذا فصاروا يقولونه؛ يسبحون ويكبرون ويحمدون ثلاثًا وثلاثين دبر كل صلاة.

فرجع الفقراء مرة ثانية إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقالوا: «يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما صنعنا فصنعوا مثله»، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**» يعني أن الله سبحانه وتعالى أغناهم وأعطاهم المال فبذلوه في طاعة الله، وهذا فضل الله.

وفي هذا دليلٌ على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتسابقون إلى

الخير؛ فالأغنياء لما سمعوا بما أرشد إليه النبي عليه الصلاة والسلام الفقراءَ بادروا إليه وفعلوه، والفقراء جاءوا يشكون أنهم كانوا متأخرين عن أهل الأموال فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

والخلاصة أنه ينبغي للإنسان إذا آتاه الله المال أن يبذله فيما يرضي الله، فإن هذا هو الذي يحسد، يعني يغبط على ما آتاه الله من المال.

*　*　*

٦٥ـ باب ذكر الموت وقصر الأمل

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في رياض الصالحين: باب ذكر الموت وقصر الأمل، هذا الباب يذكر فيه المؤلف رحمه الله أنه ينبغي للعاقل أن يتذكر الموت وأن يقصر الأمل ـ يعني الأمل في الدنيا، وليس الأمل في ثواب الله عزَّ وجلَّ وما عنده من الثواب الجزيل لمن عمل صالحًا.

لكن الدنيا لا تطيل الأمل فيها، فكم من إنسان أمّل أملاً بعيدًا فإذا الأجل يفجؤه؟! وكم من إنسان يُقدِّر ويفكر سيفعل ويفعل ويفعل، فإذا به قد انتهى أجله وترك ما أمله، وانقطع حبل الأمل، وحضر الأجل؟!

فالذي ينبغي للإنسان العاقل أنه كلما رأى من نفسه طموحًا إلى الدنيا وانشغالاً بها واغترارًا بها أن يتذكر الموت، ويتذكر حال الآخرة؛ لأن هذا هو المآل المتيقن، وما يؤمله الإنسان في الدنيا فقد يحصل وقد لا يحصل ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ [الإسراء: ١٨]، لا ما يشاء هو، بل ما يشاء الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

ثم ذكر الآيات ومنها قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ فكل نفس منفوسة من بني آدم وغير بني آدم ذائقة الموت، لابد أن تذوق الموت، وعبر بقوله: ذائقة؛ لأن الموت يكون له مذاق مر يكرهه كل إنسان.

لكن المؤمن إذا حضره أجله وبُشِّر بما عند الله عزَّ وجلَّ أحبّ لقاء الله ولا يكره الموت حينئذ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾ أي: تعطونها وافية كاملة يوم القيامة.

وإن أوتي الإنسان أجره في الدنيا فإنه ليس هذا هو الأجر فقط؛ بل الأجر الوافي الكامل الذي به يستوفي الإنسان كل أجره يكون يوم القيامة، وإلا فإن المؤمن قد يُثاب على أعماله الصالحة في الدنيا، لكن ليس هو الأجر الكامل الذي وفَّى التوفية الكاملة تكون يوم القيامة؛ ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ زحزح يعني أبعد عن النار ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾؛ لأنه نجىٰ من المكروه وحصل له المطلوب، نجىٰ من المكروه وهو دخول النار، وحصل له المطلوب وهو دخول الجنة، وهذا هو الفوز العظيم الذي لا فوز مثله.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، صدق الله عزَّ وجلَّ؛ الدنيا متاع الغرور يعني متاع ليس دائمًا؛ بل كما يكون للمسافر متاع يصل به إلى منتهى سفره، ومع ذلك فهي متاع غرور تغر الإنسان، تزدان له وتزدهر وتكتحل وتتحسن وتكون كأحسن شيء، ولكنها تغره.

كلما كثرت الدنيا وتشبث الإنسان بها بعد من الآخرة، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «والله ما الفقر أخشى عليكم، وإنما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا كما فتحت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»(١).

ولهذا نجد الإنسان أحيانًا يكون في حال الضيق أو الوسط خيرًا منه في حال الغنى؛ لأنه يغره الغنى ويطغيه والعياذ بالله، ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، يعني فلا تغتروا بها، وعليكم بالآخرة التي إذا زحرح فيها الإنسان عن النار وأدخل الجنة، فإنه بذلك يفوز فوزًا لا فوز مثله نسأل أن يجعلنا وإياكم ممن أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقاه الله عذاب النار.

* * *

قال رحمه الله تعالى في سياق الآيات في باب ذكر الموت وقصر الأمل:

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ **[لقمان: ٣٤].**

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ **[النحل: ٦١].**

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى في باب ذكر الموت وقصر الأمل فيما

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٩٦١).

ساقه من آيات الله عزَّ وجلَّ، قال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وهذه أحد مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ.

قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ومفاتح الغيب هي الخمس المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

فهذه الخمس لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ، فعلم الساعة لا يعلمه أحد، حتى إن جبريل وهو أشرف الملائكة سأل رسول الله ﷺ محمدًا وهو أعلم البشر فقال: «أخبرني عن الساعة. قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[(١)]. فلا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ والمنزل للغيث يعلم متى ينزل، فهو سبحانه وتعالى هو الذي يعلم متى ينزل الغيث وهو الذي ينزله، والغيث هو المطر الذي يحصل به نبات الأرض وزوال الشدة.

وليس كل مطر يسمى غيثًا، فإن المطر أحيانًا لا يجعل الله فيه بركة فلا تنبت به الأرض، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليس السنة ألا تمطروا» يعني ليس الجدب ألا تمطروا «بل السنة أن تمطروا ولا تنبت

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم(٨)، والبخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم(٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم(٩).

الأرض شيئًا»[(١)].

وهذا يقع أحيانًا، فأحيانًا تكثر الأمطار ولا يجعل الله تعالى فيها بركة، فلا تنبت الأرض ولا تحيا، وهذا الحديث الذي سقته في صحيح مسلم: «إنما السنة أن تمطروا فلا تنبت الأرض شيئًا».

فالذي ينزل الغيث هو الله، والمنزل له عالم متى ينزل، وأما ما نسمعه في الإذاعات من أنه يتوقع مطر في المكان الفلاني وما أشبه ذلك، فهو ظن بحسب ما يتبادر من احتمال المطر بمقياس الجو، وهي مقاييس دقيقة يعرفون بها هل الجو متهيىء للمطر أو لا، ومع ذلك فقد يخطئون كثيرًا، ولا يتوقعون أمطارًا تحدث بعد سنوات أو بعد أشهر. إن المدى قريب والمكان قريب فلا يعلم متى ينزل المطر إلا الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ لا يعلم ما في الأرحام إلا الله، والأجنة التي في الأرحام لها أحوال، منها ما يعلم إذا وجد ولو كان الإنسان في بطن أمه، ومنها ما لا يعلم أبدًا، فكونه ذكرًا أو أنثى يعلم وهو في بطن أمه، ولكنه لا يعلم إلا إذا خلق الله تعالى فيه علامات الذكورة أو علامات الأنوثة.

وأما متى يولد، وهل يولد حيًّا أو ميتًا، وهل يبقى في الدنيا طويلاً أو لا يبقى إلا مدة قصيرة، وهل يكون عمله صالحًا، أو عمله سيئًا، وهل يختم له بالسعادة أو بالشقاوة، وهل يبسط له في الرزق أو يُقْدر عليه رزقه، فكل هذا لا يعلمه إلا الله.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة، رقم (٢٩٠٤).

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ يعني ماذا تكسب في المستقبل؟ فلا تدري نفس ماذا تكسب، هل تكسب خيرًا أو تكسب شرًّا، أو تموت قبل غد، أو يأتي غد وفيه ما يمنع العمل، وما أشبه ذلك؟ فالإنسان يقدّر يقول: غدًا سأفعل كذا، سأفعل كذا، لكنه قد لا يفعل، فهو لا يعلم ماذا يكسب غدًا علمًا يقينيًا، ولكنه يقدر وقد تخلف الأمور.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، لا يدري الإنسان بأي أرض يموت، هل يموت بأرضه، أو بأرض بعيدة عنها، أو قريبة منها، أو يموت في البحر، أو يموت في الجو؟ لا يدري، ولا يعلم ذلك إلا الله.

فإذا كنت لا تدري بأي أرض تموت، وأنت يمكنك أن تذهب يمينًا وشمالاً، فكذلك لا تعلم متى تموت، لا تدري في أي وقت تموت، هل ستموت في الصباح، في المساء، في الليل، في وسط النهار لا تدري، في الشهر القريب، في الشهر البعيد لا تدري، لا تدري متى تموت ولا بأي أرض تموت.

فإذا كنت كذلك؛ فاقصر الأمل، لا تمد الأمل طويلاً، لا تقل أنا شاب وسوف أبقى زمانًا طويلاً، فكم من شابٍّ مات في شبابه، وكم من شيخ عُمِّر، ولا تقل إني صحيح البدن والموت بعيد، فكم من إنسان مرض بمرض يهلكه بسرعة، وكم من إنسان حصل عليه حادث، وكم من إنسان مات بغتة، لذلك لا ينبغي للإنسان أن يطيل الأمل؛ بل عليه أن يعمل، وللدنيا عملها، وللآخرة عملها، فيسعى للآخرة سعيها بإيمان بالله عزَّ وجلَّ واتكال عليه.

وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ إذا جاء أجل الإنسان لا يمكن أن يتأخر ولا دقيقة واحدة ولا يمكن أن يتقدم؛ بل هو بأجل معدود محدود، لا يتقدم عليه ولا يتأخر، فلماذا تجعل الأمل طويلاً؟

فالإنسان لا يعلم متى يموت، ولا يعلم بأي أرض يموت، وقد حدثني أحد إخواني الثقات قال: إنهم كانوا في سفر الحج على الإبل، وكان معهم رجلٌ معه أمه يمرضها، فتأخر عن القوم في آخر الليل، فارتحل الناس ومشوا وبقي مع أمه يمرضها، ولما أصبح وسار خلف القوم لم يدركهم، ولم يدر إلى أين اتجهوا لأنهم في مكة.

يقول: فسلك طريقًا بين هذه الجبال، فإذا هو واقف على بيت من الشعر فيه عدد من الناس قليلين، فسألهم أين طريق نجد؟ قالوا: أنت بعيد عن الطريق، لكن نوخ البعير واجلس استرح ثم نحن نوصلك، يقول: فنزل فنوخ البعير وأنزل أمه، يقول: فما هي إلا أن اضطجعت على هذه الأرض فقبض الله روحها، كيف جاءت من القصيم إلى مكة مع الحجاج، وأراد الله أن يتيه هذا الرجل حتى ينزل بهذا المكان، لا يعلم هذا إلا الله عزَّ وجلَّ.

وكذلك أيضًا في الزمن، كم بلغنا من أناس تأخروا قليلاً فجاءهم حادث فماتوا به، ولو تقدموا قليلاً لسلموا منه، كل هذا لأن الله تعالى قد قدر كل شيء بأجل محدود، فالإنسان يجب عليه أن يحتاط لنفسه، وألا يطيل الأمل، وأن يعمل للآخرة، وكأنه يموت قريبًا لأجل أن يستعد لها،

فهذه الآيات كلها تدل على أن الإنسان يجب عليه أن يقصر الأمل وأن يستعد للآخرة.

جعلنا الله وإياكم من المستعدين لها بالعمل الصالح.

* * *

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١١].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ

أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١١٥].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله محيي الدين النووي في كتابه رياض الصالحين في باب ذكر الموت وقصر الأمل قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

أمر الله بالإنفاق مما رزقنا، أي مما أعطانا، وحذرنا مما لابد منه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وحينئذ يندم الإنسان على عدم الإنفاق ويقول: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يتمنى أن الله يؤخره إلى أجل قريب ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: فبسبب تأخيرك إياي أتصدق وأكن من الصالحين.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١]، إذا جاء الأجل لا يمكن أن يتأخر الإنسان ولا لحظة واحدة، بل لابد أن يموت في المدة التي عيّنها الله عزَّ وجلَّ على حسب ما تقتضيه حكمته.

فمن الناس من يطول بقاؤه في الدنيا، ومن الناس من يقصر، كما أن من الناس من يكثر رزقه، ومنهم من يقل، ومنهم من يكثر علمه، ومنهم من يقل، ومنهم من يقوى فهمه، ومنهم من يضعف، ومنهم من يكون

طويلاً، ومنهم من يكون قصيرًا، فالله عزَّ وجلَّ خلق عباده متفاوتين في كل شيء.

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، فنهى الله تعالى أن تلهينا أموالنا وأولادنا عن ذكر الله، وبيَّن أن من ألهته هذه الأشياء عن ذكر الله؛ فهو خاسر مهما ربح.. لو ربح أموالاً كثيرة، وكان عنده بنون، وكان عنده أهل، ولكنه قد تلهَّى بهم عن ذكر الله فإنه خاسر.

إذًا من هو الرابح؟ الرابح من اشتغل بذكر الله عزَّ وجلَّ. وذكر الله ليس هو قول: لا إله إلا الله فقط؛ بل كل قول يقرب إلى الله فهو ذكر له، وكل فعل يقرب إلى الله فهو ذكر له، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ولأن الإنسان إذا قال قولاً يتقرب به إلى الله، أو فعل فعلاً يتقرب به إلى الله؛ فهو حين النية ذاكر لله عزَّ وجلَّ، فذكر الله يشمل كل قول أو فعل يقرّب إليه.

قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ﴾ فقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ أي إذا جاء أحد المكذبين للرسل إذا جاء أحدهم الموت ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ارجعوني إلى الدنيا ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ﴾.

ولم يقل لعلي أتمتع في قصورها وحبورها ونسائها وغير ذلك؛ بل

قال: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾، أي: فيما تركت من المال الذي بخلت به حتى أنفقه في سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآۚ﴾ يعني: لا رجوع ولا يمكن الرجوع؛ لأنه إذا جاء الأجل ﴿فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

ثم قال: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ هذه الكلمة يؤكد الله عزَّ وجلَّ أنه يقولها وهي قوله: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ يعني: من أمام هؤلاء الذين حضرتهم الوفاة ﴿بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

والبرزخ هو الفاصل بين الدنيا وبين قيام الساعة، سواء كان الإنسان مدفونًا في الأرض أو على ظهر الأرض تأكله السباع وتتلفه الرياح، أو كان في قاع البحار؛ كل هذا يسمى برزخًا ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ يعني: يخرجون من القبور لله عزَّ وجلَّ في يوم القيامة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وذلك عند قيام الساعة ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾. والنفخ في الصور مرتان:

النفخة الأولى: يكون فيها الفزع والصعق يعني الموت، فينفخ إسرافيل في الصور نفخة يكون لها صوت عظيم مزعج جدًّا، فيفزع الناس ثم يموتون كلهم إلا ما شاء الله.

والنفخة الثانية: ينفخ في الصور فتخرج الأرواح من الصور وتعود إلى أجسادها، وهذه التي يكون بها الحياة الأبدية التي لا موت بعدها.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ يعني: بعد أن يبعثوا من

قبورهم لا تنفعم الأنساب والقرابات ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم عن بعض؛ بل إن الله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

فالأنساب في ذلك الوقت لا تنفع، والقرابات لا يتساءلون عن بعضهم، بينما في الدنيا يسأل بعضهم عن بعض، ما الذي حصل لهذا؟ ما الذي حصل لهذا؟ ماذا فعل فلان؟ أما في الآخرة فـ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١، ١٠٢]، فينقسم الناس في ذلك اليوم إلى قسمين: قسم تثقل موازينه فهذا مفلح، فائز بما يحب، ناج مما يكره.

والموازين جمع ميزان، وقد وردت في الكتاب والسنة مجموعة ومفردة، فقال الله تعالى هنا: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، وقال النبي ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[1]، فقال: في الميزان ولم يقل في الموازين، فجمعت مرة وأفردت أخرى، وذلك لكثرة ما يوزن، فلكثرة ما يوزن جمعت، ولكون الميزان واحدًا ليس فيه ظلم ولا بخس أفردت.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم(٦٤٠٦)، ومسلم، كتاب الذكر، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم(٢٦٩٤).

وأما الذي يوزن فقد قال بعض العلماء: إن الذي يوزن هو العمل، وقال بعض العلماء: الذي يوزن العامل نفسه، وذلك لأن كلاًّ منها جاءت به أحاديث.

أما الذين يقولون: إن الذي يوزن هو العمل، فاستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فجعل الوزن للعمل، وبقول النبي عليه الصلاة والسلام: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان». فجعل الثقل للكلمتين وهما العمل.

والذين قالوا: إن الذي يوزن صحائف العمل استدلو بحديث صاحب البطاقة، الذي يأتي يوم القيامة فيمدّ له سجل يعني أوراقًا كثيرة مد البصر كلها سيئات، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله له: «إن لك عندنا حسنة فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله» قالها من قلبه فتوضع البطاقة في كفة، وتلك السجلات في كفة، فترجح البطاقة بها[(١)]، فهذا يدل على أن الذي يوزن هو صحائف العمل.

وأما الذين قالوا: إن الذين يوزن هو العامل نفسه، فاستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

وبأن النبي ﷺ قال حين ضحك الناس على عبد الله بن مسعود رضي

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب من جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، رقم(٢٦٣٩). وقال: حسن غريب، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، رقم(٤٣٠٠).

الله عنه، وكان رضي الله عنه نحيفًا، فقام إلى شجرة أراك في ريح شديدة، فجعلت الريح تهزهزه هزًّا، فضحك الناس من ذلك، فقال النبي ﷺ: «أتضحكون ـ أو قال ﷺ أتعجبون ـ من دقة ساقيه، والذي نفسي بيده إنهما في الميزان لأثقل من جبل أحد»(١) وهذا يدل على أن الذي يوزن هو العامل نفسه.

والمهم أنه يوم القيامة توزن الأعمال أو صحائف الأعمال أو العمال، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن ثقلت موازينهم، ومن المفلحين الفائزين برضوان الله. والله الموفق.

* * *

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ إنما قال خسروا أنفسهم؛ لأنهم أخرجوا إلى الدنيا وجاءتهم الرسل وبينت لهم الحق، ولكنهم والعياذ بالله عاندوا واستكبروا فخسروا أنفسهم ولم يستفيدوا من وجودهم في الدنيا شيئًا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ٥].

ثم قال تعالى مبينًا أنهم كما يعذبون بدنيًا، فإنهم يعذبون قلبيًا، فيقرعون ويوبخون فيُقال لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٤٢٠، ٤٢١).

تُكَذِّبُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، فقد تليت عليهم آيات الله، وبينت لهم، وجاءتهم الرسل بالحق، ولكنهم كفروا والعياذ بالله، وكذبوا بهذه الآيات.

قالوا في الجواب: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا﴾ يعني: إن عدنا إلى التكذيب ﴿ فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾، فيقرون والعياذ بالله بأن الشقاوة غلبت عليهم وأنهم ضلّوا الضلال المبين الذي أوصلهم إلى هذه النار، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم منها.

قال الله تعالى: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أي: ابقوا فيها أذلاء صاغرين، ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ وهذا أشد ما يكون عليهم والعياذ بالله أن يوبخهم الله هذا التوبيخ فيقول: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ فإنهم لو كلموا الله لن يستجيب لهم؛ لأنه قضى عليهم بالخلود في النار.

ثم قال تعالى مبينًا حالهم مع أوليائه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، وهؤلاء المؤمنون بالله ورسله يقولون: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ أي: آمنا بك وبرسلك وبما جاءوا به من الحق ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ﴾ اغفر لنا ذنوبنا حتى لا ندخل النار، وارحمنا بالقبول حتى ندخل الجنة.

﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فلا أحد أرحم بعباد الله من ربهم عزَّ وجلَّ. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لله بعباده أرحم من الوالدة بولدها»(١).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله...، رقم (٥٩٩٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى...، رقم(٢٧٥٤).

﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ يعني: أنكم تسخرون بهؤلاء المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويسألونه المغفرة والرحمة، فكنتم تسخرون منهم وتستهزئون بهم، ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ أي حتى كانت سخريتكم بهم واستهزاؤكم بهم منسية لكم ذكري.

﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ يعني: في الدنيا كانوا يضحكون بالمؤمنين ويستهزئون بهم.

ولكنَّ الله قال في سورة المطففين: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٣٤]، وهذا الضحك الذي لا بكاء بعده، أما ضحك الكفار من المسلمين في الدنيا؛ فإنه سيعقبه البكاء الدائم والعياذ بالله.

﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ يعني: جزى الله تعالى المؤمنين بما صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصيته، وصبروا على أقداره ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ الذين فازوا بهذا اليوم فأدركوا المطلوب ونجوا من المرهوب، وإنما ذكر الله هذا لهؤلاء المكذبين زيادة في حسرتهم وندامتهم، كأنه يقول عزَّ وجلَّ: لو كنتم مثلهم لنلتم هذا الثواب، فيزدادون بذلك حسرة إلى حسرتهم والعياذ بالله.

كيف كان حال هؤلاء الذين كانوا يسخرون بهم في الدنيا ويضحكون منهم؟ وكيف كان حالهم وهم في نار جهنم؟

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ انظر: جاءتهم الرسل وعمروا عمرًا يتذكر فيه من تذكر، ولكنهم والعياذ بالله لم ينتفعوا بهذا، ورأوا أنهم كأنما لبثوا ساعة أو بعض ساعة

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ اسأل العادين منا، فإننا لا نرى أننا لبثنا إلا يومًا أو بعض يوم.

قال الله تعالى: ﴿ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعني: ما لبثتم إلا قليلاً في الدنيا وآل بكم الأمر إلى الآخرة التي تبقون فيها أبد الآبدين معذبين.
﴿ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني: لو أنكم كنتم من ذوي العلم؛ لعلمتم مقدار تكذيبكم للرسل ومقدار أعمالكم التي خسرتموها.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا ﴾ يعني: أتظنون أننا ﴿ خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ هم ظنوا كذلك، ظنوا هذا الظن، ولكن الله وبّخهم على هذا الظن، هل من حكمة الله أن ينشئ هذه الخليقة، ويرسل إليها الرسل، وينزل عليها الكتب ثم تكون النهاية الموت والفناء بدون بعث، بدون رجوع؟ هذا لا يمكن، لكن هذا ظن الذين كفروا ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ تعالى يعني ترفع عزَّ وجلَّ عن كل نقص وعن كل سوء، وعلا بذاته فوق عرشه سبحانه وتعالى، ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ الملك يعني ذو الملك والسلطان والعظمة، الحق: الذي كان ملكه وملكوته حقًّا وليس بباطل.

﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود حق إلا الله عزَّ وجلَّ، ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ إلى آخر السورة.

فهذه الآيات تبين أن الإنسان ينبغي له أن ينتهز فرصة العمر، وألا يخسر عمره كما خسره هؤلاء؛ وأنه سوف يبعث ويجازى ويحاسب على عمله فنسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن حسابه يسير، ومآله إلى دار القرار في جنات النعيم.

* * *

وقال رحمه الله تعالى في سياق الآيات في باب ذكر الموت وقصر الأمل:

وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

والآيات في الباب كثيرة معلومة، وأما الأحاديث:

١ / ٥٧٤ ـ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

وكان ابْنُ عمرَ رضي الله عنهما يقول: «إذا أَمْسَيْتَ، فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وإذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ» رواه البخاري[1].

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين، الكتاب الموافق لاسمه، فإنه رياض، رياض لأهل الصلاح، فيه من الأحكام

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا...، رقم(٦٤١٦).

الشرعية والآداب المرعية ما يزيد به إيمان العبد، ويستقيم به سيره إلى الله عزَّ وجلَّ، ومعاملته مع عباد الله، ولهذا كان بعض الناس يحفظه عن ظهر قلب لما فيه من المنفعة العظيمة. هذا الكتاب كان من جملة أبوابه، باب ذكر الموت وقصر الأمل، وذكر المؤلف فيه آيات متعددة، سبق الكلام عليها، وآخرها قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ . . . ﴾، يعني ألم يأت الوقت الذي تخشع فيه قلوب المؤمنين لذكر الله عزَّ وجلَّ؟

والخشوع معناه الخضوع والذل ﴿ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ يعني عند ذكره، فإن المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله: ﴿ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي لتذكر الله وعظمته، ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي: ويخشعون لما نزل من الحق، وهو ما كان في كتاب الله سبحانه وتعالى؛ فإن هذا الكتاب جاء بالحق، والنبي ﷺ الذي نزل عليه هذا الكتاب جاء بالحق، فيحق للمؤمن أن يخشع قلبه لذكر الله وما نزل من الحق.

قال: ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، يعني ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل وهم اليهود والنصارى، فاليهود أوتوا التوراة، والنصارى أوتوا الإنجيل، ومع ذلك فإن اليهود كفروا بالإنجيل، والنصارى كفروا بالقرآن، فصار الكل كلّهم كفارًا، ولذلك كان اليهود قبل بعثة النبي ﷺ مغضوبًا عليهم؛ لأنهم علموا

الحق وهو ما جاء به عيسى، ولكنهم استكبروا عنه وأعرضوا عنه.

أما بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام فكان اليهود والنصارى كلهم مغضوبًا عليهم، وذلك لأن النصارى علموا الحقّ فهم يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك استكبروا عنه، فكانوا كلهم مغضوبًا عليهم؛ لأن القاعدة في المغضوب عليهم أنهم الذين علموا الحق ولم يعملوا به كاليهود والنصارى بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام.

هؤلاء الذين أوتوا الكتاب ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: الوقت ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لأن النبي ﷺ بعث بعد عيسى بستمائة سنة، وهي فترة طويلة انحرف فيها من انحرف من أهل الكتاب، ولم يبق على الأرض من أهل الحق إلا بقايا يسيرة من أهل الكتاب، ولهذا قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ولم يقل أكثرهم فاسقون، ولم يقل كلهم فاسقون، فكثير منهم فاسقون خارجون عن الحق.

فحذَّر الله عزَّ وجلَّ ونهى أن نكون كهؤلاء الذين أوتوا الكتاب ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

وإذا نظرت إلى الأمة الإسلامية، وجدت أنها ارتكبت ما ارتكبه الذين أوتوا الكتاب من قبل. فإن الأمة الإسلامية في هذه العصور التي طال فيها الأمد من بعثة الرسول ﷺ، قست قلوب كثير منهم وفسق كثير منهم، واستولى على المسلمين من ليس أهلاً للولاية لفسقه؛ بل ومروقه عن الإسلام، فإن الذين لا يحكمون بكتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ، ويرون أن الحكم بالقوانين أفضل من حكم الله ورسوله كفار بلا شك ومرتدون عن

الإسلام.

ولكن الله سبحانه وتعالى يبلو الناس بعضهم ببعض، وإذا صبر المؤمن واحتسب وانتظر الفرج من الله عزَّ وجلَّ، وعمل الأسباب التي توصل إلى المقصود؛ يسر الله له الأمور.

فالمهم أن الله نهانا أن نكون كالذين أوتوا الكتاب من قبل فقست قلوبهم، ولكن صار الكثير منا في الوقت الحاضر متشبهًا بهؤلاء الذين قست قلوبهم، وكثيرٌ من هؤلاء أيضًا فسقوا عن أمر الله وخرجوا عن طاعة الله.

ثم قال المؤلف: والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ معلومة.

وأما الأحاديث فمنها حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أخذ النبي ﷺ بمنكبي». يعني أمسك به، والمنكب هو أعلى الكتف، أخذ به من أجل أن ينتبه ابن عمر لما سيلقي إليه الرسول عليه الصلاة والسلام من القول.

وهذا من حسن تعليم الرسول ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان إذا تكلم؛ اتخذ الأسباب التي توجب انتباه المخاطب، إما بالفعل كما هنا، وإما بالقول كما في قوله: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله»[1]، فهذا يلقى إليهم لأجل أن ينبهوا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، رقم(٥٩٧٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم(٨٧).

أخذ بمنكبي وقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» سبحان الله! أعطى الله نبيه جوامع الكلم، هاتان الكلمتان يمكن أن تكونا نبراسًا يسير الإنسان عليه في حياته «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

والفرق بينهما أن عابر السبيل ماشٍ يمر بالقرية وهو ماشٍ منها. وأما الغريب فهو مقيم فيها حتى يرتحل عنها، يقيم فيها يومين أو ثلاثة أو عشرة أو شهرًا، وكل منهما لا عابر السبيل ولا الغريب كل منهما لم يتخذ القرية التي هو فيها لم يتخذها وطنًا وسكنًا وقرارًا.

فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام: كن في الدنيا كهذا الرجل، إما غريب أو عابر سبيل.

والغريب وعابر السبيل لا يستوطن، يريد أن يذهب إلى أهله وإلى بلده، لو أن الإنسان عامل نفسه في هذه الدنيا بهذه المعاملة لكان دائمًا مشمرًا للآخرة، لا يريد إلا الآخرة، ولا يكون أمام عينيه إلا الآخرة حتى يسير إليها سيرًا يصل به إلى مطلوبه. نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لما فيه الخير والصلاح.

وكان ابن عمر يقول: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح» المعنى لا تؤمل أنك إذا أصبحت أمسيت، وإذا أمسيت أصبحت، فكم من إنسان أصبح ولم يمس! وكم من إنسان أمسى ولم يصبح! وكم من إنسان لبس ثوبه ولم يخلعه إلا الغاسل! وكم من إنسان خرج من أهله قد هيأوا له غداءه أو عشاءه ولم يأكله! وكم من إنسان نام ولم يقم من فراشه! المهم أن الإنسان لا ينبغي له أن يطيل الأمل؛ بل يكون

حذرًا حاذقًا حازمًا كيسًا، هذا معنى قوله: «**إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح**».

قال: «**وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**» الإنسان الصحيح منشرح الصدر، منبسط النفس، واسع الفكر، عنده سعة في الوقت والصحة، لكن ما أكثر الذين يضيعون هذا؛ لأنه يؤمل أن هذه الصحة سوف تبقى وتدوم، وأنه سوف تطول به الدنيا، فتجده قد ضيع هذه الصحة.

فابن عمر رضي الله عنهما يقول: «**خذ من صحتك لمرضك**». المرض تضيق به النفس، ويتعب به الجسم، وتضيق عليه الدنيا ولا يستطيع أن يعمل العمل الذي يعمله في حال الصحة، فليأخذ من صحته لمرضه، ومن حياته لموته، قس ما بين حياتك وموتك أيهما أطول؟ لا شك أن الحياة لا تنسب للموت، كم للرسول عليه الصلاة والسلام ميتًا؟ كم لمن قبله؟ وحياتهم قليلة بالنسبة لموتهم، فكيف إلى الآخرة.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يأخذ من حياته ـ ما دام الله قد أحياه ـ لموته إذا عجز عن العمل؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١) فخذ من حياتك لموتك.



---

(١) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

٢/ ٥٧٥ ـ وعنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَهُ شَيءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَينِ إلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَه» متفقٌ عليه[1]، هذا لفظ البخاري.

وفي رواية لمسلم: «يَبِيتُ ثَلاثَ لَيَالٍ».

قال ابن عمر: ما مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ منذُ سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ قال ذلك إلاَّ وَعِنْدِي وَصِيَّتِي[2].

الشرح

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»[3] يعني ما حقه أن يبيت ليلتين إلا وقد كتب وصيته التي يريد أن يوصي بها، وكان ابن عمر رضي الله عنه منذ سمع هذا الكلام من رسول الله ﷺ لا يبيت ليلة إلا وقد كتب وصيته.

والوصية: معناها العهد، وهي أن يعهد الإنسان بعد موته لشخص في تصريف شيء من ماله، أو يعهد لشخص بالنظر على أولاده الصغار، أو يعهد لشخص في أي شيء من الأعمال التي يملكها بعد موته فيوصي به،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصايا، رقم(٢٧٣٨)، ومسلم، كتاب الوصية، باب منه، رقم(١٦٢٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب منه، رقم(١٦٢٧) [٤].

(٣) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير...، رقم(٢٧٤٢)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم(١٦٢٨).

هذه هي الوصية.

مثل أن يكتب الرجل: وصيتي إلى فلان بن فلان بالنظر على أولادي الصغار. وصيتي إلى فلان بن فلان بتفريق ثلث مالي أو ربعه أو خمسه في سبيل الله. وصيتي إلى فلان في أن ينتفع بما خلفت من عقار أو غيره أو ما أشبه ذلك.

المهم أن هذه هي الوصية، عهد الإنسان بعد موته إلى شخص بشيء يملكه هذه هي الوصية.

والوصية أنواع: واجبة، ومحرمة، وجائزة.

أولاً: الوصية الواجبة: وهي أن يوصي الإنسان بما عليه من الحقوق الواجبة؛ لئلا يجحدها الورثة، لا سيما إذا لم يكن عليها بينة.

كأن يكون على الإنسان دين أو حق لغيره، فيجب أن يوصي به لا سيما إذا لم يكن فيه بينة؛ لأنه إذا لم يوص به فإن الورثة قد ينكرونه، والورثة لا يلزمون أن يصدّقوا كل من جاء من الناس وقال: إن لي على ميتكم كذا وكذا، لا يلزمهم أن يصدقوا، فإذا لم يوص الميت بذلك، فإنه ربما يكون ضائعًا، فمن عليه دين يعني حق في ذمته لأحد، فإنه يجب عليه أن يوصي به.

كذلك أيضًا أن يوصي لأقاربه غير الوارثين بما تيسّر لقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، يعني مالاً كثيرًا ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ هذه نائب الفاعل ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ فخرج من ذلك، من الوالدين والأقربين من كانوا ورثة، فإن الورثة لا يُوصى لهم،

وبقيت الآية محكمة فيما عدا الوارثين.

هكذا دلالة الآية، وبها فسّرها ابن عباس رضي الله عنهما، وذهب إليها كثيرٌ من أهل العلم، أن الإنسان يجب أن يوصي إذا كان عنده مالٌ كثيرٌ بما تيسر لأقاربه غير الوارثين، أما الوارث فلا يجوز أن يوصى له؛ لأن حقه من الإرث يكفيه، فهذان أمران تجب فيهما الوصية.

الأول: إذا كان عليه دين يعني حقًّا للناس.

والثاني: إذا ترك مالاً كثيرًا، فإنه يلزمه أن يوصي لأقاربه من غير الوارثين.

ثانيًا: **الوصية المحرمة**: وهي محرمة إذا أوصى لأحد من الورثة، فإنه حرام عليه، مثل أن يوصي لولده الكبير بشيء من بين سائر الورثة، أو يوصي لزوجته بشيء من بين سائر الورثة، فإن هذا حرام عليه، حتى ولو قدر أن المرأة أي الزوجة كانت تخدمه في حياته وتطيعه وتحترمه، وأراد أن يكافئها؛ فإنه لا يحل له أن يوصي لها بشيء، وكذلك لو كان أحد أولاده يبر به ويخدمه ويسعى في ماله، فأراد أن يوصي له بشيء؛ فإن ذلك حرام عليه.

وكذلك ما يفعله بعض الناس إذا كان له أولاد عدة وزوّج الكبير أوصى للصغار بمثل المال الذي زوج به الكبير، فإن هذا حرامٌ أيضًا؛ لأن التزويج دفع حاجة؛ كالأكل والشرب، فمن احتاج إليه من الأولاد وعند أبيهم قدرة وجب عليه أن يزوجه، ومن لم يحتج إليه فإنه لا يحل له أن يعطيه شيئًا مثل ما أعطى أخاه الذي احتاج للزواج.

وهذه مسألة تخفى على كثيرٍ من الناس حتى على طلبة العلم، يظنون أنك إذا زوجت ولدك، فإنك يجب أن توصي للأولاد الصغار بمثل ما زوجته به، وهذا ليس بصحيح، فالوصية للوارث لا تجوز مطلقًا.

فإن قدر أن أحدًا - كان جاهلاً وأوصى لأحد الورثة بشيء، فإنه يرجع إلى الورثة بعد موته، إن شاءوا نفذوا الوصية، وإن شاءوا ردوها.

ثالثًا: الوصية المباحة: فهي أن يوصي الإنسان بشيء من ماله لا يتجاوز الثلث؛ لأن تجاوز الثلث ممنوع، لكن ما دون الثلث أنت حرٌّ فيه، ولك أن توصي فيه لمن شئت إلا الورثة هذه جائزة.

ولكن هل الأفضل الثلث أو الربع أو ما دون ذلك؟ نقول: أكثر شيء الثلث لا تزد عليه، وما دون الثلث فهو أفضل منه، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن النبي ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص: «الثلث والثلث كثير»[1]، وكان أبو بكر رضي الله عنه أوصى بخمس ماله. وقال: أرضى بما رضي الله لنفسه الخمس، فأوصى بخمس ماله. وهذا أحسن ما يكون.

وليت طلبة العلم والذين يكتبون الوصايا ينبهون الموصين على أن الأفضل: الوصية بالخمس لا بالثلث، وقد شاع عند الناس الثلث دائمًا، وهذا الحد الأعلى الذي حدّه الرسول عليه الصلاة والسلام وما دونه أفضل

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصايا، رقم(٢٧٣٨)، ومسلم، كتاب الوصية، باب منه، رقم(١٦٢٧).

منه، فالربع أفضل من الثلث، والخمس أفضل من الربع.

وإذا كان الورثة محتاجين فترك الوصية أولى؛ هم أحق من غيرهم. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»[1]، فإذا كان الورثة الذين يرثونك تعرف أن حالهم، وسط والمال شحيح عندهم، وأنهم إلى الفقر أقرب، فالأفضل ألا توصي.

ففي هذا الحديث الإشارة إلى أن الإنسان يوصي، ولكن الوصية تنقسم إلى أقسام كما أشرنا، منها واجبة، ومنها محرمة، ومنها مباحة.

فالواجبة: أن يوصي الإنسان بما عليه من الحقوق الواجبة؛ لئلا يجحدها الورثة، فيضيع حق من هي له، لا سيما إذا لم يكن بها بينة.

والثانية من الوصية الواجبة وصية من ترك مالاً كثيرًا لأقاربه الذين لا يرثون بدون تقدير، لكن لا تزيد على الثلث.

والوصية المحرمة: نوعان أيضًا: أن تكون لأحد من الورثة، وأن تكون زائدة على الثلث.

والمباحة: ما سوى ذلك، ولكن الأفضل أن تكون المباحة من الخمس فأقل، وإن زاد إلى الربع فلا بأس، وإلى الثلث فلا بأس، ولا يزيد على الثلث.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما العمل بالكتابة؛ لقوله ﷺ: «إلا

---

(١) جزء من الحديث السابق نفسه.

ووصيته مكتوبة عنده» فدل هذا على جواز العمل، بل وجوب العمل بالكتابة.

وفي قوله: «مكتوبة» اسم مفعول، إشارة إلى أنه لا فرق بين أن يكون هو الكاتب أو غيره ممن تثبت الوصية بكتابته، فلابد أن تكون الكتابة معلومة؛ إما بخط الموصي نفسه، أو بخط شخص معتمد، وأما إذا كانت بخط مجهول؛ فلا عبرة بها ولا عمل عليها.

وفي قوله: «عنده» إشارة إلى أنه ينبغي أن يحتفظ الإنسان بالوثائق وألا يسلط عليها أحدًا، بل تكون عنده في شيء محفوظ محرز كالصندوق وغيره؛ لأنه إذا أهملها فربما تضيع منه، أو يسلط عليها أحد يأخذها ويتلفها أو ما أشبه ذلك.

المهم في هذا الاعتناء بالوصية، وأن يحتفظ بها الإنسان حتى لا تضيع.

وفيه أيضًا سرعة امتثال الصحابة لأمر النبي ﷺ؛ ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما بعد ما سمع هذا الحديث من النبي ﷺ: «ما مرت علي ليلة منذ سمعت النبي ﷺ يقول هذا إلا ووصيتي مكتوبة عندي». فالذي ينبغي للإنسان أن يهتم بالأمر حتى لا يفجأه الموت، وهو قد أضاع نفسه، وأضاع حق غيره.

* * *

٥/٥٧٨ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلاَّ فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ؛ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ؟!» رواه الترمذي[(١)] وقال: حديثٌ حسنٌ.

الشرح

هذا الحديث ذكره المؤلف النووي رحمه الله في كتاب رياض الصالحين في باب ذكر الموت وقصر الأمل، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بادروا بالأعمال سبعًا» يعني اعملوا قبل أن تصيبكم هذه السبع التي ذكرها النبي ﷺ، فبادروا بها.

ثم ذكر هذه السبع وأنها:

إما «فقرًا منسيًا» بأن يصاب الإنسان بفقر ينسيه ذكر ربه؛ لأن الفقر أعاذنا الله وإياكم منه شر درع يلبسه العبد، فإنه إذا كان فقيرًا يحتاج إلى أكل وشرب ولباس وسكن وزوجة، فلا يجد من ذلك شيئًا، فتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويذهب يتطلب ليحصل على شيء من ذلك فينسى ذكر الله عزَّ وجلَّ، ولا يتمكن من أداء العبادة على وجهها.

وكذلك يفوته كثيرٌ من العبادات التي تستوجب أو التي تستلزم الغنى؛ كالزكاة، والصدقات، والعتق، والحج، والإنفاق في سبيل الله، وما أشبه

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في ذكر الموت، رقم(٢٣٠٧)، وقال الترمذي: حسن غريب.

ذلك .

«أو غنى مطغيًا» بأن يغني الله الإنسان ويفتح عليه من الدنيا فيطغى بذلك، ويرى أنه استغنى عن ربه عزَّ وجلَّ، فلا يقوم بما أوجب الله عليه، ولا ينتهي عما نهاه الله عنه. قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

كذلك «أو مرضًا مفسدًا» مرض يفسد على الإنسان حياته؛ لأن الإنسان ما دام في صحة فهو في نشاط وانشراح صدر، والدنيا أمامه مفتوحة، فإذا مرض ضعف البدن، وضعفت النفس وضاقت، وصار الإنسان دائمًا في همٍّ وغمٍّ فتفسد عليه حياته.

كذلك أيضًا الهرم المفند: «أو هرمًا مفندًا» يعني كبرًا يفند قوة الإنسان ويحطمها، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

فالإنسان ما دام نشيطًا شابًّا يعمل العبادة بنشاط، يتوضأ بنشاط، يصلي بنشاط، يذهب إلى العلم بنشاط، لكن إذا كبر فهو كما قال الله عزَّ وجلَّ عن زكريا: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، أي ضعف العظم، والعظم هو الهيكل الذي ينبني عليه الجسم، فيضعف وتضعف القوة ولا يستطيع أن يفعل ما كان يفعله في حال الشباب، كما قال الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا
فأخبره بما فعل المشيب

«أو موتًا مجهزًا» هذا أيضًا ما يُنتظر الموت، وإذا مات الإنسان؛ انقطع عمله، ولم يتمكن من العمل.

«مجهزًا» سريعًا، وكم من إنسان مات من حيث لا يظن أنه لا يموت، كم من إنسان مات وهو في شبابه وصحته في حوادث احتراق، أو انقلاب سيارة، أو سقوط جدار عليه، أو سكتة قلبية، أشياء كثيرة يموت الإنسان بسببها ولو كان شابًّا.

فبادر هذا لأنك لا تدري ربما تموت وأنت تخاطب أهلك، أو تموت وأنت في فراشك، أو تموت وأنت على غدائك تخرج تقول لأهلك: ولِّموا الغذاء أي: جهزوا، ثم لا ترجع تأكله، أو تموت وأنت في سيارتك، أو في سفرك، إذًا بادر.

ومن ذلك أيضًا قوله: «أو الدجال؛ فشر غائب ينتظر» يعني أو تنتظرون الدجال، وهو الرجل الخبيث الكذاب المموه الذي يبعث في آخر الزمان يدعو الناس إلى عبادته ويوهمهم، فيفتتن به الخلق إلا من شاء الله.

ولهذا أُمرنا أن نستعيذ بالله منه في كل صلاة، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا تشهد أحدكم التشهد الأخير فليقل: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»[(١)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر، رقم(١٣٧٧)، ومسلم، كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم(٥٨٨).

والمسيح الدجال رجلٌ من بني آدم؛ لكنه أعور خبيث كافر متمرد، وقد كتب بين عينيه كافر، يقرؤه المؤمن ولا يقرؤه الفاسق؛ الكافر لا يقرؤه، يقرؤه المؤمن ولا يقرؤه الكافر حتى ولو كان الكافر قارئًا؛ فإنه لا يقرؤه، والمؤمن يقرؤه ولو كان غير قارئ. وهذه آية من آيات الله عزَّ وجلَّ.

وهذا الدجال يدعو الناس إلى عبادته فيقول: أنا ربكم، فإن أطاعوه أدخلهم الجنة، وإن عصوه أدخلهم النار، لكن ما هي جنته وناره؟ جنته نار، وناره جنة، لكنه يوهم الناس أن هذا الذي أدخله من أطاعه جنة وهي نار، وأنه إذا عصاه أحد أدخله في النار، النار هذه جنة، ماء عذب، طيب، جنة. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إنه يجيء معه بمثال الجنة والنار، فالتي يقول إنها الجنة هي النار»(١).

لكنه يوهم الناس ويموه عليم فيحسبون أن هذا الذي أطاعه أدخله الجنة، وأن هذا الذي عصاه أدخله النار، والحقيقة بخلاف ذلك.

كذلك يأتي إلى القوم في البادية، يأتي إليهم ممحلين، ليس في ضروع مواشيهم لبن، ولا في أرضهم نبات، فيدعوهم، فيقول: أنا ربكم، فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، يقول للسماء: أمطري؛ فتمطر، ويأمر الأرض فتنبت، يقول: يا أرض أنبتي أيتها الأرض؛ فتنتب،

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾، رقم(٣٣٣٨)، ومسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفته...، رقم(٢٩٣٦).

فيصبحون على أخصب ما يكون، ترجع إليهم مواشيهم أسبغ ما يكون ضروعًا؛ ضروعها مملوءة، وأطول ما يكون ذرى؛ أسنمتها رفيعة من الشبع والسمن، فيبقون على عبادته، لكنهم ربحوا في الدنيا وخسروا الدنيا والآخرة والعياذ بالله، هذا اتخذوه ربًا من دون الله.

فالدجال يقول عنه الرسول ﷺ: إنه «شر غائب ينتظر». أعاذنا الله وإياكم من فتنته.

ثم قال: «أو الساعة» وهي السابعة يعني أو تنتظرون الساعة، أي قيام الساعة، «فالساعة أدهى وأمرّ» يعني أشد داهية وأمر مذاقًا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦].

والحاصل أن الإنسان لن يخرج عن هذه السبع. وهذه السبعة كلها تعيقه عن العمل، فعليه أن يبادر، ما دام في صحة، ونشاط، وشباب، وفراغ، وأمن، ولله الحمد، فليبادر الأعمال قبل أن يفوته ذلك كله فيندم حيث لا ينفع الندم أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يتسابقون إلى الخير.

* * *

٦٦ـ بابُ استحباب زيارة القبور للرجال وما يقوله الزائر

١ / ٥٨١ ـ عن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا» رواهُ مسلم(١).

٢ / ٥٨٢ ـ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، كُلَّمَا كَانَ لَيْلَتها مِنْ رَسُولِ الله ﷺ يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى الْبَقِيعِ، فَيَقُولُ: «السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ، غَدًا مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ» رواه مسلم(٢).

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتاب رياض الصالحين: باب استحباب زيارة القبور للرجال وما يقوله الزائر.

زيارة القبور: يعني الخروج إليها امتثالاً؛ بل اتباعًا لرسول الله ﷺ، والقبور هي دور الأموات، وذلك أن الإنسان له أربعة دور:

الأولى: في بطن أمه.

والثانية: الدنيا.

والثالثة: القبور.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه، رقم(٩٧٧).
(٢) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يُقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم(٩٧٤).

والرابعة: الآخرة وهي المقر وهي النهاية والغاية ـ جعلنا الله وإياكم من الفائزين فيها.

هذه الدار ـ أعني دار القبور ـ كان النبي ﷺ نهى عن زيارتها؛ خوفًا من الشرك بأهل القبور؛ لأن الناس كانوا حديثي عهد بجاهلية، فنهى عنها رسول الله ﷺ سدًّا لذرائع الشرك؛ لأن الشرك لما كان أمره عظيمًا؛ سدّ النبي ﷺ كل ذريعة وكل باب يوصل إليه.

وكلما كانت المعصية عظيمة؛ كانت وسائلها أشد منعًا. الزنا مثلاً فاحشة، وسائله من النظر والخلوة وما أشبه ذلك محرمة.

وكذلك فإن الشرك أعظم الظلم، كما سئل النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك»[1].

فلما كان الناس يعظمون القبور؛ نهاهم النبي ﷺ عن ذلك، فلما استقر الإيمان في قلوبهم؛ أذن لهم فقال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكرُ الآخرة»[2].

فرفع النبي ﷺ النهي وأباح الزيارة، بل رغّب فيها لقوله: «فإنها تذكر الآخرة». والذي يذكر الآخرة ينبغي للإنسان أن يعمل به؛ لأن القلب إذا نسي الآخرة؛ غفل واشتغل بالدنيا، وأضاع الدنيا والآخرة؛ لأن من أضاع

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، رقم(٦٠٠١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، رقم(٨٦).

(٢) هذا لفظ الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، رقم (١٠٥٤)، وقال: حديث حسن صحيح.

الآخرة؛ فقد أضاع الدنيا والآخرة.

فينبغي أن نزور القبور؛ ولكن نزورها لنفعها أو للانتفاع بها؟ الأول: لنفعها، ليدعوا للأموات لا ليدعوهم، فيخرج الإنسان ويسلِّم على القبور، كما فعل النبي ﷺ. وقالت عائشة: إن النبي ﷺ إذا كان عندها، خرج من آخر الليل فسلَّم على أهل البقيع وقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون، غدًا مؤجَّلون، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون».

ثم يقول: «اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»: بقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة، وهذه الدعوة يرجى أن تشمل من كان من أهل بقيع الغرقد إلى يوم القيامة، ويحتمل أن يراد بهم أهل بقيع الغرقد الذين كانوا أهله في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام فقط، فلا يشمل من يأتي بعدهم.

ولكن من كان من أهل الرحمة؛ فهو من أهل الرحمة، سواء حصلت له هذه الدعوة أم لم تحصل، ومن كان من أهل الشقاء؛ فإنه لا تشمله هذه الدعوة ولا ينتفع بها.

المهم أن الإنسان ينبغي له أن يزور القبور في كل وقت، في الليل، في النهار، في الصباح، في المساء، في يوم الجمعة، في غير يوم الجمعة، ليس لها وقت محدد، وكلما غفل قلبك واندمجت نفسك في الحياة الدنيا؛ فاخرج إلى القبور، وتفكر في هؤلاء القوم الذين كانوا بالأمس مثلك على الأرض يأكلون ويشربون ويتمتعون، والآن أين ذهبوا؟ صاروا الآن مرتهنين بأعمالهم، لم ينفعهم إلا عملهم كما أخبر بذلك النبي عليه

الصلاة والسلام أنه قال: «يتبع الميت ثلاثة: ماله وأهله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله، ويبقى عمله»[١].

ففكِّر في هؤلاء القوم، ثم سلِّم عليهم: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» والظاهر - والله أعلم - أنهم يردّون السلام؛ لأنه يسلم عليهم بصيغة الخطاب «السلام عليكم»، ويحتمل أن يُراد بذلك السلام مجرد الدعاء فقط، سواء سمعوا أم لم يسمعوا، أجابوا أم لم يجيبوا.

فعلى كل حال على الإنسان أن يدعو لهم ويقول مقررًا المصير الحتمي: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون». إن شاء الله هذه تعود إلى وقت اللحوق وليس إلى اللحوق؛ لأن اللحوق متيقن، والمتيقن لا يقيد بالمشيئة لكن تعود إلى وقت اللحوق؛ لأن كل واحد منا لا يدري متى يلحق، فيكون معنى قوله: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» أي: وإنا متى شاء الله بكم لاحقون، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢، ٢٣].

ثم يدعو لهم بالدعاء الذي جاءت به السنة، فإن لم يعرف شيئًا منه؛ دعا بما تيسر: اللهم اغفر لهم، اللهم ارحمهم، اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، واغفر لنا ولهم، ثم ينصرف. هكذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يزور المقبرة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم(٦٥١٤)، ومسلم، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٩٦٠).

وأما ما يفعله بعض الجهال من البقاء هناك، والتمرغ على التراب، والطواف بالقبر، وما أشبه ذلك، فكله أمر منكر؛ وبدعة محظورة، فإن اعتقد أن هؤلاء الأموات ينفعون أو يضرون؛ كان مشركًا والعياذ بالله خارجًا عن الإسلام؛ لأن هؤلاء الأموات لا ينفعون ولا يضرّون، لا يستطيعون الدعاء لك، ولا يشفعون لك إلا بإذن الله.

وليس هذا وقت الشفاعة أيضًا، وقت الشفاعة يوم القيامة، فلا ينفعك شيء منهم إذا دعوتهم أو سألتهم الشفاعة أو ما أشبه ذلك.

والواجب على إخواننا الذين يوجد مثل هذا في بلادهم الواجب عليهم أن ينصحوا هؤلاء الجهال، وأن يبينوا لهم أن الأموات لا ينفعونهم، حتى الرسول عليه الصلاة والسلام لا ينفع الناس وهو ميت، وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا أصابهم الجدب في عهد الرسول ﷺ وفي حياته جاؤوا إليه وقالوا: استسق الله لنا، فيستسقي الله لهم.

لكن لما مات لم يأتِ الصحابة إلى قبره يقولون: ادعُ الله أن يسقينا، وقبره إلى جانب المسجد ليس بعيدًا، لكن لما أجدبت الأرض في عهد عمر، وحصل القحط قال: اللهم إنا كنا نستسقي إليك بنبينا فتسقينا، يعني أنهم كانوا يسألون الرسول أن يدعو لهم بالسقيا فيسقون، وإنا نستسقي إليك بعم نبينا فاسقنا، ثم يقوم العباس فيدعو الله(١).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم(١٠١٠).

ولم يقل: يا رسول الله، ادعُ الله أن يسقينا، ادعُ الله أن يرفع عنا القحط؛ لأنه رضي الله عنه يعلم أن ذلك غير ممكن، والإنسان إذا مات انقطع عمله، ولا يمكن أن يعمل أي عمل كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث»[١]، فلا يستطيع الميت أن يستغفر لك، ولا أن يدعو لك؛ لأنه انقطع عن العمل.

فالحاصل أن زيارة القبور لمنفعة أهل القبور لا لمنفعة الزائر، إلا فيما يناله من الأجر عند الله عزَّ وجلَّ، أما أن ينتفع بهم بزيارته إياهم فلا؛ لكن ينتفع بالأجر الذي يحصل له، وينتفع بالموعظة التي تحصل لقلبه إذا وفَّقه الله تعالى للاتعاظ، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وإياكم ممن يعلِّقون رجاءهم بالله.



(١) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

٦٧ ـ بابُ كراهة تمنّي الموت
بسبب ضُرّ نزل به ولا بأس به لخوف الفتنة في الدين

١/٥٨٥ ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يَتَمَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا، فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ» متفقٌ عليه[١] وهذا لفظ البخاري.

وفي روايةٍ لمسلم عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يَتَمَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، وَلاَ يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إذا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لاَ يَزِيدُ الْمُؤمِنَ عُمُرُهُ إِلاَّ خَيْرًا»[٢].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى: باب كراهية تمني الموت لضُرٍّ نزل به.

يعني من مرض أو نحوه، وأما إذا كان لخوف فتنة في الدين فلا بأس به، هكذا قال المؤلف رحمه الله، يعني إذا كان يخشى على نفسه فتنة في الدين؛ فلا بأس أن يتمنى الموت، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله في الأحاديث.

أما الأول فما قاله المؤلف صحيح أن الإنسان إذا نزل به الضرُّ فلا يتمنى الموت؛ فإن هذا خطأ وسفه في العقل، وضلال في الدين.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم(٥٦٧٣)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب كراهية تمني الموت لضرٍّ نزل به، رقم(٢٦٨٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمني الموت لضرٍّ نزل به، رقم(٢٦٨٢).

أما كونه سفهًا في العقل؛ فلأن الإنسان إذا بقي في حياته، فإما محسنًا فيزداد، وإما مسيئًا فيستعتب إلى الله عزَّ وجلَّ، وكونه يموت فإنه لا يدري، فلعله يموت على أسوأ خاتمة والعياذ بالله، لهذا نقول: لا تفعل فإن هذا سفه في العقل.

أما كونه ضلالاً في الدين فلأنه ارتكاب لما نهى عنه النبي ﷺ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «لاَ يَتَمَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ»، والنهي هنا للتحريم؛ لأن تمني الموت فيه شيء من عدم الرضا بقضاء الله، والمؤمن يجب عليه الصبر، إذا أصابته الضراء يصبر، فإذا صبر على الضراء نال شيئين مهمين:

الأول: تكفير الخطايا، فإن الإنسان لا يصيبه همٌّ ولا غمٌّ ولا أذًى ولا شيء إلا كفَّر الله به عنه حتى الشوكة يشاكها؛ الشوكة إذا شاكها الإنسان؛ فإنه يكفر بها عنه.

الثاني: إذا وفِّق لاحتساب الأجر من الله وصبر يبتغي بذلك وجه الله؛ فإنه يُثاب، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

أما كونه يتمنى الموت فهذا يدل على أنه غير صابر على ما قضى الله عزَّ وجلَّ ولا راضٍ به، وبيَّن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه إما أن يكون من المحسنين، فيزداد في بقاء حياته يزداد عملاً صالحًا.

ومن المعلوم أن التسبيحة الواحدة في صحيفة الإنسان خيرٌ من الدنيا وما فيها؛ لأن الدنيا وما فيها تذهب وتزول، والتسبيح والعمل الصالح يبقى، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: ٤٦]، فأنت إذا بقيت ولو على أذى ولو على ضرر؛ فإنك ربما تزداد حسنات.

وإما مسيئًا قد عمل عملاً سيئًا، فلعله يستعتب أي: يطلب من الله العتبى أي: الرضا والعذر، فيموت وقد تاب من سيئاته، فلا تَتَمَنَّ الموت؛ لأن الأمر كله مقضي، وربما يكون في بقائك خيرٌ لك أو خيرٌ لك ولغيرك، فلا تَتَمَنَّ الموت؛ بل اصبر واحتسب، ودام الحال من المحال، والله الموفق.

* * *

٢/٥٨٦ ـ وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَبُدَّ فَاعِلاً، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي» متفقٌ عليه(١).

٣/٥٨٧ ـ وَعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قالَ: دَخَلْنَا عَلَى خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نَعُودُهُ وَقَدِ اكْتَوى سَبْعَ كَيَّاتٍ فَقَالَ: إِنَّ أَصْحَابَنَا الَّذِينَ سَلَفُوا مَضَوْا، ولَمْ تَنْقُصْهُمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّا أَصَبْنَا مَا لاَ نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلاَّ التُّرَابَ، وَلَوْلاَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَانَا أنْ نَدْعُوَ بالمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِهِ، ثُمَّ أَتَيْنَاهُ مَرَّةً أُخْرَى وهُوَ يَبْنِي حائطًا لَهُ، فقال: إِنَّ الْمُسْلِمَ لَيُؤجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُنْفِقُهُ إِلاَّ فِي شَيْءٍ يَجْعَلُهُ فِي هَذَا التُّرَابِ. متفقٌ عليه(٢)، وهذا لفظ رواية البخاري.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم(٥٦٧١)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمني الموت لضرٍّ نزل به، رقم(٢٦٨٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم(٥٦٧٢)، ومسلم، =

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى في كتاب رياض الصالحين في كراهة تمني الموت لضرٍّ نزل به إلا أن يكون لفتنة في الدين: قال أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يتمنيَنَّ أحدكم الموت لضرٍّ أصابه» مثل أن يصاب الإنسان بمرض شديد، أو بفقر شديد، أو بدين متعب، أو ما أشبه ذلك فيقول: اللهم أمتني حتى أستريح من هذه الدنيا، فإن هذا حرام ولا يجوز؛ لأنه لو مات فإنه لن يستريح، ربما ينتقل من عذاب الدنيا إلى عذاب في الآخرة أشد وأشد.

ولهذا نهى النبي عليه الصلاة والسلام أن تتمنى الموت للضر الذي ينزل بك، ولكن قابل هذه المصائب بالصبر، والاحتساب، وانتظار الفرج، واعلم أن دوام الحال من المحال، والله عزَّ وجلَّ يقدِّر الليل والنهار، ويخلف الأمور على وجه لا يحتسبه الإنسان ولا يظنه؛ لأن الله إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، فلا تَتَمَنَّ الموت لضرٍّ نزل بك.

أما ما يتعلق بفتنة الدين، إذا افتتن الناس في دينهم وأصابتهم فتنة؛ إما في زخارف الدنيا أو غيرها من الفتن، أو أفكار فاسدة، أو ديانات منحرفة أو ما أشبه ذلك، فهذا أيضًا لا يتمنى بسببه الإنسان الموت، ولكن يقول: اللهم اقبضني إليك غير مفتون، فيسأل الله أن يثبته وأن يقبضه إليه غير مفتون.

= كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمني الموت لضرّ نزل به، رقم(٢٦٨١).

وإلا فليصبر لأنه ربما يكون بقاؤه مع هذه الفتن خيرًا للمسلمين؛ يدافع عنهم ويناضل، ويساعد المسلمين، ويقوي ظهورهم، لكن يقول: اللهم إن أردت بعبادك فتنة؛ فاقبضني إليك غير مفتون.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «فإن كان لابد فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»؛ فأنت لا تدري أيها الإنسان وجه الخير في ذلك، لكن اجعل الأمر إلى الله: «اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي» يعني إذا كانت. «وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي».

فإذا دعوت الله بهذا الدعاء؛ فإن الله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءك.

وفي هذا الحديث دليلٌ على جواز الشرط في الدعاء، أن تشترط على الله عزَّ وجلَّ في الدعاء، وقد جاء ذلك في نصوص أخرى؛ مثل آية اللعان فإن الزوج يقول في الخامسة: إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وهي تقول في الخامسة: إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. فالشرط في الدعاء لا بأس به.

ثم ذكر المؤلف حديث قيس بن حازم حين دخلوا على خبَّاب بن الأرت رضي الله عنه وهو من الصحابة الأجلَّاء، دخلوا يعودونه بعد أن فتحت الدنيا على المسلمين.

والمسلمون كانوا في العهد الأول فقراء، ولكن الله أغناهم بالغنائم الكثيرة التي غنموها من الكفار بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾

[الفتح: ١٩].

فلما فتح الله على المسلمين؛ كثرت الأموال عندهم، فزادت وتطوّرت، وحصل من بعضهم ترف، وصار بعضهم إذا قُدِّم له الغداء أو العشاء يبكي على ما كان السَّلف عليه من ضحالة العيش وقلة ذات اليد.

دخلوا على خبَّاب بن الأرت رضي الله عنه وهو مريضٌ وقد اكتوى سبع كيَّات.

والكَيُّ أحد الأدوية النافعة بإذن الله، ثلاثة أشياء نصَّ عليها الرسول عليه الصلاة والسلام وبيَّن أن بها الشفاء بإذن الله: «الكي، والحجامة، والعسل»[1]؛ هذه الثلاثة من أنفع ما يكون بإذن الله عزَّ وجلَّ، وهناك بعض العلل لا ينفع فيها إلا الكي، فمثلاً ذات الجنب، وهو داء يصيب الرئة فتتجلط وتلصق بالصدر ويموت الإنسان منها إلا أن يشفيه الله عزَّ وجلَّ بأسباب.

هذا النوع من الأمراض لا ينفع فيه إلا الكي، كم من مريض يصاب بذات الجنب يذهب إلى الأطباء ويعطونه الإبر والأدوية وغيرها ولا ينفع؟! فإذا كوي برأ بإذن الله.

كذلك هناك أشياء تصيب الأمعاء تسمى عند أطباء العرب الطير؛ لأنها تتفرق في الجسد، هذه أيضًا لا ينفع فيها إلا الكي، مهما أعطيت المريض من الأدوية لا ينفع فيها إلا الكي.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، رقم(٥٦٨١).

هناك أيضًا شيء ثالث يسمى عند الناس الحبة، ورم يظهر في الفم أو في الحلق، وإذا انفجر هلك الإنسان، هذا أيضًا لا ينفع فيه إلا الكي، وأشياء كثيرة لا ينفع فيها إلا الكي.

كوي خباب بن الأرت رضي الله عنه سبع كيات، ثم جاءه أصحابه يعودونه فأخبرهم أن النبي ﷺ قال: «إن الإنسان يؤجر على كل شيء أنفقه إلا في شيء يجعله في التراب» يعني في البناء؛ لأن البناء إذا اقتصر الإنسان على ما يكفيه؛ فإنه لا يحتاج إلى كبير نفقة.

يبني له حجرة تكفيه هو وعائلته كما كان الرسول ﷺ وهو أشرف الخلق، كانت بيوته حُجَرًا، حجرة واحدة له ولزوجته، وليس فيها أكثر من ذلك، وعند قضاء الحاجة يخرجون إلى الخلاء ويقضون حاجتهم فيه.

لكن تتطور الناس، ومن علامات الساعة: أن ترى الحفاة العراة العالة - يعني الفقراء - يتطاولون في البنيان؛ يتطاولون في البناء في علوه في السماء، أو في تذويقه وتحسينه، فهذا المال الذي يجعل في البناء لا يؤجر الإنسان عليه، اللهم إلا بناء يجعله للفقراء يسكنونه، أو يجعل غلته في سبيل الله، أو ما أشبه ذلك، فهذا يؤجر عليه، لكن بناء يسكنه، هذا ليس فيه أجر؛ بل ربما إذا زاد الإنسان فيه حصل له وزر، مثل ما يفعل بعض الفقراء الآن.

الآن عندنا فقراء يتدين الإنسان منهم إلى عشر سنين أو خمسة عشر

وإن طال الأجل إلى عشرين سنة، من أجل أن يرصِّع بنيانه بالأحجار الجميلة، أو من أجل أن يضع له أقواسًا أو شرفات، أو ما أشبه ذلك وهو مسكين يعمل هذا العمل المنهي عنه ويستدين على نفسه الديون الكثيرة.

وأما البنيان الذي يكون على حسب العادة، يعني لو أن الناس اعتادوا بنيانًا معينًا، وأراد الإنسان أن يبني ما كان على العادة، وما كان ينبسط فيه أهله بدون إسراف، وبدون أن يستدين؛ فهذا لا بأس به وليس فيه إثم إن شاء الله.



٦٨ـ بابُ الورَع وترك الشبهات

قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين: باب الورع وترك الشبهات.

الورع والزهد يشتبه معناهما عند بعض الناس، لكن الفرق بينهما كما قال ابن القيم رحمه الله في كتاب الروح: الورع ترك ما يضرُّ في الآخرة، والزهد ترك ما لا ينفع، فمقام الزهد أعلى من مقام الورع؛ لأن الورع أن يترك الإنسان ما يضرُّ، والزهد أن يترك ما لا ينفع؛ لأن الأشياء ثلاثة أقسام: ضار، ونافع، وما ليس بضار ولا نافع يعني منها ضار، ومنها نافع، بضار ولا نافع.

فالزاهد يترك شيئين من هذا؛ يترك الضار، ويترك ما ليس بنافع ولا ضار، ويفعل ما هو نافع.

والورِعُ يترك شيئًا واحدًا منها وهو ما كان ضارًّا، ويفعل النافع، ويفعل الشيء الذي ليس فيه نفع ولا ضرر.

وبهذا صارت منزلة الزاهد أرفع من منزلة الورِع، وربما يطلق أحدهما على الآخر؛ فالورَع ترك ما يضر، ومن ذلك ترك الأشياء المشتبهة؛ المشتبهة في حكمها، والمشتبهة في حقيقتها، فالأول اشتباه في الحكم،

والثاني اشتباه في الحال، فالإنسان الورع هو الذي إذا اشتبه الأمر عليه تركه إن كان اشتباهًا في تحريمه، وفعله إن كان اشتباهًا في وجوبه لئلا يأثم بالترك.

ثم إن المؤلف رحمه الله ذكر آيتين في هذا الباب، قال رحمه الله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [النور: ١٥].

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾: الضمير يعود على ما تلقَّاه الناس من حديث الإفك الكذب في حق أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وذلك أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: كانت زوج النبي ﷺ، وكان المنافقون يتربَّصون بالنبي ﷺ أن يشوِّهوا سمعته، ويدنِّسوا عِرْضه، فحصلت غزوة من الغزوات، فلما قفل النبي ﷺ راجعًا منها نام في أثناء الطريق، وكانت نساء النبي ﷺ لهن رجال يساعدون في ترحيلهن.

فلما كان في آخر الليل ذهبت عائشة رضي الله عنها لقضاء حاجتها، فجاء الذين يحملون الهودج الذي تركب فيه فحملوه على البعير وشدوه عليه، وظنوا أنها كانت فيه؛ لأنها كانت في ذلك الوقت صغيرة السن خفيفة الوزن.

ثم سار الركب، فلما رجعت عائشة رضي الله عنه إلى المكان وجدت الناس قد رحلوا، فكان من ذكائها وثبات جأشها وطمأنينتها أن بقيت في المكان، فلم تذهب تتجول يمينًا وشمالاً؛ لأنها لو ذهبت ربما ضاعت وضيعوها، لكنها بقيت في مكانها، وكان رجل من خيار الصحابة يُقال له: صفوان بن المعطل نائمًا، وكان من قوم إذا ناموا لم يستيقظوا إلا إذا شبعوا

من النوم.

فاستيقظ صفوان رضي الله عنه فوجد الناس قد رحلوا، ورأى هذا الشبح؛ هذا السواد، فأقبل إليها، فإذا هي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وكان يعرفها قبل أن ينزل الحجاب، فماذا صنع هذا الرجل؟

هذا الرجل أناخ البعير، ولم يتكلم بأي كلمة احترامًا لفراش رسول الله ﷺ، لا يريد أن يتكلم مع زوجته في مثل هذا المكان، أناخ البعير، ووضع رجله على ساق البعير وعضده، فركبت عائشة رضي الله عنها، فأخذ الزمام وجعل يقود البعير، ليجعل عائشة خلفه.

فلما أقبل على القوم تكلَّم المنافقون، ورأوا أن هذا فرصة، وقالوا في عائشة ما هم فيه كاذبون؛ امرأة في سفر مع رجل تتأخر عن القوم، فصاروا يتكلمون في عِرْض عائشة، وهم لا يريدون عِرْض عائشة، لا تهمهم فتاة عند زوجها، الذي يهمهم تدنيس فراش رسول الله ﷺ: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

فجعلوا يتكلمون، وكان من حكمة الله عزَّ وجلَّ أن عائشة لما قدموا المدينة مرضت وبقيت في بيتها، وكان النبي ﷺ يدخل عليها، ولم تر منه ما كانت تراه في السابق، كان يمر ويقول: «كيف تيكم؟»، يعني: كيف هذه؟ لا يسأل ويلح ويقول: كيف هي اليوم؟ عساها أحسن من أمس، وما أشبه ذلك، ولكنه يقول هذه الكلمة؛ لأن كلام المنافقين قد شاع في المدينة وصار عند بعض المؤمنين تردد، والرسول عليه الصلاة والسلام كان لا يشك في أهله، ويرى أن الله عزَّ وجلَّ يأبى بحكمته أن يدنِّس فراش

نبيه ﷺ.

ولم يكن ليصدق بهذا أبدًا، لكن مع كثرة الكلام وكثرة القرع وكثرة الإرجاف، تردد الرسول ﷺ في الأمر، وبعد أن مضى نحو شهر خرجت عائشة رضي الله عنها وخالتها أم مسطح بن أثاثة، خرجت تقضي حاجتها، وكانوا في هذا الوقت ليس عندهم مراحيض في البيوت، إذا أراد الواحد أن يقضي حاجته خرج إلى الخلاء وبحث عن مكانٍ مطمئنٍ نازلٍ وقضى فيه حاجته.

فخرجت عائشة مع خالتها أم مسطح إلى مكان قضاء الحاجة، فعثرت أم مسطح، فقالت: تعس مسطح، تقول أم مسطح: تعس مسطح فاستغربت عائشة كيف تقول لرجل من المهاجرين شهد بدرًا تقول فيه: تعس مسطح، فقالت: لم تقولين هذا الكلام؟ لأن معنى تعس خسر وهلك، فقالت: أما علمت بكذا وكذا وكذا، وأخبرتها بقصة الإفك، وأن مسطحًا كان ممن صدَّقوا تلك الفرية، فازدادت عائشة رضي الله عنها مرضًا إلى مرضها، وصارت تبكي ليلاً ونهارًا لا يرقأ لها دمع، ولا تهنأ بعيش.

وبينما الأمر كذلك حتى انتهى نفاق المنافقين إلى الرأس، أنزل الله فيها هذه الآيات الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ يعني طائفة منكم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ سبحان الله!! هذا الإفك والرمي بالفاحشة لا نحسبه شرًّا؟ نعم لا نحسبه شرًّا، بل هو خير لكم؛ لأنه حصل به من تمحيص الذنوب ورفعة المقامات، والدفاع عن عرض الرسول عليه

الصلاة والسلام وفراشه ما هو خير.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ كل واحد تكلم في هذا الأمر له ما اكتسب من الإثم ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

أعظمهم إثمًا الذي قاد هذه الفتنة وأوقد نارها والعياذ بالله.

ثم ساق الله تعالى الآيات إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وكان الورع والتقى ألا يتكلموا في هذا الأمر، وأن يسألوا أنفسهم: من أين مصدره؟ من المنافقين الذين هم أكذب عباد الله.

المنافقون أكذب الناس، ولهذا من علامات النفاق الكذب، استمعوا إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ شهادة مؤكدة بإنَّ واللام. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ حقًّا إنك رسوله ومع ذلك: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

شهادة بشهادة أيهما أعظم؛ قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أم قول الله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾؟ لا شك أن قول الله أصدق، فهو يشهد عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

هذه الفاحشة التي أشيعت مصدرها من المنافقين، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، لكنه الخبيث لا يتكلم صراحة، يأتي إلى الناس ويقول: أما سمعتم ما قيل في عائشة، قيل كذا وكذا.

وهناك أُناس من المؤمنين تكلَّموا بهذا صراحة، منهم مسطح بن

أثاثة، وحسان بن ثابت رضي الله عنه، وحمنة بنت جحش، تكلموا لأنهم بشر، وأقسم أبو بكر رضي الله عنه ألا ينفق على مسطح بن أثاثة وهو ابن خالته، لكنه أقسم ألا ينفق عليه؛ لا لأنه قال في ابنته؛ بل قال في رسول الله ﷺ ما لا يليق.

فماذا قال الله عزَّ وجلَّ؟ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢٢].

﴿وَلاَ يَأْتَلِ﴾: أي لا يحلف، والمراد بهذا من؟ أبو بكر. ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من يعني بأولي القربة واليتامى والمساكين والمهاجرين؟ يعني بذلك مسطحًا، فلا ينبغي لأهل الفضل أمثال أبي بكر رضي الله عنه أن يمتنعوا عن الإنفاق على أولي القربى والمساكين والمهاجرين، وإن هم أخطئوا في بعض الأمور.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر: بلى والله، نحب أن يغفر الله لنا، فرد النفقة على مسطح. هذا الامتثال العظيم، وإلا فرجل يقول في ابنته ما يقول بل في رسول الله ما يقول، فامتثل أبوبكر هذا الامتثال العظيم، ثم أمر النبي ﷺ أن يجلد مسطح وحسان وحمنة، كل واحد منهم ثمانين جلدة حد القذف، ولكن لم يأمر بجلد عبد الله بن أبي؛ لأنه خبيث ما كان يصرح، ولأن الحد تطهير للمحدود، وعبد الله بن أبي ليس أهلاً للطهارة؛ لأنه رجس نجس خبيث.

فالحاصل أن من الورع أن الإنسان لا يتكلم إلا بما يعلم، وهذا

الاستشهاد الذي استشهد به المؤلف ينطبق تمامًا على زماننا الآن، ما أكثر الذين يتكلمون في ولاة الأمور بغير علم، ما أكثر الذين يتكلمون في العلماء بغير علم، ما أكثر الذين يتكلمون في طلبة العلم بغير علم، ما أكثر الذين يتكلمون في المحسنين من ذوي الأموال بغير علم.

فليس عند أكثر الناس ورع، يتكلم الإنسان بما جاء على لسانه من غير أن يتحقق، وهذا من الظلم والعدوان على من تكلم فيه، أن يتكلَّم فيه بغير علم. لما قال الرسول عليه الصلاة والسلام في الغيبة إنها: «ذكرك أخاك بما يكره» قالوا: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»(١).

نسأل الله أن يهدي ألسنتنا وألسنتكم من الكذب وقول الزور، وأن يعصمنا من الزلل ويعفو عنا إنه جواد كريم.

* * *

١ /٥٨٨ ـ وَعَنِ النُّعْمَانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «إِنَّ الْحَلالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ؛ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ؛ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ؛ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ: ألا وَهِيَ القَلْبُ» متفقٌ

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الغيبة، رقم(٢٥٨٩).

عليه[1]. ورَوَياهُ مِنْ طُرُقٍ بألْفاظٍ مُتَقارِبَة.

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن النعمان بن بشير رضي الله عنه وعن أبيه بشير بن سعد في كتابه رياض الصالحين، أن النبي ﷺ قال: «إن الحلال بَـيِّنٌ وإن الحرام بَـيِّنٌ وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثيرٌ من الناس» قسم النبي ﷺ الأمور إلى ثلاثة أقسام: حلال بيّن، وحرام بيّن، ومشتبه.

الحلال البيّن؛ كحلِّ بهيمة الأنعام، والحرام البين؛ كتحريم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أشبه ذلك، وكلّ ما في القرآن من كلمة «أحلّ» فهو حلال، ومن كلمة «حرّم» فهو حرام، فقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] هذا حلال بيّن، وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، هذا حرامٌ بيّن.

هناك أمور مشتبهات تخفى على الناس، وأسباب الخفاء كثيرة، منها ألا يكون النصُّ ثابتًا عند الإنسان، يعني يتردد: هل يصح عن الرسول عليه الصلاة والسلام أو لا يصح، ثم إذا صح قد تشتبه دلالته: هل يدل على كذا أو لا يدل؟ ثم إذا دلّ على شيء معين فقد يشتبه: هل له مخصص إن كان عامًّا؟ هل له مقيد إن كان مطلقًا؟ ثم إذا تبين قد يشتبه: هل هو باقٍ أو منسوخ.

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم(٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم(١٥٩٩).

المهم أن أسباب الاشتباه كثيرة، فما هو الطريق إلى حل هذا الاشتباه؟ والجواب: أن الطريق بينه النبي عليه الصلاة والسلام فقال: «فمن اتقى الشبهات؛ استبرأ لدينه وعرضه» من اتقاها يعني تجنبها إلى الشيء الواضح البيّن؛ فقد استبرأ لدينه وعرضه.

استبرأ لدينه: حيث سلم من الوقوع في المحرم. ولعرضه: حيث سلم من كلام الناس فيه؛ لأنه إذا أخذ الأمور المشتبهة؛ صار عرضة للكلام فيه، كما إذا أتى الأمور البينة الواضح تحريمها.

ثم ضرب النبي ﷺ مثلاً لذلك بالراعي راعي غنم أو إبل أو بقر «يرعى حول الحمى» يعني حول الحمى الذي حماه أحد من الناس لا يرعى فيه أحد، ومعلوم أنه إذا حمي؛ ازدهر وكثُر عشبه أو كثر زرعه؛ لأن الناس لا ينتهكونه بالرعي، فالراعي الذي يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه؛ لأن البهائم إذا رأت الخضرة في هذا المحمي، ورأت العشب، فإنها تنطلق إليه وتحتاج إلى ملاحظة ومراقبة كبيرة.

ومع ذلك لو لاحظ الإنسان وراقب، فإنه قد يغفل، وقد تغلبه هذه البهائم، فترتع في هذا الحمى «كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه».

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ألا وإن لكل ملك حمى» وهذا يحتمل أن الرسول ﷺ قال ذلك إقرارًا له، وأن الملك له أن يحمي مكانًا معينًا يُكثر فيه العشب لبهائهم المسلمين؛ وهي البهائم التي تكون في بيت المال؛ كإبل الصدقة، وخيل الجهاد، وما أشبه ذلك.

وأما الذي يحمي لنفسه فإن ذلك حرامٌ عليه، لا يحل لأحد أن يحمي شيئًا من أرض الله يختص بها دون عباد الله، فإن ذلك حرامٌ عليه؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «المسلمون شركاء في ثلاث: في الماء، والكلأ، والنار»[١].

فالكلأ لا يجوز لأحد أن يحميه فيضع عليه الشبك، أو يضع عنده جنودًا يمنعون الناس من أن يرعوا فيه، فهو غصب لهذا المكان، وإن لم يكن غصبًا خاصًّا؛ لأنه ليس ملكًا لأحد، لكنه منع لشيء يشترك فيه الناس جميعًا، فهذا لا يجوز، ولهذا قال أهل العلم: يجوز للإمام أن يتخذ حمًى مرعىً لدواب المسلمين بشرط ألا يضرهم أيضًا.

فقول الرسول ﷺ: «ألا وإن لكل ملك حمى» يحتمل أنه إقرار، فإن كان كذلك؛ فالمراد به ما يحميه الملك لدواب المسلمين؛ كخيول الجهاد، وإبل الصدقة، وما أشبه ذلك.

ويحتمل أنه إخبار بالواقع وإن لم يكن إقرارًا له؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد يخبر بالشيء الواقع أو الذي سيقع من غير إقرار له، أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أننا سنركب سنن اليهود والنصارى. فقال: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»[٢]

---

(١) رواه أبوداود، كتاب البيوع، باب في منع الماء، رقم(٣٤٧٧).
(٢) رواه البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ لتتبعن، رقم(٧٣٢٠)، ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود، رقم(٢٦٦٩).

فهل هذا إقرار؟ لا. لكنه تحذير.

على كل حال الملك له حمًى يُحْمى سواء بحق أو بغير حق، فإذا جاء الناس يرعون حول الحمى؛ حول الأرض المعشبة المخضرة، فإنهم لا يملكون منع البهائم أن ترتع فيها.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ألا وإن حمى الله محارمه» الله عزَّ وجلَّ أحاط الشريعة بسياج محكم، حمى كل شيء محرم يضر الناس في دينهم ودنياهم حماه، وإذا كان الشيء مما تدعو النفوس إليه شدد السياج حوله إذا كان مما تدعو النفوس إليه؛ فإنه يشدد السياح حوله.

انظر مثلاً إلى الزنى والعياذ بالله، الزنى سببه قوة الشهوة وضعف الإيمان، لكن النفوس تدعو إليه؛ لأنه جبلة وطبيعة، فجعل حوله سياجًا يبعد الناس عنه فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، لم يقل ولا تزنوا، قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ يشمل كل ذريعة توصل إلى الزنى من النظر واللمس والمحادثة وغير ذلك.

كذلك الربا حرَّمه الله عزَّ وجلَّ، ولما كانت النفوس تطلبه لما فيه من الفائدة؛ حرَّم كل ذريعة إليه، فحرم الحيل على الربا ومنعها، وهكذا جعل الله عزَّ وجلَّ للمحارم حمًى له تمنع الناس من الوقوع فيها.

ثم قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت؛ صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

«مضغة» يعني قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغه الإنسان، صغيرة لكن شأنها عظيم، هي التي تدبر الجسد «إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا

فسدت فسد الجسد كله» ليست العين، ولا الأنف، ولا اللسان، ولا اليد، ولا الرِّجل، ولا الكبد، ولا غيرها من الأعضاء، إنما هي القلب، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبناعلى دينك، اللهم مصرف القلوب صرِّف قلوبنا إلى طاعتك»(١).

فالإنسان مدار صلاحه وفساده على القلب. ولهذا ينبغي لك أيها المسلم أن تعتني بصلاح قلبك، فصلاح الظواهر وأعمال الجوارح طيب، ولكن الشأن كل الشأن في صلاح القلب، يقول الله عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من الهيئة الحسنة، وحسن عمل الجوارح، وإذا قالوا، قالوا قولاً تسمع له من حسنه وزخرفته، لكن قلوبهم خربة والعياذ بالله ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]، ليس فيها خير.

فأنت اعتنِ بصلاح القلب، انظر قلبك هل فيه شيء من الشرك؟ هل فيه شيء من كراهة ما أنزل الله؟ هل فيه شيء من كراهة عباد الله الصالحين؟ هل فيه شيء من الميل إلى الكفار؟ هل فيه شيء من موالاة الكفارة؟ هل فيه شيء من الحسد، هل فيه شيء من الغل؟ هل فيه شيء من الحقد؟ وما أشبه ذلك من الأمراض العظيمة الكثيرة في القلوب، فطهِّر قلبك من هذا وأصلحه، فإن المدار عليه.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ

---

(١) رواه مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم(٢٦٥٤).

﴿يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ٩ ـ ١١]، هذا يوم القيامة، العلم على الباطن، في الدنيا العمل على الظاهر، مالنا إلا ظواهر الناس، لكن في الآخرة العمل على الباطن، أصلح الله قلوبنا وقلوبكم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، ﴿تُبْلَى﴾ يعني تختبر السرائر فمن كان من المؤمنين؛ ظهر إيمانه، ومن كان من أهل النفاق؛ ظهر نفاقه والعياذ بالله.

لذلك أصلح قلبك يا أخي، لا تكره شريعة الله، لا تكره عباد الله الصالحين، لا تكره أي شيء مما نزّل الله، فإن كراهتك لشيء مما نزّل الله كفر بالله تعالى، نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق والصلاح.

* * *

٣/ ٥٩٠ ـ وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» رواهُ مسلم[١].

٤/ ٥٩٠ ـ وَعَنْ وابِصَةَ بْنِ معبدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، الْبِرُّ: مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، واطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوكَ» حديثٌ حسن، رواهُ أحمدُ، والدَّارِميُّ في مُسْنَدَيْهما»[٢].

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والآثام، رقم(٢٥٥٣).
(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٢٢٨).

الشرح

قال المؤلف الحافظ النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين في باب الورع وترك الشبهات: عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

فقوله عليه الصلاة والسلام: «البر حسن الخلق» يعني أن حسن الخلق من البر الداخل في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

وحسن الخلق يكون في عبادة الله، ويكون في معاملة عباد الله.

فحسن الخلق في عبادة الله: أن يتلقى الإنسان أوامر الله بصدر منشرح، ونفس مطمئنة، ويفعل ذلك بانقياد تام، بدون تردد، وبدون شك، وبدون تسخط، يؤدي الصلاة مع الجماعة منقادًا لذلك، يتوضأ في أيام البرد منقادًا لذلك، يتصدق بالزكاة من ماله منقادًا لذلك، يصوم رمضان منقادًا لذلك، يحج منقادًا لذلك.

وأما في معاملة الناس فأن يقوم ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والنصح بالمعاملة وغير هذا، وهو منشرح الصدر، وواسع البال، لا يضيق بذلك ذرعًا، ولا يتضجر منه، فإذا علمت من نفسك أنك في هذه الحال، فإنك من أهل البر.

أما الإثم فهو أن الإنسان يتردد في الشيء، ويشك فيه، ولا ترتاح له نفسه، وهذا فيمن نفسه مطمئنة راضية بشرع الله.

وأما أهل الفسوق والفجور فإنهم لا يترددون في الآثام، تجد الإنسان

منهم يفعل المعصية منشرحًا بها صدره والعياذ بالله، لا يبالي بذلك، لكنَّ صاحبَ الخير الذي وُفِّق للبر هو الذي يتردد الشيء في نفسه، ولا تطمئن إليه، ويحيك في صدره، فهذا هو الإثم.

وموقف الإنسان من هذا أن يدعه، وأن يتركه إلى شيء تطمئن إليه نفسه، ولا يكون في صدره حرج منه، وهذا هو الورع، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «وإن أفتاك الناس وأفتوك»، حتى لو أفتاك مفتٍ بأن هذا جائز، ولكن نفسك لم تطمئن ولم تنشرح إليه فدعه، فإن هذا من الخير والبر.

إلا إذا علمت أن في نفسك مرضًا من الوسواس والشك والتردد فيما أحل الله، فلا تلتفت لهذا، والنبي عليه الصلاة والسلام إنما يخاطب الناس، أو يتكلم على الوجه الذي ليس فيه أمراض، أي ليس في قلب صاحبه مرض، فإن البر هو ما أطمأنت إليه نفسه، والإثم ما حاك في صدره وكره أن يطلع عليه الناس، والله الموفق.

* * *

٥٩٢/٥ ـ وعن أبي سِرْوَعَةَ ـ بكسر السين المهملة وفتحها ـ عُقْبَةَ بن الحَارِثِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةً لأبي إِهَابِ بن عَزِيزٍ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فقالَتْ: إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتِي قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا، فقالَ لَهَا عُقْبَةُ: مَا أَعْلَمُ أَنَّكِ أَرْضَعْتِنِي وَلاَ أَخْبَرْتِنِي، فَرَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ، وَقَدْ قِيلَ؟!» فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ. رواهُ

البخاري[١].

٦/٥٩٣ ـ وَعَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ» رواهُ الترمذي[٢] وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الشرح

هذان الحديثان ذكرهما المؤلف رحمه الله في باب الورع وترك الشبهات من باب رياض الصالحين. فالأول في مسألة الرضاع: حديث عقبة، والثاني في ترك المتشابه: حديث الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

أما الأول: فإن عقبة تزوج امرأة ابن أبي إهاب، فلما تزوجها جاءت امرأة فقالت: إني أرضعته هو والمرأة التي تزوجها، يعني فيكون أخًا لها من الرضاع، وأخوها من الرضاع يحرم عليها كما يحرم عليها أخوها من النسب؛ لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[٣] ولكن لابد لهذا من شروط:

الشروط الأول: أن يكون اللبن من آدمية، فلو اشترك طفلان في الرضاع من شاة أو من بقرة أو من بعير، فإنهما لا يصيران أخوين؛ لأنه لابد

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب الرحلة في المسألة النازلة وتعليم أهله، رقم(٨٨).

(٢) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب منه، رقم(٢٥١٨)، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

(٣) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب الشهادات على الأنساب...، رقم(٢٦٤٥)، ومسلم، كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، رقم(١٤٤٧).

أن يكون الرضاع من آدمية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣].

الشرط الثاني: لابد أن يكون الرضاع خمس رضعات فأكثر، فإن كان مرة واحدة أو مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات، فإنه ليس بشيء، ولا يؤثر، فلو أن امرأة أرضعت طفلاً أربع مرات في أربعة أيام كل مرة يشبع، فإنه لا يكون ابنًا لها؛ لأنه لابد من خمس، ولو أرضعته خمس مرات ولو لم يشبع فإنها تكون أمًّا له ويكون الرضاع محرمًا.

الشرط الثالث: لابد أن يكون في زمن الإرضاع، وهو ما قبل الفطام في الحولين، فإن لم يكن في هذا الزمن بأن أرضعته وهو كبير، فإن ذلك لا يؤثر، فلو أن طفلاً له خمس سنوات رضع من امرأة خمس مرات أو عشر مرات، فإنه لا يكون ابنًا لها من الرضاع؛ لأنها ليس في زمن الإرضاع.

فهذه شروط ثلاثة، وإذا ثبت التحريم فإنه ينتشر إلى المرتضع وذريته فقط، ولا ينتشر إلى إخوانه وآبائه وأمهاته، وإنما ينتشر إليه وإلى فروعه فقط وهم ذريته وعلى هذا فيجوز لأخي الطفل الراضع أن يتزوج أخت أخيه من الرضاع، وأن يتزوج أم أخيه من الرضاع؛ لأنه لا علاقة أو لا تأثير في الرضاع إلا على المرتضع وذريته يعني فروعه.

فأما أصوله وحواشيه: أصوله من آباء وأمهات، وحواشيه من إخوة، وأعمام، وأبنائهم، وبناتهم، فإنه لا تأثير لهم في الرضاع، سواء كان أكبر منه أو أصغر منه، وما اشتهر عند العامة من أن إخوته الذين هم أصغر منه يلحقهم حكم الرضاع، فإنه لا صحة له.

بعض العوام يقول: إذا رضع طفل من امرأة صار ابنًا لها وصار إخوته الذين من بعده أبناءً لها، وهذا غير صحيح؛ بل جميع إخوته ليس لهم فيها تعلق بوجه من الوجوه.

وأما حديث الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ـ فإنه سمع النبي ﷺ وحفظ منه هذه الجملة المفيدة العظيمة التي تعتبر قاعدة في الورع وهي: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» يريبك: يعني يحصل لك به ريب وشك، فدعه ولا تأخذ إلا بما تيقنته أو غلب على ظنك، إن كان مما يفيد فيه غلبة الظن.

وأما ما شككت فيه فدعه، وهذا أصل من أصول الورع، ولهذا رأى النبي ﷺ تمرة، رآها في الطريق فلم يأكلها وقال: «لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها»(١)، وهذا يدخل في هذا الحديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

ومن ذلك ما إذا كان بينك وبين شخص محاسبة، وحصل زيادة لك من أجل هذه المحاسبة، وشككت فيها فدعها، وإذا شك فيها صاحبك وتركها فتصدق بها، تصدق بها تخلصًا منها، أو تجعلها صدقة معلقة؛ بأن تقول: اللهم إن كانت لي فهي صدقة أتقرب بها إليك، وإن لم تكن لي فهو مالٌ أتخلص بالصدقة به من عذابه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللقطة، باب إذا وجد تمرة في الطريق، رقم(٢٤٣١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ، رقم(١٠٧١).

والحاصل أن هذا الحديث حديثٌ عظيمٌ في باب الورع: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». ما تشك فيه اتركه وخذ بالشيء الذي لا يلحقك به قلق ولا شك ولا اضطراب.

* * *

٧/٥٩٤ ـ وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ لأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، غُلاَمٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوماً بِشَيْءٍ، فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الغُلاَمُ: تَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لإِنْسَانٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا أُحْسِنُ الْكَهَانَةَ إِلاَّ أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي، فَأَعْطَانِي بِذلِكَ هَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَه فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ. رواهُ البخاري[١].

الشرح

نقل الحافظ النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين، باب الورع وترك الشبهات عن عائشة رضي الله عنها أن غلامًا كان لأبي بكر، وكان أبو بكر يخارجه يعني يدعه يشتغل ويضرب عليه خراجًا معينًا، يقول: ائتِ لي كل يوم بكذا وكذا، وما زاد فهو لك.

وهذه المخارجة جائزة بالنسبة للعبيد، إذا كان الإنسان عنده عبيد وقال لهم: اذهبوا اشتغلوا وأتوني كل يوم بكذا وكذا من الدراهم وما زاد فهو لكم؛ فإن هذا جائز؛ لأن العبيد ملك للسيد، فما حصَّلوه فهو له سواء

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب أيام الجاهلية، رقم(٣٨٤٢).

خارجهم على ذلك أم لم يخارجهم.

لكن فائدة المخارجة أن العبد إذا حصَّل ما اتفق عليه مع سيده فإن له أن يبقى من غير عمل، أن يبقى في طلب العلم، أن يبقى مستريحًا في بيته أو أن يشتغل ويأخذ ما زاد.

أما بالنسبة للعمال الذين يجلبهم الإنسان إلى البلاد ويقول: اذهبوا وعليكم كل شهر كذا وكذا من الدراهم، فإن هذا حرامٌ وظلمٌ ومخالف لنظام الدولة، والعقد على هذا الوجه باطل، فليس لصاحب العمل شيء مما فرضه على هؤلاء العمال؛ لأن العامل ربما يكدح ويتعب ولا يحصِّل ما فرضه عليه كفيله، وربما لا يحصِّل شيئًا أبدًا، فكان في هذا ظلم.

أما العبيد فهم عبيد الإنسان، مالهم وما في أيديهم فهو له.

هذا الغلام لأبي بكر، كان أبو بكر قد خارجه على شيء معين يأتي به إليه كل يوم، وفي يوم من الأيام قدَّم هذا الغلام طعامًا لأبي بكر فأكله فقال: أتدري ما هذا؟ قال: وما هو؟ قال: هذا عوض عن أجرة كهانة تكهنت بها في الجاهلية وأنا لا أحسن الكهانة، لكني خدعت الرجل فلقيني فأعطاني إياها.

وعوض الكهانة حرام، سواء كان الكاهن يحسن صنعة الكهانة أو لا يحسن؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن «حُلوان الكاهن»[1].

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب ثمن الكلب، رقم(٢٢٣٧)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن، رقم(١٥٦٧).

فلما قال لأبي بكر هذه المقالة، أدخل أبو بكر يده في فمه فقاء كلَّ ما أكل، كل ما أكل قاءه وأخرجه من بطنه لماذا؟ لئلا يتغذى بطنه بحرام. وهذا مال حرام؛ لأنه عوض عن حرام، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله إذا حرَّم شيئًا حرَّم ثمنه»(١).

فالأجرة على فعل الحرام حرام، ومن ذلك تأجير بعض الناس دكاكينهم على الحلاقين الذين يحلقون اللحى، فإن هذه الأجرة حرام ولا تحل لصاحب الدكان؛ لأنه استؤجر منه لعمل محرم.

ومن ذلك أيضًا تأجير البنوك في المحلات، فإن تأجير البنوك حرام؛ لأن البنك معاملته كلها أو غالبها حرام، وإذا وجد فيه معاملة حلال؛ فهي خلاف الأصل الذي من أجله أنشئ هذا البنك، الأصل في إنشاء البنوك أنها للربا، فإذا أجَّر الإنسان بيته أو دكانه للبنك فتعامل فيه بالربا فإن الأجرة حرامٌ ولا تحل لصاحب البيت أو صاحب الدكان.

وكذلك من أجَّر شخصًا يبيع المجلات الخليعة أو المفسدة في الأفكار الرديئة ومصادمة الشرع؛ فإنه لا يجوز تأجير المجلات لمن يبيع هذه المحلات؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة: ٢]، وتأجير المحلات لهؤلاء معونة لهم، وقال النبي ﷺ: «إن الله إذا حرَّم شيئًا حرَّم ثمنه»(٢).

---

(١) رواه أبوداود، كتاب البيوع، باب في ثمن الخمر والمنية، رقم(٣٤٨٨).
(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

وفي هذا الحديث دليلٌ على شدة ورع أبي بكر رضي الله عنه، فهو جدير بهذا؛ لأنه الخليفة الأول على هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، ولهذا كان قول أهل السنة والجماعة أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل هذه الأمة؛ لأنه الخليفة الأول.

ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد خطب الناس في مرضه وقال: «إن من أمنّ الناس عليَّ في نفسه وماله أبوبكر»، ثم قال: «ولو كنت متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن خلة الإسلام أفضل»[١].

والنصوص في هذا كثيرةٌ متواترة، حتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب القائل بالصدق وبالقسط والعدل، كان يقول على منبر الكوفة وقد تواتر ذلك عنه: «خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر».

هكذا يقول رضي الله عنه وقال: «لا أوتى برجل يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته ـ جلدة الفرية ـ» يعني جلد القذف والكذب، وهذا من تواضعه رضي الله عنه في الحق وقول الصدق.

وفيه ردٌّ ظاهرٌ على الروافض الذين يفضلون عليًّا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ بل بعضهم يفضل عليًّا على رسول الله ﷺ ويقول: علي أفضل من محمد وأحق بالرسالة، ولكن جبريل خان الأمانة وانصرف بالرسالة عن علي إلى محمد، ولا شك أنهم على ضلال بيّن والعياذ بالله، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم(٤٦٧).

والحاصل أن أبا بكر رضي الله عنه فيه هذا الورع العظيم بعد أن أكل المحرم ذهب يخرجه من جوفه لئلا يتغذى به، والله الموفق.

* * *

٨/٥٩٥ ـ وعن نافعٍ أنَّ عُمَرَ بنَ الْخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كانَ فَرَضَ لِلْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ أَرْبَعَةَ آلاَفٍ وَفَرَضَ لإبْنِهِ ثَلاَثَةَ آلافٍ وَخَمْسِمِائَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: هُوَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَلِمَ نَقَصْتَهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا هَاجَرَ بِهِ أَبُوهُ. يَقُولُ: لَيْسَ هُوَ كَمَنْ هَاجَرَ بِنَفْسِهِ. رواه البخاري[1].

٩/٥٩٦ ـ وعن عَطِيَّةَ بْنِ عُرْوَةَ السَّعْدِيِّ الصَّحَابِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يَبْلُغُ العَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُتَّقِينَ حتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ بَأسٌ». رواه الترمذي[2] وقال: حديثٌ حسنٌ.

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتاب رياض الصالحين في باب الورع وترك الشبهات فيما نقله عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فرض للناس أعطياتهم من بيت المال، فجعل للمهاجرين أربعة آلاف، وجعل لابنه عبد الله ثلاثةَ آلاف وخمسمائة.

وابنه عبد الله مهاجر، فنقصه عن المهاجرين خمسمائة من أربعة

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، رقم(٣٩١٢).

(٢) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، رقم(٢٤٥١)، وقال الترمذي: حسن غريب.

آلاف، فقيل له: إنه من المهاجرين فلماذا نقصته؟ قال: «إنما هاجر به أبوه ولم يهاجر هو بنفسه، وليس من هاجر به أبوه كمن هاجر بنفسه»، وهذا يدل دلالة عظيمة على شدة ورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وهكذا يجب على من تولّى شيئًا من أمور المسلمين ألا يحابي قريبًا لقربه، ولا غنيًّا لغناه، ولا فقيرًا لفقره، بل ينزل كل أحد منزلته، فهذا من الورع والعدل، ولم يقل عبد الله بن عمر: يا أبت، أنا مهاجر ولو شئت لبقيت في مكة؛ بل وافق على ما فرضه له أبوه.

وأما الحديث الأخير في هذا الباب فهو أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به بأس**»، وهذا فيما إذا اشتبه مباح بمحرم وتعذر التمييز، فإنه من تمام اليقين والتقوى أن تدع الحلال خوفًا من الوقوع في الحرام.

وهذا أمر واجبٌ كما قاله أهل العلم: إنه إذا اشتبه مباح بمحرم وجب اجتناب الجميع؛ لأن اجتناب المحرم واجب، ولا يتم إلا باجتناب المباح، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

لكن لو اضطر إلى أحدهما فله أن يتحرى في هذه الحال ويأخذ بما غلب على ظنه، ولنفرض أنه اشتبه طعام غيره بطعام نفسه، ولكنه مضطر إلى الطعام، ففي هذه الحال يتحرى ويأكل ما يغلب على ظنه أنه طعامه، والله الموفق.

* * *

٦٩ـ باب استِحباب العزلة عند فساد النَّاس والزّمان أو الخوف من فتنة في الدين ووقع في حرام وشبهات ونحوها

قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠].

١/٥٩٧ ـ وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يحِبُّ العَبدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ» رواه مسلم(١).

والمراد بـ«الغَنِيّ»: غَنِيُّ النَّفْسِ، كما سَبَقَ في الحديث الصحيح.

٢/٥٩٨ ـ وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أيُّ النَّاس أفضَلُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ». وفي رواية: «يَتَّقِي اللهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ» متفقٌ عليه(٢).

٣/٥٩٩ ـ وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُوشِكُ أنْ يَكُونَ خيْرَ مَالِ الْمُسْلم غَنَمٌ يَتّبعُ بها شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بدينِهِ مِنَ الفِتَنِ» رواه البخاري(٣).

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى في كتاب رياض الصالحين، باب استحباب العزلة عند تغير الناس وفساد الزمان وخوف الفتنة، وما أشبه ذلك.

واعلم أن الأفضل هو المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد، باب منه، رقم(٢٩٦٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله، رقم(٢٧٨٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط، رقم(١٨٨٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن، رقم(١٩).

هذا أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم، ولكن أحيانًا تحدث أمور تكون العزلة فيها خيرًا من الاختلاط بالناس؛ من ذلك إذا خاف الإنسان على نفسه فتنة، مثل أن يكون في بلد يطالب فيها بأن ينحرف عن دينه، أو يدعو إلى بدعة، أو يرى الفسوق الكثير فيها، أو يخشى على نفسه من الفواحش، وما أشبه ذلك، فهنا العزلة خير له.

ولهذا أمر الإنسان أن يهاجر من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، ومن بلد الفسوق إلى بلد الاستقامة، فكذلك إذا تغير الناس والزمان؛ ولهذا صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن».

فهذا هو التقسيم؛ العزلة خير إن كان في الاختلاط شر وفتنة في الدين، وإلا فالأصل أن الاختلاط هو الخير، يختلط الإنسان مع الناس فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، يدعو إلى حق، يبين السنة للناس، فهذا خير.

لكن إذا عجز عن الصبر وكثرت الفتن؛ فالعزلة خير ولو أن يعبد الله على رأس جبل أو في قعر وادٍ.

وبيَّن النبي عليه الصلاة والسلام فضل الرجل الذي يحبه الله عزَّ وجلَّ فقال: «إن الله يحبّ العبد التقي الغني الخفي».

التقي: الذي يتقي الله عزَّ وجلَّ، فيقوم بأوامره، ويجتنب نواهيه؛ يقوم بأوامره من فعل الصلاة وأدائها في جماعة، يقوم بأوامره من أداء الزكاة وإعطائها مستحقيها، يصوم رمضان، ويحج البيت، يبر والديه، يصل أرحامه، يحسن إلى جيرانه، يحسن إلى اليتامى، إلى غير ذلك من أنواع التقى والبر وأبواب الخير.

الغني: الذي استغنى بنفسه عن الناس، غني بالله عزَّ وجلَّ عمَّن سواه، لا يسأل الناس شيئًا، ولا يتعرض للناس بتذلل؛ بل هو غني عن الناس، عارف نفسه، مستغنٍ بربه، لا يلتفت إلى غيره.

الخفي: هو الذي لا يظهر نفسه، ولا يهتم أن يظهر عند الناس، أو يشار إليه بالبنان، أو يتحدث الناس عنه، تجده من بيته إلى المسجد، ومن مسجده إلى بيته، ومن بيته إلى أقاربه وإخوانه خفي، يخفي نفسه.

ولكن لا يعني ذلك أن الإنسان إذا أعطاه الله علمًا أن يتقوقع في بيته ولا يعلم الناس، هذا يعارض التقى، فتعليمه الناس خيرٌ من كونه يقبع في بيته ولا ينفع الناس بعلمه، أو يقعد في بيته ولا ينفع الناس بماله.

لكن إذا دار الأمر بين أن يلمِّع نفسه ويظهر نفسه ويبين نفسه، وبين أن يخفيها، فحيئذ يختار الخفاء، أما إذا كان لابد من إظهار نفسه فلابد أن يظهرها، هذا ممن يحبه الله عزَّ وجلَّ، وفيه الحث على أن الإنسان يكون خفيًّا، يكون غنيًّا عن غيره عن غير الله عزَّ وجلَّ، يكون تقيًّا لربه سبحانه وتعالى حتى يعبد الله سبحانه وتعالى في خير وعافية.

* * *

٤ / ٦٠٠ ـ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إلاَّ رَعَى الْغَنَمَ» فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ» رواه البخاري[١].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، رقم(٢٢٦٢).

٥/ ٦٠١ ـ وعنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: «مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرسِهِ فِي سَبيلِ اللهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أوْ فَزْعَةً، طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ، أو المَوْتَ مَظَانَّه، أوْ رَجُلٌ فِي غُنَيمَةٍ فِي رَأسِ شَعَفَةٍ مِنْ هذِهِ الشَّعَفِ، أوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الأوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأتِيهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إلاَّ فِي خَيْرٍ» رواه مسلم[1].

«يَطيرُ»: أي يُسْرع. «وَمَتْنُهُ»: أي ظَهْرُهُ. «وَالهَيْعَةُ»: الصوتُ للحرب.

الشرح

هذان الحديثان في باب استحباب العزلة عن الناس عند خوف الفتنة:

الأول حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم»، يعني ما من نبي من الأنبياء أرسله الله عزَّ وجلَّ إلى عباده إلاَّ رعى الغنم، قالوا: وأنت؟ قال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»، حتى النبي عليه الصلاة والسلام رعى الغنم.

قال العلماء: والحكمة من ذلك أن يتمرن الإنسان على رعاية الخلق وتوجيههم إلى ما فيه الصلاح؛ لأن الراعي للغنم تارة يوجهها إلى وادٍ مزهر مخضر، وتارة إلى وادٍ خلاف ذلك، وتارة إلى أرض ليس فيها هذا ولا هذا، وتارة لا يرعاها أبدًا، وتارة يبقيها واقفة، فالنبي عليه الصلاة والسلام سيرعى الأمة ويوجهها إلى الخير عن علم وهدى وبصيرة؛

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط، رقم(١٨٨٩).

كالراعي الذي عنده علم بالمراعي الحسنة، وعنده نصح وتوجيه للغنم إلى ما فيه خيرها، وما فيه غذاؤها وسقاؤها.

واختيرت الغنم لأن الغنم صاحبها صاحب سكينة وهدوء والاطمئنان، بخلاف الإبل؛ الإبل أصحابها في الغالب عندهم شدة وغلظة؛ لأن الإبل كذلك فيها الشدة والغلظة، فلهذا اختار الله سبحانه وتعالى لرسله أن يرعوا الغنم، حتى يتعودوا ويتمرنوا على رعاية الخلق.

فرسول الله ﷺ رعاها على قراريط لأهل مكة، وموسى عليه الصلاة والسلام رعاها مهرًا لابنة صاحب مدين، فإنه قال: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ﴾ [القصص: ٢٧].

وأما الحديث الثاني ففيه أيضًا دليل على أن العزلة خيرٌ فيكون الإنسان ممسكًا بعنان فرسه، يطير عليه كلما سمع هيعة، يعني أنه بعيد عن الناس يحمي ثغور المسلمين، مهتم بأمور الجهاد منعزل عن الناس لكنه على أتم استعداد للنفور والجهاد كلما سمع هيعة ركب فرسه فطار به، أي مشى مشيًا مسرعًا.

وكذلك من كان في مكان من الأودية والشعاب منعزلاً عن الناس، يعبد الله عزَّ وجلَّ، ليس من الناس إلا في خير، فهذا فيه خير.

ولكننا سبق أن قلنا: إن هذه النصوص تُحمل على ما إذا كان في الاختلاط فتنة وشر، وأما إذا لم يكن فيه فتنة وشر؛ فإن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خيرٌ من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم.

٧١ـ باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين

قال الله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٨، ٤٩].

الشرح

قال النووي رحمه الله تعالى في كتاب رياض الصالحين: باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين.

التواضع: ضد التعالي يعني ألا يرتفع الإنسان ولا يترفَّع على غيره، بعلم ولا نسب ولا مال ولا جاه ولا إمارة ولا وزارة ولا غير ذلك؛ بل الواجب على المرء أن يخفض جناحه للمؤمنين، أن يتواضع لهم كما كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة عند الله؛ رسول الله ﷺ يتواضع للمؤمنين، حتى إن الصبية لتمسك بيده لتأخذه إلى أي مكان تريد فيقضي حاجتها عليه

الصلاة والسلام.

وقول الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وفي آية أخرى: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾: أي تواضع؛ وذلك أن المتعالي والمترفع يرى نفسه أنه كالطير يسبح في جو السماء، فأمر أن يخفض جناحه وينزله للمؤمنين الذين اتبعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلم من هذا أن الكافر لا يخفض له الجناح وهو كذلك؛ بل الكافر ترفَّع عليه وتعالى عليه، واجعل نفسك في موضع أعلى منه؛ لأنك مستمسك بكلمة الله، وكلمة الله هي العليا.

ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ في وصف النبي ﷺ وأصحابه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، يعني أنهم على الكفار أقوياء ذوو غلظة، أما فيما بينهم فهم رحماء.

ثم ساق المؤلف الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي من يرجع منكم عن دينه فيكون كافرًا بعد أن كان مؤمنًا.

وهذا قد يقع من الناس، أن يكون الإنسان داخلاً في الإسلام عاملاً به، ثم يزيغه الشيطان ـ والعياذ بالله ـ حتى يرتد عن دينه، فإذا ارتد عن دينه فإنه لا يكون وليًّا للمؤمنين، ولا يكون معينًا للمؤمنين، ولهذا قال: ﴿يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ يعني بقوم مؤمنين، ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ﴾، فهم في جانب المؤمنين

أذلة لا يترفعون عليهم، ولا يأخذون بالعزة عليهم، ولكنهم يذلون لهم، أما على الكفار فهم أعزة مترفِّعون، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه»[١] إذلالاً لهم، وخذلانًا لهم؛ لأنهم أعدى أعداء لك، وأعداء لربك، وأعداء لرسولك، وأعداء لدينك، وأعداء لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وفي هذه الآية دليلٌ على إثبات المحبة من الله عزَّ وجلَّ، وأن الله يُحِبُّ ويُحَب ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وهذا الحب حبٌّ عظيمٌ لا يماثله شيء، تجد المحب لله عزَّ وجلَّ ترخص عنده الدنيا، والأهل، والأموال؛ بل والنفس، فيما يرضي الله عزَّ وجلَّ، ولهذا يبذل ويعرض رقبته لأعداء الله، محبة في نصرة الله عزَّ وجلَّ ونصرة دينه، وهذا دليلٌ على أن الإنسان مقدم ما يحبه الله ورسوله على ما تهواه نفسه.

ومن علامات محبة الله: أن الإنسان يديم ذكر الله؛ يذكر ربه دائمًا بقلبه ولسانه وجوارحه.

من علامات محبة الله: أن يحب من أحب الله عزَّ وجلَّ من الأشخاص، فيحب الرسول ﷺ، ويحب الخلفاء الراشدين، ويحب الأئمة، ويحب من كان في وقته من أهل العلم والصلاح.

من علامات محبة الله: أن يقوم الإنسان بطاعة الله، مقدمًا ذلك على

---

(١) رواه مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، رقم(٢١٦٦).

هواه، فإذا أذَّن المؤذن يقول: حي على الصلاة، ترك عمله وأقبل إلى الصلاة؛ لأنه يحب ما يرضي الله أكثر مما ما ترضى به نفسه.

ولمحبة الله علامات كثيرة، إذا أحبَّ الإنسان ربه فالله عزَّ وجلَّ أسرع إليه حبًّا؛ لأنه قال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»[١]، وإذا أحبه الله فهذا هو المقصود، وهذا هو الأعظم.

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولم يقل: فاتبعوني تصدقوا الله، بل قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأن هذه هي الثمرة أن يحب الربُّ عزَّ وجلَّ عبدَه، فإذا أحب عبده نال خيري الدنيا والآخرة. جعلني الله وإياكم من أحبابه.

وفي قوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ دليلٌ على إثبات محبة العبد لربه، وهذا أمر واضحٌ واقع مشاهد، يجد الإنسان من قلبه ميلاً إلى ما يرضي الله، وهذا يدل على أنه يحب الله عزَّ وجلَّ.

والإنسان المؤمن الموفق لهذه الصفة العظيمة، تجده يحب الله أكثر من نفسه، أكثر من ولده، أكثر من أمه، أكثر من أبيه، يحب الله أكثر من كل شيء، ويحب المرء؛ لأنه يحب الله، ومعلوم أن المحب يحب أحباب حبيبه، فتجد هذا الرجل لمحبته لله يحب من يحبه الله عزَّ وجلَّ من الأشخاص، وما يحبه من الأعمال، وما يحبه من الأقوال.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم(٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم(٢٦٧٥).

ثم ذكر المؤلف الحافظ النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين تحت عنوان باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين في سياق الآيات المتعلقة بهذا الموضوع وقال: وقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، يخاطب الله عزَّ وجلَّ الناس كلهم مبينًا أنه خلقهم من ذكر وأنثى، أي من هذا الجنس أو من هذا الشخص.

يعني إما أن يكون المراد بالذكر والأنثى آدم وحواء.

أو أن المراد الجنس أي أن بني آدم خلقوا كلهم من ذكر وأنثى. وهذا هو الغالب، وهو الأكثر.

وإلا فإن الله خلق آدم من غير أم ولا أب، خلقه من تراب، من طين، من صلصال كالفخار، ثم نفخ فيه من روحه، خلق له روحًا فنفخها فيه فصار بشرًا سويًّا.

وخلق الله حواء من أب بلا أم.

وخلق الله عيسى من أم بلا أب.

وخلق الله سائر البشر من أم وأب.

والإنسان أيضًا كما أنه أربعة أنواع من جهة مادة خلقه، كذلك هو أربعة أنواع من جهة جنس الخلق، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

هذه أيضًا أربعة أقسام:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ أي: بلا ذكور، يعني يوجد بعض الناس يولد له الإناث ولا يولد له ذكور أبدًا، كل نسله إناث.

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فيكون كل نسله ذكورًا بلا إناث.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ يزوجهم يعني يصنفهم؛ لأن الزوج يعني الصنف، كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨]. يعني أصناف، وقال: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي أصنافهم وأشكالهم، يزوجهم يعني يصنفهم ذكرانًا وإناثًا، هذه ثلاثة أقسام.

القسم الرابع: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ لا يولد له لا ذكر ولا أنثى، لأن الله سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء، لا معقب لحكمه وهو السميع العليم.

يقول جلَّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾، الشعوب: الطوائف الكبيرة؛ كالعرب والعجم وما أشبه ذلك، والقبائل: ما دون ذلك، جمع قبيلة، فالناس بنو آدم شعوب وقبائل.

شعوب: أمم عظيمة كبيرة، كما تقول: العرب ـ بجميع أصنافهم، والعجم بجميع أصنافهم، كذلك القبائل دون ذلك، كما تقول: قريش، بنو تميم، وما أشبه ذلك، هؤلاء القبائل.

﴿لِتَعارَفُوا﴾: هذه هي الحكمة من أن الله جعلنا شعوبًا وقبائل من أجل أن يعرف بعضنا بعضًا، هذا عربي، وهذا عجمي، هذا من بني تميم،

هذا من قريش، هذا من خزاعة، وهكذا.

فالله جعل هذه القبائل من أجل أن يعرف بعضنا بعضًا، لا من أجل أن يفخر بعضنا على بعض، فيقول: أنا عربي وأنت عجمي، أنا قبيلي وأنت خضيري، أنا غني وأنت فقير، هذا من دعوى الجاهلية والعياذ بالله، لم يجعل الله هؤلاء الأصناف إلا من أجل التعارف لا من أجل التفاخر، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن الله أذهب عنكم عُبيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقيّ وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب**»[(١)].

فالفضل في الإسلام بالتقوى، أكرمنا عند الله هو أتقانا لله عزَّ وجلَّ، فمن كان لله أتقى فهو عند الله أكرم.

ولكن يجب أن نعلم أن بعض القبائل أو بعض الشعوب أفضل من بعض، فالشعب الذي بعث فيه الرسول عليه الصلاة والسلام هو أفضل الشعوب، شعب العرب أفضل الشعوب، لأن الله قال في كتابه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال النبي ﷺ: «**الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[(٢)].

ولا يعني هذا إهدار الجنس البشري بالكلية. لكن التفاخر هو

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب، رقم(٥١١٦)، والترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، رقم(٣٩٥٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾، رقم(٣٤٩٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب خيار الناس، رقم(٢٥٢٦).

الممنوع، أما التفاضل فإن الله يفضل بعض الأجناس على بعض، فالعرب أفضل من غيرهم، جنس العرب أفضل من جنس العجم، لكن إذا كان العربي غير متّقٍ والعجمي متقيًا، فالعجمي عند الله أكرم من العربي.

ثم ساق المؤلف الآيات الأخرى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ لا تزكوها: أي لا تصفوها بالزكاة افتخارًا، وأما التحدث بنعمة الله على العبد مثل أن يقول القائل: كان مسرفًا على نفسه، كان منحرفًا، فهداه الله ووفقه ولزم الاستقامة؛ تحدثًا بنعمة الله لا تزكية لنفسه؛ فإن هذا لا بأس به ولا حرج فيه أن يذكر الإنسان نعمة الله عليه في الهداية والتوفيق، كما أنه لا حرج أن يذكر نعمة الله عليه بالغنى بعد الفقر.

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ هو أي: الرب عزَّ وجلَّ ﴿أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، وكم من شخصين يقومان بعلم أو يدعان عملاً وبينهما في التقى مثل ما بين السماء والأرض، ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾؛ تجد الشخصين يصليان كل واحد جنب الآخر، لكن بين ما في قلوبهما من التقوى مثل ما بين السماء والأرض، شخصان يتجنبان الفاحشة لكن بينهما في التقوى مثل ما بين السماء والأرض، ولهذا قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

ثم ذكر المؤلف آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨]، أصحاب الأعراف: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا يدخلون الجنة ولا يدخلون النار، يحشر أهل النار إلى النار، ويساق المتقون إلى الرحمن

وفدًا، إلى الجنة زمرًا، فيدخل أهل النار النار، وأهل الجنة والجنة، وأصحاب الأعراف في مكان مرتفع.

فالأعراف جمع عرف، وهو المكان المرتفع، لكن ليسوا في الجنة وليسوا في النار، وهم يطلعون إلى هؤلاء وإلى هؤلاء، وفي النهاية يدخلون الجنة؛ لأنه ليس هناك إلا جنة أو نار، هما الباقيتان أبدًا، وأما ما سواهما فيزول.

يقول الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ أي: بعلاماتهم معرفة تامة، ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ يعني جمعكم المال والأولاد والأهل، ما أغنى عنكم هؤلاء، وما أغنى جمعكم من الناس الذين هم جنودكم، تجمعونهم إليكم وتستنصرون بهم، ما أغنوا عنكم شيئًا، ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ يعني وما أغنى عنكم استكباركم على الحق.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ يعني الضعفاء، وكان الملأ المكذبون للرسل يسخرون من المؤمنين ويقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ [الأنعام: ٥٣]، يقولون: أهؤلاء أصحاب الرحمة؟ أهؤلاء أهل الجنة؟ يسخرون منهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣١].

فيقولون لهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يعني قد قيل لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

إذًا صار تواضعهم للحق واتباعهم الرسل هو الذي بلغهم هذه المنازل العالية، أما هؤلاء المستكبرون الذين فخروا بما أغناهم الله به من الجمع والمال؛ فإن ذلك لم يغن عنهم شيئًا، فدلَّ ذلك على فضل التواضع للحق، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المتواضعين له وللحق الذي جاءت به رسله إنه على كل شيء قدير.

* * *

١/٦٠٢ - وَعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ أوحَى إِلَيَّ أنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَبغِيَ أحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» رواه مسلم[١].

٢/٦٠٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلاَّ عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أحَدٌ للهِ إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ» رواه مسلم[٢].

٤/٦٠٥ - وَعَنْهُ قَالَ: إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ الْمَدِينَةِ لَتَأخُذُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيثُ شَاءَتْ. رواه البخاري[٣].

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله في كتاب رياض

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، رقم(٢٨٦٥) [٦٤].

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم(٢٥٨٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الكبر، رقم(٦٠٧٢).

الصالحين في باب التواضع؛ فمنها حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا» يعني أن يتواضع كل واحد للآخر ولا يترفَّع عليه؛ بل يجعله مثله أو يكرمه أكثر، وكان من عادة السلف ـ رحمهم الله ـ أن الإنسان منهم يجعل من هو أصغر منه مثل ابنه، ومن هو أكبر مثل أبيه، ومن هو مثله مثل أخيه، فينظر إلى من هو أكبر منه نظرة إكرام وإجلال، وإلى من هو دونه نظرة إشفاق ورحمة، وإلى من هو مثله نظرة مساواة، فلا يبغي أحد على أحد، وهذا من الأمور التي يجب على الإنسان أن يتصف بها، أي بالتواضع لله عزَّ وجلَّ ولإخوانه من المسلمين.

وأما الكافر فقد أمر الله تعالى بمجاهدته والغلظة عليه وإغاظته وإهانته بقدر المستطاع، لكن من كان له عهد وذمة فإنه يجب على المسلمين أن يفوا له بعهده وذمته، وألا يخفروا ذمته، وألا يؤذوه ما دام له عهد.

ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما نقصت صدقة من مال» يعني أن الصدقات لا تنقص الأموال كما يتوهمه الإنسان، وكما يعد به الشيطان، فإن الشيطان كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

الفحشاء: كل ما يستفحش من بخل أو غيره، فهو يعد الإنسان الفقر، إذا أراد الإنسان أن يتصدق قال: لا تتصدق هذا ينقص مالك، هذا يجعلك فقيرًا، لا تتصدق، أمسك، ولكن النبي ﷺ أخبرنا بأن الصدقة لا تنقص المال، فإن قال قائل: كيف لا تنقص المال، والإنسان إذا كان عنده مائة فتصدق بعشرة صار عنده تسعون، فيقال: هذا نقص كمٍّ، ولكنها تزيد في

الكيف، ثم يفتح الله للإنسان أبوابًا من الرزق تردّ عليه ما أنفق، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، أي يجعل بدله خلفًا، فلا تظن أنك إذا تصدقت بعشرة من مائة فصارت تسعين أن ذلك ينقص المال؛ بل يزيده بركة ونماءً، وترزق من حيث لا تحتسب.

«وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا»، يعني أن الإنسان إذا عفا عمَّن ظلمه فقد تقول له نفسه: إن هذا ذل وخضوع وخذلان، فبيَّن الرسول عليه الصلاة والسلام أن الله ما يزيد أحدًا بعفو إلا عزًّا، فيعزه الله ويرفع من شأنه، وفي هذا حثّ على العفو، ولكن العفو مقيد بما إذا كان إصلاحًا؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

أما إذا لم يكن إصلاحًا بل كان إفسادًا؛ فإنه لا يؤمر به، مثال ذلك: اعتدى شخص شرير معروف بالعدوان على آخر، فهل نقول للآخر الذي اعتُدي عليه: اعف عن هذا الشرير؟ لا نقول: اعف عنه؛ لأنه شرير، إذا عفوت عنه تعدَّى على غيرك من الغد، أو عليك أنت أيضًا، فمثل هذا نقول: الحزم، والأفضل أن تأخذه بجريرته، يعني أن تأخذ حقك منه، وألا تعفو عنه؛ لأن العفو عن أهل الشر والفساد ليس بإصلاح؛ بل لا يزيدهم إلا فسادًا وشرًّا.

فأما إذا كان في العفو خير وإحسان، وربما يخجل الذي عفوت عنه ولا يتعدى عليك ولا على غيرك فهذا خير.

«وما تواضع أحد لله إلا رفعه» هذا الشاهد من الحديث: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

والتواضع لله له معنيان:

المعنى الأول: أن تتواضع لدين الله، فلا تترفَّع عن الدين ولا تستكبر عنه وعن أداء أحكامه.

والثاني: أن تتواضع لعباد الله من أجل الله، لا خوفًا منهم، ولا رجاء لما عندهم، ولكن لله عزَّ وجلَّ.

والمعنيان صحيحان، فمن تواضع لله؛ رفعه الله عزَّ وجلَّ في الدنيا وفي الآخرة، وهذا أمر مشاهد، أن الإنسان المتواضع يكون محل رفعة عند الناس وذكر حسن، ويحبه الناس، وانظر إلى تواضع الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أشرف الخلق، حيث كانت الأمة من إماء المدينة تأتي إليه، وتأخذ بيده، وتذهب به إلى حيث شاءت ليعينها في حاجتها، هذا وهو أشرف الخلق، أمة من الإماء تأتي وتأخذ بيده تذهب به إلى حيث شاءت ليقضي حاجتها، ولا يقول أين تذهبين بي، أو يقول: اذهبي إلى غيري، بل كان يذهب معها ويقضي حاجتها، لكن مع هذا ما زاده الله عزَّ وجلَّ بذلك إلا عزًّا ورفعة صلوات الله وسلامه عليه.

* * *

٣/٦٠٤ ـ وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّم عَلَيْهِمْ وَقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ. متفقٌ عليه[(١)].

٥/٦٠٦ ـ وَعَنِ الأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ

(١) رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان، رقم(٦٢٤٧)، ومسلم، كتاب السلام، باب استحباب السلام على الصبيان، رقم(٢١٦٨).

عَنْهَا: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ ـ يَعني: خِدْمَةِ أَهْلِهِ ـ فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ. رواه البخاري[١].

٦/٦٠٧ ـ وَعَنْ أَبِي رِفَاعَةَ تَمِيمِ بْنِ أَسَيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَجُلٌ غَرِيبٌ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ لاَ يَدرِي مَا دِينُهُ؟ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انتَهَى إِلَيَّ، فَأَتي بِكُرْسِيٍّ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَه الله، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ، فَأَتَمَّ آخِرَهَا. رواه مسلم[٢].

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها الحافظ النووي رحمه الله تعالى في رياض الصالحين في بيان تواضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، منها أنه كان يسلِّم على الصبيان إذا مرَّ عليهم، يسلِّمُ عليهم مع أنهم صبيان غير مكلفين ومع ذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يسلم عليهم، واقتدى به أصحابه رضي الله عنهم، فعن أنس رضي الله عنه أنه كان يمر بالصبيان فيسلِّم عليهم، يمر بهم في السوق يلعبون فيسلِّم عليهم ويقول: إن النبي ﷺ كان يفعله. أي: كان يسلِّم على الصبيان إذا مَرَّ عليهم، وهذا من التواضع وحسن الخلق، ومن التربية وحسن التعليم والإرشاد والتوجيه؛ لأن الصبيان إذا سلَّم الإنسان عليهم، فإنهم يعتادون ذلك، ويكون ذلك

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة...، رقم(٦٧٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم(٨٧٦).

كالغريزة في نفوسهم.

إن الإنسان إذا مَرَّ على أحد سلَّم عليه، وإذا كان هذا يقع من النبي ﷺ على الصبيان، فإننا نأسف لقوم يمرون بالكبار البالغين ولا يسلِّمون عليهم والعياذ بالله، قد لا يكون ذلك هجرًا أو كراهة، لكن عدم مبالاة، عدم اتباع للسنة، جهل، غفلة، وهم وإن كانوا غير آثمين؛ لأنهم لم يتخذوا ذلك هجرًا، لكنهم قد فاتهم خيرٌ كثير.

فالسنة أن تسلِّم على كل من لقيت، وأن تبدأه بالسلام ولو كان أصغر منك؛ لأن النبي ﷺ كان يبدأ من لقيه بالسلام، وهو عليه الصلاة والسلام أكبر الناس قدرًا، ومع ذلك كان يبدأ من لقيه بالسلام.

وأنت إذا بدأت من لقيته بالسلام؛ حصلت على خير كثير، منه اتباع الرسول ﷺ.

ومنه أنك تكون سببًا لنشر هذه السنة التي ماتت عند كثير من الناس، ومعلوم أن إحياء السنن يؤجر الإنسان عليه مرتين، مرة على فعل السنة، ومرة على إحياء السنة.

ومنه أنك تكون السبب في إجابة هذا الرجل وإجابته فرض كفاية، فتكون سببًا في إيجاد فرض الكفاية من هذا الرجل.

ولهذا كان ابتداء السلام أفضل من الرد، وإن كان الرد فرضًا وهذا سنة، لكن لما كان الفرض ينبني على هذه السنة؛ كانت السنة أفضل من هذا الفرض؛ لأنه مبني عليها.

وهذه من المسائل التي ألغز بها بعض العلماء وقال: عندنا سنة أفضل

من الفريضة؛ لأنه من المتفق عليه أن الفرض أفضل، مثلاً صلاة الفجر ركعتان أفضل من راتبتها ركعتين؛ لأنها فرض والراتبة سنة، لكن ابتداء السلام سنة، ومع ذلك صار أفضل من رده؛ لأن رَدّه مبني عليه.

فالمهم أنه ينبغي لنا إحياء هذه السنة، أعني إفشاء السلام، وهو من أسباب المحبة، ومن كمال الإيمان، ومن أسباب دخول الجنة، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشو السلام بينكم»(١).

ومن تواضع النبي ﷺ أنه كان في بيته في خدمة أهله، يحلب الشاة، يخصف النعل، يخدمهم في بيتهم؛ لأن عائشة سئلت ماذا كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان في مهنة أهله» يعني في خدمتهم عليه الصلاة والسلام.

فمثلاً الإنسان إذا كان في بيته فمن السنة أن يصنع الشاي مثلاً لنفسه، ويطبخ إذا كان يعرف، ويغسل ما يحتاج إلى غسله، كل هذا من السنة، أنت إذا فعلت ذلك تثاب عليه ثواب سنة؛ اقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام وتواضعًا لله عزَّ وجلَّ؛ ولأن هذا يوجد المحبة بينك وبين أهلك، إذا شعر أهلك أنك تساعدهم في مهنتهم أحبوك، وازدادت قيمتك عندهم، فيكون في هذا مصلحة كبيرة.

ومن تواضع الرسول عليه الصلاة والسلام أنه جاءه رجلٌ وهو يخطب

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم(٥٤).

الناس فقال: «رجل غريب جاء يسأل عن دينه» كلمة استعطاف؛ بل كلمة غريب، وجاء يسأل، لا يسأل مالاً، بل جاء يسأل عن دينه، فأقبل إليه النبي عليه الصلاة والسلام وقطع خطبته، حتى انتهى إليه، ثم جيء إليه بكرسي، فجعل يعلِّم هذا الرجل؛ لأن هذا الرجل جاء مشفقًا محبًّا للعلم، يريد أن يعلم دينه حتى يعمل به، فأقبل إليه النبي عليه الصلاة والسلام وقطع الخطبة، ثم بعد ذلك أكمل خطبته، وهذا من تواضع الرسول عليه الصلاة والسلام وحسن رعايته.

فإن قال قائل: أليست المصلحة العامة أولى بالمراعاة من المصلحة الخاصة؟ وحاجة هذا الرجل خاصة، وهو ﷺ يخطب في الجماعة؟ قلنا: نعم لو كانت مصلحة العامة تفوت؛ لكان مراعاة المصلحة العامة أولى، لكن مصلحة العامة لا تفوت، بل إنهم سيستفيدون مما يعلمه الرسول ﷺ لهذا الرجل الغريب، والمصلحة العامة لا تفوت.

وهذا الغريب الذي جاء يسأل عن دينه إذا أقبل إليه الرسول عليه الصلاة والسلام وعلمه كان في هذا تأليف لقلبه على الإسلام، ومحبة للإسلام، ومحبة للرسول ﷺ، وهذا من حكمة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه. وفَّق الله الجميع لما يحبه ويرضى.

* * *

٧/٦٠٨ ـ وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أكلَ طَعَامًا لَعِقَ أصَابعَهُ الثَّلاثَ، قَالَ: وَقَالَ: «إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أحَدِكُمْ، فَلْيُمِطْ عَنْهَا الأذَى، ولْيَأكُلْهَا، وَلاَ يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ» وَأمَرَ أنْ تُسْلَتَ القَصْعَةُ قال: «فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ فِي

أَيِّ طَعَامِكُمْ البَرَكَةُ» رواه مسلم[١].

٩/ ٦١٠ ـ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَو دُعِيتُ إِلى كُرَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ لأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ» رواهُ البخاري[٢].

١٠/ ٦١١ ـ وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْعَضْبَاءُ لاَ تُسْبَقُ، أوْ لاَ تَكَادُ تُسْبَقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ، فَسَبَقَهَا، فَشَقَّ ذلِكَ عَلَى المُسْلِمينَ حَتَّى عَرَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لا يَرْتَفِعَ شَيءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ وَضَعَهُ» رواهُ البخاري[٣].

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها الحافظ النووي رحمه الله تعالى في كتابه رياض الصالحين في باب التواضع، فمنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من الأكل لعق أصابعه الثلاث. لعقها: يعني لحسها حتى يكون ما بقي من الطعام فيها داخلاً في طعامه الذي أكله من قبل، وفيه فائدة ذكرها بعض الأطباء؛ أن الأنامل تفرز عند الأكل شيئًا يعين على هضم الطعام.

فيكون في لعق الأصابع بعد الطعام فائدتان:

فائدة شرعية: وهي الاقتداء بالنبي ﷺ.

وفائدة صحية طبية: وهي هذا الإفراز الذي يكون بعد الطعام يعين

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب استحباب لعق الأصابع، رقم(٢٠٣٤).
(٢) رواه البخاري، كتاب الهبة، باب القليل من الهبة، رقم(٢٥٦٨).
(٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ناقة النبي ﷺ، رقم(٢٨٧٢).

على الهضم.

والمؤمن لا يهمه ما يتعلق بالصحة البدينة، أهم شيء عند المؤمن هو اتباع الرسول ﷺ والاقتداء به؛ لأن فيه صحة القلب، وكلما كان الإنسان للرسول ﷺ أتبع؛ كان إيمانه أقوى.

وكذلك قال عليه الصلاة والسلام: «إذا سقطت لقمة أحدكم» يعني على الأرض أو على السفرة «فليمط عنها الأذى وليأكلها، ولا يدعها للشيطان» فإذا سقطت اللقمة أو التمرة أو ما أشبه ذلك على السفرة؛ فخذها وأزل ما فيها من الأذى إن كان فيها أذًى من تراب أو عيدان وَكُلْها؛ تواضعًا لله عزَّ وجلَّ، وامتثالاً لأمر النبي ﷺ، وحرمانًا للشيطان من الأكل معك؛ لأنك إذا تركتها أكلها الشيطان.

والشيطان ربما يشارك الإنسان في أكله في مثل هذه المسألة، وفيما إذا أكل ولم يسم، فإن الشيطان يشاركه في أكله.

والثالث أمر بسلت الصحن أو القصعة، وهو الإناء الذي فيه الطعام، فإذا انتهيت فأسلته، بمعنى أن تلحسه، تمر يدك عليه وتتبع ما علق فيه من طعام بأصابعك وتلعقه.

وهذا أيضًا من السنة التي غفل عنها كثيرٌ من الناس مع الأسف كثير من الناس حتى من طلبة العلم أيضًا، إذا فرغوا من الأكل وجدت الجهة التي تليهم ما زال الأكل باقيًا فيها، لا يلعقون الصحفة، وهذا خلاف ما أمر به النبي ﷺ، ثم بيَّن الرسول عليه الصلاة والسلام الحكمة من ذلك فقال: «فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة» قد تكون البركة من هذا الطعام في

هذا الذي سلته من القصعة.

وفي هذا الحديث حسن تعليم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأنه إذا ذكر الحكم ذكر الحكمة منه؛ لأن ذكر الحكمة مقرونًا بالحكم يفيد فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: بيانه سمو الشريعة، وأنها شريعة مبنية على المصالح، فما من شيء أمر الله به ورسوله ﷺ إلا والمصلحة في وجوده، وما من شيء نهى الله عنه ورسوله ﷺ إلا والمصلحة في عدمه.

الفائدة الثانية: زيادة اطمئنان النفس؛ لأن الإنسان بشر قد يكون عنده إيمان وتسليم بما حكم الله به ورسوله، لكن إذا ذكرت الحكمة ازداد إيمانًا، وازداد يقينًا، ونشط على فعل المأمور أو ترك المحظور.

ثم ذكر المؤلف حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة الأعرابي الذي جاء بقعود له، ناقة ليست كبيرة، أو جمل ليس بكبير، وكانت ناقة النبي ﷺ العضباء وهي غير القصواء التي حجَّ عليها، هذه ناقة أخرى، وكان من هدي الرسول عليه الصلاة والسلام أنه يسمي دوابَّه وسلاحه وما أشبه ذلك.

فالعضباء هذه كان الصحابة رضي الله عنهم يرون أنها لا تُسبق أو لا تكاد تُسبق، فجاء هذا الأعرابي بقعوده فسبق العضباء، فكأن ذلك شقَّ على الصحابة رضي الله عنهم، فقال النبي ﷺ لما عرف ما في نفوسهم: «حقٌّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه».

فكل ارتفاع يكون في الدنيا فإنه لابد أن يئول إلى انخفاض، فإن

صحب هذا الارتفاع ارتفاع في النفوس وعلو في النفوس، فإن الوضع إليه أسرع؛ لأن الوضع يكون عقوبة، أما إذا لم يصحبه شيء، فإنه لابد أن يرجع ويوضع؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [يونس: ٢٤]، أي ظهر فيه من كل نوع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، ذهبت كلها. كل هذه الزينة، وكل هذا النبات الذي اختلط من كل صنف، كله يزول كأن لم يكن، وهكذا الدنيا كلها تزول كأن لم تكن، حتى الإنسان نفسه يبدو صغيرًا ضعيفًا، ثم يقوى، فإذا انتهت قوته عاد إلى الضعف والهرم، ثم إلى الفناء والعدم، فما من شيء ارتفع من الدنيا إلا وضعه الله عزَّ وجلَّ.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «من الدنيا» دليلٌ على أن ما ارتفع من أمور الآخرة فإنه لا يضعه الله، فقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، هؤلاء لا يضعهم الله عزَّ وجلَّ ما داموا على وصف العلم والإيمان، فإنه لا يمكن أن يضعهم الله؛ بل يرفع لهم الذكر، ويرفع درجاتهم في الآخرة، والله الموفق.

* * *

٧٢- باب تحريم الكِبْر والإعجاب

قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

ومعنى ﴿ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أيْ: تُمِيلُه وتعْرِضُ بِهِ عَنِ النَّاسِ تَكَبُّرًا عَلَيْهِمْ «والمَرَح»: التَّبَخْتُر.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦] إلى قوله تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ الآيات.

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في كتاب رياض الصالحين: فيما جاء في الكبر والإعجاب.

والكبر: هو الترفع واعتقاد الإنسان نفسه أنه كبير، وأنه فوق الناس، وأن له فضلاً عليهم.

والإعجاب: أن يرى الإنسان عمل نفسه فيعجب به، ويستعظمه،

ويستكثره.

فالإعجاب يكون في العمل، والكبر يكون في النفس، وكلاهما خلق مذموم الكبر والإعجاب.

والكبر نوعان: كبر على الحق، وكبر على الخلق، وقد بيَّنهما النبي ﷺ في قوله: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1] فبطر الحق يعني رده والإعراض عنه، وعدم قبوله، وغمط الناس يعني احتقارهم وازدراءهم، وألا يرى الناس شيئًا، ويرى أنه فوقهم.

وقيل لرجل: ماذا ترى الناس؟ قال: لا أراهم إلا مثل البعوض، فقيل له: إنهم لا يرونك إلا كذلك.

وقيل لآخر: ما ترى الناس؟ قال: أرى الناس أعظم مني، ولهم شأن، ولهم منزلة، فقيل له: إنهم يرونك أعظم منهم، وأن لك شأنًا ومحلاً.

فأنت إذا رأيت الناس على أي وجه؛ فالناس يرونك بمثل ما تراهم به، إن رأيتهم في محل الإكرام والإجلال والتعظيم، ونزلتهم منزلتهم عرفوا لك ذلك، ورأوك في محل الإجلال والإكرام والتعظيم، ونزلوك منزلتك، والعكس بالعكس.

أما بطر الحق: فهو ردّه، وألا يقبل الإنسان الحق بل يرفضه ويرده اعتدادًا بنفسه ورأيه، فيرى والعياذ بالله أنه أكبر من الحق، وعلامة ذلك أن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم(٩١).

الإنسان يؤتى إليه بالأدلة من الكتاب والسنة، ويُقال: هذا كتاب الله، هذه سنة رسول الله، ولكنه لا يقبل؛ بل يستمر على رأيه، فهذا ردُّ الحق والعياذ بالله.

وكثيرٌ من الناس ينتصر لنفسه، فإذا قال قولاً لا يمكن أن يتزحزح عنه، ولو رأى الصواب في خلافه، ولكن هذا خلاف العقل وخلاف الشرع.

والواجب أن يرجع الإنسان للحق حيثما وجده، حتى لو خالف قوله فليرجع إليه، فإن هذا أعز له عند الله، وأعز له عند الناس، وأسلم لذمته وأبرأ ولا يضره.

فلا تظن أنك إذا رجعت عن قولك إلى الصواب أن ذلك يضع منزلتك عند الناس؛ بل هذا يرفع منزلتك، ويعرف الناس أنك لا تتبع إلا الحق، أما الذي يعاند ويبقى على ما هو عليه ويرد الحق، فهذا متكبر والعياذ بالله.

وهذا الثاني يقع من بعض الناس والعياذ بالله حتى من طلبة العلم، يتبين له بعد المناقشة وجه الصواب وأن الصواب خلاف ما قاله بالأمس، ولكنه يبقى على رأيه، يملي عليه الشيطان أنه إذا رجع استهان الناس به، وقالوا هذا إنسان إمعة كل يوم له قول، وهذا لا يضر إذا رجعت إلى الصواب، فليكن قولك اليوم خلاف قولك بالأمس، فالأئمة الأجلة كان لهم في المسألة الواحدة أقوال متعددة.

وها هو الإمام أحمد رحمه الله إمام أهل السنة، وأرفع الأئمة من حيث اتباع الدليل وسعة الاطلاع، نجد أن له في المسألة الواحدة في بعض

الأحيان أكثر من أربعة أقوال، لماذا؟ لأنه إذا تبين له الدليل رجع إليه، وهكذا شأن كل إنسان منصف عليه أن يتبع الدليل حيثما كان.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله آيات تتعلق بهذا الباب بيّن فيها رحمه الله أنها كلها تدل على ذم الكبر، وآخرها الآيات المتعلقة بقارون.

وقارون رجل من بني إسرائيل من قوم موسى، أعطاه الله سبحانه وتعالى مالاً كثيرًا، حتى إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، أي: مفاتيح الخزائن تثقل وتشق على العصبة، أي الجماعة من الرجال أولي القوة لكثرتها.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ فإن هذا الرجل بطر والعياذ بالله وتكبّر، ولما ذكر بآيات الله ردها واستكبر ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾، فأنكر فضل الله عليه، وقال أنا أخذته بيدي وعندي علم أدركت به هذا المال.

وكانت النتيجة أن الله خسف به وبداره الأرض، وزال هو وأملاكه ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ﴾ [القصص: ٨١، ٨٢]، فتأمل نتيجة الكبر والعياذ بالله والعجب والاعتداد بالنفس، وكيف كان عاقبة ذلك من الهلاك والدمار.

ثم ذكر المؤلف عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

الآخرة هي آخر دور بني آدم؛ لأن ابن آدم له أربعة دور كلها تنتهي بالآخرة.

الدار الأولى: في بطن أمه.

والدار الثانية: إذا خرج من بطن أمه إلى دار الدنيا.

والدار الثالثة: البرزخ؛ ما بين موته وقيام الساعة.

والدار الرابعة: الدار الآخرة. وهي النهاية، وهي القرار، هذه الدار قال الله تعالى عنها: ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣]، لا يريدون التعالي على الحق، ولا التعالي على الخلق، وإنما هم متواضعون، وإذا نفى الله عنهم إرادة العلو والفساد، فهو من باب أولى ألا يكون منهم علو ولا فساد، فهم لا يعلون في الأرض، ولا يفسدون، ولا يريدون ذلك؛ لأن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم علا وفسد وأفسد، فهذا اجتمع في حقه الإرادة والفعل.

٢ ـ وقسم لم يرد الفساد ولا العلو فقد انتفى عنه الأمران.

٣ ـ وقسم ثالث يريد العلو والفساد ولكن لا يقدر عليه. فهذا الثالث بين الأول والثاني، لكن عليه الوزر؛ لأنه أراد السوء، فالدار الآخرة إنما تكون ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي تعاليًا على الحق أو على الخلق ﴿ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

فإن قال قائل: ما هو الفساد في الأرض؟ فالجواب أن الفساد في الأرض ليس هدم المنازل ولا إحراق الزروع، بل الفساد في الأرض بالمعاصي، كما قال أهل العلم رحمهم الله في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦]، أي لا تعصوا الله؛ لأن المعاصي

سبب للفساد.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فلم يفتح الله عليهم بركات من السماء ولا من الأرض، فالفساد في الأرض يكون بالمعاصي نسأل الله العافية.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨]، يعني لا تمش مرحًا مستكبرًا متبخترًا متعاظمًا في نفسك وفي الآية الثانية قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، يعني مهما كنت فأنت لا تقدر أن تنزل في الأرض ولا تتباهى حتى تساوي الجبال؛ بل إنك أنت أنت. أنت ابن آدم حقير ضعيف، فكيف تمشي في الأرض مرحًا.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

تصعير الخد للناس: أن يعرض الإنسان عن الناس، فتجده والعياذ بالله مستكبرًا لاويًا عنقه، تحدثه وهو يحدثك وقد صد عنك، وصعّر خده.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ يعني لا تمش تبخترًا وتعاظمًا وتكبرًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، المختال في هيئته، والفخور بلسانه وقوله، فهو بهيئته مختال؛ في ثيابه، في ملابسه، في مظهره، في مشيته، فخور بقوله ولسانه، والله تعالى لا يحب هذا، إنما يحب المتواضع الغني الخفي التقي. هذا هو الذي يحبه الله عزَّ وجلَّ. نسأل الله تعالى أن يهدينا وإياكم لأحسن الأخلاق والأعمال وأن يجنبنا سيئات

الأخلاق والأعمال إنه جواد كريم .

* * *

١/٦١٢ ـ وَعَنْ عَبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ يَدْخُل الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» فقالَ رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكُونَ ثَوْبُه حَسَنًا، ونَعْلُهُ حَسَنَةً؟ قَالَ: «إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يحِبُّ الجَمالَ. الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» رواه مسلم(١).

«بَطَرُ الحَقِّ»: دَفْعُهُ وَرَدُّهُ على قَائِلِهِ. «وغَمْطُ النَّاسِ»: احْتِقَارُهُمْ.

٢/٦١٣ ـ وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأكْوعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً أكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِمَالِهِ، فقالَ: «كُلْ بِيَمِينكَ». قالَ: لاَ أَسْتَطِيعُ! قال: «لاَ اسْتَطَعْتَ» مَا مَنَعَهُ إلاَّ الكِبْرُ. قال: فما رَفَعَهَا إلى فيهِ. رواهُ مسلم(٢).

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين في باب تحريم الكبر والعجب، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» .

وهذا الحديث من أحاديث الوعيد التي يطلقها الرسول ﷺ تنفيرًا عن الشيء، وإن كانت تحتاج إلى تفصيل حسب الأدلة الشرعية .

فالذي في قلبه كبر، إما أن يكون كبرًا عن الحق وكراهة له، فهذا كافر

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم(٩١).
(٢) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، رقم(٢٠٢١).

مخلد في النار ولا يدخل الجنة؛ لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، ولا يحبط العمل إلا بالكفر كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وأما إذا كان كبرًا على الخلق وتعاظمًا على الخلق، لكنه لم يستكبر عن عبادة الله، فهذا لا يدخل الجنة دخولاً كاملاً مطلقًا لم يسبق بعذاب؛ بل لابد من عذاب على ما حصل من كبره وعلوائه على الخلق ثم إذا طهر دخل الجنة.

ولما حدَّث النبي ﷺ بهذا الحديث قال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. يعني فهل هذا من الكبر؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال» جميل في ذاته، جميلٌ في أفعاله، جميل في صفاته، كل ما يصدر عن الله عزَّ وجلَّ فإنه جميل وليس بقبيح؛ بل حسن، تستحسنه العقول السليمة، وتستسيغه النفوس.

وقوله: «يحب الجمال» أي يحب التجمل يعني أنه يحب أن يتجمل الإنسان في ثيابه، وفي نعله، وفي بدنه، وفي جميع شؤونه؛ لأن التجمل يجذب القلوب إلى الإنسان، ويحببه إلى الناس، بخلاف التشوه الذي يكون فيه الإنسان قبيحًا في شعره أو في ثوبه أو في لباسه، فلهذا قال: «إن الله جميل يحب الجمال» أي يحب أن يتجمل الإنسان.

وأما الجمال الخلقي الذي منَّ الله عزَّ وجلَّ، فهذا إلى الله سبحانه وتعالى، ليس للإنسان فيه حيلة، وليس له فيه كسب، وإنما ذكر النبي ﷺ

ما للإنسان فيه كسب وهو التجمل.

أما الحديث الثاني فهو حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند النبي ﷺ بيده اليسرى، فقال: «كل بيمينك» قال: لا أستطيع. ما منعه إلا الكبر، فقال النبي ﷺ: «لا استطعت» لأن الرسول ﷺ عرف أنه متكبر، فقال: «لا استطعت» أي دعا عليه بأن الله تعالى يصيبه بأمر لا يستطيع معه رفع يده اليمنى إلى فمه، فلما قال «لا استطعت» أجاب الله دعوته فلم يرفعها إلى فمه بعد ذلك، صارت والعياذ بالله قائمة كالعصا، لا يستطيع رفعها؛ لأنه استكبر على دين الله عزَّ وجلَّ.

وفي هذا دليلٌ على وجوب الأكل باليمين والشرب باليمين، وأن الأكل باليسار حرام، يأثم عليه الإنسان، وكذلك الشرب باليسار حرام، يأثم عليه الإنسان؛ لأنه إذا فعل ذلك أي أكل بشماله أو شرب بشماله شابه الشيطان وأولياء الشيطان، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله»[١].

وإذا نظرنا الآن إلى الكفار، وجدنا أنهم يأكلون بيسارهم ويشربون بيسارهم، وعلى هذا فالذي يأكل بشماله أو يشرب بشماله متشبه بالشيطان وأولياء الشيطان.

ويجب على من رآه أن ينكر عليه، لكن بالتي هي أحسن، إما أن يُعَرِّض إذا كان يخشى أن يخجل صاحبه أو أن يستنكف ويستكبر، يُعرِّض

---

(١) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، رقم(٢٠٢٠).

فيقول: من الناس من يأكل بشماله أو يشرب بشماله، وهذا حرام ولا يجوز.

أو إذا كان معه طالب علم سأل طالب العلم وقال له: ما تقول فيمن يأكل بالشمال ويشرب بالشمال، حتى ينتبه الآخر، فإن انتبه فهذا المطلوب، وإن لم ينتبه قيل له ـ ولو سرًّا ـ: لا تأكل بشمالك ولا تشرب بشمالك، حتى يعلم دين الله تعالى وشرعه.

يوجد بعض المترفين يأكل باليمين ويشرب باليمين، إلا إذا شرب وهو يأكل فإنه يشرب بالشمال، يدعي أنه لو شرب باليمين لوّث الكأس، فيُقال له: المسألة ليست هينة، وليست على سبيل الاستحباب حتى تقول الأمر هين، بل أنت إذا شربت بالشمال فأنت عاصٍ لأنه محرم، والمحرم لا يجوز إلا للضرورة، ولا ضرورة للشرب بالشمال خوفًا من أن يتلوث الكأس بالطعام.

ثم إنه يمكن أن يتلوث، يمكن أن تمسكه بين الإبهام والسبابة من أسفله وحينئذ لا يتلوث، والإنسان الذي يريد الخير والحق يسهل عليه فعله، أما المعاند أو المترف أو الذي يقلد أعداء الله من الشيطان وأوليائه، فهذا له شأن آخر، والله الموفق.

* * *

٣/٦١٤ ـ وَعَنْ حَارِثَةَ بنِ وَهْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ»: كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ» متفقٌ عليه[1]. وتقَدَّمَ

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، رقم(٤٩١٨)، ومسلم، =

شرحُهُ في باب ضَعفَةِ المسلمينَ.

٤/٦١٥ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «احتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ. فَقَضَى اللهُ بَيْنَهُمَا: إِنَّكَ الجَنَّةُ رَحْمَتِي، أرْحَمُ بِكِ مِنْ أشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذَابِي، أعَذِّبُ بِكِ مَنْ أشَاءُ، ولِكِلَيْكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا» رواهُ مسلم[١].

٥/٦١٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إزارَهُ بَطَرًا» متفقٌ عليه[٢].

الشرح

هذه أحاديث ساقها المؤلف النووي رحمه الله في كتاب رياض الصالحين في باب تحريم الكبر والعجب، وقد سبق لنا الكلام على الآيات الواردة في هذا، وكذلك الكلام على الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى في هذا الباب.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل النار»، وهذا من الأسلوب الذي كان النبي ﷺ يستعمله، أن يورد الكلام على

= كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها...، رقم(٢٨٥٣).

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها...، رقم(٢٨٤٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب من جرَّ ثوبه من الخيلاء، رقم(٥٧٨٨)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء...، رقم(٢٠٨٧).

صيغة الاستفهام، من أجل أن ينتبه المخاطب ويعي ما يقول، فهو يقول: «ألا أخبركم»، الكل سيقول نعم أخبرنا يا رسول الله. قال: «كل عتلٍّ جواظٍ مستكبر».

العتل: معناها الشديد الغليظ، ومنه العتلة التي تحفر بها الأرض، فإنها شديدة غليظة، فالعتل هو الشديد الغليظ، والعياذ بالله.

الجواظ: يعني أنه فيه زيادة من سوء الأخلاق.

والمستكبر ـ وهذا هو الشاهد ـ: هو الذي عنده كبر والعياذ بالله وغطرسة، وكبر على الحق، وكبر على الخلق، فهو لا يلين للحق أبدًا، ولا يرحم الخلق والعياذ بالله.

هؤلاء هم أهل النار، أما أهل الجنة فهم الضعفاء المساكين الذين ليس عندهم ما يستكبرون به؛ بل هم دائمًا متواضعون ليس عندهم كبرياء ولا غلظة؛ لأن المال أحيانًا يفسد صاحبه، ويحمله على أن يستكبر على الخلق ويردّ الحق، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وكذلك أيضًا ذكر حديث احتجاج النار والجنة؛ احتجت النار والجنة، فقالت النار: إن أهلها هم الجبارون المتكبرون، وقالت الجنة: إن أهلها هم الضعفاء والمساكين، فاحتجت كل واحدة منهما على الأخرى.

فحكم الله بينهما عزَّ وجلَّ، وقال في الجنة: «أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء» وقال للنار: «أنت عذابي أعذب بك من أشاء» فصارت النار دار

العذاب والعياذ بالله، والجنة دار الرحمة، فهي رحمة الله ويسكنها الرحماء من عباده، كما قال النبي ﷺ: «وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»(١).

وقال: «ولكل منكما عليَّ ملؤها» فوعدِ الله عزَّ وجلَّ النار ملأها، ووعد الجنة ملأها، وهو لا يخلف الميعاد عزَّ وجلَّ.

ولكن أتدرون ماذا تكون العاقبة؟ تكون العاقبة ـ كما ثبتت بها الأحاديث الصحيحة ـ أن النار لا يزال يلقى فيها، وهي تقول «هل من مزيد» كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، يعني تطلب الزيادة؛ لأنها لم تمتلىء، فيضع الرب عزَّ وجلَّ عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض أي ينضم بعضها إلى بعض وتقول «قَطْ قَطْ»(٢) أي حسبي، حسبي، لا أريد زيادة فصارت النار تملأ بهذه الطريقة.

أما الجنة: فإن الجنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ويسكنها أولياء الله، جعلني الله وإياكم منهم، ويسكنها أهلها، ويبقى فيها فضل؛ يعني مكان ليس فيه أحد، فينشئ الله لها أقوامًا فيدخلهم الجنة برحمته.

وهذه هي النتيجة؛ امتلأت النار بعدل الله عزَّ وجلَّ، وامتلأت الجنة

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ يعذب...، رقم(١٢٨٤)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم(٩٢٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، رقم(٤٨٥٠)، ومسلم، كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها...، رقم(٢٨٤٦) [٣٦].

بفضل الله تعالى ورحمته.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديثًا في الإنسان المسبل، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا ينظر الله إلى من جَرَّ ثوبه خُيَلاء» وهذه مسألة خطيرة وذلك أن الرجل منهي عن أن ينزل ثوبه أو سرواله أو مشلحه أو إزاره عن الكعب، لابد أن يكون من الكعب فما فوق، فمن نزل عن الكعب؛ فإن فعله هذا من الكبائر والعياذ بالله.

لأنه إن نزل كبرًا وخيلاء فإنه لا ينظر الله إليه يوم القيامة، ولا يكلمه، ولا يزكيه، وله عذابٌ أليم، وإن كان نزل لغير ذلك كأن يكون طويلاً ولم يلاحظه، فإنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار»[1].

فكانت العقوبة حاصلة على كل حال فيما نزل عن الكعبين، لكن إن كان بطرًا وخيلاء فالعقوبة أعظم؛ لا يكلم الله صاحبه يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكيه، وله عذابٌ أليم، وإن كان غير خيلاء، فإنه يعذب بالنار والعياذ بالله.

فإذا قال قائل: ما هي السنة؟ قلنا: السنة من الكعب إلى نصف الساق هذه هي السنة، نصف الساق سنة، وما دونه سنة، وما كان إلى الكعبين فهو سنة؛ لأن هذا هو لبس النبي ﷺ وأصحابه، فإنهم كانوا لا يتجاوز لباسهم الكعبين، ولكن يكون إلى نصف الساق أو يرتفع قليلاً، وما بين

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار، رقم(٥٧٨٧).

ذلك كله من السنة، والله الموفق.

* * *

٦١٧/٦ ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يومَ القِيَامَةِ، ولا يُزَكِّيهِمْ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، ولَهُمْ عَذابٌ أليمٌ: شَيْخٌ زانٍ، وملكٌ كَذَّابٌ، وعَائلٌ مُسْتَكْبِرٌ» رواهُ مسلم[١].

٦١٨/٧ ـ وعنه رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْعِزُّ إزَاري، والكِبْرِياءُ رِدائي، فَمَنْ يُنازِعُني عَذَّبْتُه» رواه مسلم[٢].

٦١٩/٨ ـ وعَنْهُ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُه نَفْسُه، مُرَجِّلٌ رَأسَه، يَخْتَال فِي مِشْيَتِهِ، إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فهو يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» متفقٌ عليه[٣].

«مُرَجِّلٌ رَأسَهُ»، أي: مُمشِّطُهُ: «يَتَجَلْجَلُ» بالجيمين، أيْ: يَغُوصُ وَيَنْزِلُ.

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين في باب تحريم الكبر والإعجاب، فذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم».

ثلاثة: يعني ثلاثة أصناف، وليس المراد ثلاثة رجال، بل قد يكون

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار...، رقم(١٠٧).
(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم البر، رقم(٢٦٢٠).
(٣) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب من جرَّ ثوبه من الخيلاء، رقم(٥٧٩٠)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي...، رقم(٢٠٨٨).

آلاف الناس، لكن المراد ثلاثة أصناف. وهكذا كلما جاءت كلمة ثلاثة أو سبعة أو ما أشبه ذلك فالمراد أصنافًا لا أفرادًا.

فهؤلاء الثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم.

الأول: شيخ زانٍ: شيخ يعني رجلاً كبيرًا مسنًا، زانٍ يعني أنه زنى، فهذا لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكيه، وله عذاب أليم، وذلك لأن الشيخ إذا زنى فليس هناك شهوة تجبره على أن يفعل هذا الفعل. فالشاب قد يكون عنده شهوة ويعجز أن يملك نفسه، لكن الشيخ قد بردت شهوته وزالت أو نقصت كثيرًا، فكونه يزني هذا يدل على أنه ـ والعياذ بالله ـ سيءٌ للغاية؛ لأنه فعل الفاحشة من غير سبب قوي يدفعه إليها.

والزنى كله فاحشة سواء من الشاب أو من الشيخ، لكنه من الشيخ أشد وأعظم والعياذ بالله، إلا أن هذا الحديث مقيدٌ بما ثبت في الصحيحين أن من أتى شيئًا من هذه القاذورات، وأقيم عليه الحد في الدنيا، فإن الله تعالى لا يجمع عليه عقوبتين[1] بل يزول عنه ذلك، ويكون الحد تطهيرًا له.

الثاني: ملك كذَّاب: وكذاب هذه صيغة مبالغة أي كثير الكذب،

---

(١) يشير إلى حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ في مجلس فقال: «... ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فهو كفارته، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه إن شاء غفر له وإن شاء عذبه»، رواه البخاري، كتاب الحدود، باب الحدود كفارة، رقم(٦٧٨٤)، ومسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم(١٧٠٩).

وذلك لأن الملك لا يحتاج إلى أن يكذب، كلمته هي العليا بين الناس، فلا حاجة إلى أن يكذب، فإذا كذب صار يَعِدُ الناس ولكن لا يوفي، يقول سأفعل كذا ولكن لا يفعل، سأترك كذا ولكن لا يترك، ويحدث الناس يلعب بعقولهم ويكذب عليهم، فهذا والعياذ بالله داخل في هذا الوعيد، لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم.

والكذب حرامٌ من الملك وغير الملك، لكنه من الملك أعظم وأشد؛ لأنه لا حاجة إلى أن يكذب، كلمته بين الناس هي العليا فيجب عليه أن يكون صريحًا، إذا كان يريد الشيء، يقول نعم يوافق عليه ويفعل، وإذا كان لا يريده، يقول لا يرفضه ولا يفعل، الواحد من الرعية قد يحتاج إلى الكذب فيكذب، ولكن الملك لا يحتاج.

والكذب حرام، ومن صفات المنافقين والعياذ بالله، فإن المنافق إذا حدَّث كذب، ولا يجوز لأحد أن يكذب مطلقًا، وقول بعض العامة: إن الكذب إذا كان لا يقطع مُحلاً من حلاله فلا بأس به، هذه قاعدة شيطانية، ليس لها أساس من الصحة ولا من الدين، والصواب أن الكذب حرامٌ بكل حال.

الثالث: عائل مستكبر: وهذا هو الشاهد من الحديث، عائل يعني فقيرًا، مستكبر يعني يتكبر على الناس والعياذ بالله، فإن هذا العائل الفقير ليس عنده ما يوجب الكبر، الغني ربما يخدعه غناه ويغرّه؛ فيتكبر على عباد الله، أو يتكبر عن الحق، لكن الفقير حشف وسوء كيلة، ما دام فقيرًا فكيف يستكبر؟! فالعائل المستكبر هذا لا يكلِّمه الله يوم القيامة، ولا ينظر

إليه، ولا يزكيه وله عذاب أليم.

والكبر حرامٌ من الغني ومن الفقير، لكنه من الفقير أشد، ولهذا تجد الناس إذا رأوا غنيًّا متواضعًا استغربوا ذلك منه، واستعظموا ذلك منه، ورأوا أن هذا الغني في غاية ما يكون من الخلق النبيل، لكن لو يجدون فقيرًا متواضعًا لكان من سائر الناس؛ لأن الفقر يوجب للإنسان أن يتواضع؛ لأنه لأي شيء يستكبر؟!

فإذا جاء إنسان والعياذ بالله عائل فقير يستكبر على الخلق، أو يستكبر عن الحق، فليس هناك ما يوجب الكبرياء في حقه، فيكون والعياذ بالله داخلًا في هذا الحديث.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله فيما ساقه من الأدلة على تحريم الكبر والإعجاب، وأنه من كبائر الذنوب، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «العز إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني عذبته»[١].

هذا من الأحاديث القدسية التي يرويها النبي ﷺ عن الله، وهي ليست في مرتبة القرآن، فالقرآن له أحكام تخصه، منها أنه معجزٌ للبشر عن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور منه، أو بسورة أو بحديث مثله، وأنه لا يجوز للجنب أن يقرأ القرآن، وأن الصلاة تصح إذا قرأ المصلي من القرآن؛ بل تجب القراءة بالفاتحة، أما الأحاديث القدسية فليست كذلك.

ثم القرآن محفوظ لا يزاد فيه ولا ينقص، ولا ينقل بالمعنى، وليس

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الكبر، رقم(٢٦٢٠).

فيه شيء ضعيف، أما الأحاديث القدسية فإنها تروى بالمعنى، وفيها أحاديث ضعيفة، وفيها أحاديث مكذوبة على الرسول ﷺ ليست بصحيحة وهو كثير، فالمهم أنه ليس في منزلة القرآن إلا أنه يُقال إن النبي ﷺ يرويه عن ربه.

فالله تعالى يقول: «العز إزاري والكبرياء ردائي» وهذا من الأحاديث التي تمر كما جاءت عن النبي ﷺ، ولا يتعرض لمعناها بتحريف أو تكييف، وإنما يُقال هكذا قال الله تعالى فيما رواه النبي ﷺ عنه، فمن نازع الله في عزته وأراد أن يتخذ سلطانًا كسلطان الله، أو نازع الله في كبريائه وتكبر على عباد الله؛ فإن الله يعذبه، يعذبه على ما صنع ونازع الله تعالى فيما يختص به.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث أبي هريرة الآخر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجلٌ رأسه، يختال في مشيته» أي عنده من الخيلاء والكبرياء والغطرسة ما عنده «إذ خسف الله به» أي خسف به الأرض «فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» يعني انهارت به الأرض وانغمس فيها واندفن، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة؛ لأنه والعياذ بالله لما صار عنده هذا الكبرياء وهذا التيه وهذا الإعجاب خسف به.

وهذا نظير قارون الذي ذكره المؤلف رحمه الله في صدر الباب، فإن قارون خرج على قومه في زينته ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٧٩ـ٨١].

وقوله: «يتجلجل في الأرض» يحتمل أنه يتجلجل وهو حي حياةً دنيوية، فيبقى هكذا معذبًا إلى يوم القيامة، معذبًا وهو في جوف الأرض وهو حي، فيتعذب كما يتعذب الأحياء، ويحتمل أنه لما اندفن مات، كما هي سنة الله عزَّ وجلَّ، مات ولكن مع ذلك يتجلجل في الأرض وهو ميت، فيكون تجلجله هذا تجلجلاً برزخيًّا لا تُعلم كيفيته، والله أعلم. المهم أن هذا جزاؤه والعياذ بالله.

وفي هذا وما قبله وما يأتي بعده دليلٌ على تحريم الكبر وتحريم الإعجاب، وأن الإنسان يجب عليه أن يعرف قدر نفسه وينزلها منزلتها، والله الموفق.

* * *

٩/ ٦٢٠ ـ وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الجَبَّارِينَ، فَيُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُم» رواهُ الترمذي(١) وقال: حديثٌ حسن.

«يَذْهَبُ بِنَفسِهِ» أي: يَرْتَفعُ ويَتَكَبَّرُ.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر، رقم(٢٠٠٠)، وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

الشرح

في هذا الحديث الأخير في هذا الباب أن النبي ﷺ حذَّر الإنسان من أن يعجب بنفسه، فلا يزال في نفسه يترفع ويتعاظم حتى يكتب من الجبارين، فيصيبه ما أصابهم.

والجبارون والعياذ بالله، لو لم يكن من عقوبتهم إلا قول الله تبارك وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥]، والعياذ بالله؛ لكان عظيمًا. فالجبار والعياذ بالله يُطبع على قلبه، حتى لا يصل إليه الخير، ولا ينتهي عن الشر.

وخلاصة هذا الباب أنه يدور على شيئين:

الأول: تحريم الكبر، وأنه من كبائر الذنوب.

والثاني: تحريم الإعجاب، إعجاب الإنسان بنفسه، فإنه أيضًا من المحرمات، وربما يكون سببًا لحبوط العمل إذا أعجب الإنسان بعبادته، أو قراءته القرآن، أو غير ذلك، ربما يحبط أجره وهو لا يعلم.

* * *

٧٣ ـ باب حُسن الخُلق

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

١/٦٢١ ـ وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا. متفقٌ عليه(١).

الشرح

قال الحافظ النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين في باب حسن الخلق، يعني باب الحث عليه، وفضيلته، وبيان من اتصف به من عباد الله، وحسن الخلق يكون مع الله ويكون مع عباد الله.

أما حسن الخلق مع الله فهو الرضا بحكمه شرعًا وقدرًا، وتلقي ذلك بالانشراح وعدم التضجر، وعدم الأسى والحزن، فإذا قدَّر الله على المسلم شيئًا يكرهه رضي بذلك واستسلم وصبر، وقال بلسانه وقلبه: رضيت بالله ربًّا، وإذا حكم الله عليه بحكم شرعي؛ رضي واستسلم، وانقاد لشريعة الله عزَّ وجلَّ بصدر منشرح ونفس مطمئنة، فهذا حسن الخلق مع الله عزَّ وجلَّ.

أما مع الخَلق فيحسن الخُلق معهم بما قاله بعض العلماء: كف الأذى، وبذل الندى، وطلاقه الوجه، وهذا حسن الخلق.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الكنية للصبي، رقم(٦٢٠٣)، ومسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته...، رقم(٢١٥٠).

كف الأذى بألا يؤذي الناس لا بلسانه ولا بجوارحه، وبذل الندى يعني العطاء، يبذل العطاء من مال وعلم وجاه وغير ذلك، وطلاقة الوجه بأن يلاقي الناس بوجه منطلق، ليس بعبوس، ولا مصعِّرٍ خده، وهذا هو حسن الخلق.

ولا شك أن الذي يفعل هذا؛ فكف الأذى ويبذل الندى ويجعل وجه منطلقًا؛ لا شك أنه سيصبر على أذى الناس أيضًا، فإن الصبر على أذى الناس لا شك أنه من حسن الخلق، فإن من الناس من يؤذي أخاه، وربما يعتدي عليه بما يضرّه؛ بأكل ماله، أو جحد حق له، أو ما أشبه ذلك، فيصبر ويحتسب الأجر من الله سبحانه وتعالى، والعاقبة للمتقين، وهذا كله من حسن الخلق مع الناس.

ثم صدّر المؤلف رحمه الله تعالى هذا الباب بقوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وهذا معطوف على جواب القسم ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٤]. إنك: يعني يا محمد، لعلى خلق عظيم لم يتخلق أحد بمثله، في كل شيء؛ خلق مع الله، خلق مع عباد الله، في الشجاعة والكرم وحسن المعاملة وفي كل شيء، وكان عليه الصلاة والسلام خلقه القرآن يتأدب بآدابه؛ يمتثل أوامره ويجتنبُ نواهيه.

ثم ساق المؤلف جزءًا من آية آل عمران في قوله: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وهذه من صفات المتقين الذين أعدَّ الله لهم الجنة، كما قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن

رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ يعني الذين يكظمون غضبهم، إذا غضب، ملك نفسه وكظم غيظه، ولم يتعد على أحدٍ بموجب هذا الغضب.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ إذا أساءوا إليهم، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فإن هذا من الإحسان أن تعفو عمَّن ظلمك، ولكن العفو له محل؛ إن كان المعتدي أهلاً للعفو فالعفو محمود، وإن لم يكن أهلاً للعفو؛ فإن العفو ليس بمحمود؛ لأن الله تعالى قال في كتابه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ٤٠].

فلو أن رجلاً اعتدى عليك بضربك، أو أخذ مالك، أو إهانتك، أو ما أشبه ذلك، فهل الأفضل أن تعفو عنه أم لا؟

نقول في هذا تفصيل: إن كان الرجل شريرًا، سيئًا، إذا عفوت عنه ازداد في الاعتداء عليك وعلى غيرك، فلا تعفُ عنه، خذ حقك منه بيدك، إلا أن تكون تحت ولاية شرعية فترفع الأمر إلى من له الولاية الشرعية، وإلا فتأخذه بيدك ما لم يترتب على ذلك ضرر أكبر.

والحاصل أنه إذا كان الرجل المعتدي سيئًا شريرًا فهذا ليس أهلاً للعفو فلا تَعفُ عنه؛ بل الأفضل أن تأخذ بحقك؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، والعفو في مثل هذه الحال ليس بإصلاح.

أما إذا كان الرجل حسن الخلق، لكن بدرت منه هذه الإساءة،

فالأفضل العفو عنه ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ .

والنفس ربما تأمرك أن تأخذ بحقك، ولكن كما قلت إذا كان الإنسان أهلاً للعفو فالأفضل أن تعفو عنه وإلا فلا .

* * *

٢/٦٢٢ ـ وعنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: مَا مَسِسْتُ ديباجًا وَلا حَرِيرًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رسُولِ اللهِ ﷺ، وَلاَ شَمَمْتُ رائحَةً قطُّ أطْيَبَ مِنْ رَائحَةِ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَقَدْ خَدَمْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قالَ لي قَطُّ: أفٍّ، وَلا قالَ لِشَيءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَهُ؟ وَلاَ لِشَيءٍ لَمْ أفْعَلْهُ: ألا فَعَلْتَ كَذَا؟. متفقٌ عليه[(١)] .

٣/٦٢٣ ـ وعن الصَّعب بنِ جَثَّامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أهْدَيْتُ رسُولَ الله ﷺ حِمَارًا وَحْشِيًّا، فرَدَّهُ عَلَيَّ، فلمَّا رَأَى مَا في وَجْهِي قالَ: «إنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إلا أنَّا حُرُمٌ» متفقٌ عليه[(٢)] .

الشرح

قال المؤلف الحافظ النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين في باب حسن الخلق ما نقله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من يدي رسول الله ﷺ .

وكان أنس بن مالك رضي الله عنه قد خدم النبي ﷺ عشر سنين؛

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم(٣٥٦١)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن. . . ، رقم(٢٣٠٩، ٢٣٣٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب إذا أهدي للمحرم حمارًا وحشيًّا لم يقبل، رقم(١٨٢٥)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم الصيد للمحرم، رقم(١١٩٣).

جاءت به أمه حين قدم النبي ﷺ المدينة، فقالت: يا رسول الله، هذا أنس ابن مالك يخدمك، فقبل عليه الصلاة والسلام أن يخدمه لله، ودعا له أن يبارك الله له في ماله وولده، فبارك الله له في ماله وولده، حتى قيل إنه كان له بستان يثمر في السنة مرتين، من بركة المال الذي دعا له رسول الله ﷺ به، أما أولاده فبلغوا مائة وعشرين ولدًا، أولاده من صلبه، كل هذا ببركة دعوة النبي ﷺ.

يقول إنه ما مسَّ ديباجًا ولا حريرًا ألين من يد رسول الله ﷺ، فكانت يده ﷺ لينة إذا مسها الإنسان فإذا هي لينة.

وكما ألان الله يده فقد ألان الله سبحانه وتعالى قلبه، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ يعني صرت لينًا لهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكذلك أيضًا رائحته ﷺ، ما شمَّ طيبًا قط أحسن من رائحة النبي ﷺ، وكان عليه الصلاة والسلام طيب الريح كثير استعمال الطيب، قال: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة»[1] هو نفسه طيب ﷺ، حتى كان الناس يتبادرون إلى أخذ عرقه ﷺ من حسنه وطيبه، ويتبركون بعرقه؛ لأن من خصائص الرسول ﷺ أننا نتبرك بعرقه وَبرِيقه وبثيابه، أما غير الرسول فلا يتبرك بعرقه ولا بثيابه ولا بِريقه.

---

(١) رواه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم(٣٩٣٩).

يقول: ولقد خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، يعني ما تضجر منه أبدًا، عشر سنوات يخدمه ما تضجر منه، والواحد منا إذا خدمه أحد أو صاحبه أحد لمدة أسبوع أو نحوه لابد أن يجد منه تضجرًا، لكن الرسول ﷺ عشر سنوات وهذا الرجل يخدمه، ومع ذلك ما قال له أفٍّ قط.

ولا قال لشيءٍ فعلتَ لما فعلت كذا؟ حتى الأشياء التي يفعلها أنس اجتهادًا منه ما كان الرسول ﷺ يؤنبه أو يوبخه أو يقول لما فعلت كذا، مع أنه خادم، وكذلك ما قال لشيء لم أفعله لمَ لَم تفعل كذا وكذا؟ فكان عليه الصلاة والسلام يعامله بما أرشده الله سبحانه وتعالى إليه في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

والعفو ما عفا من أخلاق الناس وما تيسر، يعني خذ من الناس ما تيسر، ولا تريد أن يكون الناس لك على ما تريد في كل شيء، من أراد أن يكون الناس له على ما يريد في كل شيء فاته كل شيء، ولكن خذ ما تيسر، عامل الناس بما إن جاءك قبلت وإن فاتك لم تغضب، ولهذا قال: ما قال لشيء لم أفعله لِمَ لَمْ تفعل كذا وكذا، وهذا من حسن خلقه عليه الصلاة والسلام.

ومن حسن خلقه ﷺ أنه كان لا يُداهن الناس في دين الله، ولا يفوته أن يطيب قلوبهم، فالصعب بن جثامة رضي الله عنه مرَّ به النبي ﷺ، والنبي ﷺ محرم، وكان الصعب بن جثامة عدَّاءً راميًا، عداءً: يعني سَبوقًا، راميًا: يعني يجيد الرمي.

فلما نزل به النبي ﷺ ضيفًا رأى أنه لا أحد أكرم ضيفًا منه، فذهب يصيد للرسول ﷺ صيدًا، فصاد له حمارًا وحشيًّا وكان في الجزيرة العربية في ذلك الوقت كثيرٌ من الصيد، لكنها قلَّت. صاد له حمارًا وحشيًّا وجاء به إليه فرده النبي ﷺ فصعب ذلك على الصعب؛ كيف يرد النبي ﷺ هديته؟ فتغير وجهه، فلما رأى ما في وجهه طيَّب قلبه وقال: «**إنا لم نرده عليك إلا أنا حُرم**» يعني محرمون، والمحرم لا يأكل من الصيد الذي صيد من أجله.

فلو أن محرمًا مرَّ بك وأنت في بلدك وهو محرم وصدت له صيدًا أو ذبحت له صيدًا عندك، فإنه لا يحل له أن يأكل منه، وذلك لأنه ممنوع من أكل ما صيد من أجله، أما إذا لم تصده من أجله، فالصحيح أنه حلال له إذا لم تصده لأجله.

ولهذا أكل النبي ﷺ من الصيد الذي صاده أبو قتادة رضي الله عنه؛ لأن أبا قتادة لم يصده من أجل الرسول ﷺ، وهذا أحسن ما قيل في هذه المسألة، أنه إذا صيد الصيد من أجل المحرم كان حرامًا عليه، وإن صاده الإنسان لنفسه وأطعم منه المحرم فلا بأس.

قال بعض العلماء: إن المحرم لا يأكل من الصيد مطلقًا؛ صِيدَ من أجله أم لم يصد، قالوا لأن حديث الصعب بن جثامة متأخر عن حديث أبي قتادة، فإن حديث أبي قتادة كان في غزوة الحديبية في السنة السادسة، وحديث الصعب بن جثامة في حجة الوداع في السنة العاشرة، ويؤخذ بالآخر فالآخر.

ولكن القاعدة الأصولية الحديثية تأبى هذا القول؛ لأنه لا يصار إلى النسخ إلا إذا تعذر الجمع، فإذا أمكن الجمع فلا نسخ، والجمع هنا ممكن، وهو أن يقال: إن صيدَ لأجل المُحرم فحرام، وإن صاده الإنسان لنفسه وأطعم منه المحرم فلا بأس.

ويؤيد هذا حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**صيد البر حلالٌ لكم مالم تصيدوه أو يصد لكم**»(١)، وهذا تفصيل واضح؛ ما لم تصيدوه أو يصد لكم.

والحاصل أن هذا الحديث؛ حديث الصعب بن جثامة رضي الله عنه فيه فائدتان عظيمتان:

الأولى: أن النبي ﷺ لا يداهن أحدًا في دين الله، وإلا قبل الهدية من الصعب، وسكت إرضاءً له ومداهنة له، لكنه عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يفعل هذا.

الثانية: أنه ينبغي للإنسان أن يجبر خاطر أخيه إذا فعل معه ما لا يحب، ويبين له السبب؛ لأجل أن تطيب نفسه، ويطمئن قلبه، فإن هذا من هدي النبي ﷺ؛ والله الموفق.

* * *

---

(١) رواه أبوداود، كتاب المناسك، باب لحم الصيد للمحرم، رقم(١٨٥١)، والترمذي، كتاب الحج، باب ما جاء في أكل الصيد للمحرم، رقم(٨٤٦)، والنسائي، كتاب الحج، باب إذا أشار المحرم إلى الصيد...، رقم(٢٨٢٧).

٤/٦٢٤ ـ وَعَنِ النَّواسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ فَقَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» رواهُ مسلم[١].

٥/٦٢٥ ـ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاحِشًا ولا مُتَفَحِّشًا. وَكَانَ يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ خِيارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا» متفقٌ عليه[٢].

٦/٦٢٦ ـ وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَومَ القِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيَّ» رواه الترمذي[٣] وقال: حديث حسن صحيح.

«البَذيُّ»: هو الَّذي يَتَكَلَّم بالفُحشِ، وردِيءَ الكلامِ.

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمه الله في باب حسن الخلق من كتاب رياض الصالحين، وقد سبق شيء من هذه الأحاديث.

أما حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «البر حسن الخلق»، وقد تقدم شرح هذه الجملة، وبيّنا أن حسن الخلق يحصل

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم، رقم(٢٥٥٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم(٣٥٥٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، رقم(٢٣٢١).

(٣) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم(٢٠٠٢)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

فيه الخير الكثير؛ لأن البر هو الخير الكثير.

وأما الإثم فقال هو: «ما حاك في نفسك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس» يعني بما حاك في النفس، يعني لم تطمئن إليه النفس، بل ترددت فيه، وكرهت أن يطلع عليه الناس.

ولكن هذا خطاب للمؤمن، أما الفاسق فإن الإثم لا يحيك في صدره، ولا يهمه أن يطلع عليه الناس؛ بل يجاهر به ولا يبالي، لكن المؤمن لكون الله سبحانه وتعالى قد أعطاه نورًا في قلبه، إذا همَّ بالإثم حاك في صدره، وتردد فيه، وكره أن يطلع عليه الناس، فهذا الميزان إنما هو في حق المؤمنين.

أما الفاسقون فإنهم لا يهمهم أن يطلع الناس على آثامهم، ولا تحيك الآثام في صدورهم؛ بل يفعلونها والعياذ بالله بانطلاق وانشراح؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨].

فقد يزين للإنسان سوء العمل فينشرح له صدره، مثل ما نرى من أهل الفسق الذين يشربون الخمر، وتنشرح صدورهم له، والذين يتعاملون بالربا وتنشرح صدورهم لذلك، والذين يتعودون العهر والزنا وتنشرح صدورهم لذلك، ولا يبالون بهذا؛ بل ربما إذا فعلوا ذلك سرًّا ذهبوا يشيعونه ويعلنونه، مثل ما يوجد من بعض الفساق إذا ذهبوا إلى البلاد الخارجية الماجنة الفاجرة ورجعوا، قاموا يتحدثون فعلت كذا وفعلت كذا، يعني أنهم زنوا بكذا، وزنوا بكذا والعياذ بالله ـ وشربوا الخمر وما أشبه ذلك.

وفي هذه الأحاديث بيان صفة الرسول ﷺ وأنه لم يكن فاحشًا ولا متفحِّشًا، يعني أنه ﷺ بعيد عن الفحش طبعًا وكسبًا، فلم يكن فاحشًا في نفسه ولا في غريزته؛ بل هو لين سهل، ولم يكن متفحِّشًا أي متطبعًا بالفحشاء؛ بل كان ﷺ أبعد الناس عن الفحش في مقاله وفي فعاله ﷺ.

وفيه أيضًا الحث على حسن الخلق، وأنه من أثقل ما يكون في الميزان يوم القيامة، وهذا من باب الترغيب فيه، فعليك يا أخي المسلم أن تحسن خلقك مع الله عزَّ وجلَّ؛ في تلقي أحكامه الكونية والشرعية، بصدرٍ منشرح منقاد راضٍ مستسلم، وكذلك مع عباد الله فإن الله تعالى يحب المحسنين، والله الموفق.

*   *   *

٦٢٧/٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ؟ قال: «تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ» وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ».

رواه الترمذي[١] وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

٦٢٨/٨ - وعنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُم خُلُقًا، وخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ».

رواه الترمذي[٢] وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم(٢٠٠٤)، وقال: صحيحٌ غريبٌ.

(٢) رواه الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، =

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل حسن الخلق، ذكرها النووي ـ رحمه الله ـ في رياض الصالحين في باب حسن الخلق، ومنها عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل: ما أكثر ما يدخل الجنة؟ يعني ما هو الشيء الذي يكون سببًا لدخول الجنة كثيرًا؟ فقال: «**تقوى الله وحسن الخلق**».

تقوى الله تعالى، وهذه كلمة جامعة لفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه هذه هي التقوى، أن تفعل ما أمرك الله به وأن تدع ما نهاك عنه؛ لأن التقوى مأخوذة من الوقاية، وهي أن يتخذ الإنسان ما يقيه من عذاب الله، ولا شيء يقي من عذاب الله إلا فعل الأوامر واجتناب النواهي.

وأكثر ما يدخل الناس النار الفم والفرج. الفم يعني بذلك قول اللسان فإن الإنسان قد يقول كلمة لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفًا، والعياذ بالله أي سبعين سنة، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «**أفلا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «**كف عليك هذا**». قلت: يا رسول الله، وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ يعني هل نؤاخذ بالكلام؟ قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على جوههم ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم**»[1].

= رقم(١١٦٢)، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

(١) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم(٢٦١٦)، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان عن الفتن، رقم(٣٩٧٣).

ولما كان عمل اللسان سهلاً صار إطلاقه سهلاً؛ لأن الكلام لا يتعب به الإنسان، ليس كعمل اليد، وعمل الرِّجْل، وعمل العين يتعب فيه الإنسان. فعمل اللسان لا يتعب فيه الإنسان، فتجده يتكلم كثيرًا بأشياء تضره؛ كالغيبة، والنميمة، واللعن، والسب، والشتم، وهو لا يشعر بذلك، فيكتسب بهذا آثامًا كثيرة.

أما الفرج فالمراد به الزنا، وأخبث منه اللواط، فإن ذلك أيضًا تدعو النفس إليه كثيرًا ـ ولا سيما من الشباب ـ فتهوي بالإنسان وتدرِّجه حتى يقع في الفاحشة وهو لا يعلم.

ولهذا سدَّ النبي ﷺ كل باب يكون سببًا لهذه الفاحشة، فمنع من خلو الرجل بالمرأة، ومنع المرأة من كشف وجهها أمام الرجال الأجانب، ونهى المرأة أن تخضع بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، إلى غير ذلك من السياج المنيع الذي جعله النبي ﷺ حائلاً دون فعل هذه الفاحشة، لأن هذه الفاحشة تدعو إليها النفس، فهذا أكثر ما يدخل الناس النار: أعمال اللسان وأعمال الفرج، نسأل الله الحماية.

ثم ذكر أيضًا من فضائل حسن الخلق أن أحسن الناس أخلاقًا هم أكمل الناس إيمانًا، قال النبي ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**» وفي هذا دليلٌ على أنَّ الإيمان يتفاوت، وأن الناس يختلفون فيه، فبعضهم في الإيمان أكمل من بعض بناء على الأعمال، وكلما كان الإنسان أحسن خلقًا كان أكمل إيمانًا، وهذا حثٌّ واضحٌ على أن الإنسان ينبغي له أن يكون حسن الخلق بقدر ما يستطيع.

قال: «وخياركم خياركم لنسائهم» المراد خيركم خيركم لأهله كما جاء ذلك في السنن أن النبي ﷺ قال: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»[١] فينبغي للإنسان أن يكون مع أهله خير صاحب وخير محب وخير مُرَبٍّ؛ لأن الأهل أحق بحسن خلقك من غيرهم. ابدأ بالأقرب فالأقرب.

على العكس من ذلك حال بعض الناس اليوم وقبل اليوم؛ تجده مع الناس حسن الخلق، لكن مع أهله سيء الخلق والعياذ بالله، وهذا خلاف هدي النبي ﷺ، والصواب أن تكون مع أهلك حسن الخلق ومع غيرهم أيضًا، لكن هم أولى بحسن الخلق من غيرهم.

ولهذا لما سئلت عائشة: ماذا كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان في مهنة أهله[٢]. أي يساعدهم على مهمات البيت، حتى إنه ﷺ كان يحلب الشاة لأهله، ويخصف نعله، ويرقع ثوبه، وهكذا ينبغي للإنسان مع أهله أن يكون من خير الأصحاب لهم.

* * *

٩/٦٢٩ ـ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْمُؤمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ» رواه أبوداود[٣].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ، رقم(٣٨٩٢)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، رقم(١٩٧٧)، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.
(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله، رقم(٦٠٣٩).
(٣) رواه أبوداود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم(٤٧٩٨).

١٠ / ٦٣٠ - وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أنَا زَعِيمٌ بِبَيتٍ في ربَضِ الجَنَّةِ لَمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ، وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ، وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ» حديث صحيح، رواه أبو داود[١] بإسناد صحيح.

الزَّعِيمُ: الضَّامِنُ.

١١ / ٦٣١ - وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُم مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا. وَإِنَّ أَبغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ القِيَامَةِ، الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ» قالوا: يا رسول الله قَدْ عَلِمْنَا «الثَرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ» فَمَا المُتَفَيْهِقُون؟ قال: «المُتَكَبِّرُونَ» رواه الترمذي[٢] وقال: حديثٌ حسنٌ.

«الثَّرْثَارُ»: هُوَ كَثيرُ الكَلامِ تَكلُّفًا. «وَالمُتَشَدِّقُ»: المُتطاوِلُ عَلَى النَّاسِ بِكَلاَمِهِ، وَيَتَكَلَّمُ بِمَلءِ فيه تَفَاصُحًا وتَعْظِيمًا لِكَلامِهِ؛ «والمُتَفَيْهِقُ»: أصلُهُ مِنَ الفَهْقِ، وَهُوَ الامْتِلاءُ، وَهُوَ الَّذِي يَمْلأ فَمَهُ بِالْكَلامِ. وَيَتَوَسَّعُ فيه، وَيُغْرِبُ بِهِ تَكَبُّرًا وارتِفَاعًا، وَإِظْهَارًا للفَضيلةِ عَلَى غيرِهِ.

وروى الترمذيُّ عن عبد الله بن المبارك رحمه الله في تفسيرِ حُسْنِ الخُلُقِ قال: هُوَ طَلاقَةُ الوَجه، وبَذلُ المَعرُوف. وكَفُّ الأذَى[٣].

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم(٤٨٠٠).

(٢) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم(٢٠١٨)، وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ.

(٣) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم(٢٠٠٥).

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله أحاديث متعددة في بيان حسن الخلق، وأن من أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ أحاسنهم أخلاقًا، فكلما كنت أحسن خلقًا؛ كنت أقرب إلى الله ورسوله من غيرك، وأبعد الناس منزلة من رسول الله ﷺ الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون.

الثرثارون الذين يكثرون الكلام ويأخذون المجالس عن الناس، فإذا جلس في المجلس أخذ الكلام عن غيره، وصار كأن لم يكن في المجلس إلا هو؛ يتكلم ولا يدع غيره يتكلم، وهذا لا شك أنه نوع من الكبرياء.

لكن لو فرضنا أن أهل المجلس فوَّضوه وقالوا أعطنا نصيحة، أعطنا موعظة فتكلم فلا حرج، إنما الكلام العادي كونك تملك المجلس ولا تدع أحدًا يتكلم، حتى إن بعض الناس يحب أن يتكلم لكن لا يستطيع أن يتكلم، يخشى من مقاطعة هذا الرجل الذي ملك المجلس بكلامه.

كذلك أيضًا المتشدقون، والمتشدق هو الذي يتكلم بملء شدقيه، تجده يتكلم وكأنه أفصح العرب تكبيرًا وتبخترًا، ومن ذلك من يتكلم باللغة العربية أمام العامة، فإن العامة لا يعرفون اللغة العربية، لو تكلمت بينهم باللغة العربية لعدّوا ذلك من باب التشدق في الكلام والتنطع، أما إذا كنت تدرس لطلبة فينبغي أن تتكلم باللغة العربية، لأجل أن تمرِّنهم على اللغة العربية وعلى النطق بها، أما العامة الذين لا يعرفون فلا ينبغي أن تتكلم بينهم باللغة العربية، بل تكلم معهم بلغتهم التي يعرفون، ولا تغرب في الكلمات، يعني لا تأتي بكلمات غريبة تُشْكِل عليهم، فإن ذلك من

التشدق في الكلام.

أما المتفيهقون فقد وصفهم النبي ﷺ بالمتكبِّرين، المتكبِّر الذي يتكبّر على الناس ويتفيهق، وإذا قام يمشي كأنه يمشي على ورق من تكبره وغطرسته، فإن هذا لا شك خلق ذميم، ويجب على الإنسان أن يحذر منه؛ لأن الإنسان بشر فينبغي أن يعرف قدر نفسه، حتى لو أنعم الله عليه بمال، أو أنعم الله عليه بعلم، أو أنعم الله عليه بجاه، ينبغي أن يتواضع، وتواضع هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بالمال والعلم والجاه أفضل من تواضع غيرهم، ممن لا يكون كذلك.

ولهذا جاء في الحديث من الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم: «عائل مستكبر»[1] لأن العائل لا داعي لاستكباره، والعائل هو الفقير، فهؤلاء الذين منَّ الله عليهم بالعلم والمال والجاه كلما تواضعوا؛ صاروا أفضل ممن تواضع من غيرهم الذين لم يمنّ الله عليهم بذلك.

فينبغي لكل من أعطاه الله نعمة أن يزداد شكرًا لله، وتواضعًا للحق وتواضعًا للخلق، وفَّقني الله وإياكم لأحاسن الأخلاق والأعمال، وجنبنا وإياكم سيئات الأخلاق والأعمال إنه جواد كريم.

* * *

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية، رقم(١٠٧).

٧٤ـ باب الحِلْم والأناة والرفق

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى: باب الحِلْم، والأناة، والرفق.

هذه ثلاثة أمور متقاربة: الحلم، والأناة، والرفق.

أما الحلم فهو أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب، إذا حصل غضب وهو قادر فإنه يحلم، ولا يعاقب، ولا يعاجل بالعقوبة.

وأما الأناة فهو التأني في الأمور، وعدم العجلة، وألا يأخذ الإنسان الأمور بظاهرها فيتعجل، ويحكم على الشيء قبل أن يتأنى فيه وينظر.

وأما الرفق فهو معاملة الناس بالرفق والهون، حتى وإن استحقوا ما يستحقون من العقوبة والنكال فإنه يرفق بهم.

ولكن هذا فيما إذا كان الإنسان الذي يرفق به محلاًّ للرفق، أما إذا لم

يكن محلاًّ للرفق فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢].

ثم ساق المؤلف آيات، قال في الآية الأولى قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، هذه من جملة الأوصاف التي يتصف بها المتقون الذين أعدت لهم الجنة: أنهم يكظمون إذا غضبوا.

وفي قوله: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ دليلٌ على أنهم يشق عليهم ذلك، لكنهم يغلبون أنفسهم فيكظمون غيظهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة» الصرعة: يعني الذي يصرع الناس إذا صارعوه: «وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»(١).

وأما قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ فقد سبق الكلام عليه، وبيان التفصيل فيمن يستحق العفو ومن لا يستحق، فالإنسان الشرير الذي لا يزداد بالعفو عنه إلا سوءًا وشراسة ومعاندة هذا لا يعفى عنه.

والإنسان الذي هو أهل للعفو. ينبغي للإنسان أن يعفو عنه؛ لأن الله يقول: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الشورى: ٤٠].

وأما الآية الثانية فهي قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم(٦١١٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب...، رقم(٢٦٠٩).

ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قال خذ العفو ولم يقل اعف ولا افعل العفو، بل قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ والمراد بالعفو هنا ما عفا وسهل من الناس؛ لأن الناس يعامل بعضهم بعضًا، فمن أراد من الناس أن يعاملوه على الوجه الذي يحب وعلى الوجه الأكمل؛ فهذا شيء يصعب عليه ويشق عليه ويتعب وراء الناس.

وأما من استرشد بهذه الآية، وأخذ ما عفا من الناس وما سهل، فما جاء منهم قَبِلَه، وما أضاعوه من حقه تركه، إلا إذا انتهكت محارم الله، فإن هذا هو الذي أرشد الله إليه؛ أن نأخذ العفو، فخذ ما تيسّر من أخلاق الناس ومعاملتهم لك، والباقي أنت صاحب الفضل فيه إذا تركته.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ يعني: مُرْ بما يتعارفه الناس ويعرفه الشرع من أمور الخير، ولا تسكت عن الأمر بالخير إذا كان الناس أخلّوا به فيما بينك وبينهم. افعل ما تشاء في حقك، لكن الشيء المعروف ينبغي أن تأمر به.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ المراد بالجاهل هنا ليس هو الذي لا يعلم الحكم؛ بل الجاهل السفيه في التصرف، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي بسفاهة ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧].

فالجاهلون هنا هم السفهاء الذين يجهلون حقوق الغير، ويفرِّطون فيها، فأعرض عنهم ولا تبال بهم، وأنت إذا أعرضت عنهم ولم تبالِ بهم فإنهم سوف يملّون ويتعبون، ثم بعد ذلك يرجعون إلى صوابهم، ولكن إذا عاندتهم أو خاصمتهم أو أردت منهم أن يعطوك حقك كاملاً، فإنهم ربما بسفههم يعاندون ولا يأتون بالذي تريد.

فهذه ثلاثة أوامر من الله عزَّ وجلَّ فيها الخير لو أننا سرنا عليها: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

صبر: يعني على الأذى، وغفر: يعني تجاوز عنه إذا وقع به، إن ذلك لمن عزم الأمور: أي لمن معزومات الأمور، أي من الأمور التي تدل على عزم الرجل، وعلى حزمه، وعلى أنه قادر على نفسه مسيطر عليها، وذلك لأن الناس ينقسمون إلى أقسام بالنسبة لسيطرتهم على أنفسهم.

فمن الناس من لا يستطيع أن يسيطر على نفسه أبدًا، ومن الناس من يستطيع لكن بمشقة شديدة، ومن الناس من يستطيع لكن بسهولة، يكون قد جبله الله عزَّ وجلَّ على مكارم الأخلاق، فيسهل عليه الصبر والغفران.

فالذي يصبر على أذى الناس ويتحمل ويحتسب الأجر من الله ويغفر لهم، هذا هو الذي صنع هذه المعزومة من الأمور أي من الشؤون، وهذا حث واضح على أنه ينبغي للإنسان أن يصبر ويغفر، وقد سبق لنا التفصيل في مسألة العفو عن الجناة والمعتدين، وأنه لا يمدح مطلقًا ولا يذم مطلقًا، بل ينظر إلى الإصلاح.

* * *

١ / ٦٣٢ ـ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأشَجِّ عَبْدِ الْقَيْس: «إِنَّ فِيك خَصْلَتَيْنِ يُحبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ» رواهُ مسلم[١].

٢ / ٦٣٣ ـ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ رفيقٌ

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى...، رقم(١٧) [٢٥].

يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» متفقٌ عليه[١].

٣/٦٣٤ ـ وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيَعْطِي عَلَى الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَالاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاه» رواه مسلم[٢].

٤/٦٣٥ ـ وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرِّفقَ لاَ يكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ. وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ» رواه مسلم[٣].

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ هنا في سياق الأحاديث ما قاله النبي ﷺ لأشج عبد القيس، قال له: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحِلْم والأناة».

الحلم: عندما يثار الإنسان ويجنى عليه ويعتدى عليه يحلم، لكنه ليس كالحمار لا يبالي بما فعل به، يتأثر لكن يكون حليمًا لا يتعجل بالعقوبة، حتى إذا صارت العقوبة خيرًا من العفو أخذ بالعقوبة.

والأناة: التأني في الأمور وعدم التسرع، وما أكثر ما يهلك الإنسان ويزل بسبب التعجل في الأمور، سواء في نقل الأخبار، أوفي الحكم على ما سمع، أو في غير ذلك.

فمن الناس مثلاً من يتخطف الأخبار بمجرد ما يسمع الخبر يحدِّث به

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم(٦٠٢٤)، ومسلم، كتاب السلام، باب النهي عن تلقي الركبان. . .، رقم(٢١٦٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم(٢٥٩٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم(٢٥٩٤).

وينقله، وقد جاء في الحديث «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»[١].

ومن الناس من يتسرع في الحكم، يسمع عن شخص شيئًا من الأشياء، ويتأكد أنه قاله أو أنه فعله، ثم يتسرع في الحكم عليه، أنه أخطأ أو ضلّ أو ما أشبه ذلك، وهذا غلط، التأني في الأمور، كله خير.

ثم ذكر المؤلف أحاديث عائشة رضي الله عنها الثلاثة في باب الرفق، وأن الرفق محبوب إلى الله عزَّ وجلّ، وأنه ما كان في شيءٍ إلا زانه، ولا نزع من شيءٍ إلا شأنه، ففيه الحثّ على أن يكون الإنسان رفيقًا في جميع شؤونه، رفيقًا في معاملة أهله، وفي معاملة إخوانه، وفي معاملة أصدقائه، وفي معاملة عامة الناس يرفق بهم، فإن الله عزَّ وجلّ رفيقٌ يحب الرفق.

ولهذا فإن الإنسان إذا عامل الناس بالرفق يجد لذة وانشراحًا، وإذا عاملهم بالشدة والعنف ندم، ثم قال ليتني لم أفعل، لكن بعد أن يفوت الأوان، أما إذا عاملهم بالرفق واللين والأناة انشرح صدره، ولم يندم على شيء فعله.

وفَّق الله الجميع لما فيه الخير والصلاح وحسن الأخلاق والآداب.

* * *

٥/٦٣٦ ـ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَالَ أَعْرَابيٌّ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيَقَعُوا فِيه، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهُ وَأرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِن ماءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِيْنَ» رواه البخاري[٢].

---

(١) رواه مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم(٥).
(٢) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم(٢٢٠).

«السَّجْلُ» بفتح السين المهملة وإسكان الجيم: وَهِيَ الدَّلْو المُمْتَلِئَةُ ماءً، وَكَذلِكَ الذَّنُوبُ.

الشرح

ساق المؤلف رحمه الله في باب الحِلْم والأناة والرفق في كتابه رياض الصالحين، حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن أعرابيًّا بال في المسجد.

أعرابي: يعني بدوي؛ والبدوي في الغالب لا يعرف أحكام الشرع؛ لأنه يعيش في البادية في إبله أو في غنمه، وليس له علم بشريعة الله، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]، يعني أقرب ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله؛ لأنهم في باديتهم بعيدون عن الناس وعن العلم والشرع.

فهذا الأعرابي دخل المسجد واحتاج إلى أن يبول، فبال في طائفة المسجد، أي تنحى وبال في المسجد، فهمّ الناس به أن يقعوا فيه وزجروه، ولكن النبي ﷺ قال: لهم: «دعوه» دعوه يقضي بوله، «وأريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» فتركه الناس.

فلما قضى بوله صبّوا عليه ذنوبًا من الماء، يعني دلوًا من الماء، فطهر المحل، وزال المحذور، ثم دعا بالأعرابي وقال له: «إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى أو القذر، وإنما هي للصلاة وقراءة القرآن، والتكبير» أو كما قال الرسول ﷺ.

ففي هذا الحديث فوائد كثيرة:

منها: العذر بالجهل، وأن الإنسان الجاهل لا يعامل كما يعامل العالم؛ لأن العالم معاند، والجاهل متطلع للعلم فيعذر بجهله، ولهذا عذره النبي ﷺ ورفق به.

ومنها: أن الشرع يقتضي دفع أعلى المفسدتين بأدناهما، يعني إذا كان هناك مفسدتان ولابد من ارتكاب أحدهما؛ فإنه يرتكب الأسهل.

فهنا أمامنا مفسدتان:

الأولى: استمرار هذا الأعرابي في بوله، وهذه مفسدة.

والثانية: إقامته من بوله، وهذه مفسدة أيضًا، لكن هذه أكبر؛ لأن هذه يترتب عليها.

أولاً: الضرر على هذا البائل؛ لأن البائل إذا منع البول المتهيىء للخروج ففي ذلك ضرر، فربما تتأثر مجاري البول ومسالك البول.

ثانيًا: أنه إذا قام فإما أن يقطع رافعًا ثوبه؛ لئلا تصيبه قطرات البول، وحينئذٍ تكون القطرات منتشرة في المكان، وربما تأتي على أفخاذه ويبقى مكشوف العورة أمام الناس وفي المسجد، وإما أن يدلي ثوبه، وحينئذٍ يتلوث الثوب ويتلوث البدن وهذه أيضًا مفسدة.

فلهذا ترك النبي ﷺ هذا الرجل يبول حتى انتهى، ثم أمر بأن يصب عليه ذنوبًا من ماء.

وعلى هذا فيكون لدينا قاعدة: إذا اجتمعت مفسدتان لابد من ارتكاب إحداهما، فإنه يرتكب الأسهل والأخف، دفعًا للأعلى، كما إنه

إذا اجتمعت مصالح ولا يمكن فعل جميعها، فإنه يؤخذ بالأعلى فالأعلى، ففي المصالح يقدم الأعلى، وفي المفاسد يقدم الأسهل والأدنى.

ومن فوائد هذا الحديث: وجوب تطهير المسجد وأنه فرض كفاية؛ لقول الرسول ﷺ: «**أريقوا على بوله سجلاً من ماء**» فيجب على من رأى نجاسة في المسجد أن يطهرها بنفسه، أو يبلغ من هو معني بالمسجد ومسؤول عنه حتى يقوم بتطهيرها.

ومنها: اشتراط طهارة مكان المصلِّي، فالمصلِّي يجب عليه أن يطهر ثوبه وبدنه ومكان صلاته، لابد من ذلك سواءً كانت أرضًا أو فراشًا أو غير ذلك، المهم أنه لابد من طهارة مكان المصلي.

ومنها: أن الأرض يكفي في تطهيرها أن يصب على النجاسة ماء مرة واحدة، فإذا غمرت بالماء طهرت، لكن إن كانت النجاسة ذات جرم كالغائط والروث وما أشبهها؛ فلابد من زوال هذا الجرم، وبعدها يطهر المحل بصب ماءٍ عليه.

ومنها: أنه لابد من الماء في تطهير النجاسة؛ لقوله: «**أريقوا على بوله سجلاً من ماء**» وأن النجاسة لا تطهر بغير الماء، وهذا ما عليه أكثر العلماء.

والصحيح أن النجاسة تطهر بكل ما يزيلها من ماء أو بنزين، أو غيره، وإنما أمر النبي ﷺ بصب الماء على مكان البول؛ لأنه أسرع في تطهير المكان، وإلا فمن الممكن أن يبقى المكان لا يصب عليه الماء، ثم مع الرياح والشمس تزول النجاسة ويطهر، لكن هذا أسرع وأسهل.

ومن المعلوم أنه في عهد الرسول ﷺ لا توجد هذه المزيلات الكيماوية أو البترولية، فلذلك كانوا يعتمدون في إزالة النجاسة على الماء، ولكن متى زالت النجاسة طهر المحل بأي مزيل كان؛ لأن النجاسة عين خبيثة نجسة، متى زالت عاد المحل إلى طهارته بأي شيءٍ كان.

ولهذا يطهر البول والغائط بالأحجار؛ يستجمر الإنسان بالحجر ثلاث مرات مع الإنقاء ويكفي.

وثوب المرأة الذي تجره إذا مر بالنجاسة ثم مر بعد ذلك بأرض طاهرة طهرته، وكان من عادة النساء في عهد الرسول ﷺ أن المرأة إذا خرجت واتخذت ثوبًا ضافيًا يستر قدميها، وينجر من ورائها إلى شبر أو شبرين أو ذراع، ولكن لا يزاد على ذراع. هذا في عهد الرسول ﷺ، عهد النساء الطاهرات في الزمن الطاهر، فما بالك باليوم؟!

لكن مع الأسف أن المسلمين اليوم لا ينظرون إلى من سلف من هذه الأمة، ولكنهم ينظرون إلى من تأخر من هذه الأمة؛ إلى الخلف الذين قال الله فيهم: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

أصبحنا ننظر الآن إلى من خلف. بل ننظر إلى ما دون ذلك؛ ننظر إلى أعدائنا؛ إلى اليهود والنصارى والمجوس والوثنيين وما أشبه ذلك، فنقتدي بهم في مثل هذه الألبسة، فترى النساء الآن كلما جاءت المجلة التي يسمونها البردة، ذهبن ينظرن إليها، ثم تذهب المرأة وتفعل مثل ما فعلوا.

وأقول: يجب على أولياء الأمور أن يمنعوا من تداول هذه المجلات،

وهذه البردات بين أيدي النساء؛ لأن المرأة ضعيفة؛ ضعيفة العقل وضعيفة الدين كما وصفها بهذا الرسول ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**»(١) فتغتر وتنخدع بهذه المظاهر.

وكثيرٌ من الرجال مع الأسف الشديد هم رجال في ثياب رجال وإلا فهم نساء، التدبير للنساء عليهم، وهن القوامات عليهم، عكس ما أمر الله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]، لكن أصبح الآن في كثير من الناس النساء قوامات على الرجال، هي التي تدبر الرجل، وهي التي تلبس ما شاءت، وتفعل ما شاءت، ولا تبالي بزوجها ولا بوليها.

فالواجب على الأولياء أن يمنعوا من تداول هذه المجلات التي تأتينا بهذه الأزياء البعيدة عن الزي الإسلامي، فالنساء في عهد الرسول ﷺ إذا خرجن إلى السوق لبسن ثيابًا طويلة حتى لا تبدو أقدامهن.

وأما في البيوت فكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: المرأة في بيتها في عهد الرسول عليها لباس يستر من كف اليد إلى كعب الرجل، وهي في البيت، ليس عندها إلا النساء أو رجال محارم، ومع ذلك تتستر من الكف إلى الكعب، كلها متسترة.

وبهذا نعرف فساد تصور من تصور قول الرسول ﷺ لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة، أن المرأة يجوز لها أن تقتصر في لباسها على لباسٍ يستر ما

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم(٣٠٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات. . .، رقم(٨٠).

بين السرة والركبة، يردن أن تخرج المرأة كاشفة كل بدنها إلا ما بين السرة والركبة، فمن قال هذا؟!

إن الرسول ﷺ يخاطب الناظرة لا اللابسة يقول: «لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة»[1]، يعني ربما تكون اللابسة قد كشفت ثوبها لقضاء حاجة من بول أو غائط، فيقول لا تنظر لعورتها، لم يقل الرسول ﷺ للمرأة أن تلبس ما يستر ما بين السرة والركبة فقط، ومن توهَّم هذا فإنه من وحي الشيطان، ولننظر كيف كانت النساء في عهد الرسول ﷺ تلبس الثياب.

لذلك يجب أن نصحِّح هذا المفهوم الذي تدندن به كل امرأة ليس عندها فهم، وليس عندها نظر لمن سبق، نقول لها: هل تظنين أن الشرع الإسلامي يبيح للمرأة أن تخرج بين النساء ليس عليها إلا سروال قصير يستر ما بين السرة والركبة، فمن قال إن هذا هو الشرع الإسلامي؟ ومن قال إن هذا هو معنى قول رسول الله ﷺ: «لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة» من قال هذا؟!

والرسول ﷺ قال: «ولا الرجل إلى عورة الرجل» ومع ذلك كان الرجال في عهده يلبسون رداءً وإزارًا، أو يلبسون قميصًا، ولا يلبسون إزارًا فقط.

حتى أن الرجل الفقير الذي طلب من النبي ﷺ أن يزوجه المرأة التي وهبت نفسها للرسول ولم يردها، قال: زوجنيها، قال: «ما معك من صداق؟» قال: إزاري، لأنه فقير، كيف يكون الإزار مهرًا للمرأة إن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب تحريم النظر إلى العورات، رقم(٣٣٨).

أعطيتها إياه بقيت بلا إزار، وإن بقي عليك بقيت بلا مهر؟! ارجع فالتمس ولو خاتمًا من حديد[١] ولكنه لم يجد. فلم يكونوا -وهم رجال- يقتصرون على ما بين السرة والركبة أبدًا.

والحاصل أن العلم يحتاج إلى فقه، ويحتاج إلى نظر في حال الصحابة رضي الله عنهم؛ كيف فهموا النصوص فنطبقها، حتى دول الغرب الكافرة الآن أكثرهم يلبس ما يستر الصدر والفخذين، ولم يفهم أحد من هذا الحديث أن المعنى للمرأة أن تبقى مكشوفة البدن إلا ما بين السرة والركبة، ما فهم هذا أحدٌ أبدًا.

فالحاصل أن الرسول ﷺ جعل ذيل المرأة -أي طرف ثوبها الذي يمشي على الأرض- إذا التقى بنجاسة ثم مرت على أرض طاهرة فإن الطاهر يطهره، فدل ذلك على أن النجاسة تطهر بكل ما يزيلها من ماء وغيره.

ومن فوائد حديث الأعرابي: حسن خلق الرسول ﷺ، وتعليمه، ورفقه، وأن هذا هو الذي ينبغي لنا إذا دعونا إلى الله، أو أمرنا بمعروف، أو نهينا عن منكر أن نرفق؛ لأن الرفق يحصل به الخير، والعنف يحصل به الشر، ربما إذا عنفت أن يحصل من قبيلك ما يسمونه برد الفعل ولا يقبل منك شيئًا، يرد الشرع من أجلك، لكن إذا رفقت وتأنيت فهذا هو الأقرب إلى الإجابة.

ومنها: أن الرسول ﷺ جعل هذه الأمة مبعوثة، فقال: «**فإنما بعثتم**» مع أن المبعوث هو، لكن أمته يجب أن تقوم مقامه في الدعوة إلى دينه

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح، رقم (٥١٢١).

ﷺ، وأن يكون الإنسان كأنه المبعوث وكأنه الرسول في تبليغ الشرع، ولهذا قال الرسول ﷺ: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب»[١] فنحن أمة محمد ﷺ علينا أن نبلغ شرعه إلى جميع الناس، ولهذا قال: «**إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**».

وفي هذا الحديث أن الرسول ﷺ لما كلم الأعرابي بهذا اللطف واللين، وقال إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيءٌ من الأذى والقذر، قال الأعرابي: اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا، انظر كيف انشرح صدره بكلام محمد ﷺ.

أما الجماعة من الصحابة رضي الله عنهم لما أغضبوه وانتهروه ـ وهو أعرابي لا يعرف ـ رأى أن الجنة والرحمة تكون له ولمحمد، وغيرهما لا يرحمون، وليته قال اللهم ارحمني ومحمدًا وسكت، بل قال ولا ترحم معنا أحدًا[٢]، فتحجر الرحمة، لكنه جاهل، والجاهل له حكمه.

فالحاصل أن الإنسان ينبغي له أن يرفق في الدعوة، وفي الأمر، وفي النهي. وجربوا وانظروا أيهما أصلح، ونحن نعلم علم اليقين أن الأصلح هو الرفق؛ لأن هذا هو الذي قاله الرسول ﷺ، وهو الذي اتبعه في هديه ﷺ، والله الموفق.



(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٥).
(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم(٦٠١٠).

٦/٦٣٧ ـ وعن أنس رضيَ الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا. وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا» متفقٌ عليه[١].

الشرح

هذا الحديث ذكره النووي رحمه الله في باب الحلم والرفق والأناة في كتابه رياض الصالحين، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**».

هذه أربع جمل: الأولى قوله: «يسروا» يعني اسلكوا ما فيه اليسر والسهولة سواء كان فيما يتعلق بأعمالكم أو معاملاتكم مع غيركم، ولهذا كان النبي ﷺ من هديه أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه[٢].

فاختر الأيسر لك في كل أحوالك، في العبادات، في المعاملات مع الناس، في كل شيء؛ لأن اليسر هو الذي يريده الله عزَّ وجلَّ منا، ويريده بنا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فمثلاً إذا كان لك طريقان إلى المسجد؛ أحدهما صعب فيه حصى وأحجار وأشواك والثاني سهل، فالأفضل أن تسلك الأسهل، وإذا كان هناك ماءان وأنت في الشتاء، وكان أحدهما بارد يؤلمك والثاني ساخن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ يسروا، رقم(٦١٢٥)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم(١٧٣٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ يسروا، رقم(٦١٢٦)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام...، رقم(٢٣٢٧).

ترتاح له، فالأفضل أن تستعمل الساخن؛ لأنه أيسر وأسهل، وإذا كان يمكن أن تحج على سيارة أو تحج على بعير، والسيارة أسهل، فالحج على السيارة أفضل.

فالمهم أنه كل ما كان أيسر فهو أفضل ما لم يكن إثمًا؛ لأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: كان الرسول ﷺ ما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا.

أما إذا كان فعل العبادة لا يتأتى إلا بمشقة، وهذه المشقة لا تسقطها عنك ففعلتها على مشقة، فهذا أجر يزداد لك، فإن إسباغ الوضوء على المكاره مما يرفع الله به الدرجات ويكفر به الخطايا، لكن كون الإنسان يذهب إلى الأصعب مع إمكان الأسهل هذا خلاف الأفضل، الأفضل اتباع الأسهل في كل شيء.

وانظر إلى الصوم، قال فيه الرسول ﷺ: «**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر**»[1]، وفي حديث آخر «**وأخروا السحور**»[2] لماذا؟ لأن تأخير السحور أقوى على الصوم مما لو تقدم، والمبادرة بالفطر أسهل وأيسر على النفس لا سيما مع طول النهار وشدة الظمأ.

فهذا وغيره من الشواهد يدل على أن الأيسر أفضل، فأنت يسِّر على

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب تعجيل الإفطار، رقم (١٩٥٧)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه...، رقم(١٠٩٨).

(٢) رواه أحمد في المسند، في مسند الأنصار، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، رقم(٢٠٨٠٥)..

نفسك.

كذلك أيضًا في مزاولة الأعمال فإذا رأيت أنك إذا سلكت هذا العمل فهو أسهل وأقرب ويحصل به المقصود؛ فلا تتعب نفسك في أعمال أخرى أكثر من اللازم وأنت لا تحتاج إليها؛ فافعل ما هو أسهل في كل شيء، وهذه قاعدة: أن اتباع الأسهل والأيسر هو الأرفق بالنفس والأفضل عند الله.

«ولا تعسروا» يعني لا تسلكوا طرق العسر لا في عبادتكم، ولا في معاملاتكم، ولا في غير ذلك، فإن هذا منهي عنه فلا تعسر، ولهذا لما رأى النبي ﷺ رجلاً واقفًا في الشمس، سأل عنه، قالوا يا رسول الله، هو صائم؛ نذر أن يصوم ويقف في الشمس، فنهاه وقال له لا تقف في الشمس؛ لأن هذا فيه عسر على الإنسان ومشقة، والرسول ﷺ يقول لا تعسر.

الجملة الثانية قال: «وبشروا» بشروا يعني اجعلوا طريقكم دائمًا البشارة، بشروا أنفسكم وبشروا غيركم، يعني إذا عملت عملاً فاستبشر وبشر نفسك، فإذا عملت عملاً صالحًا فبشر نفسك بأنه سيقبل منك إذا اتقيت الله فيه، لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وإذا دعوت الله فبشر نفسك أن الله يستجيب لك؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ولهذا قال بعض السلف من وفق للدعاء فليبشر بالإجابة؛ لأن الله قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فأنت بشِّر نفسك

في كل عمل.

وهذا يؤيده أن النبي ﷺ كان يكره الطِّيَرَة ويعجبه الفأل؛ لأن الإنسان إذا تفاءل نشط واستبشر وحصل له خير، وإذا تشاءم فإنه يتحسر، وتضيق نفسه، ولا يقدم على العمل، ويعمل وكأنه مكره، فأنت بشِّر نفسك، كذلك بشِّر غيرك، فإذا جاءك إنسان، قال فعلت كذا وفعلت كذا وهو خائف فبشره، وأدخل عليه السرور.

لا سيما في عيادة المريض؛ فإذا عدت مريضًا فقل له أبشر بالخير، وأنت على خير، ودوام الحال من المحال، والإنسان عليه أن يصبر ويحتسب ويؤجر على ذلك، وما أشبه ذلك، وبشره قائلاً: أنت اليوم وجهك طيب، وما أشبه ذلك؛ لأنك بهذا تدخل عليه السرور، وتبشره، فاجعل طريقك هكذا فيما تعامل به نفسك وفيما تعامل به غيرك، الزم البشارة، أدخل السرور على نفسك، وأدخل السرور على غيرك، فهذا هو الخير.

«ولا تنفروا» يعني لا تنفروا الناس عن الأعمال الصالحة، ولا تنفروهم عن الطرق السليمة؛ بل شجعوهم عليها، حتى في العبادات لا تنفروهم.

ومن ذلك أن يطيل الإمام بالجماعة أكثر من السنة، فإن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان إذا صلى مع النبي ﷺ صلاة العشاء، ذهب إلى قومه فصلى بهم تلك الصلاة، فدخل يومًا من الأيام في الصلاة، فشرع في سورةٍ طويلة، فانصرف رجلٌ وصلى وحده، فقيل نافق فلان، فذهب الرجل

للنبي ﷺ، ثم إن معاذًا أتى إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «أفتان أنت يا معاذ»[١].

وكذلك الرجل الآخر قال له الرسول ﷺ: «إن منكم منفرين فأيكم أمَّ الناس فليخفف»[٢].

فالتنفير لا ينبغي؛ فلا تنفر الناس بل لِنْ لهم، حتى في الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ لا تدعُهم إلى الله دعوة منفر، لا تقل إذا رأيت إنسانًا على خطأ: يا فلان أنت خالفت، أنت عصيت، أنت فيك.. إلى آخره، هذا ينفرهم، ويزيدهم في التمادي في المعصية، ولكن ادعهم بهونٍ ولين حتى يألفك ويألف ما تدعو إليه، وبذلك تمتثل أمر النبي ﷺ في قوله: «بشروا ولا تنفروا».

فخذ هذا الحديث أيها الأخ، خذه رأس مالٍ لك «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» سر إلى الله عزَّ وجلَّ على هذا الأصل، وعلى هذا الطريق، وسر مع عباد الله على ذلك تجد الخير كله، والله الموفق.



(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول، رقم(٧٠٥)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، رقم(٤٦٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول، رقم(٧٠٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، رقم(٤٦٦).

٧/٦٣٨ ـ وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ كُلَّهُ» رواه مسلم(١).

٨/٦٣٩ ـ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي: قَالَ: «لاَ تَغْضَبْ» فَرَدَّدَ مِرَارًا؛ قَالَ: «لاَ تَغْضَبْ». رواه البخاري(٢).

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله حديثاً فيه الأمر بالرفق والحث عليه، حيث قال النبي ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله» يعني أن الإنسان إذا حرم الرفق في الأمور فيما يتصرف فيه لنفسه، وفيما يتصرف فيه مع غيره، فإنه يحرم الخير كله أي فيما تصرف فيه، فإذا تصرف الإنسان بالعنف والشدة فإنه يحرم الخير فيما فعل.

وهذا شيءٌ مجرب ومشاهد أن الإنسان إذا صار يتعامل بالعنف والشدة؛ فإنه يحرم الخير ولا ينال الخير، وإذا كان يتعامل بالرفق والحلم والأناة وسعة الصدر؛ حصل على خيرٍ كثير، وعلى هذا فينبغي للإنسان الذي يريد الخير أن يكون دائمًا رفيقًا حتى ينال الخير.

أما حديث أبي هريرة؛ فهو أن رجلاً قال يا رسول الله، أوصني، قال: «لا تغضب» فردد مرارًا وهو يقول: أوصني، فقال: «لا تغضب» والمعنى لا تكن سريع الغضب يستثيرك كل شيء؛ بل كل شيء؛ بل كن مطمئنًا

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم(٢٥٩٢).
(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم(٦١١٦).

متأنيًا؛ لأن الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب الإنسان حتى يغلي القلب، ولهذا تنتفخ الأوداج؛ عروق الدم، وتحمر العين، ثم ينفعل الإنسان حتى يفعل شيئًا يندم عليه.

وإنما أوصى النبي ﷺ هذا الرجل ألا يغضب دون أن يوصيه بتقوى الله أو بالصلاة أو بالصيام أو ما أشبه ذلك؛ لأن حال هذا الرجل تقتضي ذلك، ولهذا أوصى غيره بغير هذا الشيء؛ أوصى؟ أبا هريرة أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وأن يوتر قبل أن ينام، وأوصى أبا الدرداء بمثل ذلك، أما هذا فأوصاه ألا يغضب؛ لأن النبي ﷺ علم من حاله أنه غضوب كثير الغضب، فلذلك قال لا تغضب.

والغضب يحمل الإنسان على أن يقول كلمة الكفر، على أن يطلِّق زوجته، على أن يضرب أمه، على أن يعق أباه، كما هو مشاهد ومعلوم، ثم تجد الإنسان من حين أن يتصرف يبرد ثم يندم ندمًا عظيمًا، وما أكثر الذين يسألون: غضبت علي زوجتي فطلقت، غضبت عليها فطلقتها بالثلاثة، غضبت علي فلانة فحرمت عليه، وما أشبه ذلك، فأنت لا تغضب. لا تغضب، فإن الغضب لا شك أنه يؤثر على الإنسان حتى يتصرف تصرف المجانين.

ولهذا قال بعض العلماء: إن الإنسان إذا غضب غضبًا شديدًا حتى لا يدري ما يقول؛ فإنه لا عبرة بقوله، ولا أثر لقوله؛ إن كان طلاقًا فإن امرأته لا تطلق، وإن كان دعاءً فإنه لا يستجاب؛ لأنه يتكلم بدون عقل وبدون تصور. نسأل الله لنا ولكم العافية والسلامة.

٩/ ٦٤٠ - وَعَنْ أَبِي يَعلَى شدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَة وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُم شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبيحَتَهُ» رواه مسلم[1].

الشرح

قال المؤلف النووي - رحمه الله تعالى - في كتابه رياض الصالحين في باب الْحِلْم والرفق والأناة في سياق الأحاديث الواردة في ذلك، نقل عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة».

كتبه على كل شيء: يعني في كل شيء كتب الإحسان في كل شيء، يعني أن الله عزَّ وجلَّ شرع الإحسان في كل شيء، حتى في القتل، وحتى في الذبح، وفي غير ذلك من الأمور. عليك أن تكون محسنًا لما تقوم به.

«فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة». وذلك لأن إزهاق النفوس يكون بالقتل أحيانًا، وبالذبح أحيانًا.

فالذبح والنحر يكون فيما يحل أي: فيما يؤكل، ويكون النحر للإبل، والذبح فيما سواها، والنحر يكون في أسفل الرقبة مما يلي الصدر، والذبح يكون في أعلى الرقبة مما يلي الرأس، ولابد في الذبح والنحر من قطع الودجين، وهما العرقان الغليظان اللذان يجري منهما الدم ويتوزع

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، رقم(١٩٥٥).

على بقية البدن؛ لأن النبي ﷺ قال: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا»[(١)].

ولا ينهر الدمَ إلا قطعُ الودجين، فالشرط في حل المذكى أو المنحور أن يقطع الودجان، أما الحلقوم الذي هو مجرى النفس، والمريء الذي هو مجرى الطعام، فقطعهما أكمل في الذبح والنحر، ولكن ليس ذلك بشرط.

وأما القتل فيكون فيما لا يحل أكله، فيما أمر بقتله، وفيما أبيح قتله، ومما أمر بقتله الفأر وكذلك العقرب، وكذلك الحية، وكذلك الكلب العقور، فتقتل هذه الأشياء، وكذلك كل مؤذٍ فإنه يقتل.

وعند العلماء قاعدة تقول: ما آذى طبعًا قتل شرعًا، يعني ما كان طبيعته الأذى فإنه يقتل شرعًا، وما لم يؤذ طبعًا ولكن صار منه أذية فلك قتله، لكن هذا الأخير مقيد، فلو آذاك النمل في البيت، وصار يحفر البيت ويفسده فلك قتله وإن كان منهيًّا عنه في الأصل، لكن إذا آذاك فلك قتله، وكذلك غيره مما لا يؤذي طبعًا ولكن تعرض منه الأذية فاقتله إذا لم يندفع إلا بالقتل.

فمثلاً إذا أردت أن تقتل فأرة وقتلها مستحب فأحسن القتلة، اقتلها بما يزهق روحها حالاً، ولا تؤذها، ومن أذيتها ما يفعله بعض الناس حيث

---

(١) رواه البخاري، كتاب الذبائح، باب التسمية على الذبيحة...، رقم(٥٤٩٨)، ومسلم، كتاب الأضاحي، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم، رقم(١٩٦٨).

يضع لها شيئًا شيئًا لاصقًا تلتصق به، ثم يدعها تموت جوعًا وعطشًا، وهذا لا يجوز، فإذا وضعت هذا اللاصق؛ فلابد أن تكرر مراجعته ومراقبته، حتى إذا وجدت شيئًا لاصقًا قتلته.

أما أن تترك هذا اللاصق يومين أو ثلاثة وتقع فيه الفأرة وتموت عطشًا أو جوعًا، فإنه يخشى عليك أن تدخل النار بذلك؛ لأن النبي ﷺ قال: «دخلت النارَ امرأةٌ في هرة حبستها حتى ماتت لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض»(١).

المهم أن ما يشرع قتله فاقتله بأقرب ما يكون من إهلاكه وإتلافه، ومن ذلك الوزغ الذي يسمى السام الأبرص، ويسمى البرصي أيضًا، اقتله واحرص على أن تقتله بأن يموت في أول مرة، فهو أفضل وأعظم أجرًا وأيسر له، وكذلك بقية الأشياء التي تقتل.

ومن ذلك من يقتل قصاصًا، لكن الذي يقتل قصاصًا فإنه يفعل به كما فعل في المقتول، ودليل ذلك أن النبي ﷺ رفع إليه قضية امرأة أتاها يهودي، وكان معها حلي، فقتلها وأخذ الحلي، لكن كيف قتلها، وضع رأسها على حجر وقتلها بالحجر الثاني، فرضَّ رأسها بين حجرين.

فأُتي إليها وفيها رمق من حياة، فقيل لها من قتلك فلان، فلان، فلان، حتى ذكروا اليهودي فأشارت برأسها أن نعم، فأخذوا اليهودي

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٨٢)، ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٣).

فاعترف، فأمر النبي ﷺ أن يرضَّ رأسه بين حجرين، فوُضع رأسه على حجر ثم ضرب بالحجر الثاني حتى مات؛ لأن هذا قصاص، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

لكن لو وجب قتله بالحرابة، يعني أنه صار يقطع الطريق على الناس؛ يأخذ الأموال، ويقتل الناس، فهذا يقتل، لكن يقتل بالسيف، إلا إذا كان قد مثَّل بمن قتله فيمثَّل به حسب ما فعل، يفعل به كما فعل.

فإن قال قائل: ما تقولون في الرجل إذا زنا وهو محصن فإنه يرجم بالحصى، أي بالحجر الصغير حتى يموت، وهذا يؤلمه ويؤذيه قبل أن يموت، فهل يعارض ذلك هذا الحديث؟

فالجواب لا. لا يعارضه؛ لأنه يحمل على أحد أمرين:

الأول: إما أن يراد بإحسان القتلة ما وافق الشرع، وحينئذٍ يكون الرجم من إحسان القتلة؛ لأنه موافق للشرع.

والثاني: إما أن يُقال هذا مستثنى دلت عليه السنة؛ بل دل عليه القرآن الذي نسخ لفظه وبقي حكمه، ودل عليه صريح السنة.

فالزاني المحصن الذي تزوج وجامع زوجته، إذا زنا والعياذ بالله فإنه يؤتى به، وتؤخذ حجارة صغيرة أقل من البيضة ومثل التمرة تقريبًا أو أكبر قليلاً يضرب ويرجم حتى يموت، ويتقى المَقاتل يعني لا يضرب في موضع يموت به سريعًا؛ بل يضرب على ظهره وبطنه وما أشبه ذلك حتى يموت؛ لأن هذا هو الواجب.

والحكمة من هذا أن البدن الذي تلذذ بالشهوة المحرمة، عمَّت

الشهوة جميع بدنه، فمن الحكمة أن تعم العقوبة جميع بدنه، وهذا من حكمة الله عزَّ وجلَّ.

ثم قال النبي ﷺ: «**وليحد أحدكم شفرته**»، اللام هنا للأمر، **ويحد**: يعني يجعلها حديدة سريعة القطع، **والشفرة**: السكين.

يعني إذا أردت أن تذبح فاذبح بسكين مشحوذة أي مسنونة، بحيث يكون ذلك أقرب إلى القطع بدون ألم.

«**وليرح ذبيحته**» هذا أمر زائد على شحذ الشفرة، وذلك بأن يقطع بقوة، يضع السكين على الرقبة ثم يجرها بقوة، حتى يكون ذلك أسرع من كونه يجرها مرتين أو ثلاث، وبعض الناس يوفقه الله من مرة واحدة حتى يقطع الودجين والحلقوم والمريء؛ لأنه يأخذ السكين بقوة، وتكون السكين جيدة مشحوذة، فيسهل على الذبيحة أو المنحورة الموت.

ومن إراحة الذبيحة أن تضع رجلك على رقبتها، وتمسك الرأس باليد اليسرى وتذبح باليمنى، وحينئذٍ تكون مضجعة على الجنب الأيسر، ودع القوائم اليدين والرجلين وخلِّها تتحرك بسهولة؛ لأنك إذا أمسكت بها فإن هذا ضغط عليها، وإذا تركتها تتحرك بيديها ورجليها كان هذا أيسر لها، وفيه أيضًا فائدة وهي تفريغ الدم بهذه الحركة؛ لأنه مع الحركة والاضطراب يتفرغ الدم أكثر، وكلما تفرغ فهو أحسن.

وأما ما يفعله بعض العامة من أنه يأخذ بيدها اليسرى ويلويها على عنقها، ثم يبرك على قوائمها الثلاث رجل ويمسك بها حتى لا تتحرك أبدًا؛ فهذا خلاف السنة، السنة أنك تضع الرجل على الرقبة ثم تدع القوائم

تتحرك؛ لأن ذلك أيسر لها وأشد فراغًا أو تفريغًا للدم.

فالشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» فإن هذا من الرفق.

ولنتنبه إذا قتل الإنسان بحدٍّ، يعني قتل وهو زانٍ أو قتل قصاصًا، فإنه يصلى عليه، ويدعى له بالرحمة والعفو مثل سائر المسلمين، لعل الله أن يعفو عنه ويرحمه.

أما من قُتل كافرًا مرتدًّا فإنه لا يدعى له بالرحمة، ولا يغسل. مثل أن يقتل إنسان لا يصلي، فإنه يقتل مرتدًّا كافرًا، هذا لا يغسل ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن مع المسلمين، ولا يدعى له بالرحمة، ومن دعا له بالرحمة فإنه آثم متبع غير سبيل المؤمنين؛ لقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

* * *

٧٥- باب العفو والإعراض عن الجاهلين

قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

والآيات في الباب كثيرة معلومة.

١/٦٤٣ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَومِكِ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَاليلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ، فَلَمْ يَجبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بقَرنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأسِي، فَإِذَا أنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ الله تَعَالَى قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قومِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقد بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَاني مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَومِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبِّي

إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ: إِنْ شِئْتَ أَطْبَقْتُ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» متفقٌ عليه(١).

«الأَخْشَبَان»: الجَبَلان المُحِيطَان بمكَّة. والأَخْشَبُ: هو الجبل الغليظ.

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله تعالى في كتابه رياض الصالحين: باب العفو والإعراض عن الجاهلين. ثم ساق آياتٍ تكلمنا عليها سابقًا في أبواب سبقت.

ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ: هل مر عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ لأن يوم أحد كان شديدًا على رسول الله ﷺ.

ويوم أحد كان غزوة غزاها النبي ﷺ حين تجمعت قريش لغزوه، لينتقموا من النبي ﷺ فيما حصل من قتل زعمائهم في بدر؛ لأنه قتل في بدر ـ وهي في السنة الثانية من الهجرة ـ من زعمائهم أناس لهم شرفٌ وجاه في قريش.

وفي شوال من السنة التي تليها، وهي الثالثة من الهجرة، اجتمعت قريش فجاءوا إلى المدينة ليغزوا النبي ﷺ، ولما سمع بهم النبي ﷺ،

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم(٣٢٣١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ، رقم(١٧٩٥).

استشار أصحابه هل يخرج إليهم، أو يبقى بالمدينة؛ فإذا دخلوا المدينة قاتلهم؟ فأشار عليه الشبان والذين لم يحضروا بدرًا أشاروا عليه أن يخرج إليهم، فخرج إليهم ﷺ في نحو ألف مقاتل.

إلا أنه انخذل نحو ثلث الجيش؛ لأنهم كانوا منافقين والعياذ بالله، وقالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناك، فبقي النبي ﷺ في نحو سبعمائة نفر، ورتبهم الرسول ﷺ أحسن ترتيب في سفح جبل أحد، وحصل القتال، وانهزم المشركون في أول النهار، وبدأ المسلمون يجمعون الغنائم.

وكان النبي ﷺ قد جعل على ثغر الجبل خمسين رجلاً راميًا يحمون ظهور المسلمين، ولما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين هزموا المشركين وصاروا يجمعون الغنائم، قالوا لننزل من هذا الجبل حتى نساعد المسلمين على جمع الغنائم، ظنوا هكذا، فذكرهم أميرهم عبد الله بن جبير ذكرهم ما قال النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ لما وضعهم في هذا المكان قال لا تبرحوا مكانكم، ولا تتعدوه سواء لنا أو علينا، لكنهم ـ عفا الله عنهم ـ تعجَّلوا ونزل أكثرهم.

فلما رأى فرسان قريش أن المكان ـ مكان الرماة ـ خاليًا كروا على المسلمين من الخلف، ومنهم خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل اللذان أسلما فيما بعد وصارا فارسين من فوارس المسلمين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فدخلوا على المسملين من خلفهم واختلطوا بهم، واستشهد من المسلمين سبعون رجلاً، على رأسهم أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد

المطلب عم النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يحبه ويجله.

وحدث للنبي ﷺ ما حدث؛ ضربوا وجهه وشجوه وصار الدم ينزف على وجهه، وفاطمة رضي الله عنها تغسله، تغسل الدم حتى إذا لم يتوقف أحرقت حصيرًا يعني خصافًا من سعف النخل، ودرته عليه حتى وقت، وكسروا رباعيته ﷺ، وحصل من البلاء ما حصل.

حصل بلاء عظيمٌ قال الله تعالى فيه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٥، ١٦٦].

فمادام الأمر بإذنه فهو خير، وحدث في هذا ما حدث من الشدة على النبي ﷺ وعلى أصحابه، وحملوا الشهداء إلى المدينة، ولكن النبي ﷺ أمر أن يردوا إلى مصارعهم إلى المكان الذي استشهدوا فيه ودفنوا هناك؛ ليخرجوا يوم القيامة من هذا المكان الذي استشهدوا فيه رضي الله عنهم وأرضاهم.

فقال النبي ﷺ لعائشة لما سألته: هل مر عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: نعم، وذكر لها قصة ذهابه إلى الطائف؛ لأن النبي ﷺ لما دعا قريشًا في مكة، ولم يستجيبوا له خرج إلى الطائف؛ ليبلِّغ كلام الله عزَّ وجلَّ، ودعا أهل الطائف لكن كانوا أسفه من أهل مكة، حيث اجتمعوا هم وسفهاؤهم، وصاروا صفين متقابلين في طريق النبي ﷺ، وجعلوا يرمونه بالحجارة، يرمونه بالحصى حتى أدموا عقبه ﷺ وخرج مغمومًا مهمومًا.

ولم يفق ﷺ إلا وهو في قرن الثعالب، فأظلَّته غمامة فرفع رأسه، فإذا في هذه الغمامة جبريل عليه السلام، وقال له: هذا ملك الجبال يقرؤك السلام، فسلّم عليه وقال: إن ربي أرسلني إليك، فإن شئت أن أطبق عليهم ـ يعني الجبلين ـ فعلت.

ولكن النبي ﷺ لحلمه وبُعْد نظره وتأنيه في الأمر قال: لا؛ لأنه لو أطبق عليهم الجبلين هلكوا، فقال: «لا، وإني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا».

وهذا الذي حدث؛ فأن الله تعالى قد أخرج من أصلاب هؤلاء المشركين الذين آذوا الرسول ﷺ هذه الأذية العظيمة، أخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا.

فهذا يبين أن الرسول ﷺ حدث له أشد مما حدث له في أحد، وحدث له أنواع من الأذى لكنه صابر.

ومن أعظم ما كان أنه كان ذات يوم ساجدًا تحت الكعبة، يصلي لله ـ والمسجد الحرام لو يجد الإنسان قاتل أبيه فيه ما قتله ـ، وكان ساجدًا، فقال بعض السفهاء من قريش والمعتدين منهم: اذهبوا إلى جزور آل فلان فأتوا بسلاها فضعوه على محمد وهو ساجد، فذهبوا وأتوا بسلا الجذور ـ الناقة ـ، والرسول ﷺ ساجدٌ تحت الكعبة، فوضعوه على ظهره، إهانة له وإغاظة له.

فبقي الرسول ﷺ ساجدًا حتى جاءت بنته فاطمة رضي الله عنها وألقت السلا عن ظهره، فقام من السجود، ولما سلَّم رفع يديه يدعو الله تعالى

على هؤلاء الملأ من قريش.

فالشاهد أن الرسول ﷺ كان يؤذى أشد الأذى، ومع ذلك يعفو ويصفح ويتأنى ويترجى، فبلَّغه الله ـ ولله الحمد ـ مراده وحصل له النصر المبين المؤزر.

وهكذا ينبغي للإنسان أن يصبر على الأذى، لا سيما إذا أوذي في الله، فإنه يصبر ويحتسب وينتظر الفرج، وقد قال النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»[١]، والله أعلم.

* * *

٢/٦٤٤ ـ عَنْ عائشةَ رضي اللهُ عَنْهَا قالت: ما ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خادِمًا، إلاَّ أن يُجَاهِدَ فِي سَبِيل اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَينتَقِم مِنْ صَاحِبِهِ، إلاَّ أنْ يُنتَهَكَ شَيءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ تَعَالَى، فَيَنْتَقِم للهِ تَعَالَى. رواه مسلم[٢].

٣/٦٤٥ ـ وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وعليهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، فَنَظَرتُ إِلَى صَفْحَة عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبذَتِهِ، ثُمَّ قال: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَالتَفَتَ إِلَيهِ، فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. متفقٌ عليه[٣].

---

(١) مسند أحمد (١/٣٠٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام، رقم(٢٣٢٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب البرود والحبرة والشملة، رقم(٥٨٠٩)، ومسلم،

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمه الله في باب العفو والإعراض عن الجاهلين، منها حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ ما ضرب أحدًا؛ لا خادمًا ولا غيره بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله، وهذا من كرمه ﷺ؛ أنه لا يضرب أحدًا على شيءٍ من حقوقه هو الخاصة به؛ لأن له أن يعفو عن حقه، وله أن يأخذ بحقه.

ولكن إذا انتهكت محارم الله؛ فإنه ﷺ لا يرضى بذلك، ويكون أشد ما يكون أخذًا بها؛ لأنه ﷺ لا يقرّ أحدًا على ما يغضب الله سبحانه وتعالى، وهكذا ينبغي للإنسان أن يحرص على أخذ العفو، وما عفى من أحوال الناس وأخلاقهم ويعرض عنهم، إلا إذا انتهكت محارم الله، فإنه لا يقر أحدًا على ذلك.

ومن الأحاديث التي ساقها قصة هذا الأعرابي، الذي لحق النبي ﷺ وعليه جبة نجرانية غليظة الحاشية، فجبذه، يعني: جذبه جذبًا شديدًا، حتى أثرت حاشية الجبة في عنق الرسول ﷺ من شدة الجذب، فالتفت فإذا هو أعرابي يطلب منه عطاءً، فضحك النبي ﷺ وأمر له بعطاء.

فانظر إلى هذا الخلق الرفيع؛ لم يوبِّخه النبي ﷺ، ولم يضربه، ولم يكهر في وجهه، ولم يعبس؛ بل ضحك ﷺ ومع هذا أمر له بعطاء، ونحن لو أن أحدًا فعل بنا هذا الفعل ما أقررناه عليه؛ بل لقاتلناه، وأما الرسول

= كتاب الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة، رقم(١٠٥٧).

ﷺ الذي قال الله فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم: ٤]، فإنه التفت إليه، وضحك إليه، وأعطاه العطاء.

وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون ذا سعة، وإذا اشتد الناس أن يسترخي هو.

وسئل معاوية رضي الله عنه بم سُسْت الناس؟؛ وذلك لأن معاوية معروف بالسياسة والحكمة، فقال: أجعل بيني وبين الناس شعرة؛ إن جذبوها تبعتهم، وإن جذبتها تبعوني لكن لا تنقطع.

ومعنى كلامه أنه سهل الانقياد؛ لأن الشعرة إذا جعلتها بينك وبين صاحبك إذا جذبها أدنى جذب انقطعت، لكن من حسن سياسته رضي الله عنه أنه كان يسوس الناس بهذه السياسة؛ إذا رآهم مقبلين استقبلهم، و إذا رأهم مدبرين تبعهم حتى يتمكن منهم.

فهكذا ينبغي للإنسان أن يكون دائمًا في سياسته رفيقًا حليمًا، كما كان النبي ﷺ هكذا، نسأل الله تعالى أن يرزقنا وإياكم حسن الآداب والأخلاق.

* * *

٤/٦٤٦ ـ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِمْ، ضَرَبَهُ قَومُهُ فَأَدْمَوهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ» متفقٌ عليه[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم(٣٤٧٧)، ومسلم، =

٥/٦٤٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَملِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ» متفقٌ عليه[1].

الشرح

ومن الأحاديث التي نقلها النووي رحمه الله في رياض الصالحين، في باب العفو والإعراض عن الجاهلين هذا الحديث، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء؛ ضربه قومه حتى أدموا وجهه، فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وهذا من حلم الأنبياء وصبرهم على أذى قومهم، وكم نال الأنبياء من أذى قومهم؟! قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

فهذا النبي ﷺ ضربه قومه حتى أدموا وجهه يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» وكأن هؤلاء القوم كانوا مسلمين، لكن حصل منهم مغاضبة مع نبيهم ففعلوا هذا معه، فدعا لهم بالمغفرة، إذ لو كانوا غير مسلمين لكان يدعو لهم بالهداية، فيقول اللهم اهد قومي، لكن هذا الظاهر أنهم كانوا مسلمين.

والحق حقه؛ فله أن يسامح وأن يتنازل عنه، ولهذا كان القول الراجح

= كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، رقم(١٧٩٢).

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم(٦١١٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب. . .، رقم(٢٦٠٩).

فيمن سبَّ النبي ﷺ ثم تاب أن توبته تقبل، ولكنه يقتل، وأما من سب الله ثم تاب فإن توبته تقبل ولا يقتل، وليس هذا يعني أن سب الرسول ﷺ أعظم من سبِّ الله، بل سبَّ الله أعظم، لكن الله قد أخبرنا أنه يعفو عن حقه لمن تاب منه، فهذا الرجل تاب فعلمنا أن الله تعالى قد عفا عنه.

أما الرسول ﷺ فهو قد مات، فإذا سبَّه أحد فقد امتهن حقه، فإذا تاب فإن الله يتوب عليه ويغفر له كفره الذي كفره بسبب سبِّه، ولكن حق الرسول باق فيقتل.

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة» يعني ليس القوي الصرعة الذي يصرع الناس إذا صارعهم، والمصارعة معروفة وهي من الرياضة النبوية المباحة، فإن الرسول ﷺ صارع ركانة بن يزيد، وكان هذا الرجل لا يصرعه أحد، فصارعه النبي ﷺ فصرعه النبي ﷺ.

فهذا الصرعة هو الذي إذا صارع الناس صرعهم، وليس هذا هو الشديد حقيقة، لكن الشديد الذي يصرع غضبه، إذا غضب غلب غضبه، ولهذا قال: «وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» هذا هو الشديد.

وذلك لأن الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم فيفور دمه، فإن كان قويًّا ملك نفسه، وإن كان ضعيفًا غلبه الغضب، وحينئذٍ ربما يتكلم بكلام يندم عليه، أو يفعل فعلاً يندم عليه.

ولهذا قال رجلٌ للرسول ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب» قال: أوصني، قال: «لا تغضب»، قال: أوصني، قال: «لا تغضب»، ردد مرارًا

وهو يقول: «**لا تغضب**»[1]؛ لأن الغضب ينتج عنه أحيانًا مفاسد عظيمة؛ ربما سبَّ الإنسان نفسه، أو سب دينه، أو سب ربه، أو طلَّق زوجته، أو كسر إناءه، أو أحرق ثيابه، وكثيرٌ من الوقائع تصدر من بعض الناس إذا غضبوا، كأنما صدرت من المجنون.

ولهذا كان القول الراجح أن الإنسان إذا غضب حتى لا يملك نفسه، ثم طلَّق زوجته، فإنها لا تطلق؛ لأن هذا حصل عن غلبته ليس عن اختيار، والطلاق عن الغلبة لا يقع كطلاق المكره، والله الموفق.

* * *

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم(٦١١٦).

٧٦ - بابُ احتمال الأذى

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وفي الباب: الأحاديث السابقة في الباب قبله.

١/٦٤٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسيئُونَ إلَيَّ، وأَحْلُمُ عَنْهُم وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ! فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ، وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِن اللهِ تَعَالَى ظَهيرٌ عَلَيهِم مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ» رواه مسلم. وقد سَبَقَ شَرْحه في «بَابِ صلة الأرحام»[(١)].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى: باب الصبر على الأذى، الأذى: هو ما يتأذى به الإنسان من قول أو عمل أو غير ذلك، والأذى إما أن يكون في أمر ديني أو أمر دنيوي، فإذا كان في أمرٍ ديني، بمعنى أن الرجل يؤذى من أجل دينه، كان في هذا الصبر على الأذى أسوة بالرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب العبد راع في مال سيده، رقم(٢٥٥٨).

﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، أوذوا حتى أتاهم نصر الله عزَّ وجلَّ.

والإنسان إذا كان معه دين، وكان معه أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر فلابد أن يؤذى، ولكن عليه بالصبر، وإذا صبر؛ فالعاقبة للمتقين، وقد يُبتلى المرء على قدر دينه، فيسلط الله عليه من يؤذيه امتحانًا واختبارًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، يعني إذا أوذي في الله من جهة دينه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ودعوته للخير، جعل هذه الفتنة كالعذاب، فنكص على عقبيه والعياذ بالله.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الحج: ١١].

يعني أن بعض الناس يعبد الله على طرف، وليس عنده عبادة متمكنة، فإن أصابه خير ولم يأته فتنة ولا أذية استمر، مشى واطمأن، وإن أصابته فتنة من شبهة أو أذية أو ما أشبه ذلك؛ انقلب على وجهه - والعياذ بالله - خسر الدنيا والآخرة.

فالواجب الصبر على الأذى في ذات الله عزَّ وجلَّ.

وأما الأذى فيما يتعلق بأمور الدنيا ومعاملة الناس؛ فأنت بالخيار إن شئت فاصبر، وإن شئت فخذ بحقك، والصبر أفضل، إلا إذا كان في الصبر عدوان واستمرار في العدوان، فالأخذ بحقك أولى.

ولنفرض أن لك جارًا يؤذيك؛ بأصوات مزعجة، أو دق الجدار، أو إيقاف السيارة أمام بيتك، أو ما أشبه ذلك، فالحق إذًا لك، وهو لم يؤذك في ذات الله، فإن شئت فاصبر وتحمل وانتظر الفرج، والله سبحانه وتعالى يجعل لك نصيرًا عليه، وإن شئت فخذ بحقك؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، ولكن الصبر أفضل ما لم يحصل بذلك زيادة عدوان من المعتدي، فحينئذٍ الأفضل أن يأخذ بحقه ليردعه عن ظلمه.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله آيتين سبق الكلام عليهما؛ قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه في رجلٍ قال للنبي ﷺ: إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عليهم ويجهلون عليَّ، يعني: فماذا أصنع؟ فقال النبي ﷺ: «**لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل، ولا يزال لك من الله تعالى ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك**» يعني ناصر، فينصرك الله عليهم ولو في المستقبل.

لأن هؤلاء القرابة والعياذ بالله يصلهم قريبهم لكن يقطعونه، ويحسن إليهم فيسيئون إليه، ويحلم عليهم ويعفو ويصفح ولكن يجهلون عليه ويزدادون، فهؤلاء قال النبي ﷺ: «**فكأنما تسفهم المل**»، المل: الرماد الحار، وتسفهم: يعني تلقمهم إياه في أفواهم، وهو كناية عن أن هذا الرجل منتصر عليهم.

وليس الواصل لرحمه من يكافئ من وصله، ولكن الواصل حقيقة هو الذي إذا قطعت رحمه وصلها، هذا هو الواصل حقًّا، فعلى الإنسان أن يصبر ويحتسب على أذية أقاربه وجيرانه وأصحابه وغيرهم، فلا يزال له من الله ظهيرٌ عليهم، وهو الرابح، وهم الخاسرون، وفقنا الله وإياكم لما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة.

* * *

٧٧ـ باب الغضب إذا انتهكت حرمات الشّرع والانتصار لدين الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وفي الباب أحاديث منها.

١/٦٤٩ ـ وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي لأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ مِنْ أَجْلِ فُلاَنٍ مِمَّا يُطيلُ بِنَا! فَمَا رَأيتُ النَّبِيَّ ﷺ غَضِبَ فِي مَوْعِظَةٍ قَطُّ أشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يَومئذٍ؛ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ مِنْكم مُنَفِّرِينَ، فأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فإنَّ مِنْ ورائِه الكَبِيرَ والصَّغِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ» متفقٌ عليه[1].

الشرح

قال الحافظ النووي رحمه الله تعالى في كتابه رياض الصالحين، باب الغضب إذا انتهكت حرمات الشرع، والانتصار لدين الله.

والغضب له عدة أسباب؛ منها أن ينتصر الإنسان لنفسه؛ يفعل أحدٌ معه ما يغضبه فيغضب لينتصر لنفسه، وهذا الغضب منهيٌّ عنه؛ لأن رجلاً سأل النبي ﷺ قال له: أوصني، قال: «**لا تغضب**» فردد مرارًا يقول:

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طوّل، رقم(٧٠٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة...، رقم(٤٦٦).

أوصني، وهو يقول: «لا تغضب»[١].

والثاني من أسباب الغضب: الغضب لله عزَّ وجلَّ، بأن يرى الإنسان شخصًا ينتهك حرمات الله فيغضب غيرة لدين الله، وحمية لدين الله، فإن هذا محمود ويُثاب الإنسان عليه؛ لأن الرسول ﷺ كان هذا من سنته، ولأنه داخل في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، فتعظيم شعائر الله وتعظيم حرمات الله أن يجدها الإنسان عظيمة، وأن يجد امتهانها عظيمًا فيغضب ويثأر لذلك، حتى يفعل ما أُمِر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

ثم ذكر المؤلف آية ثانية، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، والمراد بنصر الله نصر دينه، فإن الله سبحانه وتعالى بنفسه لا يحتاج إلى نصر، هو غني عمن سواه، لكن النصر هنا نصر دين الله، بحماية الدين، والذب عنه، والغيظ عند انتهاكه، وغير ذلك من أسباب نصر الشريعة.

ومن هذا الجهاد في سبيل الله القتال؛ لتكون كلمة الله هي العليا، هذا من نصر الله، وقد وعد الله سبحانه وتعالى من ينصره بهذين الأمرين: ﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ينصركم على من عاداكم، ويثبت أقدا مكم على دينه حتى لا تزلّوا، فتأمل الآن إذا نصرنا الله مرة؛ أثابنا مرتين؛ ﴿يَنصُرْكُمْ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم(٦١١٦).

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾.

ثم قال بعدها: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٨]، يعني أن الكافرين أمام المؤمنين الذين ينصرون الله لهم التعس، وهو الخسران والذل والهوان، وأضل أعمالهم يعني يكون تدبيرهم تدميرًا عليهم، وتكون أعمالهم ضالة لا تنفعه ولا ينتفعون بها.

ثم ذكر حديث عقبة بن عمرو البدري رضي الله عنه، أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح ـ الفجر ـ من أجل فلان مما يطيل بنا، وكان هذا الإمام يطيل بهم إطالة أكثر من السنة، فغضب النبي ﷺ، يقول: فما رأيته غضب في موعظةٍ قط أشد مما غضب يومئذٍ.

وقال: «يا أيها الناس إن منكم منفرين فأيكم أم الناس فليتجوز» منفرين: يعني ينفرون الناس عن دين الله، وهذا الرجل لم يقل للناس لا تصلوا صلاة الفجر، لكنه نفَّرهم بفعله؛ بالتطويل الذي هو خارجٌ عن السنة، فنفر الناس، وفي هذا إشارة إلى أن كلَّ شيء ينفر الناس عن دينهم ـ ولو لم يتكلم الإنسان بالتنفير؛ فإنه يدخل في التنفير عن دين الله.

ولهذا كان الرسول ﷺ يداري في الأمور الشرعية، فيترك ما هو حسن لدرء ما هو أشد منه فتنة وضررًا، فإنه ﷺ همَّ أن يبني الكعبة على قواعد إبراهيم، ولكن خاف من الفتنة فترك ذلك، وكان يصوم في السفر فإذا رأى أصحابه صائمين ـ وقد شق عليهم الصوم ـ أفطر ليسهل عليهم.

فكون الإنسان يحرص على أن يقبل الناس دين الله بطمأنينة ورضى وإقبال بدون محذور شرعي؛ فإن هذا هو الذي كان من هدي الرسول ﷺ.

والشاهد من هذا الحديث غضب النبي ﷺ من هذا الفعل الذي فعله هذا الإمام، وفيه أيضًا إشارة إلى أن النبي ﷺ كان يغضب عند الموعظة لانتهاك حرمات الله، وقد قال جابر رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا خطب يوم الجمعة؛ احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم(١).

ثم قال ﷺ: «فأيكم أم الناس فليتجوَّز» يعني فليخفف الصلاة، على حسب ما جاءت به السنة.

«فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة» أي في المأمومين ضعيف البينة، وضعيف القوة، وفيهم مريض، وفيهم ذو حاجة؛ قد وعد أحدًا يذهب إليه، أو ينتظر أحدًا، أو ما أشبه ذلك، فلا يجوز للإمام أن يثقل بالناس أكثر مما جاءت به السنة.

وأما صلاته بالناس بحسب ما جاءت به السنة فليفعل، غضب من غضب، ورضي من رضي، والذي لا ترضيه السنة فلا أرضاه الله، السنة تتبع ولكن ما زاد عليها فلا.

والأئمة في هذه الحال، أو في هذه المسألة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم مُفرِّط، يسرع سرعةً تمنع المأمومين فعل ما يسن، وهذا مخطئ، وآثم، ولم يؤد الأمانة التي عليه.

وقسم مُفْرِط أي زائد، يثقل بالناس وكأنه يصلي لنفسه، فتجده يثقل

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم(٨٦٧).

القراءة، والركوع، والسجود، والقيام بعد الركوع، والجلوس بين السجدتين، وهذا أيضًا مخطئ، ظالمٌ لنفسه.

والثالث: يصلي بهم كصلاة النبي ﷺ، فهذا خير الأقسام، وهو الذي قام بالأمانة على الوجه الأكمل، والله الموفق.

* * *

٢/ ٦٥٠ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، وقد سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقرامٍ فيهِ تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ هتكَهُ وَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ وَقالَ: «يَا عَائِشَةُ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ يَومَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ» متفقٌ عليه(١).

«السَّهْوَةُ»: كالصُّفَّة تَكُونُ بين يدي البيت. و«القِرام» بكسر القاف: سِتر رقيق، و«هتكه»: أفسد الصورة التي فيه.

٣/ ٦٥١ - وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ قريشًا أَهَمَّهُم شَأنُ المَرأةِ المَخزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَت فقالوا: من يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فقالوا: مَن يَجْتَرِىء عَلَيْهِ إلاَّ أسَامَةُ بنُ زُيْدٍ حبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَكَلَّمَهُ أسَامَةُ؛ فقال رسول الله ﷺ: أتَشفَعُ فِي حَدٍّ من حُدُودِ اللهِ تَعَالَى؟!» ثم قامَ فَاختَطَبَ ثم قال: «إنما أهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبلَكُمْ أنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِم الضَّعِيفُ أقامُوا عَلَيهِ الحَدَّ! وايْمُ اللهِ، لَوْ أنَّ فَاطِمَةَ بنتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا» متفقٌ عليه(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير، رقم(٥٩٥٤)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان...، رقم(٢١٠٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، =

الشرح

نقل المؤلف النووي ـ رحمه الله ـ في كتابه رياض الصالحين في باب الغضب إذا انتهك شرع الله ـ وسبق لنا الكلام على الآيات التي صدر بها المؤلف هذا الباب، وأما الأحاديث فمنها حديث عائشة رضي الله عنها؛ والأول أن النبي ﷺ قدم من سفر فوجدها قد سترت سهوةً لها بقرامٍ فيه تماثيل، يعني فيه صورة، فهتكه النبي ﷺ، وأخبر «أن أشد الناس عذاباً الذين يضاهون بخلق الله» يعني المصورين، فهم أشد الناس عذابًا، لأنهم أرادوا أن يضاهوا الله سبحانه وتعالى في خلقه، وفي تصويره.

وكانوا فيما سبق يصورون باليد؛ لأنه ليس عندهم آلات وأجهزة تلتقط الصور بدون عمل يدوي، فكانوا يخططون بأيديهم، فيأتي الحاذق منهم ويصور صورة بيده على أنها كالذي صوره ويتقنها لتشابه صورة الله، ليُقال: ما أشد مهارة هذا الرجل، وما أعرفه، كيف استطاع أن يقلد خلق الله عزَّ و جلَّ؟

فهم يريدون بذلك أن يشاركوا الله سبحانه وتعالى في تصويره، وهو سبحانه وتعالى لا شريك له: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٦]، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٤].

فهتكه: يعني مزقه عليه الصلاة والسلام.

= رقم(٦٧٨٨)، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره...، رقم(١٦٨٨).

وفي هذا دليلٌ على مشروعية تمزيق الصور التي تصوّر باليد؛ لأنه يضاهى بها خلق الله عزَّ وجلَّ، وإقرار المنكر كفعل المنكر، وفيه الغضب إذا انتهكت حرمات الله عزَّ وجلَّ؛ لأن النبي ﷺ غضب وهتكه.

وأما الحديث الثاني عن عائشة رضي الله عنها في قصة المخزومية وهي امرأة من بني مخزوم كانت تستعير المتاع فتجحده، يعني تأتي للناس تقول: أعرني قِدْرًا، أعرني إناءً، أعرني كذا، أعرني كذا، فإذا أعاروها جحدت وقالت: لم آخذ منكم شيئًا، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها؛ لأن هذا نوع من السرقة.

وكانت هذه المرأة من بني مخزوم، من قبيلة من أشرف قبائل العرب ذات الأهمية والشأن، فأهمّ قريشًا شأنُها، وقالوا: كيف تُقطع يد مخزومية، ثم طلبوا شفيعًا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أسامة بن زيد حِبّ رسول الله ﷺ. حِبّه يعني محبوبه، يعني أنه يحبه.

وأسامة هو ابن زيد بن حارثة، وزيد بن حارثة كان عبدًا وهبته خديجة للنبي ﷺ فأعتقه، وأسامة ابنه، وكان النبي ﷺ يحبهما، وقالوا: ليس إلا أسامة بن زيد، فتقدم أسامة بن زيد رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ليشفع، فأنكر عليه وقال: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟».

ثم قام فاختطب، فخطب الناس وقال لهم عليه الصلاة والسلام: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله ـ يعني أقسم بالله ـ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

والشاهد من هذا أن الرسول عليه الصلاة والسلام غضب لشفاعة أسامة بن زيد في حدّ من حدود الله. فالغضب لله عزَّ وجلَّ محمود، وأما الغضب للانتقام وحظ النفس فإنه مذموم، وقد نهى عنه النبي ﷺ حين طلب أحد الصحابة أن يوصيه، فقال: «**لا تغضب**»، قال: أوصني، قال: «**لا تغضب**»، قال: أوصني، قال: «**لا تغضب**». فالفرق بين الغضبين ظاهر.

الغضب لله ولشرائع الله محمود، وهو من هدي الرسول ﷺ، ودليل على غيرة الإنسان وعلى محبته لإقامة شريعة الله، أما الغضب للنفس فينبغي للإنسان أن يكتمه وأن يحلم، وإذا أصابه الغضب فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا كان قائمًا فليجلس، وإن كان جالسًا فليضطجع، كل هذا مما يخفف عنه الغضب والله الموفق.

* * *

٤/٦٥٢ ـ وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي الْقِبلَةِ، فشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رُئِيَ في وَجْهِهِ، فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ فقال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ في صَلاَتِهِ فَإِنَّهُ يَنَاجِي رَبَّهُ، وإِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَلاَ يَبْزُقَنَّ أَحُدُكُمْ قِبَلَ الْقِبْلَةِ، ولكنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ» ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ فَبَصَقَ فيهِ، ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فقال: «أَوْ يَفْعَلُ هَكَذَا» متفقٌ عليه[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب حك البزاق باليد من المسجد، رقم(٤٠٥)، ومسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، رقم(٥٥١).

والأمرُ بالبُصَاقِ عَنْ يَسَارِهِ أو تَحَتَ قَدَمِهِ هُوَ فِيما إذا كانَ في غَيْرِ المَسجِدِ، فَأمَّا في المسجِدِ فَلاَ يَبْصُقُ إلاَّ في ثَوْبِهِ.

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره النووي رحمه الله في رياض الصالحين في باب الغضب إذا انتهك شرع الله عزَّ وجلَّ، أن الرسول ﷺ رأى نخامة في القبلة، أي: في قبلة المسجد، فغضب عليه الصلاة والسلام وحكَّها بيده وقال: «إن أحدكم يناجي ربه» يعني إذا كان يصلي فإنه يناجي الله يعني يخاطبه، والله عزَّ وجلَّ يرد عليه.

فقد ثبت في الصحيح أنَّ العبد إذا قال: الحمد لله رب العالمين، أجابه الله فقال: «حمدني عبدي»، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال: «أثنى علي عبدي». وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: «مجَّدني عبدي»، وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: «هذا بيني وبين عبدي نصفين»، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، قال: «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[١].

فأنت تناجي الله عزَّ وجلَّ بكلامه، وتدعوه سبحانه وتعالى، وتسبحه، وتمجِّده، وتعظمه. فهو سبحانه وتعالى أمامك بينك وبين القبلة، وإن كان الله سبحانه وتعالى في السماء فوق عرشه، فإنه أمامك؛ لأنه محيط بكل شيء و﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم(٣٩٥).

ثم إن النبي ﷺ لما ذكر منع التنخم أمام القبلة يعني في قبلة الإنسان ذكر الشيء المباح؛ لأن هذا هو الهدي، وهذه هي الحكمة، أنك إذا ذكرت للناس ما هو ممنوع أن تذكر لهم ما هو جائز، حتى لا تسد الأبواب عليهم. فأمر الإنسان أن يبصق عن يساره، أو تحت قدمه، أو في ثوبه ويحك بعضه ببعض؛ ثلاثة أمور: إما تحت قدمه يبصق ويطؤ عليها، وإما عن يساره، وهذا والذي قبله متعذر إذا كان الإنسان في المسجد؛ لأنه يلوثه، وقد قال النبي ﷺ: «البصاقُ في المسجد خطيئة»[(١)]، وإما في ثوبه، فيبصق في ثوبه ويحك بعضه ببعض.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أن النخامة ليست نجسة؛ لأن النبي ﷺ أمر أن يبصق المصلي تحت قدمه أو في ثوبه، ولو كانت نجسة ما أذن له أن يبصق في ثوبه، وفيه التعاليم بالفعل؛ لقول النبي ﷺ: «أو يقول هكذا، وبصق في ثوبه وحك بعضه ببعض».

وفيه **أيضًا**: إطلاق القول على الفعل في قوله: «**أن يقول هكذا**» وهو يريد الفعل.

وفيه أيضًا: أن الإنسان لا حرج عليه أن يبصق أمام الناس، ولا سيما إذا كان للتعليم.

وفيه أن من المروءة ألاَّ يُرى في ثوبك شيء يستقذره الناس ـ لأنه حكَّ بعضها ببعض ـ لئلا تبقى صورتها في ثوبك، فإذا رآها الناس تأذوا منه

---

(١) رواه النسائي، كتاب المساجد، باب البصاق في المسجد، رقم (٧٢٣).

وكرهوه. فالإنسان ينبغي أن يكون نظيفًا في مظهره وفي ثيابه وفي غير ثيابه، حتى لا يتقزَّز الناس مما يشاهدونه منه.

والشاهد من هذا أن الرسول ﷺ تأثر وعُرف في وجهه الكراهية لما رأى النخامة في قبلة المسجد، والله الموفق.

* * *

٧٨- باب أمر وُلاة الأمور بالرفق برعَاياهم ونصيحتهم والشفقة عليهم والنهي عن غشهم والتشديد عليهم وإهمال مصالحهم والغفلة عنهم وعن حوائجهم

قال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

١/٦٥٣ - وَعَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرأةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيتِ زَوْجِهَا وَمَسؤولَةٌ عَنْ رَعيَّتِها، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه» متفقٌ عليه[1].

٢/٦٥٤ - وَعَنْ أَبِي يَعْلَى مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرعِيه اللهُ رَعَيَّةً، يَمُوتُ يَومَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلاَّ حَرَّم اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ» متفقٌ عليه[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم(٨٩٣)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر. . .، رقم(١٨٢٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، رقم(٧١٥٠)، =

وفي رواية: «فَلَم يَحُطهَا بِنُصْحِهِ لَمْ يَجِد رَائحَةَ الجَنَّة»(١).

وفي روايةٍ لمسلم: «ما مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أُمُورَ المُسْلِمِينَ، ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ، وَيَنْصَحُ لَهُمْ، إلاَّ لَمْ يَدخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ»(٢).

الشرح

هذا الباب الذي عقده المؤلف النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين هو باب عظيم مهم يُخاطب به ولاة الأمور ويخاطب به الرعية، ولكل منهم على الآخر حق يجب مراعاته.

أما ولاة الأمور فيجب عليهم الرفق بالرعية، والإحسان إليهم، واتباع مصالحهم، وتولية من هو أهل للولاية، ودفع الشر عنهم؛ وغير ذلك من مصالحهم؛ لأنهم مسؤولون عنهم أمام الله عزَّ وجلَّ.

وأما الرعية فالواجب عليهم السمع والطاعة في غير المعصية، والنصح للولاة، وعدم التشويش عليهم، وعدم إثارة الناس عليهم، وطي مساوئهم، وبيان محاسنهم؛ لأن المساوئ يمكن أن ينصح فيها الولاة سرًّا بدون أن تُنشر على الناس؛ لأن نشر مساوئ ولاة الأمور أمام الناس لا يُستفاد منه؛ بل لا يزيد الأمر إلا شدة؛ فتحمل صدور الناس البغضاء والكراهية لولاة الأمور.

= ومسلم، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم(١٤٢).

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح رقم(٧١٥٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم(١٤٢) [٢٢٩].

وإذا كره الناس ولاة الأمور وأبغضوهم وتمردوا عليهم، ورأوا أمرهم بالخير أمرًا بالشر، ولم يسكتوا عن مساوئهم، وحصل بذلك إيغار الصدور والشر والفساد.

والأمة إذا تفرقت وتمزقت حصلت الفتنة بينها ووقعت، مثل ما حصل في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، حين بدأ الناس يتكلمون فيه، فأوغروا الصدور عليه، وحشدوا الناس ضده، وحصل ما حصل من الفتن والشرور إلى يومنا هذا.

فولاة الأمور لهم حق وعليهم حق.

ثم استدل المؤلف رحمه الله تعالى بآيات من كتاب الله فقال: وقول الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني لا تتعالى عليهم، ولا ترتفع في الجو؛ بل اخفض الجناح، حتى وإن كنت تستطيع أن تطير في الجو فاخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين.

وأما من خالفك وعصاك فأقم عليه العقوبة اللائقة به؛ لأن الله تعالى لم يقل اخفض جناحك لكل أحد، بل قال: لمن اتبعك من المؤمنين.

وأما المتمردون والعصاة فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤]، وقول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ

وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

إن الله يأمر بهذه الأمور الثلاثة:

بالعدل: وهو واجب، فيجب على الإنسان أن يقيم العدل في نفسه، وفي أهله، وفيمن استرعاه الله عليهم.

فالعدل في نفسه بألا يثقل عليها في غير ما أمر الله، وأن يراعيها حتى في أمر الخير، فلا يثقل على نفسه أو يحملها فوق ما تطيقه. ولهذا لما قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أصوم ولا أفطر، وأصلي ولا أنام، دعاه النبي عليه الصلاة والسلام ونهاه عن ذلك وقال: «إن لنفسك عليك حقًّا، ولربك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا؛ فأعط كل ذي حقٍّ حقه»(١).

وكذلك يأمر بالعدل كذلك في أهل الإنسان، فمن كان له زوجتان؛ وجب عليه العدل بينهما، «ومن كان له امرأتان فمال إلى إحداهما؛ جاء يوم القيامة وشقه مائل»(٢).

وعليك العدل بين الأولاد؛ فإذا أعطيت أحدهم ريالاً؛ فأعط الآخر مثله، وإذا أعطيت الولد ريالين، فأعط البنت ريالاً، وإذا أعطيت الابن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب حق الضيف، رقم(٦١٣٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر...، رقم(١١٥٩).

(٢) رواه الترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، رقم(١١٤١)، والنسائي، كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، رقم (٣٩٤٢)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، رقم(١٩٦٩).

ريالاً؛ فأعط البنت نصف ريالٍ.

حتى إن السلف ـ رحمهم الله ـ كانوا يعدلون بين الأولاد في القُبل؛ يعني إذا حَبَّ الولد الصغير وأخوه عنده، حَبَّ الولد الثاني؛ لئلا يجحف معهم في التقبيل.

وكذلك أيضًا في الكلام، يجب أن تعدل بينهم، فلا تتكلم مع أحدهم بكلام خشن ومع الآخر بكلام لين.

وكذلك يجب العدل فيمن ولأك الله عليهم، فلا تحابِ قريبك لأنه قريبك، ولا الغني لأنه غني، ولا الفقير لأنه فقير، ولا الصديق لأنه صديق، لا تحابِ أحدًا فالناس سواء.

حتى إن العلماء رحمهم الله قالوا: يجب العدل بين الخصمين إذا دخلا على القاضي؛ في لفظه ولحظه وكلامه ومجلسه ودخولهما عليه. لا تنظر لهذا نظرة غضب ولهذا نظرة رضا، لا تلن الكلام لهذا والثاني بعكسه. لا تقل لأحدهم كيف أنت؟ كيف أهلك؟ كيف أولادك؟ والثاني لا تقول له مثله، بل اعدل بينهما حتى في هذا.

وكذلك في المجلس لا تجعل أحدهما يجلس على اليمين قريبًا منك والثاني تجعله بعيدًا عنك؛ بل اجعلهما أمامك على حدٍّ سواء.

حتى المؤمن والكافر إذا تخاصما عند القاضي، يجب أن يعدل بينهما في الكلام والنظر والجلوس، فلا يقل للمسلم تعال بجانبي والكافر يبعده؛ بل يجعلهما يجلسان جميعًا أمامه، فالعدل واجب في كل الأمور.

أما الإحسان فهو فضل زائد على العدل، ومع ذلك أمر الله به، لكن

أمره بالعدل واجب، وأمره بالإحسان سنة وتطوع.

﴿ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ يعني إعطاء ذي القربىٰ، أي القريب حقه. فإن القريب له حق؛ حق الصلة، فمن وصل رحمه وصله الله، ومن قطع رحمه قطعه الله.

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ينهى عن الفحشاء: الفحشاء هي كل ما يُستفحش من الذنوب؛ كعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، والزنا، ونكاح المحارم، وغير ذلك مما يُستفحش شرعًا وعرفًا، **والمنكر**: هو ما يُنكر، وهو دون الفحشاء كعامة المعاصي. والبغي: تجاوز الحد، وهو الاعتداء على الخلق بأخذ أموالهم، والاعتداء على دمائهم وأعراضهم، كل هذا يدخل في البغي.

وبيَّن الله عزَّ وجلَّ أنه أمر ونهي ليعظنا ويصلح أحوالنا، ولهذا قال: ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

وسبق لنا الكلام على حديث «كلكم راع ومسؤول عن رعيته»، وأما حديث معقل بن يسار الذي ذكره المؤلف، فإن فيه التحذير من غش الرعية، وأنه ما من عبد يسترعيه الله على رعيته ثم يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة، وأنه إذا لم يحطهم بنصيحته فإنه لا يدخل معهم الجنة.

وهذا يدل على أنه يجب على ولاة الأمور مسؤولون عن الصغيرة والكبيرة، وعليهم أن ينصحوا لمن ولاهم الله عليهم، وأن يبذلوا لهم

النصيحة، وأهمها النصيحة في دين الله، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير.

ومنها أيضًا: من النصيحة لهم أن يسلك بهم الطرق التي فيها صلاحهم في معادهم ومعاشهم، فيمنع عنهم كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم، يمنع عنهم الأفكار السيئة، والأخلاق السافلة، وما يؤدى إلى ذلك من المجلات والصحف وغيرها؛ ولهذا يجب على ولي الأمر في البيت وهو الرجل في بيته أن يمنع من وجود هذه الأشياء في بيته؛ الصحف السيئة الفاسدة، الأفكار المنحرفة، الأخلاق السافلة.

وكذلك على ولي الأمر العام يجب عليه أن يمنع هذه الأشياء؛ وذلك لأن هذه الأشياء إذا شاعت بين الناس؛ صار المجتمع مجتمعًا بهيميًّا؛ لا يهمه إلا إشباع البطن وشهوة الفرج، وتحل الفوضى، ويزول الأمن، ويكون الشر والفساد، فإذا منع ولي الأمر ما يفسد الخلق سواء كان ولي الأمر صغيرًا أو كبيرًا، حصل بهذا الخير الكثير.

لو أن كل واحد منا في بيته منع أهله من اقتناء هذه الصحف والمجلات الخليعة الفاسدة، ومن مشاهدة التمثيليات الفاسدة، والمسلسلات الخبيثة، لصلح الناس؛ لأن الناس هم أفراد الشعب؛ أنت في بيتك، والثاني في بيته، والثالث في بيته، وهكذا إذا صلحوا صلح كل شيء. نسأل الله تعالى أن يصلح ولاة أمورنا وأن يرزقهم البطانة الصالحة.

* * *

٣/ ٦٥٥ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا، فَشَقَّ عَلَيْهِم، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَن وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أمَّتِي شَيْئًا، فَرَفَقَ بِهِمْ؛ فَارْفُقْ بِهِ» رواه مسلم[١].

٤/ ٦٥٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي، وسَيَكُونُ بَعْدِي خُلفَاءُ فَيَكثُرُونَ» قالوا: يَا رسولَ الله فَمَا تَأمُرُنَا؟ قال: «أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلَ فَالأَوَّلِ، ثُمَّ أَعْطُوهُم حَقَّهُم، وَاسْأَلُوا اللهَ الَّذِي لَكُمْ، فَإِنَّ اللهَ سَائِلُهُم عَمَّا اسْتَرَعَاهُم» متفقٌ عليه[٢].

الشرح

قال المؤلف الحافظ النووي في رياض الصالحين في باب أمر ولاة الأمور بالرفق واللين، ورعاية مصالح من استرعاهم الله عليهم. قال في سياق الأحاديث ما نقله عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت النبي ﷺ في بيتي هذا يقول: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه».

وهذا دعاء من النبي ﷺ على من تولى أمور المسلمين الخاصة والعامة؛ حتى الإنسان يتولى أمر بيته، وحتى مدير المدرسة يتولى أمر

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، رقم(١٨٢٨).
(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم(٣٤٥٥)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم(١٨٤٢).

المدرسة، وحتى المدرس يتولى أمر الفصل، وحتى الإمام يتولى أمر المسجد.

ولهذا قال: «من ولي من أمر أمتي شيئًا». «وشيئًا» نكرة في سياق الشرط، وقد ذكر علماء الأصول أن النكرة في سياق الشرط تفيد العموم؛ أي شيء يكون، «فرفق بهم فارفق به»، ولكن ما معنى الرفق؟

قد يظن بعض الناس أن معنى الرفق أن تأتي للناس على ما يشتهون ويريدون، وليس الأمر كذلك؛ بل الرفق أن تسير بالناس حسب أمر الله ورسوله، ولكن تسلك أقرب الطرق وأرفق الطرق بالناس، ولا تشق عليهم في شيء ليس عليه أمر الله ورسوله، فإن شققت عليهم في شيء ليس عليه أمر الله ورسوله؛ فإنك تدخل في الطرف الثاني من الحديث؛ وهو الدعاء أن الله يشقق عليك والعياذ بالله.

يشق عليه إما بآفات في بدنه، أو في قلبه، أو في صدره، أو في أهله، أو في غير ذلك؛ لأن الحديث مطلق «فاشقق عليه» بأي شيء يكون، وربما لا تظهر للناس المشقة، قد يكون في قلبه نار تلظى والناس لا يعلمون، لكن نحن نعلم أنه إذا شق على الأمة بما لم ينزل به الله سلطانًا؛ فإنه مستحق لهذه الدعوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما الحديث الثاني فإن النبي عليه الصلاة والسلام أخبر بأن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء؛ أي تُبعث فيهم الأنبياء فيصلحون من أحوالهم، «وإنه لا نبي بعدي» فإنَّ النبي ﷺ خاتم النبيين بالنص والإجماع، كما قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن

رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولهذا من ادَّعى النبوة بعده؛ فهو كافر مرتد يجب قتله، ومن صدَّق من ادعى النبوة بعده؛ فهو كاذب مرتد يجب قتله إلا أن يتوب، فالنبي عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء، ولكن جعل الله له خلفاء؛ خلفاء في العلم، وخلفاء في السلطة، والمراد بالخلفاء في هذا الحديث: خلفاء السلطة.

ولهذا قال: «سيكون خلفاء ويكثرون» قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ يعني: من نفي ببيعته؟ قال: «الأول فالأول» فإذا بايعوا الخليفة وجب عليهم أن يبقوا على بيعتهم، وأن ينبذوا كلَّ من أراد الخلافة وهو حي، وأن يُعِينوا الخليفة الأول على من أراد الخلافة في حياته؛ لأن كل من نازع السلطان في سلطانه؛ فإنه يجب أن يُقاتل؛ حتى تكون الأمة واحدة، فإن الناس لو تركوا فوضى، وصار كل من لا يريد هذا السلطان يذهب ويتخذ له حزبًا يقاتل به السلطان؛ فسدت الأمور.

وفي آخر الحديث أن النبي ﷺ حمَّل هؤلاء الخلفاء ما عليهم، وأمرنا نحن أن نوفي لهم بحقهم، وأن نسأل الله الذي لنا، لا نقل هؤلاء ظلموا، هؤلاء جاروا، هؤلاء لم يقوموا بالعدل، ثم ننابذهم ولا نطيعهم فيما أمرنا الله به، لا؛ هذا لا يجوز، يجب أن نوفي لهم بالحق، وأن نسأل الله الحق الذي لنا، كالإنسان الذي له قريب إذا قطعك فَصِلْه، واسأل الله الذي لك، أما أن تقول لا أَصِلُ إلا من وصلني، أو لا أطيع من السلطان إلا من لا يظلم ولا يستأثر بالمال ولا غيره، فهذا خطأ، قم أنت بما يجب عليك، واسأل

الله الذي لك.

وفي قول النبي ﷺ: «تسوسهم الأنبياء» دليلٌ على أن دين الله ـ وهو دين الإسلام في كل مكان وفي كل زمان ـ هو السياسة الحقيقية النافعة، وليست السياسة التي يفرضها أعداء الإسلام من الكفار.

السياسة حقيقة ما جاء في شرع الله، ولهذا نقول: إن الإسلام شريعة وسياسة، ومن فرق بين السياسة والشريعة فقد ضلّ؛ ففي الإسلام سياسة الخلق مع الله، وبيان العبادات، وسياسة الإنسان مع أهله، ومع جيرانه، ومع أقاربه، ومع أصحابه، ومع تلاميذه، ومع معلميه، ومع كل أحد؛ كل له سياسة تخصه، سياسة مع الأعداء الكفار، ما بين حربيين ومعاهدين ومستأمنين وذميين.

وكل طائفة قد بيَّن الإسلام حقوقهم، وأمر أن نسلك بهم كما يجب، فمثلاً الحربيون نحاربهم، ودماؤهم حلال لنا، وأموالهم حلال لنا، وأراضيهم حلال لنا.

والمستأمنون يجب أن نؤمنهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦].

والمعاهدون يجب أن نوفي لهم بعهدهم، ثم إما أن نطمئن إليهم، أو نخاف منهم، أو ينقضوا العهد.

ثلاث حالات كلها مبينة في القرآن؛ فإن اطمأننا إليهم وجب أن نفي لهم بعهدهم، وإن خفناهم فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، قل لهم: ليس

بيننا عهدٌ إذا خفت منهم، ولا تنقض العهد بدون أن تخبرهم.

والثالث هم الذين نقضوا العهد ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]، إذا نقضوا العهد فلا أيمان لهم ولا عهد لهم، فالمهم أن الدين دين الله وأن الدين سياسة: سياسة شرعية، سياسة اجتماعية، سياسة مع الأجانب، ومع المسالمين، ومع كل أحد.

ومن فصل الدين عن السياسة فقد ضل؛ وهو بين أمرين:

إما جاهل بالدين ولا يعرف، ويظن أن الدين عبادات بين الإنسان وربه، وحقوق شخصية وما أشبه ذلك؛ يظن أن هذا هو الدين فقط.

أو أنه قد بهره الكفرة وما هم عليه من القوة المادية، فظن أنهم هم المصيبون.

وأما من عرف الإسلام حق المعرفة عرف أنه شريعة وسياسة، والله الموفق.

* * *

٥/٦٥٧ ـ وَعَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ، فقال له: أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ» فَإِيَّاكَ أن تَكونَ مِنْهُمْ. متفقٌ عليه[1].

٦/٦٥٨ ـ وَعَنْ أَبِي مَرْيَمَ الأَزْدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ لِمُعَاوِيَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَنْ وَلاَّهُ اللهُ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل...، ولم أجده في البخاري.

فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجتِهِم وخَلَّتِهِم وَفقرِهِم؛ احتَجَبَ الله دُونَ حَاجَتِه وخَلَّتِهِ وفقرِهِ يَومَ القِيَامَةِ» فَجَعَلَ مُعَاوِيَة رجُلاً على حَوائِجِ النَاسِ. رواه أبوداود، والترمذي[1].

الشرح

هذه الأحاديث في بيان ما يجب على الرعاة لرعيتهم من الحقوق، من ذلك قول النبي ﷺ: «إن شرَّ الرعاء الحطمة» الرعاء: جمع راعٍ.

الحطمة: الذي يحطم الناس ويشق عليهم ويؤذيهم، فهذا شر الرعاء. وإذا كان هذا شر الرعاء؛ فإن خير الرعاء اللين السهل، الذي يصل إلى مقصوده بدون عنف.

فيُستفاد من هذا الحديث فائدتان:

الفائدة الأولى: أنه لا يجوز للإنسان الذي ولاَّه الله تعالى على أمر من أمور المسلمين أن يكون عنيفًا عليهم؛ بل يكون رفيقًا بهم.

الفائدة الثانية: وجوب الرفق بمن ولاَّه الله عليهم بحيث يرفق بهم في قضاء حوائجهم وغير ذلك، مع كونه يستعمل الحزم والقوة والنشاط، يعني لا يكون لينًا مع ضعف، ولكن لينًا بحزم وقوة ونشاط.

وأما الحديث الثاني: ففيه التحذير من اتخاذ الإنسان الذي يوليه الله تعالى أمرًا من أمور المسلمين حاجبًا يحول دون خلتهم وفقرهم

---

(١) رواه أبوداود، كتاب الخراج والإمارة، باب فيما يلزم الإمام من أمر الرعية والحجبة عنه، رقم(٢٩٤٨)، والترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء في إمام الرعية، رقم(١٣٣٢).

وحاجتهم، وأن من فعل ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يحول بينه وبين حاجته وخلته وفقره.

لما حُدث معاوية رضي الله عنه بهذا الحديث؛ اتخذ رجلاً لحوائج الناس يستقبل الناس وينظر ما حوائجهم، ثم يرفعها إلى معاوية رضي الله عنه بعد أن كان أميرًا للمؤمنين.

وهكذا أيضًا من له نوع من الولاية وحاجة الناس إليه؛ فإنه لا ينبغي أن يحتجب دون حوائجهم، ولكن له أن يرتب أموره بحيث يجعل لهؤلاء وقتًا ولهؤلاء وقتًا، حتى لا تنفرط عليه الأمور، والله الموفق.

* * *

٧٩- بابُ الوالي العادل

قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩٠].

١/٦٥٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وشابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ قَلبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، ورجُلٌ دَعَتْهُ امرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» متفقٌ عليه[(١)].

٢/٦٦٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ في حُكْمِهِمْ وأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا» رواهُ مسلم[(٢)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم(٦٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم(١٠٣١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، رقم(١٨٢٧).

الشرح

قال النووي رحمه الله تعالى في كتاب رياض الصالحين في باب الوالي العادل. والوالي هو الذي يتولى أمرًا من أمور المسلمين الخاصة أو العامة، حتى الرجل في أهل بيته يُعتبر واليًّا عليهم؛ لقول النبي ﷺ: «الرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته» والعدل واجب حتى في معاملة الإنسان نفسه؛ لقول النبي ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًّا، ولربك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولزورك ـ أي الزائر لك ـ عليك حقًّا فأعط كل ذي حقٍّ حقه»(١).

فالعدل واجبٌ في كل شيء، لكنه في حق ولاة الأمور أوكد وأولى وأعظم؛ لأن خلاف العدل إذا وقع من ولاة الأمور؛ حصلت الفوضى والكراهة لولي الأمر حيث لم يعدل.

ولكن موقفنا نحو الإمام الوالي الذي لم يعدل أو ليس بعادل أن نصبر؛ نصبر على ظلمه، وعلى جوره، وعلى استئثاره، حتى أن رسول الله ﷺ أوصى الأنصار رضي الله عنهم وقال لهم: «إنكم ستلقون بعدي أثرة» يعني استئثارًا عليكم «فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»(٢)؛ ذلك لأن منازعة ولي الأمر يحصل بها الشر والفساد الذي هو أعظم من جوره

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب حق الضيف، رقم(٦١٣٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر، رقم(١١٥٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال...، رقم(٤٣٣٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم(١٠٦١).

وظلمه، ومعلوم أن العقل والشرع ينهى عن ارتكاب أشد الضررين، ويأمر بارتكاب أخف الضررين إذا كان لابد من ارتكاب أحدهما.

ثم ساق المؤلف رحمه الله آيات وأحاديث منها قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ العدل واجب والإحسان فضل وزيادة فهو سنة. وحسبته أن يذكر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

فالعدل من الوالي ألا يفرق بين الناس، لا يجور على أحد، ولا يحابي غنيًّا لغناه، ولا قريبًا لقرابته، ولا فقيرًا لفقره، ولكن يحكم بالعدل، حتى إن العلماء رحمهم الله قالوا: يجب على القاضي أن يستعمل العدل مع الخصمين، ولو كان أحدهما كافرًا؛ يعني لو دخل كافر ومسلم على القاضي؛ فإن الواجب أن يعدل بينهما في الجلوس والكلام والملاحظة بالعين وغير ذلك؛ لأن المقام مقام حكم يجب فيه العدل، وإن كان بعض الجهال يقول: لا، قدِّم المسلم. نقول: لا يجوز أن نقدِّم المسلم؛ لأن المقام مقام محاكمة ومعادلة، فلابد من العدل في كل شيء.

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» سبعة يظلهم الله، وليس هذا على سبيل الحصر، هناك أناس آخرون يظلهم الله غير هؤلاء، وقد جمعهم الحافظ ابن حجر في شرح البخاري فزادوا على العشرين.

لكن الرسول عليه الصلاة والسلام يتحدث أحيانًا بما يناسب المقام، فتجده يقول سبعة، ثلاثة، أربعة، أو ما أشبه ذلك، مع أن هناك أشياء أخرى لم يذكرها؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أفصح الخلق وأقواهم بلاغة فيتحدث بما يناسب المقام.

وقوله: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذلك يوم القيامة؛ لأنه في يوم القيامة ليس هناك شجر، ولا بناء، ولا جبال، ولا ثياب، ولا غير ذلك، حتى الناس يحشرون حفاة عراة غرلاً ليس هناك ظل إلا ظل الله، أي ظل يخلقه الله عزَّ وجلَّ يظلل من يظلهم الله تعالى في ذلك اليوم؛ لأنه ليس هناك ظل بناء، ولا ظل شجر، ولا ظل ثياب، ولا ظل مصنوعات أبدًا، ليس هناك إلا الظل الذي ييسره الله تعالى للإنسان، يخلق جل وعلا ظلاًّ من عنده، الله أعلم بكيفيته، ويظلل الإنسان.

الأول: إمام عادل: بدأ بالإمام العادل الذي يعدل بين الناس، وأهم عدل في الإمام أن يحكم بين الناس بشريعة الله؛ لأن شريعة الله هي العدل، وأما من حكم بالقوانين الوضعية المخالفة للشريعة؛ فهو من أشد الولاة جورًا - والعياذ بالله - وأبعد الناس من أن يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ لأنه ليس من العدل أن تحكم بين عباد الله بشريعة غير شريعة الله، من جعل لك هذا؟ احكم بين الناس بشريعة ربهم عزَّ وجلَّ، فأعظم ما يدخل في ذلك أن يحكم الإمام بشريعة الله.

ومن ذلك أن يقتص الحق حتى من نفسه ومن أقرب الناس إليه؛ لقول الله تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥].

ومن ذلك أيضًا ألا يفرق بين قريبه وغيره، فتجده إذا كان الحق على القريب تهاون في تنفيذه وجعل يسوّف ويؤخر، وإذا كان لقريبه على غيره بادر فاقتص منه. فإن هذا ليس من العدل. والعدل في ولي الأمر له فروع كثيرة وأنواع كثيرة لا يتسع المقام الآن لذكرها، فنسأل الله تعالى أن يوفق المسلمين لأئمة عادلين يحكمون فيهم بكتاب الله وبشريعته التي اختارها لعباده.

أما الثاني فهو «شاب نشأ في طاعة الله»، الشاب صغير السن الذي نشأ في طاعة الله واستمر على ذلك، هذا أيضًا ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ لأنه ليس له صبوة، والغالب أن الشباب يكون لهم صبوة وميل وانحراف، ولكن إذا كان هذا الشاب نشأ في طاعة الله، ولم يكن له ميل ولا انحراف واستمر على هذا؛ فإن الله تعالى يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

والثالث: «رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه» رجلان تحابَّا في الله، يعني ليس بينهما صلة من نسب أو غيره، ولكن تحابَّا في الله. كل واحد منهم رأى أن صاحبه ذو عبادة وطاعة لله عزَّ وجلَّ، وقيام بما يجب لأهله ولمن له حق عليه، فرآه على هذه الحال فأحبه.

«اجتمعا عليه وتفرقا عليه» يعني اجتمعا عليه في الدنيا، وبقيا على ذلك إلى أن ماتا فتفرقا على ذلك؛ هذان أيضًا ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

والرابع: «رجلٌ قلبه معلَّق بالمساجد» يعني أنه يألف الصلاة ويحبها،

وكلما فرغ من صلاة إذا هو يتطلع إلى صلاة أخرى، فالمساجد: أماكن السجود، سواء بُنيت للصلاة فيها أم لا، المهم أنه دائمًا يرغب الصلاة، قلبه معلق بها؛ كلما فرغ من صلاة تطلع للصلاة الأخرى.

وهذا يدل على قوة صلته بالله عزَّ وجلَّ؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وبين ربه، فإذا أحبها الإنسان وألفها فهذا يعني أنه يحب الصلة التي بينه وبين الله، فيكون ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

والخامس: «رجلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال» يعني دعته لنفسها ليفجر بها، ولكنه كان قوي العفة، طاهر العرض «قال إني أخاف الله» فهو رجل ذو شهوة، والدعوة التي دعته إليها هذه المرأة تُوجب أن يفعل؛ لأنها هي التي طلبته، والمكان خالٍ ليس فيه أحد، ولكن منعه من ذلك خوف الله عزَّ وجلَّ. قال إني أخاف الله، لم يقل: أخشى أن يطلع علينا أحد، ولم يقل إنه لا رغبة له في الجماع، ولكن قال: «إني أخاف الله»، فهذا يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ لكمال عفته.

والسادس: «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» تصدق بصدقة مخلصًا بذلك لله عزَّ وجلَّ، حتى إنه لو كان أحد على يساره ما علم بذلك من شدة الإخفاء، فهذا عنده كمال الإخلاص، فيظله الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وهذا ما لم يكن إظهار الصدقة فيه مصلحة وخير، فإذا كان في إظهار الصدقة مصلحة وخير كان إظهارها أولى، لكن إذا لم يكن فيه مصلحة فالإسرار أولى.

والسابع: «رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» ذكر الله خاليًا في مكان

لا يطلع عليه أحد، خاليًا قلبه من التعلق بالدنيا، فخشع من ذلك وفاضت عيناه. هؤلاء السبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، قد توجد صفتان فأكثر في شخص واحد، وقد لا يوجد في الإنسان إلا صفة واحدة وهي كافية.

ثم ذكر المؤلف حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «المقسطون على منابر من نور يوم القيامة، الذين يعدلون في أهليهم وما ولوا» يعني أن المقسطين العادلين في أهليهم وفيمن ولاهم الله عليه، يكونون على منابر من نور يوم القيامة على يمين الله عزَّ وجلَّ.

وهذا دليلٌ على فضل العدل في الأهل، وكذلك في الأولاد، وكذلك أيضًا في كل من ولاك الله عليه، اعدل حتى تكون على منبر من نور عن يمين الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة، والله الموفق.

* * *

٣/ ٦٦١ ـ وَعَنْ عَوفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «خِيارُ أئمَّتِكُمُ الَّذِين تُحِبُّونَهُمْ ويُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أئمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وتَلْعَنُونَهُمْ ويَلْعَنُونَكُمْ!» قالَ: قُلْنَا: يا رَسُولَ الله، أفَلا نُنَابِذُهُمْ؟ قال: لاَ، مَا أقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ، لاَ، مَا أقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ» رواهُ مسلم[١].

قوله: «تُصَلُّونَ عَلَيْهِم»: تَدْعُونَ لَهُمْ.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، رقم(١٨٥٥).

٤/٦٦٢ - وَعَنْ عِيَاض بْنِ حِمَارٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاثَةٌ: ذُو سُلْطانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ، ورَجُلٌ رَحيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وعَفيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيالٍ» رواهُ مسلم[١].

الشرح

قال النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين في باب فضل الإمام العادل: عن عوف بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم».

الأئمة: يعني ولاة الأمور، سواء كان الإمام الكبير في البلد وهو السلطان الأعلى أو كان من دونه.

هؤلاء الأئمة الذين هم ولاة أمورنا، ينقسمون إلى قسمين: قسم نحبهم ويحبوننا، فتجدنا ناصحين لهم وهم ناصحون لنا، ولذلك نحبهم؛ لأنهم يقومون بما أوجب الله عليهم من النصيحة لمن ولاهم الله عليه، ومعلوم أن من قام بواجب النصيحة فإن الله تعالى يحبه، ثم يحبه أهل الأرض.

فهؤلاء الأئمة الذين قاموا بما يجب عليهم محبوبون لدى رعيتهم.

وقوله: «ويصلون عليكم، وتصلون عليهم». الصلاة هنا بمعنى الدعاء، يعني تدعون لهم ويدعون لكم، تدعون لهم بأن الله يهديهم ويصلح

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، رقم(٢٨٦٥).

بطانتهم، ويوفقهم للعدل إلى غير ذلك من الدعاء الذي يدعى به للسلطان، وهم يدعون لكم: اللهم أصلح رعيتنا، اللهم اجعلهم قائمين بأمرك، وما أشبه ذلك.

أما شرار الأئمة: فهم «الذين تبغضونهم ويبغضونكم» تكرهونهم؛ لأنهم لم يقوموا بما يجب عليهم من النصيحة للرعية، وإعطاء الحقوق إلى أهلها، وإذا فعلوا ذلك فإن الناس يبغضونهم، فتحصل البغضاء من هؤلاء وهؤلاء؛ تحصل البغضاء من الرعية للرعاة؛ لأنهم لم يقوموا بواجبهم، ثم تحصل البغضاء من الرعاة للرعية؛ لأن الرعية إذا أبغضت الوالي؛ تمردت عليه وكرهته، ولم تطع أوامره ولم تتجنب ما نهى عنه، وحينئذ «تلعنونهم ويلعنونكم» والعياذ بالله؛ يعني يسبونكم وتسبونهم، أو يدعون عليكم باللعنة وتدعون عليهم باللعنة.

إذًا الأئمة ينقسمون إلى قسمين: قسم وفقوا وقاموا بما يجب عليهم فأحبهم الناس وأحبوا الناس، وصار كل واحد منهم يدعو للآخر. وقسم آخر بالعكس شرار الأئمة، يبغضون الناس والناس يبغضونهم، ويسبون الناس والناس يسبونهم.

أما حديث عياض بن حمار رضي الله عنه فهو أن النبي ﷺ قال: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفق» وهذا هو الشاهد؛ يعني صاحب سلطان، والسلطان يعم السلطة العليا وما دونها.

«مقسط»: أي عادل بين من ولاَّه الله عليه.

«موفق»: أي مهتدٍ لما فيه التوفيق والصلاح، قد هُدي إلى ما فيه

الخير، فهذا من أصحاب الجنة.

وقد سبق أن الإمام العادل ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وهذا هو الشاهد من هذا الحديث «ذو سلطان مقسط موفق، ورجلٌ رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم» رجل رحيم يرحم عباد الله، يرحم الفقراء، يرحم العجزة، يرحم الصغار، يرحم كل من يستحق الرحمة.

«رقيق القلب» ليس قلبه قاسيًا. «لكل ذي قربى ومسلم»، وأما للكفار فإنه غليظ عليهم.

هذا أيضًا من أهل الجنة، أن يكون هذا الإنسان رقيق القلب يعني فيه لين، وفيه شفقة على كل ذي قربى ومسلم.

والثالث «رجل عفيف متعفف ذو عيال» يعني أنه فقير ولكنه متعفف، لا يسأل الناس شيئًا، يحسبه الجاهل غنيًّا من التعفف.

«ذو عيال» يعني أنه مع فقره عنده عائلة، فتجده صابرًا محتسبًا يكد على نفسه، ربما يأخذ الحبل يحتطب ويأكل منه، أو يأخذ المخلب يحتش فيأكل منه، المهم أنه عفيف متعفف ذو عيال، ولكنه صابر على البلاء، صابر على عياله، فهذا من أهل الجنة. نسأل الله أن يجعل لنا ولكم من هؤلاء نصيبًا، والله الموفق.

* * *

٨٠- باب وجوبُ طاعة ولاة الأمر في غير مَعْصية وتحريم طاعتهم في المعصية

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

١/٦٦٣ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ والطَّاعَةُ فِيما أحَبَّ وكَرِهَ، إلاَّ أنْ يُؤمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإذَا أمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ» متفقٌ عليه[1].

٢/٦٦٤ - وعنْه رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا إذَا بَايَعْنَا رَسُولَ الله ﷺ عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَةِ يَقُولُ لَنَا: «فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ» متفقٌ عليه[2].

٣/٦٦٥ - وعنْه رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ؛ لقيَ اللهَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ في عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» رواهُ مسلم[3].

وفي رواية له: «وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ مُفَارِقٌ لِلْجَمَاعَةِ، فَإنَّهُ يَمُوتُ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

«المِيتَةُ» بكسر الميم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام...، رقم(٧١٤٤)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء...، رقم(١٨٣٩).
(٢) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام، رقم(٧٢٠٢)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب البيعة على السمع والطاعة، رقم(١٨٦٧).
(٣) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، رقم(١٨٥١).

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى في كتاب رياض الصالحين: باب وجوب طاعة ولاة الأمور في غير معصية وتحريم طاعتهم في معصية الله. ثم استدل لذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾.

ولاة الأمور، ذكر أهل العلم أنهم قسمان: العلماء والأمراء.

أما العلماء فهم ولاة أمور المسلمين في بيان الشرع، وتعليم الشرع، وهداية الخلق إلى الحق، فهم ولاة أمور في هذا الجانب، وأما الأمراء فهم ولاة الأمور في ضبط الأمن وحماية الشريعة وإلزام الناس بها، فصار لهم وجهة ولهؤلاء وجهة.

والأصل: العلماء؛ لأن العلماء هم الذين يبينون الشرع ويقولون للأمراء هذا شرع الله فاعملوا به، ويُلْزَمُ الأمراءُ بذلك، لكن الأمراء إذا علموا الشرع ولا طريق لهم إلى علم الشرع إلا عن طريق العلماء؛ نفذوه على الخلق.

والعلماء يؤثرون على من في قلبه إيمان ودين؛ لأن الذي في قلبه إيمان ودين ينصاع للعلماء ويأخذ بتوجيهاتهم وأمرهم.

والأمراء ينصاع لهم من خاف من سطوتهم وكان عنده ضعف إيمان، يخاف من الأمير أكثر مما يخاف من العالم، أو يخاف بعضهم أكثر مما يخاف من الله والعياذ بالله.

فلذلك كان لابد للأمة الإسلامية من علماء وأمراء، وكان واجبًا على

الأمة الإسلامية أن يطيعوا العلماء وأن يطيعوا الأمراء، ولكن طاعة هؤلاء وهؤلاء تابعة لطاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ولم يقل أطيعوا أولي الأمر منكم؛ لأن طاعة ولاة الأمر تابعة لا مستقلة، أما طاعة الله ورسوله فهي مستقلة، ولهذا أعاد فيها الفعل فقال: أطيعوا وأطيعوا، أما طاعة ولاة الأمور فإنها تابعة ليست مستقلة.

وعلى هذا فإذا أمر ولاة الأمور بمعصية الله؛ فإنه لا سمع لهم ولا طاعة؛ لأن ولاة الأمور فوقهم ولي الأمر الأعلى جل وعلا وهو الله، فإذا أمروا بمخالفته فلا سمع لهم ولا طاعة.

أما الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله؛ فمنها حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

قوله: «على المرء»: هذه كلمة تدل على الوجوب، وأنه يجب على المرء المسلم بمقتضى إسلامه أن يسمع ويطيع لولاة الأمور فيما أحب وفيما كره، حتى لو أمر بشيء يكرهه؛ فإنه يجب عليه أن يقوم به ولو كان يرى خلافه، ولو كان يكر أن ينفذه. فالواجب عليه أن ينفذ، إلا إذا أمر بمعصية الله، فإذا أمر بمعصية الله فطاعة الله تعالى فوق كل طاعة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي هذا دليلٌ على بطلان مسلك من يقول: لا نطيع ولاة الأمور إلا فيما أمرنا الله به، يعني إذا أمرونا أن نصلي صلينا، إذا أمرونا أن نزكي

زكينا. أما إذا أمرونا بشيء ليس فيه أمر شرعي؛ فإنه لا يجب علينا طاعتهم؛ لأننا لو وجبت علينا طاعتهم لكانوا مشرِّعين، فإن هذه نظرة باطلة مخالفة للقرآن والسنة؛ لأننا لو قلنا: إننا لا نطيعهم إلا فيما أمرنا الله به لم يكن بينهم وبين غيرهم فرق، كل إنسان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر فإنه يطاع.

ثم نقول: بل نحن قد أمرنا بطاعتهم فيما لم يأمرنا الله عزَّ وجلَّ؛ إذا لم يكن ذلك منهيًّا عنه أو محرمًا، فإننا نطيعهم حتى في التنظيم إذا نظموا شيئًا من الأعمال، يجب علينا أن نطيعهم؛ وذلك أن بطاعتهم يكون امتثال أمر الله عزَّ وجلَّ، وامتثال أمر رسول الله ﷺ، وحفظ الأمن، والبعد عن التمرد على ولاة الأمور، وعن التفرق، فإذا قلنا لا نطيعهم إلا في شيء أمرنا به؛ فهذا معناه أنه لا طاعة لهم.

يأتي بعض الأنظمة: مثلاً تنظم فيها الحكومة شيئًا نظامًا لا يخالف الشرع، لكن لم يأتِ به الشرع بعينه، فيأتي بعض الناس ويقول: لا نطيع في هذا، فيقال: بل يجب عليك أن تطيع، فإن عصيت فإنك آثم مستحق لعقوبة الله، ومستحق لعقوبة ولاة الأمور.

وعلى ولاة الأمور أن يُعَزِّروا مثل هؤلاء الذين يعصون أوامرهم التي يلزمهم أن يقوموا بها؛ لأنهم إذا عصوا أوامر ولاة الأمور ـ وقد أمر الله بطاعتهم فيهاـ فهذا معصية لله. وكل إنسان يعصي الله فإنه يستحق التعزير، يعني: التأديب بما يراه ولي الأمر.

من ذلك مثلاً: أنظمة المرور؛ أنظمة المرور هذه مما نظمه ولي

الأمر، وليس فيها معصية، فإذا خالفها الإنسان فهو عاصٍ وآثم، مثلاً السير على اليسار، والسير على اليمين، والسير في الاتجاه الفلاني، وفي السير يجب أن يقف إذا كانت الإشارة حمراء وما أشبه ذلك، كل هذا يجب أن ينفذ وجوبًا، فمثلاً إذا كانت الإشارة حمراء؛ وجب عليك الوقوف. لا تقل: ما أمرنا الله بذلك، ولاة الأمور نظموا لك هذا التنظيم وقالوا التزم به، فإذا تجاوزت فإنك عاص آثم؛ لأنك قلت لربك لا سمع ولا طاعة والعياذ بالله.

فإن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ كذلك أيضًا في التقاطع، معروف أن الذي في الخط العام هو الذي له الحق أن يتجاوز، إذا كنت أنت في خط فرعي ووجدت إنسانًا مقبلاً من الخط العام فلا تتجاوز؛ لأن النظام يقتضي منع ذلك.

وهكذا أيضًا الأنظمة في الإمارة، والأنظمة في القضاء، وكل الأنظمة التي لا تخالف الشرع؛ فإنه يجب علينا أن نطيع ولاة الأمور فيها، وإلا أصبحت المسألة فوضى، وكل إنسان له رأي، وكل إنسان يحكم بما يريد، وأصبح ولاة الأمور لا قيمة لهم، بل هم أمراء بلا أمر، وقضاة بلا قضاء.

فالواجب على الإنسان أن يمتثل لأمر ولاة الأمور إلا فيما كان فيه معصية الله. فلو قالوا لنا مثلاً: لا تخرجوا إلى المساجد لتصلوا الجمعة، لا تصلوا الجمعة والجماعة، قلنا لهم: لا سمع ولا طاعة، ولو قالوا: اظلموا الناس في شيء، قلنا: لا سمع ولا طاعة. كل شيء أمر الله به أو

نهى عنه فإنه لا سمع ولا طاعة لهم فيه أبدًا.

كذلك لو قالوا مثلاً: احلقوا اللحى ـ مثل بعض الدول يأمرون رعايهم بحلق اللحى ولا سيما جنودهم الذين عندهم ـ لو قالوا: احلقوا اللحى قلنا: لا سمع لكم ولا طاعة. وهم آثمون في قولهم لجنودهم مثلاً: احلقوا اللحى، وهم بذلك آثمون مضادون لله ورسوله، منابذون لله ورسوله.

كذلك لو قالوا مثلاً: أنزلوا ثيابكم إلى أسفل من الكعبين، فإننا نقول: لا، لا سمع ولا طاعة؛ لأن هذا مما حرمه الله وتوعد عليه، فإذا أمرتمونا بمعصية فإننا لا نسمع لكم ولا نطيع؛ لأن لنا ولكم ربًّا حكمه فوق حكمنا وحكمكم.

إذًا أوامر ولاة الأمور تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يأمروا بما أمر الله به، فهنا تجب طاعتهم لوجهين:

الوجه الأول: أنه مما أمر الله به.

والوجه الثاني: أنه مما أمروا به كغيرهم من الناس؛ إذا أمرك شخص بالمعروف وهو واجب، فالواجب عليك أن تقوم به.

الثاني: أن يأمروا بمعصية الله، فهنا لا سمع لهم ولا طاعة مهما كان، وأنت إذا نالك عذاب منهم بسبب هذا فسيُعاقبون عليه هم يوم القيامة.

الوجه الأول: لحق الله؛ لأن أمرهم بمعصية الله منابذة لله عزَّ وجلَّ لوجهين.

الوجه الثاني: لحقك أنت؛ لأنهم اعتدوا عليك، وأنت وهم كلكم

عبيد الله، ولا يحل لكم أن تعصوا الله.

الثالث: إذا أمروا بشيء ليس فيه أمر ولا نهي، فيجب عليك أن تطيعهم وجوبًا، فإن لم تفعل فأنت آثم، ولهم الحق أن يعزروك وأن يؤدبوك بما يرون من تعزير وتأديب؛ لأنك خالفت أمر الله في طاعتهم، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

ثم أشد من ذلك من لا يعتقد للإمام بيعة؛ من يقول: أنا ما بايعت الإمام، ولا له بيعة عليّ؛ لأن مضمون هذا الكلام أنه لا سمع له ولا طاعة ولا ولاية، وهذا أيضًا من الأمر المنكر العظيم؛ فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن من مات من غير بيعة وليس له إمام؛ فإنه يموت ميتة جاهلية، يعني ليست ميتة إسلامية؛ بل ميتة أهل الجهل والعياذ بالله، وسيجد جزاءه عند الله عزَّ وجلَّ.

فالواجب أن يعتقد الإنسان أن له إمامًا، وأن له أميرًا يدين له بالطاعة في غير معصية الله، فإذا قال مثلاً: أنا لن أبايع، قلنا: البيعة لا تكون في رعاع الناس وعوام الناس، إنما تكون لأهل الحل والعقد.

ولهذا نقول: هل بايع كل الناس أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا؟ هل بايعهم كل الناس حتى الأطفال والعجوز والمرأة في خدرها؟ أبدًا لم يبايعوهم. ولم يأت أهل مكة يبايعون أبا بكر، ولا أهل الطائف ولا غيرهم، إنما بايعه أهل الحل والعقد في المدينة، وتمت البيعة بذلك.

وليست البيعة لازمة لكل واحد من الناس أن يجيء يبايع، ولا يمكن

لعوام الناس، ورعاع الناس تابعون لأهل الحل والعقد، فإذا تمت البيعة من أهل الحل والعقد؛ صار المُبَايع إمامًا، وصار ولي أمر تجب طاعته في غير معصية الله، فمن مات وهو يعتقد أنه ليس له ولي أمر، وأنه ليست له بيعة، فإنه يموت ميتة جاهلية. نسأل الله العافية والحماية، والله الموفق.

* * *

٤/٦٦٦ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ» رواه البخاري(١).

٥/٦٦٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ» رواهُ مسلم(٢).

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى في سياق الأحاديث الواردة في وجوب طاعة ولاة الأمور.

قال فيما نقله عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة».

اسمعوا وأطيعوا: يعني الزموا السمع والطاعة، السمع لمن؟ لولاة الأمور، حتى لو استعمل عليكم عبدٌ حبشيٌّ.

والنبي ﷺ هنا يخاطب العرب يقول: ولو استعمل عليكم عبد

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم(٧١٤٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية. . . ، رقم(١٨٣٦).

حبشي غير عربي؛ عبد حبشي أصلاً وفرعًا وخلقة، كأن رأسه زبيبة؛ لأن شعر الحبشة ليس كشعر العرب؛ فالحبشة يكون في رؤوسهم حلق كأنها الزبيب، وهذا من باب المبالغة في كون هذا العامل عبدًا حبشيًّا أصلاً وفرعًا، وهذا يشمل قوله: «وإن استُعمل» فيشمل الأمير الذي هو أمير السلطان، وكذلك السلطان.

فلو فُرض أن سلطانًا غلب الناس واستولى وسيطر وليس من العرب؛ بل كان عبدًا حبشيًّا فإن علينا أن نسمع ونطيع؛ لأن العلة واحدة وهي أنه إن لم نسمع ونطع حصلت الفوضى، وزال النظام، وزال الأمن، وحل الخوف. فالمهم أن علينا أن نسمع ونطيع لولاة أمورنا إلا إذا أمروا بمعصية.

وكذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرةٍ عليك» السمع والطاعة لولاة الأمور في المنشط والمكره؛ في المنشط: يعني في الأمر الذي إذا أمروك به نشطت عليه؛ لأنه يوافق هواك، وفي المكره: في الأمر الذي أمروكَ به لم تكن نشيطًا فيه؛ لأنك تكرهه، اسمع في هذا وهذا، وفي العسر واليسر، حتى إن كنت غنيًّا فأمروك فاسمع ولا تستكبر لأنك غني، وإذا كنت فقيرًا فاسمع ولا تقل لا أسمع وهم أغنياء وأنا فقير.

اسمع وأطع في أي حال من الأحوال، حتى في الأثرة؛ يعني إذا استأثر ولاة الأمور على الشعب، فعليهم أيضًا السمع والطاعة في غير معصية الله عزَّ وجلَّ.

فلـو أن ولاة الأمـور سكنـوا القصـور الفخمـة، وركبوا السيارات المريحة، ولبسوا أحسن الثياب، وتزوجوا وصار عندهم الإماء، وتنعموا في الدنيا أكبر تنعم، والناس سواهم في بؤس وشقاء وجوع، فعليهم السمع والطاعة؛ لأننا لنا شيء والولاة لهم شيء آخر.

فنحن علينا السمع والطاعة، وعلى الولاة النصح لنا، وأن يسيروا بنا على هدي رسول الله ﷺ، لكن لا نقول إذا استأثروا علينا وكانت لهم القصور الفخمة، والسيارات المريحة، والثياب الجميلة، وما أشبه ذلك، لا نقول: والله لا يمكن أن نسمع وهم في قصورهم وسياراتهم ونحن في بؤس وحاجة، والواحد منا لا يجد السكن وما أشبه ذلك. هذا حرامٌ علينا، يجب أن نسمع ونطيع حتى في حال الأثرة.

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه للأنصار رضي الله عنهم: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»[١] يقول للأنصار ذلك منذ ألف وأربعمائة سنة: ستلقون بعدي أثره من ذاك الوقت والولاة يستأثرون على الرعية، ومع هذا يقول: «**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**» فليس استئثار ولاة الأمور بما يستأثرون به مانعًا من السمع والطاعة لهم، الواجب السمع والطاعة في كل ما أمروا به ما لم يأمروا بمعصية وقد سبق لنا أن ولاة الأمور ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال..، رقم(٤٣٣٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم(١٠٦١).

الأول: ما أمر الله به فهذا يجب طاعتهم فيه لوجهين: لأمر الله به، ولأمرهم به.

والثاني: ما حرَّم الله فلا يجوز السمع والطاعة لهم حتى لو أمروه.

والثالث: ما ليس فيه أمر ولا نهي من الله فتجب علينا طاعتهم فيه؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يمنع من طاعتهم إلا إذا أمروا المعصية.

نسأل الله أن يصلحنا جميعًا رعية ورعاة وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

* * *

٦/٦٦٨ ـ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً، فَمِنَّا مَنْ يُصلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ: الصَّلاةَ جامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فقال: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخرَهَا بَلاءٌ وأمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتنٌ يُرَقِّقُ بَعْضُها بَعْضًا، وَتَجِيءُ الفِتْنَةُ فَيَقُولُ المُؤمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ؛ وَتَجِيءُ الفِتْنَةُ فَيَقُولُ المؤمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فمَنْ أَحبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، ويُدْخَلَ الجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأتِ إِلَى النَّاسِ الَّذي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ.

وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ؛ فَإِنْ

جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ، فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ» رواهُ مسلم[١].

قوْله: «يَنْتَضِل» أي: يُسَابِقُ بالرَّمْيِ بِالنَّبْلِ والنّشابِ. «وَالجَشَرُ» بفتح الجيمِ والشين المعجمةِ وبالراء: وهي الدَّوابُّ التي تَرْعَى وتَبِيتُ مَكَانَها. وقوله: «يُرَقِّقُ بَعضُهَا بَعْضًا» أي: يُصَيِّرُ بَعْضَهَا رَقِيقًا، أي: خَفِيفًا لِعِظَمِ ما بَعدَهُ، فالثَّانِي يُرَقِّقُ الأوَّلَ، وقيلَ: مَعنَاهُ: يُشَوِّقُ بَعْضُهَا إلى بَعْضٍ بتحْسِينها وتسويلها، وقيلَ: يُشْبِهُ بَعضُها بَعْضًا.

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمه الله في كتاب رياض الصالحين في باب وجوب طاعة ولاة الأمور. عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً، فنزل الناس فتفرقوا، منهم من كان يصلح خباءه، ومنهم من ينتضِلُ، ومنهم من هو في جَشَرِه. كالعادة أن الناس إذا نزلوا وهم سفر كلٌّ يشتغل بما يرى أنه لابد من الاشتغال فيه.

فنادى منادي رسول الله ﷺ يقول: الصلاة جامعة، وهذا النداء يُنادى به لصلاة الكسوف، وينادى به إذا أراد الإمام أو الأمير أن يجتمع بالناس، بدلاً من أن يقول: يا أيها الناس هلمّوا إلى المكان الفلاني، يقول: الصلاة جامعة حتى يجتمع الناس.

فاجتمع الناس، فخطبهم النبي عليه الصلاة والسلام، وأخبرهم أنه ما

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم(١٨٤٤).

من نبي بعثه الله إلا دلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وأنذرهم عن شر ما يعلمه لهم؛ كلُّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان منهم النصيحة لأقوامهم، يعلمونهم الخير ويدلونهم عليه ويحثونهم عليه، ويبينون الشر ويحذرونهم منه.

وهكذا يجب على أهل العلم وطلبة العلم أن يبينوا للناس الخير ويحثوهم عليه، ويبينوا الشر ويحذروهم منه؛ لأن علماء هذا الأمة ورثة الأنبياء، فإن النبي ﷺ ليس بعده نبي، ختمت النبوة به، فلم يبق إلا العلماء الذين يتلقون شرعه ودينه، فيجب عليهم ما يجب على الأنبياء من بيان الخير والحث عليه ودلالة الناس إليه، وبيان الشر والتحذير منه.

ثم أخبر النبي ﷺ أن هذه الأمة ـ يعني أمة محمد ـ جعل الله عافيتها في أولها، يعني أن أول الأمة في عافية ليس فيها فتن، ففي عهد النبي عليه الصلاة والسلام لم تكن هناك فتن، وكذلك في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وحين قتل عمر رضي الله عنه قتله غلام المغيرة؛ غلام يُقال له أبو لؤلؤة، وهو مجوسي خبيث، كان في قلبه غل على أمير المؤمنين عمر، فلما تقدم لصلاة الصبح ضربه بخنجر له رأسان، وقيل إنه كان مسمومًا، فضربه حتى قدَّ بطنه رضي الله عنه، وحُمل فبقي ثلاثة أيام ثم مات رضي الله عنه.

ثم إن هذا الرجل الخبيث هرب، فلحقه الناس فقتل ثلاثة عشر رجلاً؛ لأن الخنجر الذي معه مقبضه في الوسط وله رأسان، فهو يضرب الناس

يمينًا وشمالاً، حتى ألقى عليه أحد الصحابة بساطًا فغمه فقتل نفسه والعياذ بالله.

ومن هذا الوقت بدأت الفتنة ترفع رأسها، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث أنه تأتي فتن يرقق بعضها بعضًا، أي أن بعضها يجعل ما قبله رقيقًا وسهلاً، لأن الثانية أعظم من الأولى، كل واحدة أعظم من الأخرى فترقق ما قبلها، ولهذا قال: «**يرقق بعضها بعضًا**» فتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، لأنه يستعظمها عند بداية إتيانها فيقول: من هنا نهلك.

ثم تأتي الأخرى فترقق الأولى وتكون الأولى سهلة بالنسبة إليها، فيقول المؤمن: هذه هذه، يعني هذه التي فيها البلاء كلّ البلاء، ولكن نسأل الله أن يعيذنا من الفتن، ولكن المؤمن يصبر ويحتسب ويلجأ إلى الله عزَّ وجلَّ، ويستعيذ بالله من الفتنة، وفي كل صلاة يقول: «أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»(١).

ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام: «فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر» نسأل الله أن يميتنا وإياكم على ذلك؛ من كان يحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ـ وكلنا يحب أن يزحزح عن النار ينجو منها ويدخل الجنة ـ فلتأته منيته وهو يؤمن

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر، رقم(١٣٧٧).

بالله واليوم الآخر.

«وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه» يعني يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به، فينصح للناس كما ينصح لنفسه، ويكره للناس ما يكره لنفسه، فيكون هذا قائمًا بحق الله، مؤمنًا بالله واليوم الآخر، وقائمًا بحق الناس، لا يعامل الناس إلا بما يحب أن يعاملوه به، فلا يكذب عليهم، ولا يغشهم، ولا يخدعهم، ولا يحب لهم الشر، يعني يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به، فإذا جاء يسأل مثلاً هل هذا حرام أم حلال؟ قلنا له: هل تحب أن يعاملك الناس بهذا؟ إذا قال: لا. قلنا له: اتركه سواء كان حلالاً أم حرامًا.

ما دمت لا تحب أن يعاملك الناس به فلا تعامل الناس به، واجعل هذا ميزانًا بينك وبين الناس في معاملتهم؛ لا تأت الناس إلا ما تحب أن يؤتى إليك؛ فتعاملهم باللطف كما تحب أن يعاملوك باللطف واللين، بحسن الكلام، بحسن المنطق، بالبيان باليسر كما تحب أن يفعلوا بك هذا، هذا الذي يزحزح عن النار ويدخل الجنة. نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم منهم.

* * *

٧/ ٦٦٩ - وَعَنْ أَبِي هُنَيْدَةَ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يزِيدَ الجُعْفِيُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أَمَراءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ، ويَمْنَعونَا حَقَّنا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عنه، ثمَّ سَأَلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا؛ فَإِنَّما عَلَيْهِمْ ما حُمِّلوا، وعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ» رواهُ

مسلم[١].

٨/ ٦٧٠ ـ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أثَرَةٌ، وَأمُورٌ تُنْكِرُونَهَا!» قالوا: يا رسُولَ الله، كَيْفَ تَأمُرُ مَنْ أدْرَكَ مِنَّا ذلكَ؟ قَالَ: «تُؤدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسَألُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ» متفقٌ عليه[٢].

١٠/ ٦٧٢ ـ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أمِيرِهِ شَيئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلطَانِ شِبرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» متفقٌ عليه[٣].

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف في كتابه رياض الصالحين في باب «طاعة ولي الأمر» فيها دليلٌ على أمور:

أولاً: حديث وائل بن حجر أن النبي ﷺ سُئل عن أمراء يسألون حقهم الذي لهم، ويمنعون الحق الذي عليهم؛ سُئل عن هؤلاء الأمراء ماذا نصنع معهم؟، والأمراء هنا يشمل الأمراء الذين هم دون السلطان الأعظم، ويشمل السلطان الأعظم أيضًا لأنه أمير، وما من أمير إلا فوقه أمير حتى

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب في طاعة الأمراء وإن منعوا الحق، رقم(١٨٤٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ سترون، رقم(٧٠٥٢)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم(١٨٤٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ سترون، رقم(٧٠٥٤)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، رقم(١٨٤٩).

ينتهي الحكم إلى الله عزّ وجلَّ.

سُئل عن هؤلاء الأمراء، أمراء يطلبون حقهم من السمع والطاعة لهم، ومساعدتهم في الجهاد، ومساعدتهم في الأمور التي يحتاجون إلى المساعدة فيها، ولكنهم يمنعون الحق الذي عليهم؛ لا يؤدون إلى الناس حقهم، ويظلمونهم ويستأثرون عليهم، فأعرض النبي ﷺ عنه، كأنه عليه الصلاة والسلام كره هذه المسائل، وكره أن يفتح هذا الباب، ولكن أعاد السائل عليه ذلك.

فأمر النبي ﷺ أن نؤدي لهم حقهم، وأن عليهم ما حُمّلوا وعلينا ما حُمِّلنا، فنحن حُمِّلنا السمع والطاعة، وهم حُمِّلُوا أن يحكموا فينا بالعدل، وألا يظلموا أحدًا، وأن يقيموا حدود الله على عباد الله، وأن يقيموا شريعة الله في أرض الله، وأن يجاهدوا أعداء الله، هذا الذي يجب عليهم، فإن قاموا به؛ فهذا هو المطلوب، وإن لم يقوموا به فإننا لا نقول لهم: أنتم لم تؤدوا الحق الذي عليكم فلا نؤدي حقكم الذي لكم، هذا حرام، يجب أن نؤدي الحق الذي علينا، فنسمع ونطيع، ونخرج معهم في الجهاد، ونصلي وراءهم في الجمع والأعياد وغير ذلك، ونسأل الله الحق الذي لنا.

وهذا الذي دلَّ عليه هذا الحديث وما أقره المؤلف رحمه الله هو مذهب أهل السنة والجماعة، مذهب السلف الصالح؛ السمع والطاعة للأمراء وعدم عصيانهم فيما تجب طاعتهم فيه، وعدم إثارة الضغائن عليهم، وعدم إثارة الأحقاد عليهم، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة.

حتى أن الإمام أحمد رحمه الله يضربه السلطان، يضربه ويجره بالبغال، يُضرب بالسياط حتى يغمى عليه في الأسواق، وهو إمام أهل السنة رحمه الله ورضي عنه، ومع ذلك يدعو للسلطان ويسميه أمير المؤمين، حتى إنهم منعوه ذات يوم، قالوا له لا تحدث الناس، فسمع وأطاع ولم يحدث الناس جهرًا، بدأ يخرج يمينًا وشمالاً ثم يأتيه أصحابه يحدثهم بالحديث.

كل هذا من أجل ألا ينابذ السلطان؛ لأنه سبق لنا أنهم قالوا: يا رسول الله أفلا ننابذهم؟ لما قال: «خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم» قالوا: أفلا ننابذهم. قال: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة». مرتين(١) فما داموا يصلون فإننا لا ننابذهم، بل نسمع ونطيع ونقوم بالحق الذي علينا وهم عليهم ما حُمّلوا.

وفي آخر الأحاديث قال النبي ﷺ: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر» ليصبر وليتحمل ولا ينابذه ولا يتكلم «فإن من خرج عن الجماعة مات ميتة جاهلية» يعني ليس ميتة الإسلام والعياذ بالله.

وهذا يحتمل معنيين:

الأول: يحتمل أنه يموت ميتة جاهلية بمعنى أنه يزاغ قلبه والعياذ بالله، حتى تكون هذه المعصية سببًا لردته.

---

(١) تقدم تخريجه.

الثاني: ويحتمل المعنى الآخر أنه يموت ميتة جاهلية؛ لأن أهل الجاهلية ليس لهم إمام وليس لهم أمير؛ بل لهم رؤساء وزعماء لكن ليس لهم ولاية كولاية الإسلام، فيكون هذا مات ميتة جاهلية.

والحاصل أن الواجب أن نسمع ونطيع لولاة الأمر إلا في حال واحدة فإننا لا نطيعهم؛ إذا أمرونا بمعصية الخالق فإننا لا نطيعهم. لو قالوا: احلقوا لِحَاكم قلنا: لا سمع ولا طاعة، لو قالوا: نزلوا ثيابكم أو سراويلكم إلى أسفل الكعبين، قلنا: لا سمع ولا طاعة؛ لأن هذه معصية. لو قالوا: لا تقيموا الصلاة جماعة، قلنا: لا سمع ولا طاعة. لو قالوا: لا تصوموا رمضان، قلنا: لا سمع ولا طاعة، كل معصية لا نطيعهم فيها مهما كان. أما إذا أمروا بشيء ليس معصية وجب علينا أن نطيع.

ثانيًا: لا يجوز لنا أن ننابذ ولاة الأمور.

ثالثًا: لا يجوز لنا أن نتكلم بين العامة فيما يثير الضغائن على ولاة الأمور، وفيما يسبب البغضاء لهم؛ لأن في هذا مفسدة كبيرة. قد يتراءى للإنسان أن هذه غيرة، وأن هذا صدع بالحق؛ والصدع بالحق لا يكون من وراء حجاب، الصدع بالحق أن يكون ولي الأمر أمامك وتقول له: أنت فعلت كذا وهذا لا يجوز، تركت هذا، وهذا واجب.

أما أن تتحدث من وراء حجاب في سب ولي الأمر والتشهير به، فهذا ليس من الصدع بالحق؛ بل هذا من الفساد، هذا مما يوجب إيغار الصدور وكراهة ولاة الأمور والتمرد عليهم، وربما يفضي إلى ما هو أكبر إلى الخروج عليهم ونبذ بيعتهم والعياذ بالله.

وكل هذه أمور يجب أن نتفطن لها، ويجب أن نسير فيها على ما سار عليه أهل السنة والجماعة، ومن أراد أن يعرف ذلك فليقرأ كتب السنة المؤلفة في هذا؛ يجد كيف يعظم أئمة أهل العلم من هذه الأمة، كيف يعظمون ولاة الأمور، وكيف يقومون بما أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام من ترك المنابذة، ومن السمع والطاعة في غير المعصية.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في آخر كتاب العقيدة الواسطية ـ وهي عقيدة مختصرة ولكن حجمها كبير جدًّا في المعنى ـ ذكر أن من هدي أهل السنة والجماعة وطريقتهم، أنهم يدينون بالولاء لولاة الأمور، وأنهم يرون إقامة الحج والجهاد والأعياد والجمع مع الأمراء، أبرارًا كانوا أو فجارًا، حتى لو كان ولي الأمر فاجرًا فإن أهل السنة والجماعة يرون إقامة الجهاد معه وإقامة الحج وإقامة الجمع وإقامة الأعياد.

إلا إذا رأينا كفرًا بواحًا صريحًا عندنا فيه من الله برهانٌ والعياذ بالله، فهنا يجب علينا ما استطعنا أن نزيل هذا الحاكم، وأن نستبدله بخير منه، أما مجرد المعاصي والاستئثار وغيرها؛ فإن أهل السنة والجماعة يرون أن ولي الأمر له الولاية حتى مع هذه الأمور كلها، وأن له السمع والطاعة، وأنه لا تجوز منابذته ولا إيغار الصدور عليه، ولا غير ذلك مما يكون فساده أعظم وأعظم.

والشر ليس يُدفع بالشر؛ ادفع الشر بالخير، أما أن تدفع الشر بشر، فإن كان مثله فلا فائدة، وإن كان أشر منه كما هو الغالب في مثل هذه

الأمور، فإن ذلك مفسدة كبيرة. نسأل الله أن يهدي ولاة أمورنا وأن يهدي رعيتنا لما يلزمها، وأن يوفق كلاًّ منهم للقيام بما يجب عليه.

* * *

٩/ ٦٧١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي» متفقٌ عليه[١].

١١/ ٦٧٣ - وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَهَانَ السُّلطَانَ أَهَانَهُ اللهُ» رواه الترمذي[٢]. وقال: حديثٌ حسنٌ.

وفي الباب أحاديث كثيرة في الصحيح، وقد سبق بعضها في أبواب.

الشرح

هذان الحديثان بقية باب وجوب طاعة ولاة الأمور في غير معصية الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني»

ففي هذا الحديث بيَّن النبي ﷺ أن طاعته من طاعة الله. قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] والنبي عليه الصلاة

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، رقم(٧١٣٧)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم(١٨٣٥).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلفاء، رقم(٢٢٢٤)، وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ.

والسلام لا يأمر إلا بالوحي؛ إلا بالشرع الذي شرعه الله تعالى له ولأمته، فإذا أمر بشيء؛ فهو شرع الله سبحانه وتعالى، فمن أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله.

الأمير إذا أطاعه الإنسان فقد أطاع الرسول؛ لأن النبي ﷺ أمر في أكثر من حديث، أمر بطاعة ولي الأمر، وقال: «**اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك**»(١) وقال: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**»(٢) وقال: «**على المسلم السمع والطاعة في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه**»(٣).

والأحاديث في هذا كثيرة، فقد أمر بطاعة ولي الأمر، فإذا أطعت ولي الأمر فقد أطعت الرسول عليه الصلاة والسلام، وإذا أطعت الرسول فقد أطعت الله.

وهذا الحديث وما سبقه وما لم يذكره المؤلف كلها تدل على وجوب طاعة ولاة الأمور إلا في معصية الله، لما في طاعتهم من الخير والأمن والاستقرار وعدم الفوضى وعدم اتباع الهوى.

أما إذا عُصي ولاة الأمور في أمر تلزم طاعتهم فيه؛ فإنه تحصل الفوضى، ويحصل إعجاب كل ذي رأي برأيه، ويزول الأمن، وتفسد

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، رقم(١٨٤٧) [٥٢].
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.

الأمور، وتكثر الفتن، فلهذا يجب علينا نحن أن نسمع ونطيع لولاة أمورنا إلا إذا أمرونا بمعصية؛ فإذا أمرونا بمعصية الله فربنا وربهم الله له الحكم، ولا نطيعهم فيها؛ بل نقول لهم: أنتم يجب عليكم أن تتجنبوا معصية الله، فكيف تأمروننا بها؟ فلا نسمع لكم ولا نطيع.

وقد سبق لنا أن قلنا: إن ما أمر به ولاة الأمور ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يكون الله قد أمر به، مثل أن يأمرونا بإقامة الجماعة في المساجد، وأن يأمرونا بفعل الخير وترك المنكر، وما أشبه ذلك، فهذا واجب من وجهين: أولاً: أنه واجب أصلاً. الثاني: أنه أمر به ولاة الأمور.

القسم الثاني: أن يأمرونا بمعصية الله، فهذا لا يجوز لنا طاعتهم فيها مهما كان، مثل أن يقولوا: لا تصلوا جماعة، احلقوا لِحَاكم، أنزلوا ثيابكم إلى أسفل، اظلموا المسلمين بأخذ المال أو الضرب أو ما أشبه ذلك، فهذا أمرٌ لا يطاع ولا يحل لنا طاعتهم فيه، لكن علينا أن نناصحهم وأن نقول: اتقوا الله، هذا أمر لا يجوز، لا يحل لكم أن تأمروا عباد الله بمعصية الله.

القسم الثالث: أن يأمرونا بأمر ليس فيه أمر من الله ورسوله بذاته، وليس فيه نهي بذاته، فيجب علينا طاعتهم فيه؛ كالأنظمة التي يستنونها وهي لا تخالف الشرع، فإن الواجب علينا طاعتهم فيهما واتباع هذه الأنظمة وهذا التقسيم، فإذا فعل الناس ذلك؛ فإنهم سيجدون الأمن والاستقرار والراحة والطمأنينة، ويحبون ولاة أمورهم، ويحبهم ولاة

أمورهم.

ثم ذكر المؤلف آخر حديث في هذا الباب؛ حديث أبي بكرة أن الرسول ﷺ قال: «من أهان السلطان أهانه الله» وإهانة السلطان لها عدة صورة:

منها: أن يسخر بأوامر السلطان، فإذا أمر بشيء قال: انظروا ماذا يقول؟

ومنها: إذا فعل السلطان شيئًا لا يراه هذا الإنسان. قال: انظروا، انظروا ماذا يفعل؟ يريد أن يهون أمر السلطان على الناس؛ لأنه إذا هون أمر السلطان على الناس استهانوا به، ولم يمتثلوا أمره، ولم يجتنبوا نهيه.

ولهذا فإن الذي يهين السلطان بنشر معايبه بين الناس وذمه والتشنيع عليه والتشهير به يكون عرضة لأن يهينه الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه إذا أهان السلطان بمثل هذه الأمور؛ تمرد الناس عليه فعصوه، وحينئذٍ يكون هذا سبب شر فيهينه الله عزَّ وجلَّ.

فإن أهانه في الدنيا فقد أدرك عقوبته، وإن لم يهنه في الدنيا فإنه يستحق أن يهان في الآخرة والعياذ بالله؛ لأن كلام الرسول ﷺ حق: «من أهان السلطان أهانه الله»، ومن أعان السلطان أعانه الله؛ لأنه أعان على خير وعلى بر، فإذا بينت للناس ما يجب عليهم للسلطان وأعنتهم على طاعته في غير معصية فهذا خيرٌ كثيرٌ، بشرط أن يكون إعانة على البر والتقوى وعلى الخير، نسأل الله لنا ولكم الحماية عما يغضب وجها، والتوفيق لما يحبه ويرضاه.

* * *

انتهى المجلّد الثالث بحمد الله وتوفيقه
ويليه المجلّد الرّابع إن شاء الله تعالى
وأوّله : باب النّهي عن سؤال الإمارة .

فهرس الأحاديث والآثار الواردة في الكتاب

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة